منشورات جامعة حلب

معهد التراث العلمي العربي



أبحاث المؤتمر السنوي الثامن

المنعقد في جامعة حلب
٢٥ ـ ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٤



اعداد
محمد عزت عمر

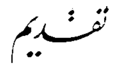
اشراف
الدكتور خالد ماغوط
مدير معهد التراث العلمي العربي


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



ابن أبي أصيبعة


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين



معهـد التـراث في مؤتمـره الثـامن

مما لا ريب فيه أن تقـدم الشعوب يقاس بما تنجزه في مجالات العلم والمعرفة وبما تسهم به في رفـد الحضارة الانسانية ، ومحاولة تطويرها الى الافضـل .

ولقد أخذت جامعـة حلب ومعهد التراث العلمي العربي على عاتقهما القيام ببعض هذه المهام حين احتضن معهد التراث الجمعية السورية لتاريخ العلوم وجعل مقرها في رحابه وتولى المعهد والجمعية اقامة مؤتمر علمي سنوي في تاريخ العلوم العربية غايته ابراز الدور الكبير الذي قام به العرب عبر القرون في مجالات العلم والتكنولوجيا ، وتسليط الاضواء على مساهماتهم غير المحدودة في سبيل تقدم البشرية وتطور حضارتها ، ويكشف بالبرهان القاطع والدليل البين فضل العرب على العـالم بما قدموا للنـاس من كنوز ثقافتهم وخلاصة تفكيرهم وخبرتهم وعظيم ابداعهم ما جعلهم نبراسا يهتدي به من ضل السبيل ، وبقيت علومهم تدرس في البلدان الاوربية حتى القرن الثامن عشر .

وما التراث العلمي العربي الذي حفلت به أمهات الكتب والمخطوطات في متاحف الدنيا ومكتباتها الا حجة دامغة تدحض مزاعم المغرضين وتسكت أفواه المتشدقين وادعاءات المفترين وصوت جلي لمن ألقى السمع وهو شهيد .

وجامعة حلب اليوم تزهو بعرسها السنوي الكبير (وتحتفل بمرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب ومؤرخ الطب العربي ابن أبي أصيبعة خلال المؤتمر الثامن لتاريخ العلوم عند العرب) .

وقمين بنا أن نتساءل : كيف كانت عليه شعوب أوربا المتباهية بحضارتها قبل ثمانية قرون ، حين أخذ طبيبنا ومؤرخنا ابن ابي أصيبعة يؤلف في الطب والاطباء قبله ، كتابه (عيون الانباء في طبقات الاطباء) ؟

والاجابة الحقيقية في التاريخ جلية واضحة لا مراء فيها .

ان مؤرخنا في الطب واحد فقط من آلاف مؤلفة من علمائنا الافـذاذ وعباقرتنا الخالدين الذين أناروا دياجير الظلام وهيأوا سبل المعرفة لمن يطلبها ٠

ان اقامة مثل هذه المؤتمرات ضرورة ملحة وواجب قومي تدعو اليـه مجابهتنا لاعدائنا وصمودنا أمـــام تحدياتهم ، ومواجهتنا لتزييفهم حقائق التـــاريخ ٠

ومعهد التراث وحده لا يستطيع النهوض بهذه المسئولية لولا الـدعم الكبير الذي يتلقاه من جامعة حلب ، والرعاية الكريمة من رئيسها وجامعة حلب وحدها لا يمكنها تحمل تلك الاعباء الجسام المنوطة بها لولا الـدعم المتواصل الذي تتلقـــاه من الـدولة والحزب القائـــد ومن السيد الرئيس حافظ الاسد راعي العلم والعلماء ٠

فهنيئا لمعهد التراث بمؤتمره السنوي وهنيئا لجامعة حلب بعرسها الكبير وهنيئا لقطرنا الصامد بمساهمته في تطوير الحضارة الانسانية ٠

مدير معهد التراث العلمي العربي

الدكتور خالد ماغوط

معلومات عامة عن المؤتمر
السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب

عقد في جامعة حلب تحت رعاية السيد الدكتور عبد الرؤوف الكسم رئيس مجلس الوزراء المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب خلال يومي ٢٥ ـ ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٤ وقد مثل السيد الدكتور زياد شويكي وزير التعليم العالي السيد رئيس مجلس الوزراء في حفل الافتتاح ·

وكان الهدف من عقد المؤتمر هو الاحتفال بمرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب ومؤرخ الطب العربي ابن أبي أصيبعة ، وذلك بتقديم أبحاث أصيلة في موضوعات تاريخ العلوم الطبية والتكنولوجيا عند العرب تمشيا مع أهداف معهد التراث العلمي العربي في التعريف بالمساهمة التي قدمها العرب للحضارة الانسانية في مختلف فروع العلم وبأهمية هذه المساهمة ·

لجان المؤتمر

١ ـ لجنة الاشراف العام :

الاستاذ علاء الدين زيتون	أمين فرع جامعة حلب لحزب البعث العربي الاشتراكي
الاستاذ الدكتور محمد علي حورية	رئيس جامعة حلب
الاستاذ الدكتور خالد ماغوط	مدير معهد التراث العلمي العربي رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم

٢ ـ رئيس المؤتمر

الدكتور محمد علي حورية	رئيس جامعة حلب

٣ ـ اللجنة العلمية :

الدكتور خالد ماغوط	مدير معهد التراث العلمي العربي رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور عبد الكريم شحادة	رئيس قسم تاريخ العلوم الطبية
الدكتور محمود فيصل الرفاعي	رئيس قسم تاريخ العلوم التطبيقية
الدكتور سامي شلهوب	رئيس قسم تاريخ العلوم الاساسية
الاستاذ محمد الامام	أمين جامعة حلب
الدكتور طه اسحق الكيالي	الاستاذ المحاضر في معهد التراث
الدكتور محمد زهير البابا	الاستاذ المحاضر في معهد التراث
الدكتور محمد نذير سنكري	الاستاذ المحاضر في معهد التراث
الدكتور فخر الدين قباوة	الاستاذ المحاضر في معهد التراث

٤ ـ اللجنة التحضيرية والتنظيمية

الدكتور خالد ماغوط	مدير معهد التراث العلمي العربي رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد الامام	أمين جامعة حلب
السيد عبد الحميد السماني	رئيس دائرة معهد التراث
السيد محمد وجيه هبراوي	مدير مكتب مجلس جامعة حلب
الآنسة أمل رفاعي	مديرة المكتب الخاص
السيدة حياة تادفي	مديرة العلاقات الثقافية
السيد محمد سمير قمند	رئيس ديوان معهد التراث

كما شكلت لجان أخرى من أسرة جامعة حلب أنيطت بها المهام الادارية تحقيقا لبرنامج المؤتمر ٠

بلغ عدد الباحثين المشاركين في المؤتمر / ١٩ / باحثا من القطر العربي السوري ومن الاقطار العربية الاخرى ٠

ورافق انعقاد المؤتمر تنظيم عدد من المعارض اقيمت في قاعات معهد التراث العلمي العربي والمكتبة المركزية :

- معرض الخط الكوفي للفنان **محمد كامل فارس** المكتبة المركزية
- معرض الصور الفوتو غرافية الاثرية للدكتور **احسان شيط** المكتبة المركزية
- معرض رسوم عن فن العمارة في حلب للفنانة السيدة **مونيك فيرتيو** «
- معرض تراثي تشكيلي للفنان **عبد الرحمن حوري** «
- معرض شخصيات عربية مختلفة للفنان الدكتور **منير الرفاعي** «
- معرض الكتب العلمية والتراثية والترجمة لدور النشر والمكتبات «
- معرض آلات رفع الماء معهد التراث
- معرض المخطوطات العربية «
- معرض المنتجات الحرفية التقليدية «
- معرض صور « لقى جديدة من كتاب الكحالة » «
  من الدكتور نشأت حمارنة

المشاركون في المؤتمر

الدكتور عبد الرحمن ابريق	جامعة حلب
الدكتور محمد ألتونجي	كلية الآداب بجامعة حلب
الاستاذ محمد امام	جامعة حلب
الاستاذ جورج انطاكي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور محمد زهير البابا	كلية الصيدلة بجامعة دمشق
الدكتور حنا بشور	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
السيدة حياة تادفي	جامعة حلب
الدكتور عارف تامر	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
السيدة رياض الجابري	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ فريد جحا	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد عادل جواد	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ عبد الله حجار	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور مصطفى حداد	المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
الاستاذ محمود حريتاني	مدير الآثار والمتاحف بحلب
الاستاذ حمصي الحمادة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور عبد الرزاق حمامي	كلية الطب بجامعة حلب
الاستاذ محمدعبدالحميدحمد	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد فؤاد حوري	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور محمد علي حورية	جامعة حلب
الاستاذة صبيحة حيصو	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور أحمد ماهر خراط	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد يحيى خراط	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذة درية الخطيب	معهد التراث العلمي العربي

الاستاذ محمد أسعد خياطة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد علي خياطة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد غياث خياطة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور فايز الداية	كلية الآداب بجامعة حلب
الدكتور محمد خلدون درمش	كلية الزراعة بجامعة حلب
الدكتور مصطفى دواليبي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذة نهلة دويدري	كلية الآداب بجامعة حلب
الآنسة بسمة دياب	معهد التراث العلمي العربي
الاستاذ محمد الراشد	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الآنسة أمل رفاعي	جامعة حلب
الاستاذ محمد علي الزركان	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذة شفاء الزعيم	كلية الزراعة بجامعة حلب
الاستاذ علاء الدين زيتون	جامعة حلب
الاستاذ زياد سكر	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ عبد الحميد سمان	معهد التراث العلمي العربي
الدكتور محمد نذير سنكري	كلية الزراعة بجامعة حلب
الاستاذ أسعد سواس	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور محمد السويسي	الجامعة التونسية ـ تونس
الاستاذة شاديا شاغوري	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذة غالية شاغوري	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور عبد الكريم شحادة	كلية الطب بجامعة حلب
الاستاذ كمال شحادة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذة هالة شحادة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور حسام الشعار	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ عبد السلام شعبان	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ وليد شعباني	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور شوقي شعث	مديرية الآثار والمتاحف بحلب
الآنسة دلال شعيب	الجمعية السورية لتاريخ العلوم

الدكتور سامي شلهوب	معهد التراث العلمي العربي
الاستاذ ابراهيم أدهم الشهيد	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ صلاح الدين شوشان	جامعة حلب
الدكتور احمد مضر صقال	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور عبد السلام العجيلي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتورة ليلى عقاد	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد فؤاد عنتابي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ عبد السلام عيروض	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور صلاح محمود غانم	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور مؤنس محمود غانم	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد كامل فارس	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الآنسة ابتسام فاني	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد عصام فاني	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور موفق فنصة	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الآنسة ناديا قازان	كلية الآداب بجامعة حلب
الاستاذ محمد سمير قمند	معهد التراث العلمي العربي
الدكتور محمد بشير الكاتب	كلية الطب بجامعة حلب
الدكتور محمد وليد كامل	كلية الزراعة بجامعة حلب
الاستاذ محمد شحادة كرزون	مديرية التربية بحلب
الاستاذ سعد زغلول كواكبي	رئيس جمعية العاديات
الدكتور طه اسحق الكيالي	كلية الطب بجامعة حلب
الدكتور خالد ماغوط	معهد التراث العلمي العربي
الاستاذة سليمى محجوب	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الآنسة صفاء مسلاتي	معهد التراث العلمي العربي
الاستاذ محمد بهجت مسلاتي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور شاكر مطلق	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ زياد ناولو	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الدكتور ابراهيم نحال	جامعة حلب

الدكتور محمودناظم النسيمي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ عبد الهــادي نصري	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ محمد بسام النعسان	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ رشـــيد نيشـــلي	الجمعية السورية لتاريخ العلوم
الاستاذ وجيـــه هبـــراوي	جامعـــة حلب


كلمات حفل الافتتاح

كلمة ممثل السيد رئيس مجلس الوزراء

الدكتور زياد شويكي
وزير التعليم العالي

السادة العلماء الافاضل

أيها الحفل الكريم ،

يسعدني أن أنوب عن السيد رئيس مجلس الوزراء في افتتاح أعمال مؤتمركم هذا ، وهو المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب ، كما يسعدني أن أشارككم احتفالكم بمرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب والمؤرخ العربي ابن أبي اصيبعة ۰

ان السنة الحميدة التي درج عليها معهد التراث العلمي العربي منذ تأسيسه عام ١٩٧٦ في عقد ندوات ومؤتمرات عالمية لتاريخ العلوم عند العرب لهي البرهان الساطع على حرص هذا القطر على ابراز الدور البناء الذي كان للأمة العربية في أدوار تاريخها الزاهر في دفع عجلة التطور العلمي للانسانية ، وفي التعريف بما قدمه علماء هذه الأمة في مختلف مجالات العلم بلغة عربية صافية صفاء الذهن العربي الخلاق ليعلوا صرح حضارة ورثوا بعضها وخلقوا بعضها الآخر ، فكانوا بذلك روّاداً أصلاء بقدر ما كانوا شرفاء في حمل أمانة من تلاهم من أمم بنت على ما أسسوا وأضافت الى ما مهدوا ليهنأ جيلنا بعيش رغيد يتمثل في حضارة علمية رائعة نتفيؤ ظلالها اليوم ونشم من خلالها عبق العطاء العربي الذي يبدو جليا في كل ميدان من ميادين النهضة العلمية المعاصرة ۰

انها الفرحة تغمر القلب ، والسعادة تفيض بها الجوانح ، أن نلتقي في حلب الشهباء التي تبسط لكم الأذرع لتضمكم الى قلب خفاق بحب العرب والعربية ، فقد أثلج صدرها أن يشد الرحال اليها هذه النخبة الخيرة من علماء العرب والعالم ليتدارسوا ويتذاكروا عطاء الأجداد في مجالات : تاريخ العلوم الأساسية ، وتاريخ الفلك والتنجيم ، وتاريخ الطب والطب البيطري والصيدلة والعلوم الطبيعية ، وتاريخ التكنولوجيا والصناعات العربية ، هذا فضلا عن الاحتفال بذكرى مرور ثمانية قرون على ميلاد الطبيب والمؤرخ العربي أحمد موفق الدين بن أبي أصيبعة ۰

ولست أعدو الحقيقة حين أقول ان تراث الأمة هو أشبه ما يكون بجذور الشجرة الضاربة في أعماق الأرض ، فلا الشجرة موجودة بدون جذورها ،

ولا أهمية للجذور اذا ما فصلت عن الشجرة ، فهذه تعطي الحياة لتلك ، وتلك لا تعيش الا بمقدار ماتعطيها جذورها من نسغ الحياة لتنمو وتزهر وتعطي افضل الثمار • ودراستنا لتراثنا ليست ضربا من عبادة الاجداد ولا تشبثا بماض يعيش فينا او نعيش فيه ، ولكنه اصرار على البحث عن الهوية والذات لاستخلاص عناصر الأصالة التي هي المدخل الى التجدد والمعاصرة من خلال هوية واضحة المعالم لا زيف فيها ولا بهتان ، يتواصل فيها الماضي بالحاضر ليكونا المدماك الصلب الذي بنى عليه المستقبل ، انها جدلية البقاء من خلال رؤية واضحة لتعاقب الاجيال واتصال حضارتها • وطبيعي أن كل ذلك لا يتأتى الا بدراسة متأنية ومنهج موضوعي ، لا مكان فيه للارتجال أو الاسلوب الخطابي والانفعال العاطفي والمبالغات السطحية • وقديما قال المفكر الكبير غوته : ان العلم هو تاريخ العلم ، ولا شك أنه بغير هذا التاريخ تكون المعلومات الحديثة فوضى قلقة لا جذور لها •

أيها السادة العلماء ، أيها الحفل الكريم ،

سمعت بعضهم يعجب لاهتمامنا بتاريخ العلم عند أمتنا العربيـــة • ومقولتهم في ذلك مبنية على تساؤل قد يبدو صحيحا للوهلة الاولى ، وهذا التساؤل هو : أليس العلم مجموعة حقائق ثبتت بالبرهان القاطع ؟ أليس أحدث هذه الحقائق هو أصدقها وأقربها الى الدقة ؟ واذا كان الامر كذلك فلماذا نهتم بماضي العلم ؟ ان كان مخالفا لحاضره فهو خطأ ، وان كان مطابقا له ، فما أغنانا عنه ؟ ولست أشك في أنكم جميعا تهزؤون لسطحية هذه النظرة ، وبعدها البعد كله عن طبيعة العلم • فأنا لا أعرف أحدا من كبار العلماء والباحثين يجهل ما كان عليه رأي سابقيه في موضوع بحثه ، وكيف تطورت الآراء فيه حتى بلغت ما هي عليه • كما أني لست الوحيد الذي يعرف أن جميع الذين يسعون الى كشف جديد لا بد لهم أن يدرسوا علاقة الماضي بالحاضر ليتعرفوا الطريق التي يجب أن يسلكوها كي يخرجوا مـــن ظلام الحاضر الى نور المستقبل وحتى يغدو معلوما ما كان مجهولا •

واسمحوا لي كطبيب أن أبهج وأسعد لاختصاصكم الطبيب العربي ومؤرخ الطب العربي ، العالم الجليل ابن أبي اصيبعة ، بجزء من اهتمامات ندوتكم ، ففي حياة هذا الرجل وفي منجزاته ، ما يستحق كل اجلال وتقدير ، ويكفيه شرفا مؤلفه الجليل : طبقات الأطباء ، الذي يعتبر بحق السفر الأول والأهم في تاريخ الطب العربي • ولست أريد أن أطيل ، اذ أنه سيكون دونما شك موضع عنايتكم ، وسأتطلع بشوق الى بحوثكم حوله لأزداد وسوايي معرفة بهذا العالم البارز من أعلام تاريخنا العلمي المجيد •

أيها السادة العلماء :

أيها الحفل الكريم :

ان سورية الثورة ، وهي تخوض معركة مزدوجة : معركة البناء والاعمار، ومعركة الكفاح والتحرير لتقدر عاليا الدور الكبير الذي يضطلع به العلماء والباحثون في عملية البناء والازدهار ، وهي لهذا لا تبخل بعطاء لتهيئة السبل التي تمكن من قيام النهضة العلمية وبناء الانسان العربي المبدع المنتج • الذي تعتبره ثورتنا أثمن رأسمال وأقدس عنصر في نهضة المجتمع ونمائه وتقدمه • وقد حظي التعليم العالي بمؤسساته التعليمية والبحثية على الدوام بعطـــاء غير محدود من سيادة الرئيس حافظ الأسد ، الذي كان وسيظل القائد الفذ الذي نهتدي بسديد رأيه ونتعم بوارف ظلاله وقد علمنا قائدنا أن أمـــة لا تحمل الكتاب بيد والبندقية بيد أمة لن تكتب لها الحياة وهي تخوض معركتها مع عدوها الشرس ، هذه المعركة التي نعرف أنها تحمل تحديا حضاريا لا يقل خطورة عن التحدي العسكري • وقد صمم القائد الفذ أن يقود أمته في معارج التقدم الحضاري بنفس الوتيرة التي يتصدى بها لخصومها في ميادين السياسة والحرب • ونحن الذين أكرمنا الله بأن نكون الجيل الذي رعاه القائد الأسد ، لا بد لنا أن نكون عند مستوى المسؤولية وأن نرد التحدي الحضاري بنفس التصميم والعزم الذي نرد به التحدي السياسي والعسكري •

وان وزارة التعليم العالي تعي وعيا كاملا الدور الذي ألقته الثورة وقائدها على كاهلها ، وهي لا تبخل بجهد ولا تقصر في عطاء حتى تكون عــلى مستوى المسؤولية ، وحتى تهيء للأجيال غذاء فكريا صافيا يوصل حاضر هذه الامة بما انقطع من أمجاد ماضيها فتعود لتتبوأ مكانها اللائق في المجموعة الانسانية المعطاءة •

الســادة العلمـــاء :

بمثل الشوق الذي تطلعنا به الى ندوتكم ، تراودنا الآمال العذاب بــأن ما ستنجزون سيكون سفراً هاماً في تاريخ العلوم عند العرب ، ننهل من معينه ، ونستمد منه ، ونعول عليه ، فلتكن اقامتكم في هذا البلد العربي المضياف اقامة هانئة طيبة ، وليكن مؤتمركم هذا على قدر الآمال المعقودة عليه ، وليكن قطافه خيراً وعلماً وعملا في سبيل الغد الافضل لأمتنا العربية الماجدة والانسانيـــة جمعاء •

واسمحوا لي في ختام كلمتي ، هذه أن أرفع باسمكم واسمي ، أجمل آيات العرفان والحمد للرئيس المناضل حافظ الأسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية لرعايته العلم والعلماء على الدوام • كما أتوجه بالشكر والتقدير للسيد رئيس مجلس الوزراء الدكتور عبد الرؤوف الكسم راعي المؤتمر ، وأكرر تمنياتي لكم بالتوفيق في أعمال مؤتمركم وطيب الاقامة في هذا البلد وفي رحاب جامعتها •

كلمة رئيس جامعة حلب
الدكتور محمد علي حــورية

الاستاذ الدكتور زياد شويكي

وزير التعليم العالي ممثل راعي الاحتفال رئيس مجلس الوزراء
الرفاق أمناء فروع الحزب والمحافظون
السادة المشاركون

أيها الرفاق ٠٠٠ أيها السيدات والسادة والضيوف

يسعدنا ويسرنا جدا أن نحتفل معكم بافتتاح المؤتمر السنوي الثامن لتاريخ العلوم عند العرب ـ وعلى الأخص وان انعقاد هذا المؤتمر أتي في ظل احتفالات القطر بالذكرى السابعة والثلاثين لتأسيس حزب البعث العربي الاشتراكي والذكرى (٣٨) لعيد الجلاء القومي ، وفي ظل اقتراب حلول السلام في القطر اللبناني الشقيق نتيجة لاجتماعات قمة دمشق التاريخية بين الرئيسين أسد ـ جميّل ولجهودهما العظيمة في انقاذ لبنان الشقيق من محنته وبعد أن كنا نجتمع في المؤتمرات السابقة في جو محزن محموم نتيجة الحرب الأهلية في ذلك القطر الشقيق ٠

أيها الرفاق ٠٠٠ أيها السيدات والسادة :

ان هذا المؤتمر يعقد سنويا في حلب للباحثين القطريين في مجال تاريخ العلوم عند العرب ، وتعقد في نفس المجال ندوة دولية كل أربع سنوات ٠

فقد عقدت الندوة الأولى والثانية في حلب الا أننا ارتأينا أن يأخذ المعهد اتجاهه القومي والدولي في مجال تحريض الاهتمام واطلاع الرأي العام المحلي والعربي والدولي على ما قدمه العرب والمسلمون في مجال الحضارة العالمية لذلك عقدت الندوة العالمية الثالثة في الكويت مؤخراً وبضيافة حكومتها ، وستعقد الندوة العالمية الرابعة في عام (١٩٨٧) واحتمال مكان انعقادها هو في معهد تاريخ العلوم العربية والاسلامية في جامعة فرانكفورت في ألمانيا الغربية حيث أدرج الموضوع في جدول أعمال مجلس أمناء ذلك المعهد ٠ الذي سينعقد خلال الشهر القادم وبذلك تتم خطوة كبيرة في تحقيق هدف كبير من أهداف المعهد والجامعة في الانتقال للمجال الدولي ٠

أيها السيدات والسادة :

ان دراسة تاريخ العلوم هي السبيل الذي نستطيع بواسطته تحليل الحضارة وفهمها وفهم الانسان وتطور حضارته وهي الوسيلة التي تمكننا من ادراك المعنى الأعمق لمختلف فروع المعرفة العربية والانسانية المعاصرة وتجنب الكثير من الاغلاط والتجارب التي قد توفر الكثير من الجهد والمال في التنمية . وبالرغم من ترابط الاهتمام بتاريخ العلوم منذ منتصف القرن الماضي وتسابق الجامعات في العالم الى انشاء معاهد ومراكز للأبحاث في هذا المضمار فـــان الاهتمام بدراسة تاريخ العلوم العربية والاسلامية والشرق أوسطية كان قليلا ، ولكن الجامعات في مختلف أنحاء العالم أصبحت تدرك منذ بداية هذا القـــرن أهمية الدور الذي لعبه العلماء العرب والمسلمون في تطوير العلوم والوصل بين العلوم القديمة والمعاصرة مما دفعها للتعمق في دراسة منجزات العـــرب والمسلمين في مختلف الميادين .

وقد كانت جامعة حلب سباقة في هذا المجال بين شقيقاتها الجامعات العربية في حمل هذا اللواء عندما أصدر الرفيق المناضل حافظ الأسد رئيس الجمهورية مرسوما في عام ١٩٧٦ يتضمن احداث معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب ومنذ ذلك الوقت والمعهد يخطو ضمن الجامعة خطوات كبيرة وأصبح معهداً معتمدا ومدعما من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وذو شهرة عربية ودولية .

أيها الرفاق .. أيها السيدات والسادة :

ان جامعة حلب لا تهتم بتاريخ العلم فحسب وانما تشارك مع شقيقاتها الجامعات الأخرى في القطر في حمل حربة العلم والتكنولوجيا وقد خطت خطوات كبيرة في مختلف مجالات العلم والتكنولوجيا والصحة وفي العلاقات المحليـــة والعربية والدولية منها ضمن اتحاد الجامعات العربية والاتحـــاد الدولي للجامعات ، واتحاد جامعات البحر الأبيض المتوسط ومركز الدراسات والبحوث العلمية وهي على علاقة متينة مع اليونسكو ومع المنظمة العربية للتربيـــة والثقافة والعلوم ومع اليونيدو والايكاردا واكساد ومع المركز الدولي للفيزياء النووية في تريستا ، ومع جميع جامعات ألمانيا الديمقراطية عن طريق اتفاقيتنا مع جامعة كارل ماركس شتات . وهي حاليا بصدد توقيع اتفاق مع جامعـــة براونتيفايغ في ألمانيا الاتحادية وجامعة ليون في فرنسا ، وسيراجنيـــو في يوغسلافيا وان الاتصالات الجارية لاقامة اتفاقيات مع جامعات لينينغراد في الاتحاد السوفيتي وجامعة نيويورك وكاليفورنيا (بركلي) في الولايـــات المتحـــدة .

أما في المجال القومي فان جامعة حلب تدرس وتثقف مجانا عددا كبيرا من الطلبة العرب (٣٢٠٠ طالب وطالبة) وأضافت للمكتبة العربية (١٢٥٠ كتابا ومرجعا) منها ٨٢٢ كتابا انجزت خلال العامين المنصرمين) ، كما تعير الجامعة للجامعات العربية الشقيقة والمنظمات العربية والدولية عددا كبيرا من أعضاء هيئة التدريس ، أما على النطاق المحلي والقطري فان جامعة حلب قد خرجت (من خلال ١٢ كلية وخمسة معاهد متوسطة) عشرات الألوف من الاختصاصيين في مختلف فروع العلم والهندسة والطب من حملة الاجـــازة والفنيين ، كما أنها أغنت المنظمة بأعلى الخبرات الفنية والمهنية والطبية وانها تضع في الخدمة مشاف بطاقة (٩٠٠) سريراً وهناك مستشفى اسعاف جراحي قيد التأسيس حاليا بطاقة (٧٥) سريراً وآخر للتوليد بطاقة (٢٥٠) سريراً ٠ وتضم الجامعة حاليا مكتبة تعتبر من أكبر مكتبات القطر (زاد عدد الدوريات فيها عن (١٠٠٠) دورية علمية بالاضافة لكونها مرتبطة بشبكة المعلومات الدولية كما أن للجامعة مطبعة حديثة ودار نشرت (نشرت ٢٠٣٨٥٣٠) نسخة حتى تاريخه) ٠

أيها الحفل الكريم ٠٠٠ أيها الباحثون :

ان جامعة حلب تهتم اهتماما كبيرا بمختلف فروع العلوم والهندسة والصحة وبالمعرفة وتتوسع وتنمو في كل اتجاه والتركيز حاليا مستمر لتعميق الدراسات العليا والبحث العلمي في مختلف الاختصاصات وسيظهر أثرها جليا في حياة هذا القطر خلال السنوات العشر القادمة ٠

أيها السيدات والسادة :

ان تطور جامعة حلب مع تطور شقيقاتها الجامعات الاخرى يأتي ضمن الانتصارات والانجازات التي يحققها القطر في جميع المجالات الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية والثقافية والدولية ٠ ذلك بالقيادة الحكيمة والشجاعة للرفيق المناضل حافظ الاسد الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي رئيس الجمهورية ـ واننا نتوجه بالشكر والمحبة والتقدير والتحية له وللقيادة السياسية وللسيد الدكتور رئيس مجلس الوزراء على تلطفه برعاية هذا المؤتمر وللسيد الدكتور زياد شويكي وزير التعليم العالي ولكم جميعـــا وللجنة التحضيرية وكل من شارك في هذا المؤتمر والسلام عليكم ورحمة الله ٠

كلمة ممثل المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم

الدكتور مصطفى حــــداد

السيد وزير التعليم العالي الاستاذ الدكتور (زياد شويكي) ممثل السيد رئيس مجلس الوزراء الاستاذ الدكتور (عبد الرؤوف الكسم) راعي الاحتفال.

أيها السيدات والسادة

يشرفني أن أنقل اليكم تحيات السيد المدير العام للمنظمة العربيــة للتربية والثقافة والعلوم الأستاذ الدكتور (محي الدين صابر) وتمنياته ابنجاح مؤتمركم الثامن ووصوله الى النتائج التي ترضون والآمال التي ترجون .

كما يسعدني أن أنقل الى معهد التراث والقائمين عليه ، بالنيابة عن أخي وزميلي الأستاذ الدكتور (أحمد الحاج سعيد) المدير المساعد للعلوم وبالأصالة عن نفسي ، أنبل المشاعر وأصدق العواطف لما يقدمه معهدكم من خدمات جلى لأبناء أمتنا .

أيها الحفل الكريم :

ان المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اذ تولي قطاع العلوم في الوطن العربي أهمية فائقة وعناية كبيرة ، **فهي تهدف الى تطوير العلم العربي** وتدريسه باللغة العربية ، اللغة القومية التي تربط بين أبناء الأمة العربية وحدة ، وثقافة ، وعقيدة .

وان المركز العربي لبحوث التعليم العالي بدمشق ، الذي أتشرف بادارته وهو الجهاز المتخصص في المنظمة بشؤون التعليم العالي في الوطن العربي يعمل جاهدا على تنفيذ قرار مؤتمر وزراء التعليم العالي العرب الذي صدر في أواخر العام الماضي والقاضي بانشاء هيئة عربية للدراسات العليا والبحث العلمي تعمل على انشاء جامعة عربية لهذا الغرض نقوم باعداد أعضاء هيئات تدريس للجامعات العربية كافة . قادرين على التدريس باللغة العربية ابتغاء الوصول الى تعريب التعليم العالي في الوطن العربي ، ونأمل أن ترى جامعة العرب هذه النور قبل نهاية عقد الثمانينات . ومن هنا كان اهتمام المنظمة بالمصطلح العلمي .

فادارة العلوم تفتح آفاقا جديدة للمصطلحات العلمية خاصة ، نقـــدا وتفنيدا ، ومكتب تنسيق التعريب يرعى المصطلحات كافة ، جمعا وتنسيقا ٠

ومعهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب متميز في مهمته تأهيـــلا وتحديثا ، فريد في نوعه في الوطن العربي ، توفرت له نخبة من الخبراء ونخبة من العلماء قل أن نجد مثلها من هواة التراث وأنصار المعاصرة ٠ ان للمعهد وهذا شأنه ، وتلك رسالته دورا كبيرا في الكشف عما في كنوز تراثنا مـــن مكنونات علمية ، ومصطلحات عربية مطابقة لكثير من المدلولات العلميـــة لأسماء الاعيان والمعاني ٠

وان احياءكم لذكرى الطبيب والمؤرخ العربي (ابن أبي أصيبعة) في مؤتمركم هذا هو الدليل الاكيد على الدور الكبير الذي تقومون به في جـلاء صفحات من تاريخنا العلمي ٠

ولا تزال المنظمة ترقب مزيدا من التعاون مع معهد التراث في حلب وتعمل على تعزيز دوره ٠

واني لأرجو الله أن يوفقنا جميعا لخدمة أمتنا العربية وأن يسدد خطانا في ظل قيادة السيد رئيس الجمهورية العربية السورية الرئيس حافظ الأسد قائد مسير العروبة المظفرة ٠

كلمة المشاركين في المؤتمر وممثل منظمة اليونسكو

سيدي معالي وزير التعليم العالي وممثل سيادة الدكتور رئيس مجلس الوزر..

سيدي رئيس جامعة حلب

سيدي رئيس المؤتمر

السادة الزملاء المشاركون

حضرات الضيوف الكرام

الدكتور محمد الديك

أحييكم بتحية ملؤها الاكبار والاجلال ويسعدني أن أحمل لكم تحيات السيد الاستاذ الدكتور محمد عبد الرزاق قدورة مساعد المدير العام لقطاع العلوم باليونسكو ، الذي يرسل أيضا امنياته القلبية لنجاح هذا المؤتمر ، واسمحوا لي أن أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان بالفضل والجميل ، للجمهورية العربية السورية ، رئيسا ، وحكومة ، وشعبا ، لاستضافة وتنظيم ورعاية هذا المؤتمر .

وهنا تجدر الاشارة الى ذلك القرار الحكيم المتسم ببعد النظر ، الذي أنشأ بناء عليه معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب هذا المعهد الفريد من نوعه في الوطن العربي الكبير الذي يهدف الى احياء تراثنا العربي ، واظهار مدى مساهمة الغرب في الحضارة الانسانية وفي مختلف فروع العلم .

لذلك أتوجه بالشكر والامتنان للسيد الاستاذ الدكتور وزير التعليم العالي في الجمهورية العربية السورية ، على عنايته الفائقة ودعمه المستمر للمعهد ، وقد انعكس ذلك في حضوره شخصيا لافتتاح المؤتمر بالرغم من مسؤولياته الجسام التي لا تخفى علينا .

وكذلك أتوجه بالشكر للسيد الدكتور رئيس جامعة حلب ووكيله وأمين الجامعة وجميع السادة الزملاء والاساتذة العاملين في المعهد ، على هذا المجهود الرائع المستمر الذي يبذل من أجل الارتقاء بمعهدهم ، الى مستوى عالمي مشرف ، والى هذا التصميم والجدية التي لمستها بنفسي في كل موقع ، وذلك من أجل الحفاظ على تراث أمتنا العلمي ونشره ، والنهوض بالابحاث المتعلقة بابراز الدور الهام الذي لعبه أجدادنا في التقدم العلمي .

لقد كان الاعتراف العالمي بأهمية الدور الكبير الذي لعبه التقــــدم الحضاري والعلمي عند العرب والاثر الهام في بعث الحضارة والتقدم العلمي المعاصر ، كان ذلك وراء قرار اليونسكو في المؤتمر العام الثاني عشر في « نوفمبر » تشرين الثاني ـ ١٩٦٢ لدعم وتطوير المعاهد التي أنشأت بهدف احياء التراث والثقافة في العالم ، وذلك عن طريق مدها بالخبرة والخبراء وقد تعاون مع اليونسكو ثلاثة مراكز بالوطن العربي في دمشق وبيروت والقاهرة .

ثم تبع ذلك برنامج آخر عام ١٩٧٦ يهدف الى دراسة تأثير الثقافات وفروع المعرفة المختلفة ، وتفاعلها بعضها مع بعض وتقوم اليونسكو بتشجيع عمل الدراسات الخاصة بجمع التراث وعلى سبيل المثال ، قام الاستاذ الدكتور أحمد يوسف الحسن بناء على تكليف من اليونسكو عام ١٩٨١ ، باعداد كتاب عن التكنولوجيا الاسلامية وهو تحت الطبع الأن باللغة الانكليزية باليونسكو وجامعة كامبردج .

وختاما أتمنى أن تتضافر كل الجهود المبذولة لدعم هذا المعهد الفريد ونحن من جانبنا بالمكتب الاقليمي للعلوم والتكنولوجيا للدول العربية سوف نبذل كل جهد من أجل الاستجابة لأية مقترحات وتوصيات تتخذ في هذا الشأن .

مع أمنياتي القلبية الدائمة لكم بالتوفيق ، وفقكم الله والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة مدير معهد التراث العلمي العربي

رئيس الجمعية السورية لتاريخ العلوم

الدكتور خالد ماغوط

الاستاذ الدكتور محمد زياد الشويكي

وزير التعليم العالي ـ ممثل السيد رئيس مجلس الوزراء راعي المؤتمر

أيها الحفـل الكريم

بـــوركت جامعـة الشهبـــاء رائـــدة
للعلـــم ما جـــدَّ منــه أو مضـى فيـه
فاليـوم عيـدك في نيســان يجمعنــــا
مــع التــراث ، بـروح العلـم نحييــه
وســوف تغمـــر أشجار العـلى وطنـــي
كمـــا سمـى في المعـــالي ارث ماضيــه

أيها السيدات والسادة :

يسرني ويشرفني أن أرحب بكم وأن أشكركم لمشاركتكم جامعة حلب ومعهد التراث فيها والجمعية السورية لتاريخ العلوم بهذا الصنيع العلمي السنوي حيث يلتقي الباحثون ويقدمون نتاج أعمالهم وخلاصة ما كشفوه من المآثر العلمية التي طبعها أجدادنا في تاريخ الحضارة الانسانية واننا لنفخر بمبادرة جامعتنا الى الاهتمام الجدي والمنظم بدراسة تاريخنا العلمي وكان ذلك حافزاً لمؤسسات عربية عديدة للاهتمام بهذه الدراسات الهامة والضرورية في هذه المرحلة بالذات من مسيرتنا القومية نحو تحقيق هويتنا العربية والحضارية الاصيلة ٠

أيها السيدات والسادة

مهما تقدم فرد أو مؤسسة فان بعدهما عن الكمال يبقى كبيراً وكبيراً جداً ٠ ولكن أرجو أن تسمحوا لي بعرض بعض الإنجازات التي تمت في طريق تحقيق أهداف المعهد ٠ لقد تم خلال السنوات الثمان من عمر المعهد والجمعية

تحقيق عشرين كتابا ونشرها وتوزيعها ، بالاضافة الى المجلدات الستة لمجلة « تاريخ العلوم العربية » التي تضم آخر البحوث الاصيلة في هذا المجال وأصبح لهذه المجلة سمعة عالمية كبيرة ولها أكثر من (٥٠٠) مشتركا بما فيهم جميع مراكز الدراسات العالمية المهتمة بتاريخ العلوم • كما يتابع المعهد اصدار رسالته كل شهرين التي تتضمن الأخبار العربية والعالمية بما يتعلق بالدراسات والنشرات والمؤتمرات في مجال تاريخ العلوم • وان اتصالاتنا العلمية المستمرة مع المئات من المراكز العربية والعالمية لأكبر دليل على الثقة الكبيرة التي يتمتع بها معهدنا الفتي • وقد كان للندوات العالمية الثلاث التي أقامها المعهد ، والتي كان آخرها في الكويت بالتعاون مع المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب كان لهذه الندوات نجاح كبير في الأوساط العالمية كما أن مؤتمراتنا السنوية كانت حافزا لنشاط الباحثين ولتشجيع الدراسات المتعلقة بتاريخنا العلمي •

كما بدأ المعهد منذ ثلاث سنوات بتدريس دبلوم الدراسات العليا في تاريخ العلوم وبدأ هذا العام بتدريس ثلاثة دبلومات اختصاصية في تاريخ الطب وفي تاريخ العلوم الأساسية وفي تاريخ العلوم التطبيقية بالاضافة الى تسجيل بعض المتخرجين من المعهد لتحضير درجة الماجستير • كما قام أكثر من ثلاثة باحثين أجانب بتحضير درجة الدكتوراة في المعهد موفدين من قبل جامعاتهم للاستفادة من الامكانيات المتوفرة في المعهد ، من كتب ومصورات ومخطوطات ومستلزمات البحث العلمي •

ان كل هذه الانجازات لم يكن لها أن تتم لولا دعمكم جميعا للمعهد وايمانكم بأهدافه ، وان تفضل السيد رئيس مجلس الوزراء برعاية مؤتمرنا الثامن هذا لأكبر دليل على هذا الدعم والايمان •

ويسرني أن أشكر منظمة اليونسكو التي تقدم لمعهدنا كل دعم والتي تكرمت بايفاد الدكتور محمد الديك ممثلا لها ومشاركا في مؤتمرنا هذا • كما أذكر بجزيل الشكر والتقدير المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم لدعمها المستمر ماديا ومعنويا لمعهد التراث ولمبادرتها بتشكيل « الهيئة العربية المشتركة لخدمة التراث » التي عقدت أول اجتماع لها في الكويت في نهاية شهر كانون الاول الماضي وكان ذلك مناسبة للقاء بين جميع المراكز العربية المهتمة بتراثنا العلمي والحضاري • كما أن المنظمة العربية قد شرفتنا بالمشاركة في هذا المؤتمر بممثلها الاستاذ الدكتور مصطفى حداد الذي نرحب به أجمل ترحيب •

كما أرحب بكم جميعا متمنيا لمؤتمرنا هذا كل نجاح شكرا •

سبيل المبدعين

شعر : محمد خطيب عيان

الليلُ ليل العبقريّ نهارُ ... والصمت فكرٌ ثاقب وحوار
ماصرَّ من قلمٍ على صفحاته ... إلا انثنت فِكَرٌ ورفَّ إزار
شربت رحيقَ العبقرية روحهُ ... فأصابه منها هوىً وخُمار
وخزائنُ الكتب الضخام ربيعُه ... ورفوفها آذار ، والأزهار
عزفت سطورُ المبدعين لحونَها ... فكأنها ، بيمينه ، أوتار
مرِحٌ إذا صاد الخيالُ عويصةً ... أو مسَّ جفناً طيفُها المعطار
أبداً يظلّ على الخيال مسافراً ... لموانىء مامسّها بَحّار
يرتاد أقطار الغيوب بخيله ... للفتح ذاك الفارسُ المغوار
والعبقرية منحةٌ وصناعة ... أعلى بروج شموخها الإصرار
هي لذة ، همم البغاة تقاصرت ... عنها ، فهم بِحسابها أصفار

ياراقداً أغضى الجفون بصرخد ... أنا في الشمال يهزّني التذكار
أضحى كتابك مُفرداً حفلت بهِ الأنباء ، والآداب ، ووالأخبار
أرّختَ علم الطبّ في طبقاته ... فلكلٌ فذ منزلٌ ومدار
وحفظت للأمم الأوائل ذكرهم ... وجمعتَ ماعكفتْ عليه نزار
والكتب توزن كالرجال : فواحد ... جزْل البيان ، وآخرٌ مهذار

مئتان من عُمر العصور ، معارك ... في الدار ، ماأنّت لذاك الدار
والروم تقتحم السواحل ، تبتغي الرجعى ، ويوغل في الدمار تتارُ
أودى صلاح الدين صانعُ مجدها ... فتمزقت بوفاته الأمصار
فتنٌ توالت ، فالقلاع تمرّدٌ ... والصبح جندٌ ، والمساء حصار
مُثلٌ تخطّاها الرجال فأخفقوا ... والحكمُ همّ القوم ، والدينار

وبقيتَ ، لم ترحَل ، وعزّ جوارُ ... بالطيّبين ، وعزّت الأحرار
جُدلت بيبرسَ العظيم عزائم ... وأُقيلَ من كابي الجهاد عثار
فتبدّدت بصموده الفُجّار ... وارتدّ عن أجماتنا الإعصار
غشيت رحابَ فنائه الأخيارُ ... وأتيتَ فيمن أدلجوا أو ساروا
والدارُ هدّأ روعها استقرار ... فتدفقت بعطائها الأنهار
حفظت حكاياتِ الجهاد كبارُ ... وتناقلتها نسوة وصغار
وبكل نادٍ للرواة أريكةٌ ... تُتلى بها أخباره ، وتُثار
نسجت أساطيرَ البطولة حوله ... وترنّم القُصّاص والسمار
حين انتخى سيف وضُفّر غارُ ... زهواً ، وصال الظاهر الزآر

ياأحمد بنَ الخزرجيّ ، كرامةٌ ... فرحتْ لها أجدادُك الأنصار
كم مقلة رمداء أظلم قعرها ... وتلاصقت ، من دائها ، الأشفار
تشكو إلىّ كل الجوارح عجزها ... ولكَم شكا للجار همّاً ، جارُ
تسعى بصاحبها العصا كمقيّد ... أزرى به قيدٌ ، وطال إسار
تشتاق نظرةَ ناعس من ظبيةٍ ... سكرت على أهدابها الأسرار
وقد ازدهت وجناتُها وتضاحكتْ ... وشكَا الهوى التّفاحُ والجُلّنار
وثَبتْ جديلتُهما تعانق نهدَها ... فكأنها وكأنه قيثار
فغدوتَ بالكُحل العجيب تعودها ... وبُمرْوَدٍ كنتَ به الأنوار
وكشفت في كف المسيح ظلامها ... فانشقّ فجرٌ ، وانجلى إبصار
ورمى العصا ، ومضى إلى حاجاته ... ياعين هذي سوسنٌ ونوار
مابين وادي التّبرين وصرخد ... شبحٌ تحزُ ضلوعه الأسفار
ذكرى لأيْبَكَ نازعتْه بودّها ... والود يحفظه الفتى الذكّار
يسعى لصرخدَ خاشعاً ، فكأنه ... ماطاب في بردى له تسيار
إن لم يكن قطنَ العلا بقريضه ... فقطوفه المشراط والمسبار
والشعر داعب بالحنان فؤاده ... ليناً ، كذلك تفعل الأشعار
إن الطبيب إذا قسا نُكبت به الأوطان ، والأجيال ، والأعمار

من ســورة « العلق » الكريمة آيــةٌ — هُــزّت بنـور حروفهــا الأحجار
جبريل قـد بسط الجناحُ فأزهرتْ — حُلَلُ الربيع ، وأشرق النُــوّار
أجـدادنا نقلوا ، ولمّـا استوثقـوا — نظروا ، فكـان الوابـلُ المدرار
وسقوا رياضَ العلم ماء نبوغهـم — فبكلّ وارفة الظـلال ثمـار
هذا التراث أمانة ، فإذا خـوَتْ — تلك الجـذور تهـاوت الأشجـار
إرثُ العباقـرة الألى بعثوا الحجـا — فبكل منطلَقٍ لهـم آثـار
لولا مراياهـم لأبطـأ مجهـرٌ — ولحالَ دونَ الكاشفين ستـار
ولظلّ جـرثوم يصول ولا يُـرى — وعقول أهل البحث فيه تحـار
يبني على مجرى الدمـاء جسـوره — متستراً ، فكأنـه استعمار
هــذا يهــدّم في الجسـوم ، وذاك يقتحـم الشـعوبَ ، وزادُه الأوزار

★ ★ ★

لو أن آبـار الخليـج حصيفـةٌ — لأزيل عن كنز التراث غبـار
وأقيـمَ للإبـداع صرحٌ شامـخ — وأُهيل فوق المبدعين نضـار
وتناقلت كُنْـهَ العلوم حقائـبٌ — وتنافست في درسهـا الأقطـار
فالعلم خـير الوافدين رسالـةً — والعالـم لاوطـنٌ لـه وقـرار
فاسلُك سبيل المُبدعين مشرّقـاً — ومغرّباً ، واعدل بما تختـار
وأضف إلى ذاك التراث عجائـب الإبـداع ، كـلّ فريـدةٍ تُمتـار
فالنحلة المعطاء تصنـع شهدهـا — من كل زاهرةٍ بمـا تشتـار
والجـامعات تضيء كل مدينـة — في قطرنا ، فبها هـدىً ومنـار
زحفت علوم العصر منها نحونـاً — وغزا حـمانا جيشُهـا الجـرّار
لو أخلصَ الأبناء في تحصيلهـم — لرَمـتْ إليهم سرَّهـا الأقـدار
ولَمُدَّتِ الأيـدي لكل عجيبـةٍ — ولحلّقوا ، وإلى المجرّة طـاروا
إن الحضارة لاتشـادُ عـلى الرؤى — وعـلى التبجّـح لايقـوم جـدار
هل للعروبة أن تُـردّ عقولهـا — ماشذَّ ، أو ماجـرّه التيّـار
هذا التراب أبوّةٌ وأمومـة — حفظتْ كريمَ حقوقـه الأبـرار
أين الحنينُ ، ونجدُ حـمرةُ عاشقٍ — وشميمُ تُربتهـا شـذاً وعـرار
بالعـلم تَبتسم الحيـاة وترتقـى — أمـمٌ ، وتنعم بالسـلام ديـار

حلب ٢٣ – ٤ – ١٩٨٤ — محمّد خطيب عيان

توصيات المؤتمر

قرر المؤتمرون تبني التوصيات الآتية :

١ ـ التعاون مع وزارات الدولة وخاصة وزارة الثقافة ومجمع اللغة العربية لاصدار الكتب التراثية العلمية العربية مع الترجمة الى اللغات الاجنبية الأخرى وترجمة ما كتب منها باللغات الاجنبية الى اللغة العربية ٠

٢ ـ التوسع في طبع ونشر الكتب التراثية الصادرة عن معهد التراث ٠

٣ ـ اعادة طباعة ما سبق طبعه من المخطوطات العربية النادرة ونفذ ، واعادة تحقيق كتاب عيون الأنباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ٠

٤ ـ توثيق الاتصال بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مختلف المجالات التراثية ٠

٥ ـ التعاون الوثيق مع الهيئة العربية المشتركة لخدمة التراث العلمي العربي في المجالات التي أوصت بها في اجتماعها في الكويت بتاريخ ١٩٨٣/١٢/٢٧ ٠

٦ ـ دعم الجمعية السورية لتاريخ العلوم في مبادرتها بتكوين الاتحاد العربي لتاريخ العلوم وفلسفتها وابرازه الى حيز الوجود بالتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم التي سيؤسس هذا الاتحاد برعايتها ودعمها ٠

٧ ـ دعوة وسائل الاعلام في القطر العربي السوري الى الاهتمام بقضايا التراث العلمي العربي وابراز الاسهامات التي أسدتها الحضارة العربية للحضارة الانسانية ٠

٨ ـ التأكيد على التوصيات السابقة فيما يتعلق بالاهتمام بالتراث العلمي العربي وتدريسه في كافة الكليات والمعاهد ٠

٩ ـ التأكيد على توصية سابقة بشراء آلة تنضيد ضوئي للمعهد ٠

١٠ ـ توحيد المنهجية في طرق البحث العلمي والتحقيق في معهد التراث ٠

١١ ـ الاقتراح بأن يلقي الباحثون في معهد التراث محاضرات عن تاريخ العلوم في مختلف كليات الجامعة بالاتفاق بين المعهد والكلية المعنية لتعريف طلاب الكليات بما أنجزه العلماء العرب ·

١٢ ـ اتخاذ قرار في مجلس المعهد لاختيار المناسبة التي سيعقد المؤتمر القادم باسمها ·

أ ـ التراث العربي في مجال العمارة ·

ب ـ الاحتفال بمرور عشرة قرون على ميلاد العالم العربي ابن قيم الجوزية ·

ج ـ الاحتفال بمرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي أبي القاسم الزهراوي ·

د ـ الاحتفال بمرور عشرة قرون على وفاة العالم العربي الرقي أبو عبد الله البتاني ·

١٣ ـ التأكيد على التوصية السابقة باطلاق أسماء المبرزين على الساحات والشوارع في مدينة حلب وبعض المباني والمدرجات والمخابر الجامعية ·

١٤ ـ ايجاد كادر خاص متفرغ لمجلة تاريخ العلوم العربية ·

١٥ ـ يعد معهد التراث عند انعقاد المؤتمر السنوي القادم جدولا يتضمن توصيات المؤتمر السابق مبينا ما تحقق كليا أو جزئيا ، وما لم يتحقق مع شرح الاسباب والظروف ·

أبحاث
الندوة الخاصة
بابن أبي أصيبعة

منهج البحث العلمي عند ابن أبي أصيبعة

أو

« مقال في المنهج عند ابن أبي أصيبعة »*

الدكتور حكمت حمصي

أستاذ ــ محاضر في معهد التراث العلمي العربي

بجامعـــــة حلـــب

تمهيـــد :

يصدق في ابن أبي أصيبعة ما ساقته العرب من قول اذ قالت « شدة القرب حجاب » فما أكثر ما استشهد الكتاب بكتابه ، وما أكثر ما أخذوا عنه وتناقلوا ما قاله من شيء في الطب والأطباء والعلم والعلماء والحكمة والحكماء. الا أن شدة قربهم منه حجبت عنهم ما كان ينبغي لهم أن يلحظوه ويقدروه لديه من علم ومنهج وروح علمية وطرائق في البحث العلمي عديقة الغور وفلسفة في النقد وطريقة في البرهان ... ولم ألق لدى أحد من الباحثين من عـــرب وغيرهم من التفت الى جانب المنهج لديه . وكل ما جاء من بحث انما كان قاصرا هزيلا ضحضاحا يتعثر في ثوب مهلهل من نقد لبعض ما قال أو تشكيك في بعض ما أورد أو ترداد لبعض ما ذكر .

ولم يكن للمباحث العربية نصيب في هذا الشأن ولم يكن للباحثين العرب سهم في تبيان هذا الجانب من جوانب الفكر عنده . أما الباحثون الغربيون فقد أحسنوا الفهم عنه وعرفوا قدره فيما ساق من أنباء وفيما قال من أشياء الا أنهم لم يجدوا فيما قال الا تاريخا وعلما لدى الآخرين ففاتهم أن يروا في المؤرخ العالم علما وطريقة ينفرد بها من دون غيره . ولهذا شمرنا عـن ساعد الجد فعرضنا لأقوال الآخرين بالنقد وحللنا ما جاء من كتب في التراجم والعلوم المختلفة قبله وسلطنا الضوء على ما قاله ابن أبي أصيبعة في كتابه « عيون الانباء في طبقات الأطباء » عن نفسه وعن الآخرين واستخرجنا من ذلك كله ، بعد اذ أعملنا جانب التحليل والتركيب والاستقراء والاستدلال والقياس والموازنة والمقايسة ، ما رأينا أنه يصلح أن يسمى منهج البحث العلمي عند أبي أصيبعة وسميناه « مقالا في المنهج » تسمية وفاقا ، وهو منهج قائم برأسه متميز بطرائقه العملية وأسسه النظرية .

---

* ــ هذا ملخص وجيز لبحث مطول في منهج ابن أبي أصيبعة .

وقد أخذنا بالنقد أقوال الآخرين في بحوثهم وآرائهم وبينا تهافت بعضها لاقتصارها على النقد لأجزاء من أنباء ابن أبي أصيبعة (نلينو(١) ، مولر(٢) ، هرشبرغ(٣) ، سارتون(٤)) · ولكنها لم تنس ان تكيل له المديح لغزارة علمه وسعة أفق معارفه ولما يطلعنا عليه من تاريخ الطب والحكمة عند مختلف الأقوام ·· (براون (٥) ، كامبل(٦) ، مايرهوف(٧) ، لكلير(٨) ، فرنت(٩)) · وكان معيار نقدنا ودراستنا والنهج الذي انتهجناه في كل ما عرضنا من آراء وما وجهنا الى الآخرين من نقد تحليلي هو الروح المنهجية التي حاولنا أن نكشف عنها عند ابن أبي أصيبعة ونحدد معالمها وطرائقها وأسسها في كتابه بحيث جاء مقالنا تبيانا لمنهج متكامل الاطراف متماسك الاجزاء ، فلكأنه كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا في وحدة ذات أسس ثابتة وجوانب

---

(١) كارلو أ · نلينو « علم الفلك ، تاريخه عند العرب في العصور الوسطى » روما ١٩١١ ، ص ٦٤ ـ ٧١ ·

(٢) أوغست مولر مقدمة تحقيقه لكتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » القاهرة ١٨٨٢ (بالعربية) وله أيضا « في ابن أبي أصيبعة وتاريخ الأطباء » مقال في أعمال المؤتمر السادس للمستشرقين
وله أيضا « المصادر العربية لتاريخ الطب الهندي » مجلة الجمعية الالمانية الشرقية ، عدد ٨٤ (١٨٨٠) ص ٤٦٩ ـ ٤٧٢ ـ ٤٩٤ ـ ٤٩٩ (بالألمانية) ·

(٣) يوليوس هرشبرغ « تاريخ الكحالة في القرون الوسطى : عند العرب ، الكتاب الثاني ص ١٧ (بالألمانية) / لايبزيغ ١٩٠٤ / طبعة حديثة ١٩٧٧ ·

(٤) جورج سارتون « المدخل الى تاريخ العلم » بالتيمور ١٩٢٧ (بالانكليزية) ج ٢ ، ص ٦٨٥ ·

(٥) ادوار براون « الطب العربي » بغداد ١٩٦٤ (ترجمة) ص ٥٥ ، ٦٥ ، ···

(٦) دونالد كامبل « الطب العربي وأثره في القرون الوسطى » لندن ١٩٢٦ (بالانكليزية) ج١ ، ص ٨٣ ·

(٧) ماكس مايرهوف « ابن أبي أصيبعة » دائرة المعارف الاسلامية ـ بالعربية ·
وله أيضا : « العلوم والطب » في « تراث الاسلام » باشراف توماس أرنولد (بالعربية) بيروت ١٩٧٨ ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣ ·
وله أيضا « من الاسكندرية الى بغداد » (ترجمة عبد الرحمن بدوي في « التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية · بيروت ١٩٨٠ ·

(٨) لوسيان لكلير « تاريخ الطب العربي » (بالفرنسية) باريس ١٨٧٦ (ج١) ·

(٩) خوان فرنت « ابن أبي أصيبعة » (الموسوعة الاسلامية ، بالفرنسية والانكليزية ، طبعة ثانية حديثة) ·

مرصوصة ورأس يتوجه منطق سليم ينث في جنباته كلها • ان كتاب « عيون الأنباء » ليعد بحق بحثا علميا ينطوي على كل ما يتصف به البحث العلمي من مقومات : فهناك دراسة لما قام به الآخرون ونقل عنهم وتصحيح لآرائهم ونقد لما جاء فيها من أغلاط ، وهناك تحليل للأحداث وهناك توثيق للقول بالمصادر وتحقيق للعرض بالأدلة والبراهين ، كما أن هناك رأيا تعبر عنه روح تسعى الى الحق من وراء كل ما تعرض ، الا أن الذي يميز البحث العلمي بخاصة ويضفي عليه سمة البحث وصفة العلمية انما هو الطابع المنهجي الذي يتخذه • فالبحث العلمي لا يعد من البحث في شيء ولا يعد من العلم في شيء الا اذا كان ذا منهج • وهذا الجانب المنهجي هو الذي يميز البحث كما جاء في كتاب «عيون الأنباء» • ونحن سنحاول أن نستخرج ببحثنا هذا منهج هذا البحث وطرائقه وأسسه وروحه وغايته •••

ولسنا نحتاج الى أن نبين عظيم دور المنهج في البحث والعلم ، بل يكاد يجمع الباحثون والمناطقة والعلماء ومؤرخو العلم عن حقيقة مفادها أن لا علم الا بالمنهج وأن لا بحث الا اذا استند الى منهج واضح المعالم بين الاسس • واذا كانوا يفرقون بين منهج البرهان أو طريقته النظرية ومنهج الكشف أو طريقته العملية فان الامرين مرتبطان في العلم والبحث العلمي على أشد ما يكـــون الارتباط وثوقا • وانهما لمرتبطان ملتحمان في البحث العلمي لدى العالم المؤرخ والطبيب المجرب والباحث الممارس ابن أبي أصيبعة • بل انا عمدنا الى هذين الجانبين جميعا بغية الوقوع على أساسي المنهج لديه وهما الأساس العملي (التجربة) والأساس النظري (القياس) وما يتوزعان من طرائق مساعدة أو مساندة •••

مدخـــــل :

لقد جاء بحث ابن أبي أصيبعة أصيلا لم يسبقه اليه أحد ، وليس يرجع ذلك الى ما اتصف به كتابه من روح سوسوعية شاملة وتضلع من العلم الـذي يؤرخ له ولأصحابه ودقة اطلاعه على ما سبقه من مصادر فحسب ، وانما يرجع أيضا الى ما اتخذ من طريقة في البحث والعرض والكشف والنقد ، والى ما كان له من منهج عام في الاستقصاء واستخلاص النتائج ، وما وقع عليه لدى الآخرين من طرائق عرفها ومارسها وعلق عليها مؤيدا ومستحسنا ، وما أدى اليه ذلك كله من بلوغ النتائج العامة الكلية انطلاقا من أمثلة جزئية وخاصة تبعا لمنهج علمي اتبعه المؤلف اذ كان ينتقل من الجزئيات الى الكليات فيدرك القوانين والمبادىء •••

وان أصالته لتميزه من المؤلفين الذي سبقوه فكان متميزا من أصحاب التراجم من جهة ومن أصحاب العلوم من جهة أخرى ، على جمعه في كتابه لخلاصة الاتجاهين في التراحم والعلوم • فقد تميز من أصحاب التراجم بأمرين اثنين : بما بدأ به بحثه من مقدمة طويلة في نشوء الطب وما قيل فيه من نظريات وطرائق مختلفة وما توصل اليه من ذلك كله من نظرية عامة اتخذها له معيارا ومقياسا وبما بثه في تضاعيف كتابه من طرائق علمية وبما حاول الكشف عند لدى الآخرين من العلماء والاطباء والحكماء من طرائق تتصل بالمعيار العام أو تؤيده وتسنده • فكان بذلك كله على شيء كبير من الجدة والاصالة ازاء ابن النديم والبيهقي وابن جلجل الأندلسي والقفطي في مؤلفاتهم التي ألفوها في تراجم الرجال • على تباين هؤلاء فيما بينهم من حيث تبيانهم لمنهجهم وتقديمهم لبحثهم وذكرهم للطرائق العلمية والتعرض لنشأة الطب • فمن ناقل عن اسحاق بن حنين دون حكم ولا نقد ودون ذكر للطرائق العلمية (ابن النديم) (١٠) ، ومن قائل الشيء اليسير في مقدمته من حيث لم يورد ذكرا للطرائق العلمية في صلب الكتاب(١١) ، ومن متعرض لنشأة الطب والعلم عند الأمم على تفاوت طبقاتها ، وقد جاء قوله سريعا لاغناء فيه ونقلا لابناء عليه • ولم يذكر من طرائق العلم الا الشيء القليل مع نقد مردود عليه • ولكن شأنه عظيم لا يهمل(١٢) • ومن مؤلف ذكر ما قاله الآخرون في نشأة الطب ولم تكن له عناية بالطرائق العلمية في سير العلماء • وان جاء لديه بعض القصص التي قد تستقى منها طريقة ما فتنقل عنه(١٣) • ومن مقدم لكتابه بشيء عن بداية الحكمة وكتابه هذا يعد أفضل ما كان وأوسع في الشرح والعرض وقد أخذ عنه الشيء الكثير ابن أبي أصيبعة ، الا أنه أخذ عنه ما يصلح أن يستخلص منه منهج وطرائق علمية(١٤) • كما افترق عن اسحاق بن حنين وابن المطران وحنين بن اسحاق على أخذه عنهم جميعا واستشهاده بهم • وقد أخذ الشيء الكثير عن ابن المطران(١٥) في اختلاف الآراء في نشأة صناعة الطب ، وكذلك

---

(١٠) محمد بن اسحاق النديم « الفهرست » • تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ •

(١١) ظهير الدين البيهقي « تاريخ حكماء الاسلام » تحقيق محمد كرد علي ، دمشق ١٩٦٧ •

(١٢) القاضي صاعد الأندلسي « طبقات الأمم » تحقيق الأب لويس شيخو ، بيروت ١٩١٢ •

(١٣) ابن جلجل الأندلسي « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ •

(١٤) جمال الدين القفطي « أخبار الحكماء أو أخبار العلماء بأخبار الحكماء » تحقيق ليبرت ، لايبزيغ ١٩٠٣ •

(١٥) موفق الدين بن المطران « بستان الأطباء وروضة الألباء » (ميكروفيلم في معهد التراث العلمي العربي) •

أخذ عن اسحاق بن حنين وعن يحيى النحوي نقلا عن اسحاق بن حنين(١٦) دون أن يذكره ٠ كما أخذ عن أبيه حنين(١٧) ٠٠ كما تميز من أصحاب العلوم في مصنفاتهم وما قالوه في نشأة الطب(١٨) وافترق عنهم اذ لم يقتصر على المدخل يعرض فيه منهجه كما فعل علي بن العباس المجوسي(١٩) وأبو سهل عيسى بن يحيى المسيحي الجرجـــاني(٢٠) والبيروني(٢١) والقزويني(٢٢) والحسن بن الهيثم(٢٣) بل كان يبث طريقته ويكشف عن طرائقه العملية وأسسه النظرية في جنبات كتابه جميعا ٠ ثم ان كتابه في التراجم ليميزه اذ يضطره الى الحديث عن الآخرين والكشف عن مناهجهم في العلاج والتفكير والنقد والعلم والعمل بحيث يعرف من الطرائق الشيء الكثير علما ويمارسها عملا ومن هنا افترق عن جابر بن حيان وابن سينا وابن رشد والغزالي في مؤلفاتهم التي ذكروا فيها طريقتهم ونهجهم في البحث والكشف٠(وقد فصلنا كل ذلك في مطول بحثنا)٠

وقد رأينا أن نقسم بحثنا هذا الى أربعة أقسام أو أربعة أبواب مستهدين في ذلك هدي « عيون الأنباء » ومتبعين طريقته التي تأدى اليها البحث والنظر ٠ فالقسم الأول يعني بطريقة الكشف كما عرضها ابن أبي أصيبعة في مقدمة كتابه وكشف بها من بين مختلف الطرائق العلمية ونظريات نشأة الطـــب وفرضياته التي ساقها عن طريقتين علميتين هما أساس المنهج العلمي كله وهما: التجربة والقياس ويتعرض القسم الثاني لتبيان طرائق الاطباء والحكماء في معالجاتهم وأنظارهم وأحكامهم وما يستخلص من ذلك كله مـــن طريقة عامـــة وما يظهر لنا من اهتمامه بالطريقة التي اتبعها الحكماء في كل ما أبرزه مـــن

---

(١٦) اسحاق بن حنين « تاريخ الأطباء والحكماء » تحقيق ف٠ روزنتال ، أورينس ٧ ، ١٩٥٤ ٠

(١٧) حنين بن اسحاق « نوادر الفلاسفة » ٠

(١٨) علي بن ربن الطبري « فردوس الحكمة » تحقيق محمد زبير الصديقي ، برلين ١٩٢٨ ٠

(١٩) علي بن العباس المجوسي « الكامل في صناعة الطب » الكلي ، القاهرة ١٢٩٥ ٠

(٢٠) أبو سهل المسيحي « المائة في صناعة الطب » (ميكروفيلم في معهد التراث العلمي العربي) ٠

(٢١) أبو الريحان البيروني « كتاب القانون المسعودي » حيدر آباد ١٩٥٤ ج١ ٠

(٢٢) زكريا بن محمد بن محمود القزويني « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » تحقيق ف٠ فوستنفلت ، ١٩٦٧ ، طبعة حديثة ٠

(٢٣) الحسن بن الهيثم « المناظر » وانظر مصطفى نظيف « الحسن بن الهيثم بحوثه وكشوفه البصرية » ج١ ٠ ص٣٢ ٠ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣ ٠

حياتهم فكان ذلك مدعاة الى الحاق تلك النظرات في الطريقة بالمنهج العام وما يشتمل عليه من طريقتي التجربة والقياس في الجزئيات والكليات على السواء . ويعرض القسم الثالث لجوانب من البحث تعضد ما جاء في القسم الثاني من طرائق وتعمقه وتسانده كالحدس والاستنتاج والحيلة والتعلم والملاحظة والاستقراء والتحليل والتركيب . ويعالج القسم الرابع والاخير الروح النقدية العلمية المنهجية التي يتحلى بها ابن أبي أصيبعة والتي أبرزها في طول كتابه وعرضه . ويتصل بذلك وثيق الصلة ما جاء من قول يعبر عن الدقة العلمية وما ساقه من مصادر ليوثق بها قوله وما فعله من اسناد أحاديثه وما أطلقه من نظرات نقدية وما أتى به من أحكام نقدية . كل أولئك حقيق أن يجعل من بحثنا شيئا أشبه « بمقال في المنهج » لا يغادر شيئا الا ضمه في وحدة لا ينبو عنها وارد أو صادر . وانا لنحسب أنه لو قيض لابن أبي أصيبعة أن يكتب « مقالا في المنهج » لما أتى فيه بغير ما أتينا ولما خالفنا في شيء مما أوردنا . فقد جمعنا في مقالنا الحسنيين لديه من علم وعمل ونظر وممارسة(٢٤) .

الباب الاول : أساسا الطرائق في نشأة الصناعة الطبية : التجربة والقياس

نظرية المنهج العلمي

ان أصالة مؤلف من المؤلفين لتظهر بما يتفرد به من شيء على أخذه عن الآخرين ونقده لما أخذ . ويجد هذا الحكم مصداقا له فيما فعله ابن أبي أصيبعة من حيث منهجه العلمي وطريقته في البحث . فهو يأخذ عن الآخرين آراءهم المختلفة المتضاربة وينسقها ويوازن بينها ويصل ، من بين ثناياها بعد تمحيصها ونقدها ، الى ما يراه رأيا خاصا يعممه فاذا هو نظرية تتجاوز ما قاله الاخرون وتستوعبه بما أوتيت من نظر عميق وسعة مدى وشمول أفق . فهو اذ يأخذ عن السابقين ما قالوه في نشأة الطب قديمه وحديثه انما يجمع الآراء كلها ، في حين اقتصر كل منهم على جانب أو أكثر ، فضم الجوانب كلها في عرض شامل فرأى في كل منهم نقصا وخللا لما أوتي من روح الاستقصاء والاستقراء والتصنيف والتقسيم والتحليل والتركيب . حتى اذا جمعها كلها استخلص منها حكمتها العامة وانتقل بذلك من جزئياتها ومفرداتها الى قانونها الكلي الذي ينتظمها ، فميزه ذلك كله ممن سبقه في اتساع النظر وشمول المعرفة

---

(٢٤) ولو اتيح لنا أن نطلع على كتبه الاخرى التي أخذها مخلب الزمان « كاصابات المنجمين » و « التجارب والفوائد » و « حكايات الأطباء في علاجات الأدواء » و « معالم الأمم وأخبار ذوي الحكم » لجاء مقالنا أكمل ، لما تدلنا عليه عنوانات هذه المؤلفات من جوانب منهجية .

وكلية المبدأ وعمق الاساس . فجاءت أصالته انه اطلع على هؤلاء جميعا وأضاف الى ما قالوه شيئا جديدا ربط بين أقوالهم المتعارضة في كل منهجي ، فكان قوله القول الفصل في نشأة الطب نظرا وعملا على خلاف ما رآه الآخرون ، ذلك لأنه لم يكتف بالعرض بل عمد الى استخلاص جوهر هذه الطرائق على اختلافها وأساسها على تباينها فكان مثال النظر العقلي في القواعد والنظريات ٠ انه يأخذ بالاستنباط في ابتداء الصناعة الطبية ، ويضرب بما يضعف هذا الرأي من قول بالاتقان والاحكام وقصر عمر الانسان وطول الصناعة عرض الحائط ويدعم قوله هذا ، مؤيدا به ابن المطران ، بالتجربة فيسوق الامثلة على التجربة المؤيدة ٠ فيقول اذن باستنباط العقول بما لديها من صفاء ونظر وبالتجربة وما تقدمه من عون وما تخرجه من شيء من القوة الى الفعل ٠ فهي تكذب ما غلط فيه وتصحح ما حدس عليه حدسا صحيحا ٠ وتحقق ما بلغ اليه الاستنباط فاذا هو حق يقاس عليه فاذا كان ناقصا تمم وبذلك تستكمل الصناعة ٠ واذ يذكر ما قاله حبيش الاعسم من حادثة جرت بالمصادفة يذكر ما كان لها من تفسير وتجريب للدواء وتفتيش عليه بالتجربة والممارسة والمثابرة مما ليس يكون بوحي ولا الهام وانما بقياس وصفاء عقول ومدد طويلة ٠

الا أن ابن أبي أصيبعة يتجاوز هذا القول بأن يستوعبه مفسرا لما غمض واستعصى فهمه على الآخرين ويجيء تفسيره ذا قطبين هما التجربة والقياس وهما المبدآن اللذان يرجع اليهما كل استخراج وكشف وبحث واستنتاج ٠ وهما الأساسان اللذان تعود اليهما جميع الاسباب التي تدعو الى صناعة الطب من أسباب طبيعية وتجريبية وأخرى تدعو اليها الحاجات والضرورات وتهيؤ الأجسام للأمراض لدواع من غذاء ومعاش ومسكن ، وما يحتاج اليه الكشف عن الدواء من قوة ادراك وجودة عزيمة وأمور تجريبية ٠٠ واذا كان ابن أبي أصيبعة قد قسم مبادىء الصناعة أقساما متفاوتة المعنى والدلالة لم يفته أن يبين في تضاعيف عرضه وشرحه وتفسيره،أن هذه جميعا تَرتد فانه الى المبدئين السابقين ذهما أساسا المنهج العلمي لديه ودعامتا البحث العلمي عنده ٠ وكل من يقصر في فهم هذا يخطىء في الفهم عنه ويسيء الظن بهذه المبادىء المتباينة فلا يرى معناها العميق الذي يحققها ولا يرى عمق نظر صاحبها ٠ كما تبين ذلك لدى مولر وهرشبرغ على وجه الخصوص ٠

١ ــ القسم الاول : ما يحصل من انطب عن الانبياء والاصفياء ، الا أن الادعاء والظن في هذا القسم قد يبلغان قدرا يوشك أن يخرج عن حيز العلم لولا مسكة من قياس عقلي تؤيده التجربة وتصديق لعقل أولئك وحسنه ٠

٢ ـ **القسم الثاني** : ما يحصل من الطب بالرؤيا الصالحة ويذكر طرفا مما قاله جالينوس وعلي بن رضوان وابن زهر (التيسير) · ويعقب ابن أبي أصيبعة على هذا كله بالتصديق لما تثبته التجربة التي تحقق الرؤيا الصادقة · فما يستدعيها الا طول التفكر فيها ثم تحققها التجربة ثم تنتشر في الناس بالقياس والعمل بالمثل ·

٣ ـ **القسم الثالث** : ما يحصل من الطب بالاتفاق والمصادفة · وقد ذكر ابن أبي أصيبعة ثلاث تجارب جرت على غير قصد فاستنتج منها شيء بلغ به صاحبه الى برهان الضد · فما حدث بالاتفاق لجهل الاسباب يحتاج الى تعليل وتفسير وفهم · فما جرى لمريض بالاستسقاء شفي بأكله جرادا انما يحتاج الى التقصي لمعرفة ما كان عليه الجراد من حال · فالمصادفة تدفع الى البحث والتجريب والتعليل والتفسير والى المقايسة والمماثلة · ثم ان « المصادفة لا تقبل الا على من يعرف كيف يغازلها » (شارل نيكول) · فمن مقومات البحث العلمي اقتناص المصادفة وملاحظة ما يقع بالمصادفة وبالاستثناء (داروين) · ولقد عد بيكون المصادفة جزءا من طرائق البحث العلمي ·· وهي لا تخص بمآثرها الا العقل المتأهب (باستور) ·

٤ ـ **القسم الرابع** : ما يحصل من الطب من طريق اقتداء الانسان بأفعال الحيوانات والتشبه بها (الرازي في كتاب الخواص) · وهناك من القصص الأخرى عند جالينوس ما يدل على أن ماينفع الحيوان قد ينفع الانسان فيجربه هذا فيجد فيه نفعا · وان المعنى العلمي لهذا الاقتداء والتشبه وماينطوي عليه من معنى التجربة والقياس واضح لا يحتاج الى فضلة من بيان ·

٥ ـ **القسم الخامس** : أن يحصل شيء من صناعة الطب بطريق الالهام كما هو لكثير من الحيوانات اذ تعمد الى شيء فتأكله ، وليس من عادتها أن تفعل ذلك ، فتبرأ مما هي عليه من علة · وكل ما أتى به من أمثلة ههنا يتصل بالحيوان ويظن أن ذلك بالهام وقد يظن أنه بالغريزة أو المصادفة أو ما الى ذلك · وأمر ذلك في الانسان أولى وأحق لما أوتي من عقل · الا أن جانب التجريب ههنا واضح كما أن جانب القياس أوضح لما يكون في هذه الطريقة من تأمل ومقايسة ومماثلة وتجريب ·

هذه هي جملة الطرائق العملية التي يظن أنها الاسس التي بنيت عليها صناعة الطب في أول أمرها ومبتدأ نشأتها · وهي طرائق اذا أعمل الانسان الفكر فيها أحالها الى طرائق علمية ذات أسس منهجية تعص البحث والكشف في منهجيهما ، بل وتعد أسس منهج البحث العلمي كشفا وبرهانا ومعرفة وتفسيرا · وقد اعتمدها العلماء الافذاذ لتفسير ما جرى لهم في مضمار البحث

والكشف من بدائع الامور كما نقل ذلك الحسن بن الهيثم وما استشهد به من قول جالينوس في الاتفاق العجيب والالهام أو الجنون أو ما الى ذلك من شيء ينسب اليه الكشف(٢٥) ٠

ويعقب ابن أبي أصيبعة على هذه الطرائق جميعا بقوله : « وبالجملة فانه قد يكون من هذا ، ومما وقع بالتجربة والاتفاق والمصادفة أكثر مما حصلوه من هذه الصناعة(٢٦) » وفي ذلك كله طريقة تضم الطرائق كلها ، ثم يضيف الى ذلك القياس مع الملاحظة فيقول : « ثم تكاثر ذلك بينهم وعضده القياس بحسب ما شاهدوه ، وأدتهم اليه فطرهم ، فاجتمع لهم من جميع تلك الاجزاء التي حصلت لهم بهذه الطرق المتفننة المختلفة أشياء كثيرة(٢٧) » ٠ فهو يضم التجربة والاتفاق والمصادفة وما الى ذلك الى القياس والمشاهدة والفطرة والتأمل ليكون من ذلك كله الأشياء الكثيرة التي تعد مادة البحث والمنهج من حيث تقدم الطرق المختلفة مادة التفسير والفهم ليصير من بعد ذلك الى تعليلها وبلوغ قوانينها الكلية ومبادئها العامة ٠ وفي هذا الجانب من المنهج تبلغ السمة العلمية والمنطق العلمي المنهجي ذروته التي تكلله ٠ ولهذا يقول ابن أبي أصيبعة : « ثم انهم تأملوا تلك الاشياء واستخرجوا عللها والمناسبات التي بينها فتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ، ومبادىء ، منها يبتدأ بالتعلم والتعليم، والى ما أدركوه منها أولا ينتهي ٠ فعند الكمال يتدرج في التعليم من الكليات الى الجزئيات ٠ وعند استنباطها يتدرج من الجزئيات الى الكليات »(٢٨) ٠ هذا هو القول الفصل في المنهج العلمي بالتجربة والقياس وما يتصل بهما من اتفاق ومشاهدة وتأمل وما يتأدى اليه ذلك من تعليل بالعلل والمناسبات (وهذه التفرقة انما تدل على بليغ فهم لوظيفة كل منهما من حيث العمق والحقيقة والظاهر والباطن) ٠ وما يفضي اليه التعليل من ربط سببي بين الاشياء تعبر عنه القوانين الكلية والمبادىء العامة ٠ فالغاية القصوى التي يرمي اليها البحث لا تقتصر على الكشف عن الاشياء وما شاهدناه منها بل تتعداه الى التعليل والتفسير والوصول الى القوانين الكلية التي تضم الجزئيات في كل يفسرها ويكون بمثابة القاعدة أو المبدأ أو القانون الكلي ٠

---

(٢٥) ابن أبي أصيبعة « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » تحقيق سميح الزين ، بيروت ، دار الثقافة ٣ أجزاء ، ج١ ، ص ٢٥ ٠

(٢٦) المصدر نفسه ج١ ، ص ٢٥ ٠

(٢٧) المصدر نفسه ج١ ، ص ٢٥ ٠

(٢٨) المصدر نفسه ج١ ، ص ٢٥ ٠

وههنا يفرق ابن أبي أصيبعة بين طريقتين : أولاهما البحث والاستنباط وتعنى باستنباط المبادىء العامة والقوانين الكلية من طريق المنهج الاستقرائي الذي يتدرج من الجزئيات الى الكليات ، وثانيتهما طريقة التعلم والتعليم وما يكون فيها من تدرج من الكليات الى الجزئيات فينتهي الى ما أدركوه منها أولا أي الجزئيات والمفردات المحسوسة الواقعة التي تبين حسن فهم المتعلم وحس ادراكه للقوانين والمبادىء • وهناك فضلا عن هاتين الطريقتين المترابطتين طريقة ثالثة هي طريقة التفقه في الصناعة وفيها تفريع وقياس واستخراج ما في الشيء بالقوة وتشييد على ذلك وما يتجاوز هذا لدى ذوي القرائح بما اوتوا من قوة النفس الناطقة(٢٩) • ويفرقون بين طريقة الصناعة وطريقة الطبيعة (وهي الطريقة الرابعة ههنا) في التكوين ، فيقولون ان طريقنا في التعليم بالعكس من طريق الطبيعة في التكوين اذ أول ما يظهر لنا من الانسان هو آخر ما تفعله الطبيعة فان الطبيعة تأخذ أولا الاسطقسات ، ثم تمزجها فيحصل منها الأخلاط ثم تفعل القوى والاعضاء • وكل ذي صناعة يتدرج في تعليمها من الأظهر الى الأخفى ، ومن الاخير الى المبدأ كمثل علم التشريح اذ يبدأ بالاعضاء لظهورها وهي آخر ما تفعله الطبيعه(٣٠) •

ان ما قاله ابن أبي أصيبعة في طرائق الصناعة والعلم وما رجع اليه من اسس وما تحدث عنه من فروع تساند وتؤيد وما توصل اليه من أشياء أراد أن يضمها تحت لواء قانون كلي ومبدأ عام ليس يختلف كل ذلك في شيء عن المنهج العلمي التجريبي العقلي المنطقي الذي أتى به فرنسيس بيكون(٣١) بعده بعدة قرون وليس يختلف في شيء عن المنهج التجريبي الذي أتى به كلود برنار(٣٢) أو جون ستوارت ميل(٣٣) • فاذا كان صحيحا قول أرسطو « لا علم الا بالكليات » ولا علم الا بالمنهج فصحيح منهج صاحب « عيون الأنباء » الذي أراد الوصول الى الكليات والقوانين والمبادىء بمنهج يتخذ التجربة والقياس ، العمل والنظر ، أساسين تستند اليهما الطرائق العلمية والعملية الاخرى ليتوج ذلك كله بالقانون والمبدأ والحكم العام •

---

(٢٩) ابن أبي أصيبعة ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٨ •

(٣٠) المصدر نفسه ج٢ •

(٣١) فرنسيس بيكون « الآلة الجديدة » لندن ١٦٢٠ (الاصلاح العظيم في العلوم) •

(٣٢) كلود برنار « مدخل الى دراسة الطب التجريبي » باريس ١٩٦٦ •

(٣٣) جون ستوارت ميل « نسق المنطق والعقلانية والاستقراء » لندن ١٨٤٣ •

الباب الثاني : التطبيق العملي للمنهج العلمي :

التجربة والقياس في تاريخ العلم وتراجم العلماء ٠

لم يقتصر ابن أبي أصيبعة على هذه الطرائق يتحدث عنها حديث المتأمل الناظر ، ولم يكتف بما أورد من أمثلة تظهرها وتدعمها ، بل تعدى هذا الى الكشف عن هذه الطرائق العلمية ـ العملية لدى العلماء والاطباء والحكماء فيما قالوه وفعلوه وما توصلوا الى الكشف عنه بما تكشف لهم من طريق ومنهج ٠

فكان أول من تكلم في شيء من الطب من طريق التجربة اسقليبيوس اليوناني ٠ وما اتفقت له من اتفاقات حميدة معينة على التمهر في صناعة الطب وما انكشفت له لأمور عجيبة من أحوال العلاج بالهام من الله الا لما كان عليه من ذكاء الطبع وقوة الفهم والحرص والاجتهاد في علم صناعة الطب ٠ وما نال من عظمة وما كان من عظيم شأنه في صناعته الا لمعرفته وحذقه وتجربته وفهمه ٠ وقد خرج له الطب بالتجربة والمعرفة وهو القائل « المتعبد بغير معرفة كحمار الطاحون يدور ولا يبرح ولا يدري ما هو فاعل » وغلب رأي التجربة بعـــد اسقليبيوس حتى ظهر غورس فقواه واتبعه تلامذته فانتحلوا رأيه وهو رأي التجربة ٠ « ولما ظهر مينس نظر في مقالات من تقدم ، فاذا التجربة خطأ عنده فضم اليها القياس ، وقال : « لا يجب أن يكون تجربة بلا قياس لأنها تكون خطرا»(٣٤)٠وشاع هذا الرأي في تلامذته فكان الرأي عندهم بالقياس والتجربة ولما ظهر بارمانيدس قال : « ان التجربة وحدها كانت أو مع القياس خطر » فأسقطها وانتحل القياس وحده(٣٥) ٠

واستمر النزاع بين التجربة والقياس وأصحاب كل منهما ٠ فلما توفي برمانيدس وقع الخلاف والخلف بين تلاميذه الثلاثة فانفصلوا ثلاث فرق : فادعى افرن التجربة وحدها ، وادعى ديوفيلس القياس وحده وادعى ثاسلس الحيل ٠ ولما ظهر أفلاطن (الطبيب) نظر في هذه المقالات وعلم أن التجربة وحدها رديئة وخطرة ، والقياس وحده لا يصح ، فانتحل الرأيين جميعا ، على ما قاله يحيى النحوي ، وترك الكتب القديمة التي فيها الرأيان كلاهما وأحرق الكتب التي ألفها ثاسلس وأصحابه ، ومن انتحل رأيا واحدا من التجربة والقياس(٣٦) ٠

---

(٣٤) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٨ ٠

(٣٥) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٣٩ ٠

(٣٦) المصدر نفسه ج١ ، ص ٣٩ ٠

وجاء أبقراط فعرف الطب بقوله انه قياس وتجربة • وكان يرى أن « العمر قصير والصناعة طويلة والوقت ضيق والتجربة خطر والقضاء عسر » (ويقصد بالقضاء ههنا القياس) • وجاء مارس الحيلي فقال « لا صناعة غير صناعة الحيل وهي صناعة الطب الصحيحة • وأراد أن يفسد الناس ويخرجهم عن اعتقادهم للقياس والتجربة ، ووضع في الحيل •• كتبا كثيرة •• حتى ظهر جالينوس فناقضه عليها وأفسدها ، وأحرق ما وجد منها ، وأبطل هذه الصناعة الحيلية » • ثم قوي رأي التجربة والقياس عند دياسقوريدس بما أقدم عليه من تصوير الادوية المفردة واستخراجها واتفاق المسألة مع التجربة من طريق القياس • جاء جالينوس فتعلم طريق البرهان واتخذه له مرشدا ، وكان صاحب معاينة وتجربة اذ قال : « •• فأما أنا فاني أقول ولا أكذب الا ما قد عاينت بنفسي ، وجربت وحدي في طول الزمان»(٣٧)• وللطريق أكبر الاهمية في نظر جالينوس • وما تنجح التجربة الا بمعرفة الطريق المتبعة ، ومقدار ما يجب أن يستعمل على حسب ما تحتاج اليه العلة • وقد يختلط الامر لديه بين التجربة والخبرة الحسية فيفضي به هذا الى استبعاد القياس • فقد قال بالخبرة أو التجربة الساذجة وأن من يسلك في أعمال الطب ترشده التجارب الساذجة وحدها بحيث وجدناه قد ترقى في أعمال الطب وبلغ فيها المبلغ الجليل القدر • ولهذا يستبعد القياس وان وجدت صناعة الطب أول الامر بالقياس مع التجارب •• (انظر كتاب جالينوس « الخبرة الطبية ترجمة ر• فالنزر) • الا أن القياس الذي استبعده من وجه عاد اليه من وجه آخر هو وجه القياس تبعا للاسباب والدلائل ، وما كتابة حيلة البرء الا وصف لطريقة مداواة كل واحد من الأمراض بطريق القياس (والتجربة) • ويعد ابن أبي أصيبعة كتابه « العلل والاعراض » بابا عظيم الغناء في صناعة الطب على رأي أصحاب القياس(٣٨) • واذا كان أصحاب التجربة يرون أن ليس سبب المرض وباعثه هو ما يهم الطبيب ، بل يعنيه العقار الشافي ، فان أصحاب القياس يرون أن علاج الامراض انما يعتمد على معرفة العلة وأن هناك مناسبة بين الطبيعة والمزاج الانساني بحيث يجيء العلاج بقياس نجريه بين الطبيعة والمزاج الانساني(٣٩) •

---

(٣٧) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٢٦ •

(٣٨) المصدر نفسه ، ج١ ، ص١ •

(٣٩) سانتيلانا « المذاهب الفلسفية » ج٢ ، ص ٤٦٠ ، انظر جلال موسى « منهج البحث العلمي عند العرب » وانظر في ذلك كله المسعودي « مروج الذهب » ج٤ (تحقيق محيي الدين عبد الحميد) بيروت ١٩٨٠ • ج٤ ، ص ٧٧ ـ ٨٠ •

والكلام في الصلة بين التجربة والقياس متشعب الأطراف متعدد الجوانب. فمن قال بالتجربة والقياس قال بالتفنن في العلاج والنجاح حيث لم تنجح الأساليب القديمة التقليدية . ومن قال بالتجربة ابتعد عن الخرافة والتنجيم وتجنب طريق المخرقة والسذاجة . ومن اتخذ القياس والتجربة له طريقا كانت طريقه موضوعية تلائم البيئة والزمان والمكان ثم يجيء التعميم والتعليل . وهذا الارتباط بين القياس والتجربة انما يتوطد بمعرفة العلة ، فما تبرأ العلة الا بمعرفة سببها ، وفي ذلك جانب من القياس المنطقي والمماثلة وحسن التخريج . وقد يعمد الطبيب الى الحكم بالقياس سلبا والتجريب لاثبات القياس : كالطبيب الذي أنكر الفالج بالاستنتاج قياسا ثم جرب على المريض الحجامة فشفي . واذا تحدثنا في باب التجربة والقياس عن التفسير والتعليل عرفنا أن الحذق والمهارة ههنا انما تتمثلان في معرفة العلة والاستمرار في القياس والتجربة حتى نبلغ النتيجة المرجوة .. وما ذلك الا لأن الزيادة في العلاج زيادة في القياس بالتجربة وقطع للعلة في سببها . فكان القياس والتجربة أو أعمال الرأي بالمماثلة والتجريب قد قويت الصلة بينهما قوة لا نستطيع معها أن نفصلهما ..

وهذه الصلة القوية بينهما مع معرفة العلة التي تقوي صلتهما وتزيدها متانة هي التي تحد القياس وتبعده من أن يكون محالا (كالقياس الذي اتبعه الجاحظ مع ابن ماسويه فكان قياسا خاليا معوجا محالا لا يستند الى تعليل سليم ولا تجربة مؤيدة . وقد اثبتت التجربة خطاه وما كان هذا الخطأ في القياس الا خطأ في الاعتقاد أو العلة . فللطبع الواحد في شيئين مختلفين قوة غير قوة مزيجهما . ومن هنا الخلط الذي أسفر عن الشلل الذي أصاب الجاحظ(٤٠) .

ومن عظيم شأن التجربة أنها تعضد الحدس والاستدلال ثم يقاس على ذلك . فهذا شأن أبي الحسن الحراني وصاعد بن بشر بن عبدوس مع من أصيب بسكتة دموية اثبتت التجربة (بالمبضع) أنها كذلك . وفي ذلك من حسن التعليل وفهم العلة والاستدلال ما جاءت التجربة مصداقا له . ومن هذا القبيل أيضا ما يتصل بالتجريب والقياس (على غير النظير) بتغيير التدبير والقياس بتغيير الحال ، ويتبع ذلك كله التجريب . الا أن التجريب يحتاج في ذلك كله الى القياس كقول أبي بكر الرازي : متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس وقراءة الكتب خذل . وعلى التجربة أن يعضدها الاجماع والشهرة، ومن هنا قوله : العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الأرض ، فعليك بالأشهر مما أجمع عليه ودع الشاذ واقتصر على ما جربت(٤١) .

---

(٤٠) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٣٤ .

(٤١) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٥٠ .

وما أكثر ما نقل ابن أبي أصيبعة من قصص الاطباء وتجاربهم وما أجروه من قياس تثبته التجربة · وللقياس أشكال ووجوه فمنها قياس بين الطبيعة وما فيها من أنهار جارية وقنوات سارية والجسم وما فيه من أوعية وشرايين (قصة اليبرودي مع الفاصد)(٤٢) ، ومنها المقايسة بين الحيوان والانسان من حيث التشريح والاعضاء (كحكاية ابن الأشعث في كتابه الغاذي المغتذي) ففي ذلك تجربة وملاحظة وقياس وحسن تخريج · ومنها المقايسة بين الانسان والطبيعة في أفعالها كما قال رشيد الدين علي بن خليفة (عم ابن أبي أصيبعة): « انظر الى أفعال الطبيعة اذا لم يعقها عائق ، واقتد بها في أفعالك »(٤٣) ·

وان ما قاله رشيد الدين هذا من قول في التجربة والقياس والحدس والاجماع والنزاهة والموازنة والاقتداء بالأئمة ليعد منهجا وسننا قويما وانا لنحسب أن لهذا القول في نفس ابن أبي أصيبعة وفي منهجه أكبر الاثر · فهذا منهج للبحث يعتمد التجربة والقياس ويعد أساسا منهجيا لكل باحث يبغي اليقين : « اشتغل بكلام المشهورين الجامعة أولا · فاذا حصلت الصناعة فاشتغل بالكتب الجزئية من كلام كل قائل عاريا من محبة وبغضة · ثم زنه بالقياس وامتحنه ان أمكن بالتجربة ، وحينئذ اقبل الصحيح ، وان أشكل فاشرك غيرك فيه · فان لكل ذهن خاصية بمعان دون معان »(٤٤) · هذا في شان الاقوال والأعمال الجزئية وليس في ذلك من دقيق المعنى المنهجي الذي نرومه لو لم يضف الى ذلك كله قوله : « طابق أعمالك الجزئية ما في ذهنك من القانون الكلي يتيقن علمك وتجود (تجد) تجربتك وتتأكد تقدمة معرفتك وتكثر منافعك في الناس »(٤٥) · واذا كان يرى مع هذا أن أكثر صناعة الطب حدس وتخمين وقلما يقع فيه اليقين فانه يضيف قائلا ان « جزئيها القياس والتجربة لا السفسطة وحب الغلبة ·· » (٤٦) · فهذا قول فصل يتوج ما كنا قلناه من قبل ويثبت ما أبديناه من نظر في التجربة والقياس والرأي المستقيم في المنهج ذي المنطق الجامع لأشتات الفكر في مبتدئه ومنتهاه · وهو منهج يضم أساسين وأطرافا من لبنات تقيم أود جذعه الذي سنعمل على كشفه في الباب الثالث ·

---

(٤٢) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٢٣٥ ·

(٤٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤١٣ ·

(٤٤) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٤١٢ ·

(٤٥) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤١٢ ·

(٤٦) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص ٤١٣ ·

الباب الثالث : طرائق المنهج المساعدة :

جذع المنهج ولبناته :

وسنعرض ههنا ما يتصل بالأساسين السابقين من طرائق مساعدة ومساندة تكون بمثابة جذع المنهج جسما ولبناته بنيانا · وهي الحدس والاستنتاج أو الاستدلال والحيلة والتعلم والاخذ عن الاستاذين والملاحظة وتتبع المرض في أحواله ·· وسنحدث لكل من هذه الطرائق ذكرا مقتضبا ·

الحـــدس : وهو طريقة من الطرائق العلمية ويدل على سرعة استدلال وبداهة استنتاج وقصص أثره في التشخيص والعلاج كما وردت في « عيـــون الأنباء » كثيرة منتشرة هنا وهناك · وهذه القصص أو الأمثلة انما تدل على معانيه المتعددة وجوانبه المختلفة · فمن معانيه هذا الحكم على الشيء والاعتقاد المباشر أنه قد يصح وان أجمع الآخرون على غير ذلك من اعتقاد ، كشأن الطبيب الذي يأمر بفصد امرىء يظنه الناس جميعا أنه قد مات فاذا بالميت يحيا من جديد حتى اذا عرفنا السبب بطل لدينا العجب · فالحدس وقوع المرء على الغاية باقصى سرعة كانه يتخطى المراحل التي توصل اليها فيصل اليها من طريق المبادرة والمباشرة · فاذا سئل الطبيب عن سبب ما كان من نتيجة وأثر لفعله العجيب هذا أجاب جوابا يدل على حسن استدلال · الا أن الحدس قائم في سرعة هذا الاستدلال وابتدار الحكم(٤٧) · ومن معانيه أيضا عدم الاقبال على فعل كان من المعتاد القيام به · فهذا أبو الحسن الحراني لم يأمر بفصد امرىء على ما فيه من ضيق نفس شديد صعب ، وهو الذي يأمر بفصد كل من رآه · وذلك أنه تبين له بحدسه أن الفصد قد يسكنه قليلا الا أن عقباه حمى ربع سبعين دورا · لقد حدس وصح حدسه ·

وقد يتخذ الحدس صورةَ المخرقة والمعجزة الا أن العين البصيرة والادراك البعيد يؤديان الى الحكم السريع الدراك البليغ عند الفطن البصير فيكون ذلك عنده من عادي الامر لاستكمال مقوماته ، ويكون ذلك في نظر الآخرين من المعجز أو كالمعجز · وليس هو كذلك اذا أحسنا تأمله · ومن معاني الحدس ما يتصل بمعرفة مقدار الدواء الذي يقابل الداء · فمن الاستدلال معرفـــة ما يربط بين معرفة العلة ومعرفة دوائها · ومن الحدس معرفة مقدار اجزاء العلة لتقابل من الدواء بمثل أجزائها ، ويعمل ذلك على الحدس فيبتدأ بالأقرب فالأقرب(٤٨) · فمن الحدس معرفة تعديل الاوزان لتكتمل بها معرفة الأشياء

---

(٤٧) ابن أبي أصيبعة ، ج٢ ، ص ٢١٣ ·

(٤٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٢١ ·

على حقيقة أمرها · ومن معاني الحدس سرعة الاستدلال وسرعة التعليل والتفسير وابتدار استدلال والحكم بدقة الملاحظة وسرعة البداهة · وقصص أمين الدولة ابن التلميذ في هذا الشأن وما نقله عنه ابن أبي أصيبعة من حدوسه الصائبة تبيان لهذا المعنى · فهذا حدس ذو صلة بالملاحظة القوية لدقائق الامور (كقصة ابن جميع مع الميت اذ نظر الى قدميه فوجدهما قائمتين وأقدام الذين قد ماتوا تكون منبسطة فحدس أنه حي وكان حدسه صائبا) ·

ومن معاني الحدس هذا التوقع لما سيقع وذلك من طريق المعرفة العميقة والادراك البليغ والشعور المرهف وهذه الرؤية والبصيرة البعيدة الغور الخارقة للحجب وهذه الجرأة البالغة وقصص ذلك كثيرة وتدل على حكم سليم لم يفطن له أحد من قبل لالتفات الآخرين الى غير الجانب الذي ينبغي أن يتأمل أو لاقتصارهم على السطح والقشر وابقاء الامور على ما هي عليه خوفا وجزعا وجهلا · فهذا أبو البركات يقطع سلامية اصبع امرىء به داحس فيخطئه الآخرون فلما خالفوه في علاج امرىء آخر جاءهم شاكيا أخطأوا فمات هذا(٤٩) ، وهذا ابن زهر يأمر مريضا به سوء قتبه وقد كبر جوفه واصفر لونه أن يكسر ابريقا عتيقا يشرب منه ويقول له : انه سبب مرضك ، فاذا فيه ضفدع وقد كبر مما له فيه من الزمان · ومن معاني الحدس أيضا في صوره المختلفة ما يدل على وفور العلم وحسن النظر في تقدمة المعرفة لما يكون بين النتيجة غير المتوقعة والمقدمات من صلة خفية · فمن طبيب يحزم أن مريضة حكم الاطباء كلهم أنها ميتة لا محالة ليس عليها بأس في مرضها هذا ، لما عرفه من أحوالها ومزاجها وأوقات مرضها · ومن طبيب متميز في صناعة الطب اعتل بالاسهال فاذا هو يحدس أنها علة موته فكان ما حدس (سعيد بن البطريق)(٥٠) ·

ومن معاني الحدس ما اتصل بأمر نفسي كالعشق ومعرفة الطبيب بالحدس أن المريض عاشق وأن العشق سبب طول علته (جالينوس ، ورشيد الدين أو حليقة)(٥١) · ومن معاني الحدس ما جاء على شكل حيلة فاذا بالطبيب الذي يريد أن يتخلص من أمر مشكل · بأن يجيب سائلا جوابا يريغ به رده ، يأتي بعلاج يشفي المريض من علة مستعصية · فكأن أمر الحدس هنا مختلط بالاتفاق والمصادفة الا أنه يتعدى ذلك لما فيه من بعد نظر وسريع ادراك · ومن ذلك قصة ابن المطران مع مجذوم قوي به المرض حتى تغيرت خلقته فاستوصف منه ما يتناوله وما يتداوى به فتبرم من روايته وقال له : كل لحوم الافاعي فانك تبرأ · وهكذا كان(٥٢) ·

---

(٤٩) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٩٨ ·

(٥٠) المصدر نفسه ج٣ ، ص ١٤٢ ـ ١٤٣ ·

(٥١) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٢١٣ ·

(٥٢) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٢٩٤ ·

ان الحدس بمعانيه جميعا ليحتاج الى التجربة والقياس ليثبتاه ويبينا حسنه وصحته ودقته ومعنى ما ينطوي عليه من استنتاج سريع ·

ب ـ **الاستنتاج** : وهو طريقة من طرائق البحث والكشف جميعا · وما أتى به ابن أبي أصيبعة من قصص تروي أحواله انما تدل على تعدد معانيه ووجوهه وكثرة أساليبه واتجاهاته · فمن معانيه الاستدلال بالنظر في البول على حال المريض وجنسه وما أكل ·· ومن وجوهه الاستدلال بالنبض على نفاذ الدواء على الرغم من ادعاء المريض غير ذلك · ومن وجوهه الاستدلال على الموت من تشخيص العلة (ماسويه وأخت الرشيد) وعلى عيش قدره لمحمد بن سلام · ولم يقل قوله هذا الا لما رآه من الحرارة الغريزية وقوتها على شريطة أن يسلم من العوارض التي ألمت به ·

واذا اختلط الامر بين الحدس والاستنتاج لقرب الصلة بينهما قلنا ان الحدس استنتاج سريع لم يظهر في النتيجة ما سبق من مقدمات · أما الاستنتاج فبلوغ النتيجة من طريق المقدمات · وقصة ثابت بن قرة مع القصاب الذي ظن أنه مات فقال لم يمت ودل بجوابه على حسن استنتاجه وملاحظته للقصاب وهو يشرح الكبد ويطرح عليها الملح ويأكلها فعلم أن سكتة ستلحقه فصار يراعيه (يتابعه) واذ علم عاقبته (نتيجة واستنتاج) ركب للسكتة دواء(٥٣) · فمن معاني الاستدلال معرفة السبب والبطء في الوصول الى النتيجة · وهذا على عكس الحدس كما رأينا · فهو يحتاج الى أخذ مجسة المريض ورؤية قارورته ومعرفة وصف حاله منذ البدء والتردد في معرفة العلة ثم السؤال عن الأكل والشرب ·· وما الى ذلك حتى يتاح لطبيب على النتيجة المرجوة (الرازي)(٥٤) · ومن معاني الاستنتاج أن نربط النتيجة الواقعة بمقدمات مجهولة فنستدل بالنتيجة على العلة المسببة (الرازي والغلام المستسقي الذي أكل مضيرة أكل منها أفعى)· وفي الاستنتاج ، وما يدل عليه من الرجوع الى الاسباب والعلل والمبادىء والمقدمات ، برهان حقيقي هو بيان الشيء بمباديه وأسبابه وبيان من الاشياء المتقدمة على الاشياء المتأخرة (أبو سهل المسيحي)(٥٥) · ومن معاني الاستنتاج ما يمكن أن يسمى تقدمة الانذار ، وهو أن يكون العالم لشدة علمه ومعرفته من القدرة على الانذار بشيء استنتاجا مما جرى أو فعل من قبل(٥٦) ·

---

(٥٣) المصدر نفسه ج٢ ، ص ١٩٥ ·

(٥٤) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٣٤١ ·

(٥٥) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٣٧١ ·

(٥٦) المصدر نفسه ج٣ ، ص ١٠٨ ·

ج ـ **الحيلة** : ونعني بها طريقة من طرائق العلاج على غير الجهة المعتادة المألوفة . ومن معانيها ما كان ذا صفة نفسية ارادية كما فعل تياذوق اذ أجاب الحجاج عن سؤاله : أي شيء دواء أكل الطين ؟ فقال عزيمة مثلك أيها الامير . فرمى الحجاج بالطين من يده ولم يعد اليه أبدا . ومن معانيها النفسية ما اتصل بالحياء والشعور كما كان من أمر جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس مع محظية الرشيد لما وقع لها من علة اذ تمطت فانبسطت يدها فلم تستطع ردها فاحتال لذلك الطبيب بأن أوهمها أنه يريد رفع ثوبها فردته بيدها فشفيت(٥٧) ومن معانيها النفسية ما كان له صلة بالخوف والغم فاذا بهذه الحيلة تذهب بلحم امرىء كثر عليه لحمه حتى كاد يأتي على نفسه(٥٨) . وفي هذا المعنى ما فعله أبو البركات مع امرىء عرضت له علة الماليخوليا فلم يستطع أن يبرئه من علته الا بالامور الوهمية . ويعلق على ذلك ابن أبي أصيبعة قائلا : « وهذا باب عظيم في المداواة ، وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من الاطباء المتقدمين مثل جالينوس وغيره في مداواتهم بالامور الوهمية . وقد ذكرت كثيرا من ذلك في غير هذا الكتاب »(٥٩) . وفي ذلك يقول الرازي : « ينبغي للطبيب أن يوهم المريض أبدا الصحة ويرجيه بها . وان كان غير واثق بذلك . فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس »(٦٠) .

ومن معاني الحيلة في غير البرء والعلاج ما اتصل بالغذاء كمثل الحيلة التي أجراها بختيشوع بغية اطعام المتوكل خردلا اشتهاه في بعض الاوقات الحارة فمنعه الأطباء من ذلك لحدة مزاجه وحرارة كبده .. ففعل بختيشوع ذلك بحيلة فأفلحت(٦١) . ومن وجوه ذلك ما قاله الرازي : « الناقهون من المرض اذا اشتهوا من الطعام ما يضرهم فيجب للطبيب أن يحتال في تدبير ذلك الطعام وصرفه الى كيفية موافقة ، ولا يمنعهم ما يشتهون بتة »(٦٢) . ومن معاني الحيلة ما جمع بين الدواء والأكل وهذا ما فعله ابن زهر مع الخليفة عبد المؤمن اذ احتاج هذا الى شرب دواء مسهل وكان يكره ذلك(٦٣) ...

---

(٥٧) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٤٣ .

(٥٨) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٨٢ .

(٥٩) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٩٨ .

(٦٠) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٣٥١ .

(٦١) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٦٨ .

(٦٢) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٣٥١ .

(٦٣) المصدر نفسه ج٣ ، ص ١٠٧ .

د ـ الملاحظة وتتبع الحالة والتغيرات الطارئة والبحث والاستقصاء ويكون من ذلك أن يعرف الطبيب مبادىء المرض وأحواله وتغيراته وما كان من علاج منذ أول المرض حتى آخر أمره • وان هذه المعرفة لتعني مساءلة المريض عن كل ما يمكن أن تتولد عنه علته من داخل ومن خارج ثم يقضي بالأقوى ، كما يقول أبو بكر الرازي • ومن معاني ذلك أن يعرف الطبيب من المريض كل أحواله من أكل وشرب حتى اذا عرف ذلك عمد الى اطعامه ما كان اعتاد أن يأكل ويشرب وبذلك يبرئه (سكرة الحلبي مع محظية نور الدين محمود الزنكي)(٦٤) • وهذا ما قاله ابن أبي أصيبعة عن موفق الدين يعقوب بن سقلاب : « كان شديد البحث والاستقراء للأعراض بحيث انه كان اذا افتقد مريضا لا يزال يستقصي منه عرضا عرضا • وما يشكوه مما يجده من مرضه حالا حالا الى أن لا يترك عرضايستدل به على تحقيق المرض الا ويعتبره • فكانت أبدا معالجاته لا مزيد عليها في الجودة »(٦٥) • ومن معاني ذلك ملاحظة ما يتم من تتبع وتهيئة للدواء الناجع وذلك كله يدل على حسن تأتي الطبيب الى المداواة بعد معرفة أحوال المريض والمرض • ومن البحث والاستقصاء استقراء الطبيب أحوال المرض وتقصي أعراضه ليقع من بعد ذلك على صحيح العلاج كما فعل يحيى بن اسحاق مع الناصر عندما عرض له وجع في أذنه وقد أكثر من ذلك مؤلفنا علما وعملا وبثه في كتابه •

هـ ـ التعلم بين المعلم والكتاب :

وهذا الجانب من البحث والاستقصاء يقتضي تعلما وطريقة خاصة في التعلم والبحث والتنقيب لتعم الفائدة ويحسن النفع • وان ما يدعم الطريقة العلمية ويعضد جوانب البحث والكشف الدوام على البحـث والايغـال في الاستقصاء والدأب على التعلم والسؤال عن كل أمر لم يعمق فهمه ويثبـت ادراكه • وما يتم ذلك في نظر ابن بطلان ، رادا بذلك على علي بن رضوان(الذي يرى أن تحصيل الصناعة من الكتب أوفق من المعلمين) الا بالأخذ عن العلماء ويأتي بسبع علل وحجج ليبين صحة رأيه ابتغاء الوصول الى الحق المبحوث عنه اذا أريد حسن الفهم والادراك فلا يقطع بظن في شيء • وقد فصل شرائط المعلم وخصاله وفصل ما ينبغي أن يتحلى به المتعلم للطب من صفات(٦٦) • وينبغي للمتعلم أن يتجنب المعلم الذي لم يكن في تحصيله وتحقيقه واستقصائه عن لطيف العلم ودقيقه والذي يكثر كلامه فيضل ويسرع جوابه فيزل • كما هو شأن سلامة بن رحمون(٦٧) •

---

(٦٤) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٦٩ •

(٦٥) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٣٥٢ •

(٦٦) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٧٠ •

(٦٧) المصدر نفسه ج٣ ، ص ١٧٦ •

ومن معانيها لدى المؤلف أن يجمع بين المعرفة النظرية السماعية الكتبية والمعرفة الشخصية والمشاهدة ليؤيد تلك بهذه والعكس . وهذا ما فعله ابن أبي أصيبعة مؤيدا بخبرته الشخصية ما قاله أستاذه رضي الدين الرحبي في شأن الأكل مع الشهوة وقد رد بذلك على الرازي(٧٦) . ومن معانيها ما يتصل بذلك من مشاهدة وملاحظة وتتبع للظاهرات وتسجيلها على تنوعها وتفننها وتفاريق أقسامها ومثاله ابن البيطار ورحلاته مع ابن أبي اصيبعة بغية مشاهدة أنواع النبات في مواضعه . ومثاله أيضا ما قام به رشيد الدين الصوري فيما استقصاه من أدوية وفيما صوره من أنواع النبات في مختلف أزمانه (٧٧) .

ومن معاني الدقة العلمية العلاج بالغذاء ، ما أمكن تجنب الدواء ، وهذا التدرج في الأغذية والادوية وهذا التغيير في الغذاء بما يلائم الجسم ، وفي ذلك كله اقناع حسن وتدبير بليغ في حفظ الصحة وأمثلة ذلك بارزة لدى الرحبي وأبي بكر الرازي وابن وافد الأندلسي .

ومن معانيها التجريب والتنويع وتعقب الأمر على وجوهه واستقصاء شأنه وعدم الأخذ بظاهر الشيء بل الايغال في التحليل والوقوع على البعيد الخفي ، ومعرفة أحوال الداء والدواء وتمييز ما كان فيها خاصا بكل أحد وعدم الأخذ بالقياس على عمومه لافتراق أحوال الناس والا وقع الطبيب في الوهم . ومثاله ما قام به ابن الدخوار ، شيخ ابن أبي أصيبعة ، مع امرىء ظن الأطباء أن نبضه ضعيف فأخطأوا لتوهم وقلة استقصاء وضعف تعقب وخطأ في الاستدلال والقياس . وقد أفاد منه أبي أصيبعة علما جليل الشأن في طرائق الاستدلال والمعالجة والنظر والحكم .

ومن معاني الدقة العلمية التي يكثر ابن أبي أصيبعة من ذكرها ما نراه لدى بعض العلماء من التحقق والتثبت في كل ما يقولون بل ان الأمر ليبلغ ببعضهم الى أن يرجع الى الكتب الطبية واللغوية والمعجمات لكي يجيء استعماله للفظ ما صحيحا قويما لا اعوجاج فيه . وهذا شأن استاذ ابن أبي أصيبعة مهذب الدين عبد الرحيم بن علي : اذ كان ابدا الى جانبه ما يحتاج اليه من الكتب الطبية ومن كتب اللغة (الصحاح للجوهري والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري) .

---

(٧٦) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٣١٨ .

(٧٧) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٣٦٠ .

ولما جاء في كتاب : « عيون الأنباء » من دقة علمية بارزة عده المؤرخون مصدر ثقة منه يستقون وعنه يصدرون واليه يرجعون • واعتمده المستشرقون على شدة تحريمهم ودقيق تحقيقهم •• بل ان بعضهم لم يزد على أن نقل عنه ما قاله كما فعل فوستنفلت(٧٨) ولوسيان لكلير(٧٩) • وبعضهم اعتمده في تحقيق ترجمات الأعلام كما فعل هـ • زوتر(٨٠) وفيدمان(٨١) وكما فعل ماكس مايرهوف(٨٢) وكما فعل مانفرد أولمان(٨٣) •• وكما فعل بروكلمان(٨٤) وكما فعل فؤاد سزغين(٨٥) ••• وغير هؤلاء •••

ب ـ سمات منطق التأليف وروحه :

لقد أفاد ابن أبي أصيبعة من شيوخه في ما صنفوه من مؤلفات وفي ما اتخذوه من منهج دقيق •• فكان يأخذ عنهم ويراجع الكتب معهم على اختلاف طرائقهم وتنوع علومهم وقراءاتهم •• فكان لذلك كله أثره الكبير في عمق ثقافته وتفننها وحسن تدقيقه وبليغ تحقيقه • وما اتبع من طريقة في تأليف كتابه وسرد حوادثه وقصصه جعله متميزا لم يسبقه أحد من حيث السعة والعمق والعناية بالطريقة والخبر والقصة والادب من شعر ونثر • فهذا الجانب غير العلمي وغير الطبي عنده ، والذي أخذه عليه بغير حق غير واحد من المستشرقين ، انما كان حريا أن يحسن فهمه لعظيم أمره • فكأنه كان يرى أن الشخصية الانسانية شيء متكامل يضم هذه الجوانب كلها ، وانا لا نعرف الطبيب كأحسن ما تكون المعرفة الا اذا تعرضنا لجوانبه التي لا تتصل بمهنته الطبية اتصالا مباشرا •

---

(٧٨) ف• فوستنفلت « تاريخ الاطباء وعلماء الطبيعة العرب » غوتنغن ، ١٨٤٠ (بالالمانية) •

(٧٩) ل• لكلير « تاريخ الطب العربي » باريس ١٨٧٦ (بالفرنسية) •

(٨٠) هـ• زوتر « رياضيو العرب وفلكيوهم » لايبزيغ ١٩٠٠ (بالالمانية) •

(٨١) ا• فيدمان « مساهمات في تاريخ العلوم الطبيعية » ايرلانغن ١٩٠٤ ـ ١٩٢٩ (بالألمانيـة) •

(٨٢) ماكس مايرهوف « من الاسكندرية الى بغداد » (ترجمة عربية لعبد الرحمن بدوي في التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية) بيروت ١٩٨٠ م •

(٨٣) مانفرد أولمان « الطب في الاسلام » (بالألمانية) لايدن كولن ١٩٧٠ • ولـه أيضا « الطب الاسلامي » ، (ترجمة) ، الكويت ١٩٨١ م •

(٨٤) كارل بروكلمان « تاريخ الأدب العربي » (بالألمانية) ١٩٣٧ ـ ١٩٤٢ ، لايدن •

(٨٥) فؤاد سزغين « تاريخ التراث العربي » (بالألمانية) ١٩٦٧••

ثم ان منهجية التصنيف تبعا للطبقات والامم والأصقاع قد جعلت لكل أمة نصيبا في تقدم المعرفة وجعلت لكل طبقة أثرا وجعلت الحضارة جسما واحدا تتماسك أعضاؤه .. وما جرى في الكتاب من طرائق التطبيب والمعالجة عند الاقوام المختلفة وعند الأطباء على تفاوت طبقاتهم دليل على عمق نظر وسعة معرفة وعناية بالطريقة . وما جاء فيه من تفسير لما ذكر وتعليل لما أورد انما يطلعنا على أن غاية العلم علل الاشياء وغاياتها وبذلك نعرف علائقها العامـــة الضرورية فنصل من ذلك كله الى قوانينها الكلية . فهذا شأن الكاتب الباحث والعالم المجرب والطبيب الممارس والمؤلف الفطن .

وهو في عرضه للآراء لا يترك رأيا يفلت من بين يديه دون أن يضمه في كل موحد الى أشباهه ونظائره ، بل والى ما يعارضه لعله يبرزه . ومن هنا هذه الكثرة الكاثرة من الشواهد والأمثلة والأقوال المؤيدة حينا والمعارضة حينا آخر . فنحن أمام مؤلف حريص على تبيان الحقيقة بكل ما أوتيت من أوجه وانك لتجد في كتابه روحا علمية لا تأخذ الا بالعلم والممارسة ولا تؤمن الا بالمقايسة والنقد والموازنة والتعميم . وان في ذلك كله روحا علمية تحليلية وتركيبية : فهي تحلل أقوال السابقين في طرائقهم وتستخلص منها حكما تركيبيا عاما ينطبق على أي مجال من مجالات البحث العلمي بعامة . وبلغ به أمر الدقة في التأليف والموضوعية في التصنيف أنه كان ينقل الآراء المختلفة في شأن من الشؤون ثم يدلي برأيه الخاص بعد اذ استبان لنا أنه عرف الرأيين وأحسن الفهم عن صاحبيهما وسبيله الى ذلك كله استنباط عقلي حر مستقـل ومعرفة وسيعة وتجريب ومشاهدة ومطالعة وخبرة وثقافة رائعة عميقة القاع بعيدة الشأو . ان صاحبنا لذو ثقافة موسوعية أحسن هضمها وتمثلها . وما جاء به كتابه من شيء انما يدل على هذا أبلغ الدلالة .

ثم انا لنجد لدى ابن أبي أصيبعة اذ ألف كتابه « عيون الأنباء » خطـــة واضحة المعالم لا من حيث التبويب وتسلسل الطبقات وأفرادها وتراجمهم وحسب ، بل من حيث الفكرة ووضوح الرؤية وتتبع الفكر وتسلسل المنطق . فكأنه باحث يريد أن يحقق صحة فكرة لديه في أكبر قدر من الموضوعية . ومصداق ما قلنا يجيء بعرض رأيه في التجربة والقياس عند الأطباء قدامى ومحدثين ثم عرض الطرائق الأخرى والتدليل على منطلقه في ما أخذ عــن عمه والرازي وأساتذته أجمعين .

ج ـ التوثيق والاسناد : المصادر والمراجع .

وما قلناه من قبل في الدقة والموضوعية يصدق ههنا . فقد جاء الكتاب على غاية من الوثوق والتوثيق بما أوتي من أسانيد وما ورد فيه من مصادر وأحاديث وأما طريقته في نقل الأحاديث فذات شعبتين : اما أن يقتصر على محدث واحد ثقة منه به ، وهذا نادر الوقوع ، واما أن يجيء الحديث منقولا عن آخر ومستندا

الى ثان وثالث ·· وأمر هذا كثير الورود لديه · وبلغ به أمره هذا مبلغ المغالاة والغلو فعمد الى الاسناد في حديث عن امرىء لم يعتد هذا النمط من الاسناد (كابن جلجل) · وليس هذا الا سمة الدقة البالغة الموغلة وصفة المنهجية في النقل والتثبت ، وان كان الحديث المنقول قليل الشأن · ثم يضيف الى ما ينقل شيئا من عند ذاته مصححا ومقوما ومثبتا ومحققا ومكملا ومضعفا وناقدا · وله في ذلك أساليب كأن يورد كلمة قال فلان : ثم يعقب بقوله : أقول ، أو روى فلان عن فلان أو حدثني فلان عن فلان ·· وقليلا ما يورد قوله : قال بعضهم ، حدث بعض المصريين ·· أو بعض الأطباء ·· وكلمة قال قد تعني المشافهة وقد تعني ما قاله في كتابه وقد يذكر الكتاب ان كان مجهولا ولا يذكره اذا كان مشهورا · وقد ينقل عن أحد ويحقق اسم المنقول عنه في الكتاب الذي نقل عنه ·· ويدقق في ايراد الشاهد وسنة وفاة المترجم له · وكثيرا ما ينقل من خط المؤلفين زيادة في الدقة وامعانا في الثقة ومعظم ما جاء في كتابه موثق معروف قائله وقليل ما جاء بغير هذه الصفة من الوثوق ·

وما أكثر ما اعتمد عليه من مصادر بقي بعضها وأخذ مخلب الزمان بعضها الآخر · ثم انه فضلا عن ذلك يرجع الى كتب المترجم لهم ويبين حصوله عليها وقراءته لها · وهو في كل أمره انما يرجع الى الأصول ونصوصها فيقرأها في مظانها البعيدة ··· ولسنا نحتاج الى عرض ما اعتمده من مصادر فهي كثيرة وتقارب عدتها الستين ، هذا كله فضلا عما اطلع عليه من معجمات المؤلفين اللغوية ومصنفات كبار الأطباء في تاريخهم ·

د ـ الروح النقدية :

وما اتخذه ابن أبي أصيبعة من وجهة نقد في كل ما أتى به من قول · وما غاية أمره في هذا الا الوصول الى اليقين من طريق النقد والرد · وقد كان له في ذلك أساليب متنوعة(٨٦) ·

ـ فقد يذكر القول الذي يريد نقده ويبين أنه ليس بصحيح بدليل ذاتي يستقيه منه اذ يخصصه (فاذا قيل ان أبقراط هو أول من دون في الطب خصص القول فقال : بل هو أول من دون في أهل اسقليبيوس) ·

ـ وقد ينقد قولا فيذكره ويورد قولا اخر يفنده ويضعفه بدليل تاريخي (يحيى النحوي يعدد كتبا قبل ابقراط ، مما يعني أن هذا لم يكن أول من دون) ·

---

(٨٦) وسنكتفي بايرادها ههنا موجزين ، فقد فصلناها في مطول بحثنا وضربنا عليها الأمثلة مستشهدين ·

ـ وينقد الكتب المنحولة بالاستناد الى أقوال من يثق بهم (فرفوريوس) ·

ـ وقد ينقد قولا قيل عن أحد بالاعتماد على صاحب القول نفسه (ينقد ما قاله يحيى النحوي عن جالينوس بما قاله جالينوس نفسه) ·

ـ وقد ينقد قولا تاريخيا قيل عن امرىء بما قاله هذا عن نفسه (كنقده لمقالة البيهقي اذ ادعى أن جالينوس معاصر للمسيح ، فبين عدم صحة ذلك بقول جالينوس نفسه) · ثم يستشهد بأقوال المؤرخين الآخرين لتأييد قولـه وتفنيد قول من يريد نقده ·

ـ ومن صور نقده وتحققه رجوعه الى الكتاب الذي استشهد به غيره ونقل عنه قولا من الاقوال ليؤكده ·

ـ ومن صور النقد والدقة رجوعه الى المصادر والتواريخ والحوادث لكي يثبت سنة بعينها ··

ـ واذا نقل قولا عن الآخرين عقب عليه بكلمة « والأصح » نقدا له · (كما فعل في قصة حنين بن اسحاق وموته ، على ما ذكرها ابن جلجل ··) ·

ـ وقد يعمد الى نقد فيه تحامل واغراض ويفرق بين ما قيل وعلم المثلوب المتحامل عليه · (ما قاله صاعد الاندلسي عن الكندي ·· فقال ابن أبي أصيبعة : « هذا الذي قاله القاضي صاعد عن الكندي فيه تحامل كثير عليه· وليس ذلك مما يحط من علم الكندي ولا مما يصد الناس عن النظر في كتبـه والانتفاع بها » ·

ـ ومن أوجه نقده تصحيحه نسبة ترجمة أو مصنف الى شخص بعينه (كما فعل في كتاب ثابت بن قرة « في الوقفات » وترجمته) ·

ـ ومن نقده على كتاب يرد على كتاب اخر فيقول : رد لا فائدة فيــه ولا طائل ·

ـ ومن نقده تحقيقه التاريخي لزمن الرازي وأنه كان في زمن عضـــد الدولة فرد على ذلك ردا جميلا قويما ·

ـ ومن بديع نقده وروحه المنهجية ما ذكر عن الرازي اذ ادعى مدع أن له كتابا هو « فيما يرومه من اظهار ما يدعي من عيوب الأولياء » فقال مشككا فيه وفي نسبته اليه : « ربما ألفه بعض الاشرار المعادين للرازي ونسبه اليه ليسيء من يرى ذلك الكتاب أو يسمع به الظن بالرازي · والا فالرازي أجل من أن يحاول هذا الامر وأن يصنف في هذا المعنى » ·

ومن نقده وحسن تتبعه ما قاله في كتاب الرازي (الجامع ، الحاوي) وتقسيمه غير المرضي ٠٠٠ وتعليله لذلك بأنها مسودات كتب وجدت للرازي٠٠ فحسبت أنها كتاب واحد ٠٠ وما قاله في كتاب الرازي « المفاخر في الطب » وأنه نسبه اليه لأنه اشتهر له ٠

ولسنا نود بعد هذا أن نتعرض لما وجه الى ابن أبي أصيبعة من نقد ناقد يدعي أنه قليل التثبت في أقواله وسريع التصديق وضعيف الروح النقدية ٠ فهذا كله قد جاء مفصلا في مطول بحثنا هذا فليطلبه هناك من يود معرفته أو الاطلاع عليه ٠ فما ورد قد يكون لتوهم ابن أبي أصيبعة أو حسن ظنه أو خطأ نقله ٠٠ الا أنه قليل الورود وقد عدده هؤلاء الناقدون فاذا هو شيء يسير ٠ وحسبه مفخرة أن تعد معايبه ٠

ومما يميز الروح النقدية لدى ابن أبي أصيبعة طريقته المهذبة في النقد كما فعل مع موفق الدين عبد اللطيف البغدادي في نقده لابن سينا وفي تعظيمه لولد أمين الدولة بن التلميذ ٠ وكما كان من شأنه اذ ذكر أمين الدولة الحسن ابن غزال وجشعه وما جمع من أموال عظيمة جدا ٠٠ فلم ينس جانبه الحسن ونفسه الفاضلة وهمته العالية في جمع الكتب وتحصيلها ٠

هـ ـ جانب الاحكام القيمية :

ويتصل بما قلنا من روح صاحب « عيون الانباء » النقدية جانب آخر هو جانب أحكامه التي أصدرها على الآخرين فكانت أحكام قيمة متنوعة الوجوه والصور ٠

ـ فمن أحكامه الخلقية ما قاله عن تصرف يوحنا بن ماسويه عندما أمر تلميذه بفتح النفخة التي ظهرت في رقبة المأمون وكان ذلك سببا لهلاكه : « أقول انما فعل ابن ماسويه ذلك لكونه عديما للمروءة والدين والامانة(٨٧) » وما قاله في ابن صفية الطبيب اذ تواطأ مع قطب الدولة فقتلا الخليفة فلما أمر ابن هذا ، المستضيء ، الطبيب أن يصنع له سما وأرغمه على أن يستفه ففعل فهلك قال : وهذا أمر الطبيب متى تعدى حده وتجاوز طوره(٨٨) ٠ وهذا ما يغاير ما كان من فعل ابن التلميذ فامتدحه ابن أبي أصيبعة قائلا « وهذا كان من عقل الرئيس أمين الدولة ودينه وامانته »(٨٩) ٠ ومن دقة حكمه أنه لا يأخذ حكما خلقيا في امرىء الا اذا تحقق منه كما فعل في حكم ابن النديم اذ قال ان الكندي كان بخيلا(٩٠) ٠

---

(٨٧) المصدر نفسه ج٢ ، ص ١٣٥ ٠

(٨٨) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٦٦ ٠

(٨٩) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٦٧ ٠

(٩٠) المصدر نفسه ج٢ ، ص ١٨٢ ٠

ومما يؤيد التعلم عن معلم والأخذ عن الأستاذين ما قاله موفق الدين عبد اللطيف البغدادي : « أوصيك أن لا تأخذ العلوم من الكتب • وان وثقت من نفسك بقوة الفهم • وعليك بالاستاذين في كل علم تطلب اكتسابه ، ولو كان الأستاذ ناقصا فخذ عنه ما عنده حتى تجد أكمل منه • وعليك بتعظيمه وتوجيبه ، وان قدرت أن تفيده من دنياك فافعل • والا فبلسانك وثنائك »(٦٨) ولكنه لا ينسى الكتاب والقراءة والأخذ عنه لما يكون في ذلك من النظر في غوامض صناعة الطب والكشف عن حقائقها وأسرارها •

وللتعلم شرائط غير الأخذ عن الأستاذين والكتب فمن ذلك المواظبة على العلم الواحد مدة من الزمن حتى اذا قضي الوطر منه انتقل المتعلم الى علم آخر • ثم يقول البغدادي : « ولا تظن أنك اذا حصلت علما فقد اكتفيت بل تحتاج الى مراعاته لينمو ولا ينقص ومراعاته تكون بالمذاكرة والتفكر واشتغال المبتدىء بالتلفظ والتعلم ومباحثة الأقران • واشتغال العالم بالتعليم والتصنيف » (٦٩) • الى آخر ما هنالك من أقوال في تكريم العلماء والاقبال على العلم والتفكر وقراءة التاريخ والنقد والتمحيص مما يزيد لدى العالم قدرته المنهجية على الكشف والتفكير والنقد والتحقيق • وعلى المتعلم ، في كل ذلك ، أن يشتغل من كل علم بكلام أربابه الاول وأن يكثر من صحبة المشايخ • فاما أن يستفيد من علمهم وأما من سيرتهم • فاذا تأمل حركات الفضلاء وسكناتهم وجد فيها حكما جمة ، كما بين ذلك ابن أبي أصيبعة نقلا عن عمه رشيد الدين ابن خليفة •

الباب الرابع : الروح العلمية المنهجية : رأس المنهج وروحه •

وما هذا الباب سوى التاج الذي يكلل هامة البحث كله ويضفي على الأوجهة التي اتخذها الباحث طابعا أصيلا اذ يستخلص من روح كتاب المؤلف الروح العلمية ــ النقدية ــ المنهجية التي يتصف بها المؤلف في كل طرف من أطرافه وكل جانب من جوانبه • فما يقتصر منهجه العلمي على ما قاله في هذا الشأن وما أورده من أمثلة وشواهد وما يقتصر على ما نقله عن الآخرين بخاصة ، بل يتعداه الى ما قاله بعامة في كل أمر تعرض له • وسيتضح هذا كله فيما أظهر من دقة علمية وفيما اتخذ من منهج في العرض والتأليف وفيما وجه من نقد الى ما نقل وفيما أصدر من حكم على ما ذكر وفيما اتخذ من طريقة موثقة في اسناد أحاديثه ومصادره ••• ونحن سنعمد الى كل جانب من هذه الجوانب لنبرزه في شيء كبير من الايجاز •

---

(٦٨) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٣٤٢ •

(٦٩) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٣٤٢ •

أ ـ الدقة العلمية : وتتميز روحه العلمية بسمة العلم فلا يذكر من القصص والحكايات الطبية الا ما فيه صدق وعلم ويدل على يقين وحسن ادراك. ويستبعد التنجيم والحساب في الطب . وعندما يذكر قصة خيالية في أمر يذكر **نقيضها** وأن في ذلك مخرقة (قصة الطيفوري الذي أبى أن يفعل شيئا صيانة لنفسه عن الاكتساب بالمخرقة)(٧٠) ومن معاني دقته العلمية ما قصه عن الآخرين من قصص فيها الايمان بالعلم والعمل والتجربة والفكر . ومن ذلك قصص يوحنا بن ماسوية مع الرهبان وصلواتهم في مرضه(٧١) . وما قاله للأجرب « فلو نزل المسيح لك خاصة لما انتفعت بدعائه ، لما تصف به نفسك من الشره» (٧٢) الى غير ذلك من قصص تجعل للعلم مكانته وللدين مكانته فلا تخلط بينهما بغير الحق . ومن معانيها الايمان بالعلم وبما يصفه الطبيب لمريضه فعندما يدعي هذا أنه فعل كل وصف ولم يبرأ يتبرأ منه الطبيب ومن ادعائه . ومن معانيها الموضوعية والمشاهدة والفحص فيرى الطبيب مريضه ولا يقطع بتشخيص وعلاج دون ذلك (قصة ماسويه واخت الرشيد) . ثم من معانيها الصراحة في التشخيص فلا يكتم الطبيب أمر مرض مريضه وان كان خطيرا من شأنه أن يفضي الى الموت . ومن معانيها التقيد بأوامر الطبيب والا كان التدبير وبالا على المريض (شأن جبرائيل بن عبيد الله والجارية) . وعلى المريض التقيد بذلك والائتمار بأمر الطبيب وان جهله فيجيء التعليل مصدقا لصفته العلمية(٧٣) .

ومن معاني الدقة العلمية لدى العالم أن يحرز طبائع الألفاظ وتحديد المعاني (وهذا شأن حنين ابن اسحاق فيما تميز به من الطيفوري) . ومن ذلك أيضا ، ابتغاء بلوغ الغاية المنشودة ، تحديد ما يقال وتعيين ما ينبغي أن يفعل، ولهذا نقد بعضهم سعيد بن هبة الله لأنه لم يصف لامرأة لا تحسن صناعة الطب ولا تعرف شيئا من قوانينه شيئا معينا تعتمد عليه(٧٤) . وفي ذلك ما فيه من معرفة حسن المقال وموافقته المقام والحال .

ومن معاني الدقة العلمية على ما في ذلك من غلو وافراط وما يتصل بالبعد من كل دجل وتدجيل ما نقله ابن أبي أصيبعة عن منكه الهندي اذ رأى دجالا يصف دواء عنده وأنه يشفي من الأمراض كلها فقال : ان الشريعة أباحت دم هذا الرجل ومن أشبهه .. لأن في عمله فسادا في الدين ووهنا في المملكة(٧٥) .

---

(٧٠) ابن أبي أصيبعة ، المصدر نفسه ج٢ ، ص ٨٦ .

(٧١) المصدر نفسه ج٢ ، ص ١٢٦ .

(٧٢) المصدر نفسه ج٢ ، ص ١٢٦ .

(٧٣) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٩٥ .

(٧٤) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٥٩ .

(٧٥) المصدر نفسه ج٣ ، ص ٥٢ .

ومن أحكامه اللغوية الادبية : ما أطلق من قول في المترجمين والأدباء والعلماء (حكمه على علم حنين ودقة معرفته واتقانه للغات ، وتفرقته بين ترجمة موسى بن خالد الترجمان للكتب الستة عشر لجالينوس وترجمة حنين لها ٠٠ ومنها حكمه على لغة كاتب وعباراته وحكمه على أسلوب ابن التلميذ في شعره وتثره « له شعر مستطرف حسن المعاني ، الا أن ما يوجد له البيتان أو الثلاثة وكان أيضا يترسل وله ترسل كثير جيد(٩١) » ٠ ومن ذلك حسن تدقيقه في شعر قيل الى صاحبه (كما فعل في شعر العنتري) ٠

ومن أحكامه العلمية وتفضيله للعلماء ، ومفاضلته بينهم حكمه على أبي البركات بن ملكا وقوله فيه أنه أقوى في العلوم الحكمية (في كتابه المعتبر) من ابن التلميذ ولكن هذا أكثر تبصرة بصناعة الطب٠ومنها حكمه على علي بن عيسى الكحال « وكلام علي بن عيسى في أعمال صناعة الكحل أجود من كلامه فيما يتعلق بالأمور العلمية » ٠ ومنها حكمه على حسن تدبير الأطباء ومحمود طريقتهم وجودة علمهم وحسن عملهم ٠ وحكمه على العالم وتفرقته بين لغته وعلمه ٠

ومن أحكامه التاريخية : ما يصحح بها سنة ولادة أو وفاة أو زمن عالم ٠٠ ومنها قوله في النظريات التي قيلت في بداية الطب وما صح منها وما ضعف ٠ وحكمه على القدامى فيه اعتراف بالجميل « فان لهم علينا من النعم فيما صنفوه والمنن فيما جمعوه في كتبهم من علم هذه الصناعة ووضعوه ، ما هو تفضل المعلم على تلميذه والمحسن الى من أحسن اليه »(٩٢) ٠

ومن أحكامه الفلسفية ما أصدره في مؤلفات الفلاسفة والحكماء وبليغ قدر انتفاع الناس بها وعظيم شأنها ، ويدل ذلك على حسن سليم وثقافة فلسفية ٠ فما استشهد به من أقوال الفلاسفة أكبر دليل على ما قلناه ٠ وما قرأه من كتبهم وذكره من مؤلفاتهم يشهد له بذلك ٠ والذي ينبغي قوله ههنا ويعد تتويجا لأحكامه القيمية ما كان يصف به العالم الذي يترجم له من أوصاف فيها من الجوانب ما تشتمل على الشخصية كلها من عقل تام ورأي سديد وسكينة وخلق قويم وعلم محصل وطريقة محمودة وتميز في الصناعة علمها ومحبة لفعل الخير ورأفة بالمرضى وكثرة عبادة وكمال مروءة وحسن عشرة ومعالجة وايثار للفضيلة ٠٠٠ الى آخر ما هنالك من صفات تعم الشخصية كلها ٠ فالشخصية كل متكامل ولهذا جاء حكمه عاما شاملا يشتمل على الشخصية في أطرافها جميعها وفي عواملها كلها ٠

---

(٩١) المصدر نفسه ج٢ ، ص ٢٦٨ ٠

(٩٢) المصدر نفسه ج١ ، ص ٨ ٠

خاتمـــــة

بعد هذا الذي قلناه وعرضناه من جوانب فكر ابن أبي أصيبعة ، وبعد هذا الذي رأيناه من منطقه وروحه ومنهجه في البحث والنقد والمشاهدة والتتبع والمقايسة ، وبعد هذا الذي تبيناه من تميزه عمن سبقه من المؤلفين من حيث سعة معارفه وشمول تفكيره واتساع افقه وتغلغل منهجه في كل جانب من جوانب كتابه وفي كل طرف من أطراف فكره ، أقول : بعد هذا كله ليس بعجيب أن نسمي بحثنا هذا « مقالا في المنهج » عند ابن أبي أصيبعة • فهذا منهج علمي متكامل المعالم متراص اللبنات مثبت الدعائم راسخ الأسس • فهو منهج في البحث العلمي بمعانيه المتعددة وأشكاله المتفرقة : هو منهج في التجربة والقياس أسسا ومنهج في الملاحظة والحدس والاستنباط والاستنتاج والتعلم والاستقصاء والتركيب والتحليل لبنات ، وهو منهج في النقد والدقة العلمية والتوثيق والتحقيق والحكم روحا • هو منهج العلم والعمل على السواء فجمع بذلك الحسنيين جمعا حسنا •

وقد رأينا أنه منهج للبحث العلمي مترابط الاجزاء متماسك البنيان فكأنه كالجسم الواحد تماسكت أعضاؤه في كل واحد متين أو هو كالبنيان المرصوص تراصت لبناته واتخذت لها أساسا ثابتا لا يتزعزع • فاما أساسه فالتجربة والقياس ، وأما لبناته فالحدس والملاحظة والاستنتاج والحيلة والتعلم والاستقصاء والدأب ، وأما سقفه الذي يتوجه ويصون ساكنيه من عاديات الأيام وغوائل الزمان فروحه العلمية وما تتميز به من دقة علمية ومنطق جواني للعرض والتأليف وايغال في التوثيق والاسناد وحس نقدي سليم وحكم قيمي مستقيم • أو هو كالجسم الواحد أطرافه التجربة والقياس (وما يرتد اليهما في آخر المطاف من رؤيا والهام واتفاق ومصادفة ونبوة واستنباط) وجذعه الحدس والاستنتاج والملاحظة والحيلة والتعلم والبحث والاستقصاء والدأب • ورأسه الروح العلمية وما تتصف به من دقة ومنطق وروح نقدية وعمل على التوثيق والتحقيق وما ينجم عن ذلك كله من قيم الحكم وسديد الرأي •

واذا رأينا في تضاعيف كتاب « عيون الأنباء » بعض الهنات التي قد تخرج عن حدود هذا المنهج وما رسم فانها أشبه بالاستثناء الذي ليس من شأنه الا أن يثبت القاعدة ويزيدها رسوخا وثبوتا ويبرزها كأفضل ما يكون تثبيت ورسوخ وثبوت •

وتتمثل أصالة بحثنا هذا ، على كثرة البحوث والمباحث التي سيقت في هذا الشأن ، في الكشف عن هذا المنهج المتماسك المترابط بين أشتات الأمثلة والحوادث والروايات والنوادر والفرائد والتجارب والطرائق التي عرضها ابن أبي أصيبعة • وهذا المنهج وحده حقيق أن يلقي الضوء الساطع على هذه الأشتات فاذا هي ذات معنى يغاير المعنى الذي يتوهمه القارىء أول وهلة ، واذا هي ذات دلالة منهجية تتخطى المفرد الجزئي لتخاطب العقل الكلي في أروع صوره وأحدث أشكاله •

الدكتور : حكمت حمصي

معهد التراث العلمي العربي

ابن أبي أصيبعة

حياتــه ، وعصـره ، وآثــاره

٥٩٦ ــ ٦٦٨ هـ

بقلم : محمود فاخوري

جامعة حلب ــ كلية الآداب

عاش ابن أبي أصيبعة في القرن السابع الهجري ، (الثالث عشر الميلادي)، في ظل دولتي الايوبيين والمماليك ، اللتين امتد حكمهما من مصر الى بلاد الشام. وقد شهد هذا القرن مرحلة الانتقال من الدولة العباسية الكبرى الى عصر التفرق والانحلال السياسي ، وكثرة الدويلات التي تحكمها جماعات متفرقة ، وان كانت دولة الايوبيين تمثل انتفاضة واعية أمام تغلغل المد الفرنجي في البلاد العربية .

وكان من أبرز خطوب هذه الحقبة سقوط عاصمة الخلافة « بغداد سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) على أيدي المغول والتتار ، وانتقال مركز السلطة الى القاهرة ، اذ قام حكم المماليك في مصر منذ سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) على أنقاض الدولة الايوبية ، قبيل سقوط بغداد بثماني سنين .

وكان صلاح الدين الايوبي قد استطاع أن يوطد دعائم الدولة في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وأن يجمع شمل العرب في دولة واحدة قوية . ولكن أبناءه الثلاثة ، وأخاه العادل ، اقتسموا الملك بعد وفاته سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣ م) : فتولى ابنه « الافضل » على الشام وجعل قاعدته دمشق ، وابنه « العزيز عثمان » على مصر ، وابنه « الظاهر » على حلب وشمالي الشام . أما أخوه « العادل » فقد حظي بالمشرق ، ولكنه ما لبث أن استولى على الشام ومصر وضمهما اليه ، بعد أن نشب النزاع بين أبناء صلاح الدين . وشارك العادل في طغيان هذا النزاع ، حتى ملك زمام الدولة كلها ، ومن ثم قسمها على أبنائه في دويلات متعددة بسطت سلطانها على مصر ، وبلاد الشام ، واليمن ، وآمد ، وحصن كيفا ...

ولم يجد بعض السلاطين من الايوبيين ، ولا سيما أبناء الملك العادل ، حرجا في أن يقطعوا مماليكهم مدنا يتولون امارتها ، ويصرفون شؤونها ، كما فعل الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل ، حين أقطع مملوكه ايبك المعظمي ، عز الدين ، مدينة صرخد وما جاورها من أعمال حوران في سورية ، حتى عرف بصاحب صرخد ٠

ولما قامت دولة المماليك في مصر كان شأن الايوبيين قد تلاشى واضمحل ، ولكن بقيت منهم بقية تحكم في بعض بلاد الشام ، كدمشق ، وحلب ، وحمص ، حتى انتهت بعد عشر سنوات على يدي السلطانين المملوكيين قطز ، وبيبرس ٠

وأول من حكم مصر في دولة المماليك « شجرة الدر » زوج عز الدين أيبك التركماني ، وأعقبها « المنصور » ابن زوجها أيبك ، ولم يكن لهما شأن يذكر ، سوى المؤمرات والدسائس ، حتى جاء المظفر قطز ، الذي انتصر على التتار في موقعة « عين جالوت » سنة ٦٥٨ هـ ، ودخل دمشق في موكب عظيم ٠ وأعقبه الملك الظاهر « بيبرس » صاحب الوقائع الهائلة مع التتـــار والصليبيين ، والفتوح العظيمة ٠ وفي السنة الاولى من سلطنته (٦٥٩ هـ) كان انتقال الخلافة « الاسمية » الى الديار المصرية ، بعد مضي ثلاث سنوات على سقوط بغداد ٠ وتوفي الظاهر بيبرس في دمشق سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م) وهو في الحادية والخمسين من عمره ، وحول مرقده تقوم اليوم المكتبة الظاهرية ٠

ذلك جانب من الحياة السياسية التي عرفتها مصر وبلاد الشام في عهد بني أيوب والمماليك ٠ أما المجتمع العربي في تلك الحقبة فقد كان أمشاجا من عناصر وأجناس متباينة الطباع والعادات والاخلاق والاديان ، وان كان السواد الاعظم من العرب ٠

ومع أن حياة دولتي القرن الهجري السابع قامت على الصرامة والجد والحروب ، فقد عنيت هاتان الدولتان ببعض الجوانب الاجتماعية ، وانهاض الحياة الاقتصادية ، وتنشيط حركة البناء والعمران ، على الرغم من السنوات العجاف التي كانت تجتاح البلاد أحيانا ٠

كما نشطت الحياة الثقافية والفكرية والعلمية ، وأقبل الملوك والسلاطين والامراء على أولي العلم ، يحتفون بهم ، ويجالسونهم ، ويقربون اليهم الاطباء ، ويجعلونهم في خاصتهم ٠

وكانت دراسة الطب مزدهرة في مصر والشام خاصة ، حيث أسس الحكام في حواضرهما عددا من البيمارستانات ، لمعالجة المرضى والعناية بهم ، وأقيم في كل بيمارستان مكتبة حافلة بالكتب الطبية وغيرها ، حتى أصبح البيمارستان أشبه بكلية الطب وما يتبعها من مستشفيات في عصرنا هذا ٠

وأشهر هذه البيمارستانات اثنان ، هما :

١ ـ البيمارستان النوري الكبير :

يعود تاريخه الى أيام السلطان نور الدين محمود بن زنكي ، الذي بناه في دمشق سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤ م) ووقف عليه جملة من الكتب الطبية . وقد ظل هذا البيمارستان عامرا بعد ذلك بالمشرفين والقوام لخدمة المرضى ومداواتهم ، وبالمشتغلين بعلم الطب طوال حكم الايوبيين والمماليك والعثمانيين، حتى خلفه المستشفى الحميدي سنة ١٣١٧ هـ (١٨٩٩ م) .

ومن الاطباء الذين عملوا في هذا البيمارستان في القرن السابع الهجري :

كمال الدين الحمصي ، ورشيد الدين علي بن خليفة (عم ابن أبي أصيبعة) ، ومهذب الدين الدخوار ، وعمران بن صدقة ، ورضي الدين الرحبي ، وشمس الدين المكلي ...

٢ ـ البيمارستان الناصري (أو الصلاحي) :

أسسه صلاح الدين الايوبي في القاهرة سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) عندما ملك الديار المصرية ، واستخدم له أطباء وجراحين ، وخزائن للعقاقير المختلفة ، وأسرة للمرضى كاملة الكسوة . وكان فيه جناحان آخران ، أحدهما للنساء والآخر لذوي الامراض العصبية ، ولهؤلاء وأولئك من يكفلهم ويتفقد أحوالهم في كل يوم .

وعمل في هذا البيمارستان أيضا عدد من الاطباء في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ، منهم : رضي الدين الرحبي (الذي انتقل بعد ذلك الى دمشق) ، وابراهيم بن موسى بن ميمون ، وموفق الدين أحمد بن القاسم (ابن أبي أصيبعة) والشيخ السديد بن أبي البيان ...

وكان على كل طبيب أن يكون ملما بعلوم الفلسفة وبعض اللغات الاجنبية ، ولا سيما السريانية واليونانية ، الى جانب اتقانه صناعة الطب . وقد نبغ جمهرة من الاطباء الذين كانوا يتنقلون من بلد الى آخر ، ويجمعون حولهم المشتغلين بعلوم الطب والفلسفة والحكمة وما الى ذلك ، وأشهرهم :

١ ـ **عبد اللطيف البغدادي** ، من فلاسفة الاسلام ، وأحد العلماء والاطباء المكثرين من التصنيف . أصله من بغداد ، ولكنه أقام مدة في حلب ، وزار مصر ، والقدس ، ودمشق ، وحران ، وبلاد الروم والحجاز وغيرها ، وحظي عند الملوك والامراء . وتوفي ببغداد سنة ٦٢٩ هـ (١٢٣١ م) .

وعندما نزل مصر ، انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين خليفة بن يونس (جد ابن أبي أصيبعة) ودرس ولديه سديد الدين القاسم (والد ابن أبي أصيبعة) ، ورشيد الدين عليا ، وغيرهما ٠

٢ ـ **ابن البيطار المالقي** ، عالم النبات ، والعشاب المشهور ٠ وفد من مالقة ، بالاندلس ، الى مصر بعد أن رحل الى بلاد اليونان والروم ، باحثا عن الاعشاب والعارفين بها ، حتى كان الحجة في معرفة أنواع النبات وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه ٠ كما جاب في شبابه افريقيــة ولا سيما القسم الشمالي منها ، وأقام في دمشق مدة ، يخرج الى غوطتها وبساتينها ومنتزهاتها ، ويدرس ما فيها من النباتات ٠ وهناك اجتمع به ابن أبي أصيبعة وأفـــاد منه كثيرا ٠

وتوفي ابن البيطار سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) بعد أن صنف عدة كتب أشهرها كتابه العظيم « الادوية المفردة » ويعرف بمفردات ابن البيطار ٠

٣ ـ **ابن النفيس القرشي** ، امام الطب في زمانه ، وأحد من انتهت اليهم معرفته ، الى جانب المامه بالفقه وعلم الاصول والحديث واللغة والمنطق ٠ وهو مكتشف الدورة الدموية الصغرى ٠ ولد في دمشق ، وانتقل الى القاهرة ، وأصبح رئيس البيمارستان الناصري فيهـــا ٠ وتوفي بمصر سنة ٦٨٧ هـ (١٢٨٨ م) وهو في نحو الثمانين من عمره ٠



ذلك تطواف قصير تناولت فيه عصر ابن أبي أصيبعة الذي ولد في أواخر القرن السادس للهجرة ٠ وهو موفق الدين ، أبو العباس ، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي ، المعروف بابن أبي أصيبعة ٠

ولد في دمشق ، وقد اختلف في تاريخ ولادته ٠ والاجماع واقع على أن وفاته كانت سنة ٦٦٨ هـ ٠ وأرجح الروايات أنه كان يومئذ قد نيف على السبعين ٠ وعلى هذا تكون ولادته نحو سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) ٠ وهناك أقوال أخر تذهب الى أنه ولد سنة ٥٩٠ هـ ، أو ٥٩٥ ، أو ٦٠٠ ٠ كما أن هناك روايات قليلة تذهب الى أنه ولد في القاهرة ٠

وينتمي ابن أبي أصيبعة الى أسرة طبية تنقل بعض أفرادها بين مصر وبلاد الشام ، واشتهر منهم ثلاثة : جده الادنى ، وأبوه ، وعمه :

فأما جده ، فهو خليفة بن يونس الذي كان في أول أمره سنة ٥٦٢ هـ من أتباع صلاح الدين الايوبي ، ابان خدمته لعمه شيركوه في القاهرة · ثم انتقل الى حلب فخدم صاحبها مدة ، وعاد بعدها الى القاهرة · وصادف قدوم الطبيب عبد اللطيف البغدادي ، فانعقدت بينهما أواصر الصداقة ، ودرس البغدادي ولدي خليفة : القاسم وعليا (الآتيين) ·

وأما أبوه : فهو سديد الدين ، القاسم بن خليفة ، الذي ولد في القاهرة سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) ، ودرس فيها الطب على عدد من الاطباء في البيمارستان الناصري وغيره ، من مثل عبد اللطيف البغدادي ، وأبي حجاج يوسف السبتي ، وغدا طبيبا ماهرا ولا سيما في علم الكحالة (طب العيون) ·

وفي عام ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) أبرأ الملك العادل الايوبي سيف الدين من رمد شديد ، والتحق منذ ذلك الحين ببلاط سلاطين الشام ، وعين ناظرا للكحالين بدمشق ، حتى توفي سنة ٦٤٩ هـ (١٢٥١ م) · وقيل : كانت وفاته سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) ·

وأما عم ابن أبي أصيبعة : فهو رشيد الدين ، علي بن خليفة ، الطبيب الموسيقي الاديب · ولد في حلب سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) حيث كان أبوه « خليفة » يعمل في خدمة صاحبها ، ثم توجه مع أبيه الى مصر ، ودرس الطب في القاهرة على عبد اللطيف البغدادي وغيره ، واشتغل بهذه الصناعة ، ثم انتقل الى دمشق سنة ٥٩٣ هـ وباشر بعلاج المرضى في البيمارستان النوري الكبير ، وجعل له مجلسا لتدريس صناعة الطب ، وكان كحالا فيه · وتوفي في دمشق سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ، بعد أن صنف عدة كتب طبية وحسابية ·

في هذه البيئة ، وفي تلك الاسرة التي أخذت من الطب بقسط وافر ، نشأ صاحبنا أحمد بن سديد الدين ، الذي كان أشهر أفراد أسرته ، واليه يصرف الانتباه اذا ذكر ابن أبي أصيبعة مطلقا ، مع أن جده من قبله كان يعرف بذلك أيضا ·

ولا نعرف الكثير عن نشأته ودراسته ، ومن ذلك اشارات أوردها في كتابه « عيون الانباء » خلال ترجمته للعلماء والاطباء الذين أخذ عنهم أو التقاهم واجتمع بهم ·

ولا شك أن نشأته العلمية الاولى كانت في كنف أبيه سديد الدين القاسم ، الطبيب الكحال ، ومن حوله من علماء الطب والفلسفة ، كالطبيب الباحث رفيع الدين عبد العزيز بن عبد الواحد الجيلي ، الذي تميز في علوم الطب والحكمة والدين ، وسكن دمشق ، وأصبح قاضي القضاة فيها · وكانت وفاته سنة ٦٤١ هـ (١٢٤٤ م) ·

هذا الى ما درسه ابن أبي أصيبعة من فنون في علم التفسير ، والحديث ، والادب على نفر من علماء زمانه ، حتى أصبح من ذوي الثقافة « الموسوعية » ومن جملة المعارف المتنوعة ٠

على أن دراسته الجادة المتعمقة كانت في الطب ، ولا سيما الكحالة (طب العيون) ٠ فقد درس دراسة علمية وعملية في البيمارستان النوري بدمشق ، وتمرن فيه مدة ٠ وكان من أساتذته العاملين في هذا البيمارستان : رضي الدين الرحبي ، وشمس الدين الكلي ، ومهذب الدين الدخوار ، وعمران بن صدقة ٠

كما تتلمذ أيضا لابن البيطار المالقي ، وقد اجتمع به في دمشق سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) وصحبه في رحلاته للكشف عن النباتات في مواضعها من أرباض دمشق ٠

وكان ابن أبي أصيبعة خلال ذلك يتردد أحيانا على مصر للتوسع في دراسة الطب ، ومواصلة الاطلاع والبحث ، ويعمل أيضـــا في البيمارستان الناصري طبيبا ، ويفيد ـ في الوقت نفسه ـ من دروس السديد بن أبي البيان ، الطبيب الكحال ، والعالم بالاقرباذين ٠ وكان معه ترب له وصديق ، هو ابن النفيس القرشي ٠ غير أن ابن النفيس كان أذكى وأبرع ٠ فقد اكتشف الدورة الصغرى للدم، بينما بقي ابن أبي أصيبعة كحالا في البيمارستان الناصري ، قبل عودته الى دمشق اثر آخر رحلة له الى مصر سنة ٦٣٤ هـ أو ٦٣٥ ٠

وعلى هذا النحو ، استطاع أن يحيط بما تلقاه وأخذه من الدراستين النظرية والعملية ، وينصرف في الوقت نفسه الى جمع أخبار الاطباء ، والبحث في تاريخ الطب ، عند العرب ، واليونان ، والسريان ، والهنود وغيرهم من الامم ، منذ أقدم العصور حتى عصره ، في الوقت الذي كان ينصرف فيه الى الطبابة والعمل في البيمارستان النوري بدمشق ٠

وفي أواخر سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) دعاه اليه صاحب مدينة صرخد (وهي اليوم صلخد ، في سورية) : الامير عز الدين أيبك المعظمي ، فرحل اليه ودخل في خدمة هذا الامير الذي جعلـه طبيبه الخاص ، وصادف عنده اجلالا واكراما عظيمين ٠

وبقي ابن أبي أصيبعة في كنف ذلك الامير ، حتى أخذت منه صرخد سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٧ م) ، أخذها منه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، وحمله الى القاهرة واعتقله هناك ، فبقي في موضع اعتقاله حتى توفي سنة ٦٤٦ هـ على الارجح ٠ وهناك روايات أخرى تذكر أن وفاة عز الدين أيبك كانت سنة ٦٤٥ أو ٤٧ أو ٥٤ هـ ٠

ويبدو أن المقام في صرخد قد طاب لابن أبي أصيبعة بعد ذلك • فقد ذكروا أن وفاته كانت هناك سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) • ولكن تلك المصادر لا تذكر شيئا من أخباره في تلك الاربع والعشرين سنة التي خلت ، والتي أعقبت عزل ولي نعمته عن صرخد • ونرجح أنه كان يتنقل خـــلال هذه السنوات بين دمشق وصرخد ، وهذا ما توحي به بعض المصادر والمراجع التي تذكر أنه ألف كتابه « عيون الانباء » في دمشق سنة ٦٤٣ هـ أو سنة ٦٤٠ هـ ، كما سيأتي ، وأنه كان يعمل في البيمارستان النوري الكبير وقتئذ •

وهنا يبدو اضطراب بعض المراجع في الكلام على هذه المرحلة من حياة ابن أبي أصيبعة ، فتذكر خطأ أنه لازم صاحب صرخد حتى وفاته ، مع أنه عزل عن الامارة سنة ٦٤٤ هـ كما قلنـا • كما يـذكر فريق من المعاصرين ـ بروكلمان ، وزيدان ، وسركيس ـ أن اسم صاحب صرخد هو « عز الدين أيدمر » ، وهذا خطأ محض ، صوابه : « عز الدين أيبك » •



وقد صنف ابن أبي أصيبعة في حياته عددا من الكتب التي تتصل بالجوانب العلمية والادبية والثقافية التي عرف بها • فقد رأينا أنه كان ذا دراية تامة بعلم الطب ، خبيرا بمزاولة فنون العلاج ، ولا سيما طب العيون وأمراضها ، مما كان يطلق عليه اسم « الكحالة » ـ بكسر الكاف ـ ويعرف صاحبهـــا بالكحال • شأنه في ذلك شأن جده ، وأبيه ، وعمه ، من قبله •

وكان الى ذلك عالما بالتاريخ والسير ، مطلعا على الفلسفة والنجوم ، والفقه ، والادب ، والحديث ، ونوادر الاخبار ، ناظما للشعر محبا له • وما ألفه من كتب : يقوم على ثلاثة علوم اشتهر بها وبرز فيها ، وهي الطب ، والتاريخ ، والادب • وهذه الكتب قليلة اذا قيست الى شهرته ومناصبه وأعماله العلمية والطبية ، ولمعاصريه من الاطباء والحكماء كشوف طبية ، وفنون من العلاج ، وآثار علمية تفوقوا فيها عليه ، كعبد اللطيف البغدادي ، وابن البيطار ، وابن النفيس •

ومصنفاته التي وصل اليها علمنا هي :

١ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء : وهو أعظم كتبه وأشهرها •

٢ ـ اصابة المنجمين (أو : اصابات المنجمين) •

٣ ـ حكايات الاطباء في علاجات الادواء •

٤ ـ معالم الامم وأخبار ذوي الحكم : ذكره في مقدمة عيون الانباء ، وأشار الى أنه شمل جميع الحكماء وأصحاب التعاليم وغيرهم من أرباب النظر في سائر العلوم ، اذ أنه جعل « عيون الانباء » مقتصرا على جماعة من الحكماء والفلاسفة ممن لهم نظر وعناية بصناعة الطب ٠

٥ ـ التجاريب والفوائد : لم يتم تأليفه ٠

٦ ـ كتاب الادوية المركبة ٠ وهذا الكتاب انفرد بذكره محمد الخليلي ، من المعاصرين في كتابه « معجم أدباء الاطباء » ٠

وقد فقدت هذه الكتب كلها ، ما عدا كتابه الاول « عيون الانباء في طبقات الاطباء » الذي يرد اسمه في بعض المصادر القديمة : « طبقات الاطباء » تارة ، و « تاريخ الاطباء » تارة أخرى ٠

ويقال ان ابن أبي أصيبعة بدأ بتأليف هذا الكتاب منذ سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وأتمه سنة ٦٤٣ هـ كما جاء في الاعلام للزركلي ، ودائرة المعارف للبستاني ٠ لكن كاتب ترجمته في دائرة المعارف الاسلامية يذهب الى أنه كان يؤلف كتابه خلال عمله في البيمارستان النوري ودراسته للطب فيه على مهذب الدين الدخوار المتوفي سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وعلى عمران بن صدقة المتوفي سنة ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) ، وأنه انتهى من تأليفه في حدود سنة ٦٤٠ هـ ، مع أن هؤلاء وغيرهم قالوا انه كان في هذه المدة عند صاحب صرخد ٠ وهذا يؤكد ما أسلفناه من أنه كان يعد مواد كتابه في وقت مبكر ، وعلى مدى سنوات متعاقبة ٠

والمعروف أن ابن أبي أصيبعة ألف هذا الكتاب برسم الوزير الطبيب أبي الحسن ، أمين الدولة بن غزال السامري ، وزير الملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل ، والمتوفي سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) ، وأنه ـ بعد أن جمع كتابه بين الدفتين ـ لم ينقطع عن معاودة النظر فيه ، وتتبعه بالزيادات والاصلاحات حتى وصل بتراجم من ذكرهم الى سنة ٦٦٧ هـ ، أي قبل وفاته بسنة واحدة ٠ ولهذا كان بين نسخة المخطوطة اختلاف بين ٠ زد على ذلك أن بعض تلامذة المؤلف أضافوا أشياء بعد وفاته الى ما كان بين أيديهم من النسخ ٠

ولا يبعد أن يكون من أسباب الاختلاف أيضا أن ابن أبي أصيبعة ضمن كتابه بعض أشعار ونوادر لا يرضى عنها بعضهم في كتاب جاء غاية في الكمال والعلم ، وان أراد هو أن يجعل بها كتابه مرجعا كبيرا وموردا فائضا بكل أطروفة وأطروبة ، ولذلك كان يحذف تلك الزائدات حين يهدي نسخا الى بعض من يغلب عليهم الوقار ٠ ومن رآهم يحبون الاشياء على أصلها ، استنسخ لهم من كتابه نسخة تامة ٠

طبع كتاب « عيون الانباء »أول مرة في المطبعة الوهبية بمصر « سنة ١٢٩٩ هـ الموافقة سنة ١٨٨٢ م » بعناية المستشرق الالماني مولر Müller في جزأين ، الا أن تمام طبع الجزء الثاني كان في أوائل شوال سنة ١٣٠٠ هـ ، كما ورد في آخره • وأطلق ذلك المستشرق على نفسه في هذه الطبعة اسم « امرىء القيس بن الطحان » •

على أن تصرف الناشر المصري « مصطفى وهبي » في تحقيق نص الكتاب وفي فهارسه ، دفع « مولر » الى أن يعقب على ذلك بنشر كتاب جعله ملحقا لعيون الانباء ، وطبعه سنة ١٨٨٤ م في « كونغسبرغ » بعنوان : « ابن أبي أصيبعة ـ تحقيق : أوغست مولر » وضمنه بالالمانية مقدمة وتصحيحات واستدراكات على تلك الطبعة المصرية ، وذيله أيضا بفهرس لكتاب عيون الانباء ، وفيه أسماء وأرقام غفل عن أكثرها الناشر المصري ، مع أنها وردت في نسخة الاصل •

ثم ظهرت الطبعة الثانية من كتاب « عيون الانباء » في بيروت سنة ١٩٦٥ م ، في مجلد واحد ضخم ، باشراف د• نزار رضا ، وهي طبعة محشوة بالاخطاء المطبعية وغيرها • وأعقبتها طبعة أخرى في بيروت أيضاً سنة ١٩٧٩ م (١٣٩٨ ـ ١٣٩٩ هـ) ، جعلت في ثلاثة أجزاء ، وكتب مقدمتها سميح الزين ، الا أن كلامه على طبعات الكتاب فيه بعض الاوهام العلمية والتاريخية ، شأنه في ذلك شأن كثير ممن خاضوا هذا الموضوع •

كما طبع قسم من الكتاب بعنوان : (كتاب عيون الانباء في طبقات الادباء ـ الباب الثالث عشر : في أطباء افريقية والاندلس) • اعتنى بنشره : نور الدين عبد القادر ، وهنري جاهيه ، وطبع في الجزائر ١٩٥٨ م ضمن منشورات كلية الطب والصيدلة •

ويعد كتاب « عيون الانباء » من أهم المصادر في دراسة تاريخ الطب عند العرب • وقد اعتمد في تصنيفه على مصادر كثيرة ، ظفر بها في مكتبة أستاذه وزميله في البيمارستان النوري بدمشق ، وهو عمران بن صدقة ، الذي جمع لديه مكتبة حافلة وغنية بالمؤلفات الطبية القيمة ، فأمكن ابن أبي أصيبعة أن يفيد منها ما شاء في اكمال ثقافته من جهة ، وفي تأليف كتابه من جهة أخرى •

والكتاب يضم تراجم الاطباء والحكماء المشهورين من عرب وأعاجم من عهد اليونان الى عصر المؤلف ، حتى بلغ عددهم حوالي (٤٠٠) ، رتبهم ترتيبا زمنيا في طبقات موزعة على خمسة عشر بابا ، في مختلف الاقاليم والاقطار والدول : كاليونان ، والعراق ، وبلاد العجم ، والهند ، والمغرب ، وديار بكر ، والجزيرة ، وديار مصر ••• الخ •

وفي الكتاب أيضا تفاصيل وافية عن الحياة الاجتماعية والعلمية ، في العالم الاسلامي ، فضلا عما يشتمل عليه من الفوائد الاجتماعية والادبية والاقتصادية ، حتى أصبح بذلك كله مصدرا عظيم الاهمية مكملا لما كتبه سابقوه من التواريخ العامة وكتب التراجم ٠

وللادب نصيب وافر في هذا الكتاب ٠ فقد حوى قدرا صالحا من الاشعار والنصوص الادبية والاخبار المستملحة والروايات المستجادة ٠

فلا عجب أن يحظى باعجاب الباحثين ، على اختلاف مشاربهم ، وأن يعتمد عليه كل من ألف في الطب الاسلامي من الغربيين ، وفي مقدمتهم « فستنفلد » الالماني في كتابه « تاريخ الطب » ، و « لوكليرك » في كتابه « تاريخ الطب العربي » الذي ألفه بالفرنسية وطبعه في باريس سنة ١٨٧٦ م ٠

المصادر والمراجع

١ ـ الاعلام : خير الدين الزركلي ـ الطبعة الثالثة ٠

٢ ـ البداية والنهاية : ابن كثير ـ مطبعة السعادة بمصر ٠

٣ ـ تاريخ آداب اللغة العربية : جرجي زيدان ـ بيروت ١٩٦٧ ٠

٤ ـ تاريخ الادب العربي (ج٣) : د٠ عمر فروخ ـ بيروت ١٩٧٢ ٠

٥ ـ تاريخ الادب العربي : بروكلمان (الطبعة الالمانية) ٠

٦ ـ تاريخ الاسلام السياسي : د٠ حسن ابراهيم حسن ـ القاهرة ٠

٧ ـ تاريخ البيمارستانات في الاسلام : د٠ أحمد عيسى ـ دمشق ١٩٣٩ ٠

٨ ـ دائرة المعارف (ج٢) : بادارة فؤاد افرام البستاني ـ بيروت ١٩٥٨ ٠

٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية (الطبعة المترجمة) ـ ط٠ دار الشعب ١٩٦٩

١٠ـ دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي ـ بيروت ١٩٧١ ٠

١١ـ الدارس في تاريخ المدارس : عبد القادر النعيمي ـ دمشق ١٩٥١ ٠

١٢ـ شذرات الذهب : ابن العماد الحنبلي ـ بيروت ٠

١٣ـ عيون الانباء : ابن أبي أصيبعة ـ بيروت ١٩٦٥ ٠

١٤ـ كشف الظنون : حاجي خليفة ـ طهران ١٩٦٧ ٠

١٥ـ معجم أدباء الاطباء : محمد الخليلي ـ النجف ١٩٤٦ ٠

١٦ـ معجم المطبوعات العربية والمعربة : يوسف سركيس ـ مصر ١٩٢٨ ٠

١٧ـ النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي ـ الطبعة المصورة ٠

١٨ـ هدية العارفين : اسماعيل البغدادي ـ طهران ١٩٦٧ ٠

١٩ـ الوافي بالوفيات : الصفدي ـ بيروت ١٩٦٩ ٠

مناقشة ابن أبي أصيبعة
في مقولته
عمن دفع ابن زهر لتأليفه « كتاب التيسير »

فاضل السباعي

١ ـ عبد الملك بن زهر وأسرته :

في العام الماضي (١٤٠٣ هـ/١٩٨٣) صدر في دمشق ، عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (ومقرها تونس) ، « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » للطبيب العربي الاندلسي أبي مروان عبد الملك بن زهر ، بتحقيق الدكتور ميشيل الخوري وتقديم الدكتور محي الدين صابر المدير العام للمنظمة(١) .

ولقد أجمع مؤرخو الطب العربي على أن ابن زهر ، المولود في اشبيلية(٢) والمتوفى فيها سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢) ، هو واحد من أكبر الاطباء العرب والمسلمين عبر التاريخ ، فضلا عن أنه كان في عصره أعظم الاطباء . عمل طبيبا لدى أمراء المرابطين الذين انتهت دولتهم سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ، ثم أصبح مقربا من الخليفة عبد المؤمن بن علي أول أمراء الموحدين الذين

---

(١) تم طبع الكتاب ، وهو في ٥٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، في دار الفكر بدمشق ، وباشراف من مجمع اللغة العربية . وقد تضمن « تقديم » الكتاب شكرا يسديه الدكتور صابر الى العالم الاديب الدكتور عبد الكريم اليافي ، عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، الذي راجع الكتاب على أصوله المخطوطة ... ـ بسبب وفاة محققه ـ وأشرف على طباعته بجهد كبير ومعرفة وثيقة ، تساعده الآنسة سكينة الشهابي احدى العاملات بنشاط ومقدرة في المجمع اللغوي بدمشق ، « التيسير » : الصفحة هـ .

(٢) لا يزال عام مولد عبد الملك بن زهر مجهولا . وقد قدر المستعرب الفرنسي الطبيب غابرييل كولان أن يكون مولده في عام ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) أو بعد ذلك بثلاثة أعوام ، على حين رجح معجم لاروس الكبير عام ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ، وهو التقدير الذي اعتمده المجلس الاعلى للعلوم في سورية كي يتسنى له أن يحتفل بالذكرى التسعمائة لمولده عام ١٩٧٢ (راجع كتاب « الطبيب العربي الاندلسي عبد الملك بن زهر الايادي بمناسبة الذكرى التسعمائة لمولده ، أسبوع العلم الثالث عشر ١٩٧٢ » ، الصفحة : ١١٧ ، ١٧٨) .

تغلبوا على المرابطين وآل اليهم حكم المغرب والاندلس . ويرى محقق الكتاب أن ابن زهر قد بلغ هذا الحد من التفوق لثلاثة أسباب جوهرية هي : « انقطاعه الى الطب دون غيره من العلوم ، وتجرده من قيود التقليد التي تمسك بها سواه من أطباء عصره ، واعتماده على دقـــة الدراسة السريرية في تشخيص الامراض ومداواتها » (٣) .

على أن الاسرة التي أنجبت الطبيب عبد الملك بن زهر ، المكنى بأبي مروان ، قد أعطت المجتمع العربي في الاندلس ، على مدى ثلاثة قرون خمسة أطباء آخرين قبل أبي مروان وبعده ، أولهم جده عبد الملك بن أبي بكر بن زهر ، ثم أبوه زهر بن عبد الملك ، ورابعهم ابنه محمد ، ثم عبد الله بن محمد ، وآخرهم محمد بن عبد الله بن زهر .

ومما تفرد به الاطباء من بني زهر أنهم لم يؤلفوا بغير الطب ، عدا الرابع (الملقب بالحفيد) أبا بكر محمد بن عبد الملك بن زهر ، الذي اشتغل ـ أيضا ـ بالفقه واللغة والادب ، وقد عرف شاعرا رقيقا مطبوعا في موشحاته التي منها :

أيها الساقي ، اليك المشتكى قد دعوناك وان لـم تسمع

ومع أن كلا من هؤلاء الاطباء الستة يحمل كنية ابن زهر ، الا أنه اذا ذكر « ابن زهر » ، دون اتباع هذه الكنية اسما أو كنية أخرى ، كان المقصود أبا مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن زهر ، دون غيره من أطباء هذه الدوحة الطبية العريقة .

٢ ـ مؤلفات ابن زهر وأهمية « كتاب التيسير » :

ذكر ابن أبي أصيبعة ، في كتابه الموسوعي الشهير « عيون الانباء في طبقات الاطباء » ، أن لابي مروان عبد الملك بن زهر سبعة كتب هي : التيسير في المداواة والتدبير ، الاغذية ، الزينة ، تذكرة في أمر الدواء المسهل ، مقالة في علل الكلى ، رسالــة في علتي البرص والبهق ، وأخـيرا تذكرة بعـــلاج الامراض(٤) . الا أنه لم يصلنا من كتب أبي مروان الا «التيسير» و «الاغذية»،

---

(٣) « التيسير » : الصفحة ط .

(٤) طبقات الاطباء : ٦٧ .

وكتاب آخر لم يرد بين ما عدد ابن أبي أصيبعة هو « الاقتصاد في اصلاح الانفس والاجساد »(٥) ٠

فأما « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » ، الذي يعتقد أن ابن زهر لم يؤلفه الا بعد أن نضج علمه واكتملت اختباراته ، فان فيه يتجلى نبوغ مؤلفه ، الطبيب الذي حارب الخرافات والاباطيل ، وكافح الدجالين والمنجمين، وكان في زمانه مثالا للرجل الذي يحطم قيود التقليد ، ويحكم المنطق في تفكيره ، ويصدر في كل أعماله عن أساليب التجربة والقياس (٦) ٠

ولعل أول دليل على أهمية هذا الكتاب أن صاحبه لم يكد ينفض يده من تأليفه حتى بادر النساخ الى نسخه والمترجمين الى ترجمته ٠ فقد نقل الى اللغة العبرية ومنها الى اللاتينية أكثر من مرة ، كما نقل الى اللاتينية عن الاصل العربي مباشرة ٠ وأكثر من هذا وذاك أن ترجمته اللاتينية « بقيت أحد الكتب التي تدرس في جامعات أوربة ، مثل جامعتي لوفان ومونبلييه ، حتى نهاية القرن الثامن عشر » (٧) ٠

ولقد جارى مؤرخو الطب في العالم الباحثين العرب في تقديرهم لهذا المؤلف النفيس ، فأشادوا به في موسوعاتهم ٠ وفي مطلع القرن العشرين ، كان المستعرب الفرنسي الطبيب غبرييل كولان Gabriel COLIN ، الذي عرف بعنايته بالطب العربي وتاريخه ، قد أعد أطروحته الاساسية للحصول على درجة الدكتوراه بعنوان « ابن زهر : حياته وآثاره » (٨) ٠ وفي احدى المحاضرات التي ألقيت في أسبوع العلم الثالث عشر ، أشار المستعرب الاسباني الدكتور سلفادور غوميث نوغاليث الى مستعربة اسبانية هي « أستاذة في جامعة

---

(٥) تجدر الاشارة هنا الى أن الدكتور اليافي يرى أن كتاب « الزينة » ، الذي ذكره ابن أبي أصيبعة ، ربما كان هو كتاب « الاقتصاد » ، اذ كان يشتمل على فصول تبحث في الزينة أو ما ندعوه اليوم بالتجميل ، كتاب « معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » لليافي ، دمشق ١٩٨٢ ، بحث عنوانه « كتاب الاقتصاد ٠٠٠ » ، وهو الذي كان قد ألقاه محاضرة في الاحتفال بالذكرى التسعمائة لمولد ابن زهر عام ١٩٧٢ ٠ ولقد عاد اليافي فأشار في أحد هوامش « كتاب التيسير » الى أن كتاب « الزينة » هو كتاب « الاقتصاد » وعرف بالزينة لكثرة الحاجه (أي ابن زهر) فيه عليها ، « التيسير » : ٦ ، الحاشية ٨ المنتهية بالحرف « ي »٠

(٦) من مقدمة المحقق : الصفحة ط ٠

(٧) من تقديم الدكتور محي الدين صابر : الصفحة ج ٠

(٨) Gabriel COLIN., agrégé d'arabe, docteur en médecine et docteur ès - lettres, Chargé de cours à la Faculté des Lettres d'Alger.

مدريد ، قدمت أطروحة عن ابن زهر، وهي تحاول أن تحرر الطبعة النقدية لأعماله وأقصد بها الدكتورة Rosa KüHNE ، وهذا الاعداد يتناول سيرته بقدر ما يتناول أعمال ابن زهر » (٩) ٠

وهكذا يمكن للباحث أن يعد « كتاب التيسير » من أعظم كتب الطب العربية ، وهو في مرتبة كتاب « الحاوي » للرازي و « القانون » لابن سينا و « كامل الصناعة في الطب » لعلي بن العباس و « التذكير » لعلي بن عيسى و « التصريف لمن عجز عن التأليف » لابي القاسم الزهراوي القرطبي و « زاد المسافر وقوت الحاضر » لابن الجزار ٠٠٠

٣ ـ قراءة أديب ، لا قرأة طبيب !

يتألف « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » من سفرين اثنين ومن ملحق بهما(١٠) ٠ ويبدأ ابن زهر في أول السفرين بفصل قصير في حفظ الصحة ، ثم يأخذ بذكر الامراض وعلاجها مبتدئا بعلل الرأس ٠٠٠ وبعد أن يختتم سفره الثاني بالكلام على الحميات والبحارين والامراض الوبائية ، يستهل الملحق ـ الذي سماه « الجامع » ـ بقوله : « وهذا جزء لمن كان بمعزل عن الطب القياسي وعن النظر الصناعي ، يشتمل على علاجات بأشربة ومعاجين وأدهان مما يحدث في البدن من الامراض والاعراض بحول الله ٠٠٠ » (١١)٠

أكببت على الكتاب أقرؤه بامعان ٠ وغني عن البيان أن قراءتي اياه كانت قراءة أديب لا قراءة طبيب !

ولقد شاقني في الكتاب مدى علم الرجل بمهنته واخلاصه لها ، وثقته بنفسه تلك التي أسسها على المعرفة والممارسة والمحاكمة العقلية ، ولكنها ثقة لا تعفيه من أن يعترف بعجزه ازاء حالات مرضية ميئوس من شفائها ٠٠٠ استمع اليه وهو يتحدث عن أورام الارحام ، ثم يسترسل الى ما يسميه «التآكل»

---

(٩) أسبوع العلم الثالث عشر ، الكتاب الاول : كلمات الافتتاح والمحاضرات العامة : صفحة ٢٩٤ ٠

(١٠) حرص المشرفون على تحقيق الكتاب وطبعه ، أن يضيفوا اليه فهارس بالمصطلحات الطبية وأسماء الادوية والاغذية المفردة والمركبة ، التي وردت في الكتاب ، مرتبة حسب الاحرف الهجائية ، مع مقابل كل منها بالفرنسية التي أضيفت اليها في أحد الفهارس اللغة اللاتينية ٠ أعد الفهارس ، بعناية واضحة ، الدكتور مختار هاشم ٠

(١١) التيسير : ٤٣٦ ٠

في الرحم ، فيعلن أن علاج هذه العلة عسر ، ويروي أنه ، وهو فتى حدث السن ، قد « جاءني شيخ كبير من العرافين ، كان يعرف بـ « الطماطـي » ، وأخبر أن بعض من عنده ممن كان يعز عليه ، أصابه ذلك • فما زلت أجتهد له حتى عجزت • فأعلمت الشيخ أبي ، رحمه الله ، عناية بأمره ، فأياس من البرء ، ورسم علاجا ، وأخبر أن العلة قاتلة بطبعها •• » (١٢) •

ويلاحظ قارىء الكتاب صراحة في ابن زهر وبعدا عن المداهنة ، مع مراعاة لما ينبغي أن يعامل به الطبيب من قبل المريض من الاحترام حتى ان كان المريض أميرا ! ففي شرحه لذلك الورم الخبيث الذي « ياكل ويدب أكله في اللحم الصحيح دبيبا ، وربما انتهى الى جزء كبير من اليد ومن الرجل ، وهذا يسميه الناس « داء الشوكة » في هذا الزمان » ، وقد يتقيح هذا النوع من الورم وينفجر ، فان الورم حينئذ يخبث ، وقلما يؤثر العلاج فيـه ، وخاصة ان اسودت أجراف الورم وصلبت ••• ويتابع أبو مروان حديثه فيقول ان « سنقور »(١٣) دعاه اليه ، « فوجدته وحوله أقوام متطببون • فعرض علي أمره ، وأخرج قدمه وكاد يضعها في حجري على ما عوده أولئك المتطببون ، فانكمشت ! ورأيته قد فسدت أجراف الموضع ، فقلت : « ليس يمكنك أن تبرأ حتى يزيل « صانع اليد »(١٤) هذه الاجراف السود » ، فخارت طباعه ، وقال أطباؤه ، ارضاء له وجريا على هواه ونسوا وصايا القدماء في ترك المداهنة ، قالوا : « وبالادوية يمكن ازالتها ! » ، فقلت لهم : « أما أنا فلا أرى ذلك ولا أفتي به ولا أغرر ، فان الدواء الذي يزيل ذلك ويذهبه انما يكون من الادوية الحادة ، وليس يصل الى اذابة هذا اللحم الفاسد الا وقد غير ما وراءه فيعود فاسدا ! » ، فزعموا أنهم يفعلون ذلك ، فقلت : « أما أنا فلا أقدر على هذا ! » وخرجت عنه • فلم يعدم ممن كان حاضرا أن أغروه وقالوا : « لم يقدر أن يكتم بغضه ! » • ومع أني كنت أبغضه لم أقل الا حقا ، فهم بضربي ، فقام دفاع الله دون ذلك ، ولم يزدهم طبهم الا بطلانا وشرا » ! (١٥) •

ولقد كان جديرا بها أن تستوقفني طويلا الاستطرادات ، المفعمـة بالمرارة ، تلك التي كانت تند عن ابن زهر وهو يتحدث في الطب ، في تنكيل ناله من السلطان ، وضرب ومطاردة واعتقال !

---

(١٢) التيسير : ٣٠٨ •

(١٣) يبدو أن « سنقور » هذا حاكم أو متنفذ ، وهو بغيض الى قلب أبي مروان ، فهو يذكر اسمه مسبوقا بكلمة « الشقي » !

(١٤) الجراح ، بمصطلحنا اليوم • وقد كان ، في الماضي ، بمرتبة أدنى من الطبيب ، كما يبدو !

(١٥) التيسير : ٣٨٧ ، ٣٨٨ •

يقول : « وقد عرض لي ، عند تجولي منفيا في البلاد ، ... » ! (١٦) ، وكان قبل ذلك قال : « نالني تنكيد شديد بامتحان « علي » (١٧) لنا لقولة حقـــدها على الشيخ أبي رحمـــه الله ، فأمر فينـــا بكل وجـه من وجوه الانتقام » ! (١٨) ... واشارته هذه كانت بصدد ذكره لما « يحدث في الصدر ــ في الغشاء الذي يقسمه طولا والرئة والقلب منوطة به ــ أن يرم (...) وورم هذا العضو يتبعه سعال ملح ، ووجع يمتد طولا الى اللبة ، واختلاط في الذهن وحمى حادة » (١٩) . ويستشهد بما وقع له من طعن في صدره انتابته معه الحمى ... يقول : « فلما أردت النوم وجدت حس الوجع في القسم المذكور مستطيلا ، فلم أنزل من مضجعي الا والامر قد تفاقم ، والسعال قد ألح الحاحا كثيرا ، ووجدت نبضي صلبا شديد الصلابـة ، وفي خلال ذلك التهبت بي حمى حادة (...) ثم اني ، في الغـــد ، احتجت الى الانتقال ، فانتقلت راكبا والنكد لا يفارقني في ذلك كله ، والذعر والتوقع ملازمان لي (...) فلسبعة أيام تراجع الى ذهني . وبقيت لا أعرف من أنا ، وبعد لاي وفكرة عقلت شيئا (...) وتذكرت أمري كله ، فسألت عن أبي ما صنع به ، وعن ولدي ؟ فقيل لي : « هما في العدوة » ، فغلبني الاسف وقلت : انما قتلا عندما طعنت هذه الطعنة في صدري ، وعندما ضربت هذه الضربة في رأسي التي لا أقدر أن أرفع رأسي معها ! ثم غلبني الذعر من « علي » ، وخشيت أن أقتل ، فوصيت بأن يخفى أمري ولا يعلم أحد أني حي ... » !! ولم يفت الطبيب الاديب أن يختتم روايته بقوله : « ولم أزل بعد ذلك أتدرج رويدا رويدا الى أن عدت الى حالي . وانما ذكرت مرضي وما نالني من أعراضه ليكون كالمثال »(٢٠) .

وانا لنعلم ، كذلك ، أن ابن زهر قد دخل السجن على عهد علي بن يوسف بن تاشفين . يشير الى ذلك في أثناء حديثه عن « الثآليل التي تحدث في المعدة » : فقد « رأيت منها ، عندما سجنني الشقي « علي بن يوسف » في سجنه ، رجلا من قومه كان مسجونا يسمى «بواذودين » ، كان لا يهضم طعامه ، وكانت به حمى غير لازمة لنظام (...) فلما نظرت في بطنه وجدت أسفل

---

(١٦) التيسير : ٢٥١ .

(١٧) علي بن يوسف بن تاشفين : ثاني أمراء دولة المرابطين ، خلف أباه في حكم المغرب والاندلس من ٤٣٧ هـ ــ ٥٠٠ هـ ، عرف بالشدة والحزم .

(١٨) التيسير : ٢٣٣ .

(١٩) التيسير : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(٢٠) التيسير : ٢٣٣ ــ ٢٣٥ .

معدتـــه قدر تفاحة صلبة لم تكن تؤلم الرجل ، فلما شددت عليهـا أحس بالالم (٠٠٠) فآنسته وأنا أعلم أنه ميت لا محالة ، وعالجته بما يسكن من أعراضه (٠٠٠) الى ليلة رغب في وصولي اليه ، فوجدته كالمغضب علي ، وتخيل أني بسبب أني موتور من سلطانه لم أجتهد له (٠٠٠ ثم مات) وهو مسجون ٠ وانما ذكرت أمر هذا الرجل ليكون كالتذكرة ، ولو كانت قوته قوية لكان البرء غير بعيد منه ان لم تكن في المعدة ثآليل أخر صغار ٠ ولا شك أن ذلك الثؤلول انما كان عن خلط سوداوي أو عن بلغم لزج ٠ فان القوم كانوا يأكلون الاغذية التي يحق أن يكون مثل هذا الثؤلول عنها ، مثل لحوم الابل المقددة ، وكثيرا ما كانوا يأكلونها نيئة » (٢١) ٠

٤ ـ هل كان تأليفه لـ « كتاب التيسير » بطلب من أحد معاصريه ؟

شيء آخر ، غير علم ابن زهر وخلقه ومسألة اعتقاله ، استرعى انتباهي في هذا الكتاب ، ليس في ما كتبه أبو مروان بل في ما ورد على لسان مقدمي الكتاب ، الدكتور محي الدين صابر ومحققه الدكتور ميشيل الخوري ٠

يقول الدكتور صابر في تقديمه ، بعد أن أثنى على الكتاب : « وقد ألفه نزولا على طلب الطبيب الفيلسوف ابن رشد الذي عاصره وكان صديقا له وأحد المعجبين به » (٢٢) ٠

ويقول محقق الكتاب في مقدمتـــه : « وظاهر أن ابن زهر لم يؤلف « كتاب التيسير » الا بعد أن نضج علمه ، واكتملت اختباراته ، وتعددت مشاهداته ، مما يحمل على الظن بأنه أنجز تأليف كتابه في أواسط القرن السادس الهجري (توفي ابن زهر سنة ٥٥٧ هـ) ٠ وذكر المؤرخون ، ومنهم جورج سارتون في كتابه « المدخل الى تاريخ العلم » ، أن ابن زهر ألف « كتاب التيسير » بناء على طلب صديقه ورفيقه الفيلسوف القاضي ابن رشـــد (٥٢٠ ـ ٥٩٥ هـ/١١٢٦ ـ ١١٩٨ م) لجعله تفصيلا لـ « كتاب الكليات في الطب » ، وهو الكتاب الذي ألفه ابن رشد ووصف فيه ، بصورة عامة ، ما كان معروفا عن الامراض في زمانه ، وبما أنه لم يتطرق في كتابه الى التفاصيل في المعالجة كطبيب سريري ممتهن ، **فانه طلب الى صديقه ابن** زهر أن يجعـــل كتابه مشتملا على اختباراتـــه ومشاهداتـــه في علمي الامراض والمداواة » (٢٣) ٠

---

(٢١) التيسير : ٢٠٦ ـ ٢٠٨ ٠

(٢٢) التيسير : الصفحة ب ، ج ٠

(٢٣) التيسير : الصفحة ك ٠

اذن ، فابن زهر ألف كتابه الموسوعي هذا « نزولا على طلب » ـ أو « بناء على طلب » ـ صديقه ابن رشد ! ولم يعمد صاحبا هذه « المقولة » الى توثيقها بردها الى مصادرها وان أشار الدكتور الخوري رحمه الله (٢٤) الى أن جورج سارتون ، المؤرخ الغربي ، قد ذكر ذلك في كتابه « المدخل الى تاريخ العلم » ••• ولكن جورج سارتون لا يعد « مصدرا » بطبيعة الحال •

أعترف بأني لم أشعر بالرضى عن هذه المقولة ، وساورني ظن ، وأنا أتابع قراءة الكتاب ، بأن في المسألة غلطا أو التباسا • وقد تزايدت المؤيدات عندي لهذا الظن في أثناء مطالعتي لما يتصل بهذا الموضوع ، فقد تبينت أنه لم تكن ثمة « صداقة » ملحوظة تجمع بين ابن زهر وابن رشد ، وان كان بين الرجلين التقاء تسوق اليه المصادفات ، وكل منهما يعيش في حاضرة من حواضر الاندلس (ابن زهر في اشبيلية وابن رشد في قرطبة) ، هذا الى أن ما بـين الرجلين من فـارق السن كان كبيرا : فحين فرغ طبيبنا من تأليف « التيسير » ، في منتصف القرن السادس الهجري (قبيل وفاته بسبع سنوات) وهو الرأي المرجح ، لم تكن سن ابن رشد لتزيد على ثلاثين سنة هجرية ، وكان أبو مروان بن زهر في الثالثة والستين اذا أخذنا بأقرب السنتين اللتين قدرهما لمولده المستعرب كولان (٤٨٧ هـ) ، وفي السادسة والثمانين حسب التقدير الذي اختاره المجلس الاعلى للعلوم (٤٦٤ هـ/١٩٧٢ م) • واذا نظرنا بعين الاعتبار الى أن تصنيف الكتاب يستغرق بضعة أعوام ، اذن فان ابن زهر ، طبيب الامراء والخلفاء ، يكون قد استجاب في تأليف كتابه الموسوعي لطلب شاب ، أو « ألفه نزولا على طلب » من هو في سن ابنه أو واحد من أحفـاده !

وفي الكتاب ذاته ، افتقدنا أية اشارة تومىء ، من قريب أو من بعيد ، الى ابن رشد ، والتقليد عند الكتاب أن من يؤلف منهم كتابا ، لعظيم أو لصديق ، يهديه جهده ، بكلمة بليغة يستهل بها مؤلفه ، تعظيما له ، أو

---

(٢٤) كان الدكتور ميشيل الخوري (عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، وعضو الهيئة التدريسية بجامعة دمشق وعميد كلية طب الاسنان فيها فترة) ، قد تولى تحقيق « كتاب التيسير » في أعقاب الاحتفال بالذكرى التسعمائة لمولد ابن زهر (١٩٧٢)• وقد وافته المنية سنة ١٩٨٠ ، بعد أن أنجز مهمته ، وبعدئذ بدأت مرحلة اخراج الكتاب الصعبة •

تكريما ، أو اعترافا بالفضل(٢٥) • ولكنا وجدنا ، في مقدمة « التيسير » شكوى تطفح في صدر ابن زهر حتى لتبلغ شبا قلمه ، يقول : « اني ، والشاهد الله ، لم أضع هذا الكتاب الا وقد لزني الاضطرار ، بشدة العزم وبالامر القوي الجزم ، الى وضعه » • ثم نعرف أن « جهة ما » قد طلبت منه أن يؤلفه بأسلوب ما هو « الطريق الكناشي ، المذموم عند أهل البصائر والعلوم » ، وطبيبنا يريد أن يتوسل الى تأليفه « بسبل أخرى علمية وبأمور في الطب قياسية » ، ويصرح لنا بأنه قد وفق الى أن يمزج ما بين هذين الاسلوبين : « ولم أقتصر فيه على مقتضى الامر النافذ » ، وانما « التزمت الطريق التي وصفت ، ونهجت التوسط بحسب الامكان فيما ألفت وتحريت ، بحيث لم أقع في أنشوطة العصيان فيما أثبت ، فأخـــذت بالطرفين وجمعت فيه بين الامرين » (٢٦) •

شكوى أخرى يرسلها ابن زهر في هذه المقدمة الصغيرة : « ولقد دخل علي ، في خلال وضعي له ، من كان كالموكل علي فيه ، فلم يرضه مني ذلك ، وقال ان الانتفاع به ، لمن لم يحذق شيئا من أعمال الطب ، بعيد ، وانه ليس على ما أمر به ولا على غرض مما يريد ! فذيلته ، حينئذ ، بجزء منحط الرتبة سميته بـ « الجامع » ، ألفته مضطرا وخرجت فيه عن الطريقة المثلى كارها ، ووضعته بحيث لا يخفى على المريض ولا على من حول المريض »(٢٧) •

فأين هو ابن رشد من ذلك كله ؟

وتراءى لي أن أمضي فاتثبت من صحة المقولة التالية : أحقا كان تاليف ابن زهر لـ « كتاب التيسير » ، بناء على طلب من ابن رشد أو سواه من معاصريه ؟ •

---

(٢٥) أقول هذا وبين يدي كتاب صدر حديثا عن مجمع اللغـــة العربية بدمشق : «رسالة أسباب حدوث الحروف » للشيخ الرئيس ابن سينا ، الذي أهداه الى من كان قد طلب منه أن يؤلفه ، وهو امام اللغة والنحو في زمانه ••• ومما قاله ابن سينا في مستهل كتابه : « ••• الشيخ الكبير الاستاذ أبو منصور محمد بن علي بن عمر الجبان ، أدام الله فضله (•••) التمس مني ، التماس باسط لا محتاج ، أن أكتب باسمه ما حصل عندي ، بعد البحث المستقصي ، من أسباب حدوث الحروف باختلافها في المسموع ، في رسالة وجيزة جدا • فتلقيت ملتمسه بالطاعة ، وسالت الله تعالى أن يوفقني للصواب ألزمه والحق أتبعه ، وهو ولي الرحمة » ، رسالة أسباب حدوث الحروف ، ص٥٤ ، تحقيق محمد حسان الطيان ويحيى مير علم ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣) •

(٢٦) التيسير : ٥ و ٦ •

(٢٧) التيسير : ٦ •

شمس الدين سامي (قاموس الاعلام ، طبعة استنبول ١٨٨٩ م) : ومن أشهر آثاره « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » ، الذي ألفه لتلميذه ابن رشـــد (٣٤) ·

دائرة المعارف الاسلامية (غبرييل كولان ، الترجمة العربية ، القاهرة ١٩٣٣) : « وكان ابن رشد صديقا حميما له (لابن زهر) ، وكان يعتبره أعظم الاطباء منذ عهد جالينوس ، ولكنه لم يكن تلميذه كما يقول الكثيرون (··· و) نذكر بصفة خاصة مصنفه الهام كتاب التيسير في المداواة والتدبير ، الذي كتبه باشارة من ابن رشد » (٣٥) ·

الدكتور أمين أسعد خير الله (الطب العربي ، بيروت ١٩٤٦) : « وابن زهر كان أستاذ الفيلسوف العظيم ابن رشد وصديقه العزيز ، واليه أهدى كتابه الموسوم « التيسير في المداواة والتدبير » ليكون مكملا لتأليف ابن رشد المسمى الكليات » (٣٦) ·

فؤاد أفرام البستاني (دائرة المعارف ، بيروت ١٩٦٠) : « وكان معاصرا لابن رشد ، فاتحدا في صداقة متينة مخلصة (··· أهم مؤلفاته) « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » ، ألفه باشارة ابن رشد » (٣٧) ·

جلال مظهر (مآثر العرب على الحضارة الاوربية ، القاهرة ١٩٦٠) : « ألف كتاب التيسير في المداواة والتدبير بناء على رغبة صديقه الفيلسوف ابن رشد » (٣٨) ·

عبد العزيز بنعبد الله (الطب والاطباء بالمغرب ، الرباط ١٩٦٠) : « وكتاب التيسير قد كتبه أبو مروان بن زهر بطلب من ابن رشد كتذييل لـ « كتاب الكليات » (···) ويظهر من تحليل لوكلير لـ « كليات » ابن رشد المترجمة الى اللاتينية أن ابن رشد ينقل عن تيسير ابن زهر » ! (٣٩) ·

---

(٣٤) كتاب المجلس : ٤٨ ·

(٣٥) كتاب المجلس : ٥١ ، ٥٢ ·

(٣٦) كتاب المجلس : ٥٧ ·

(٣٧) كتاب المجلس : ٦٨ ، ٦٩ ·

(٣٨) كتاب المجلس : ٧٥ ·

(٣٩) كتاب المجلس : ٧٨ · ومما يثير العجب أن الكاتب هنا لم يفطن الى التناقض بين قوله أن ابن زهر قد ألف « التيسير » بطلب من ابن رشد كتذييل لكتابه « الكليات » ، فتأليف «التيسير» اذن لاحق زمنيا على «الكليات» ، وبين استشهاده برأي لوكلير من أن ابن رشد في « الكليات » كان ينقل عن « التيسير » ··· فكيف يمكن « النقل » عن كتاب لما يكن قد ألف ؟!

الدكتور أحمد زكي (مجلة العربي ، العدد ٣٢ تموز/يوليو ١٩٦١ ، الكويت) : « ... و كتاب التيسير في المداواة والتدبير ، وهو أخطر كتبه . وهو كتبه بايعاز من الفيلسوف العربي ابن رشد ، وكان له صديقا وبه معجبا » (٤٠) .

الدو ميلي (العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي ، القاهرة ١٩٦٢) : « وصنف ابن زهر كتاب التيسير بناء على طلب من ابن رشد . والظاهر أن غرضه منه كان تصنيف الجانب المتمم والاشد اتصالا بالطب من « كليـــات » ابن رشـــد ، التي تمثل بدورها اتجاها أقرب الى الناحيـة الفلسفية » (٤١) .

سامي خلف الحمارنة (فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ، الطب والصيدلة ، دمشق ١٩٦٩) : « ومن أشهر كتبه التيسير في المداواة والتدبير الذي قيل انه ألفه لصديقه القاضي (أبي) الوليد بن محمد بن أحمد (بن) رشد أو بايعازه » (٤٢) .

أنور الرفاعي (الانسان العربي والحضارة ، لبنان ١٩٧٠) : « من أشهر كتبـه التيسير في المداواة والتدبير ، أهـــداه لتلميذه الفيلسوف ابن رشد » (٤٣) .

غبرييل كولان (ابن زهر : حياته وآثاره ، أطروحة دكتوراه ، سبقت الاشارة اليها) : « ... ان ابن رشد لما ألف كتابه الكليات ، اقترح على ابن زهر تأليف كتاب في الامور الجزئية ، يكون تتمة لكتابه في الكليات ويدرس لامراض واحدا بعد واحد والاعضاء عضوا بعد عضو (...) ولا شك في أن تأليف ابن زهر مثل هذا الكتاب ، في تلك الفترة ، كان عملا أصيلا دعاه الى انجازه ابن رشد » ! (٤٤) .

الدكتور ميشيل الخوري (بنو زهر : سيرتهم ومؤلفاتهم) : « ألف عبد الملك هذا الكتاب (التيسير) للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد(...)

---

(٤٠) كتاب المجلس : ٨٤ .

(٤١) كتاب المجلس : ٨٧ .

(٤٢) كتاب المجلس : ٩٣ .

(٤٣) كتاب المجلس : ٩٤ .

(٤٤) كتاب المجلس : ١١٨ ، ١٢٩ .

٥ ـ محاولـة في التقصي :

عدت الى نصوص المحاضرات التي ألقاها العلماء والباحثون في أسبوع العلم الثالث عشر ، المنعقد بجامعة حلب خلال الاسبوع من ١٨ الى ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢ ، والذي تعهده المجلس الاعلى للعلوم ، فوجدت الكتاب الاول منها يضم خمس محاضرات أختص بها أصحابها الطبيب ابن زهر ، كل من زاوية (٢٨) ٠

أولى تلك المحاضرات كانت للدكتور أحمد شوكت الشطي ، الذي قال مما نحن بصدده تحقيقه : انه كان لابن رشد « كتاب الكليات ، وقد أجاد في تأليفه ، وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة ، ولما ألف هذا في الامور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الامور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب » ٠ وأورد رأيا لـ « الدو ميالي » قال فيه : « جاء في كتاب العلوم عند العرب أن ابن زهر صنف « كتاب التيسير » بناء على طلب ابن رشد » (٢٩) ٠

ومحاضرة أخرى ، كانت للدكتور ميشيل الخوري ، الذي قدر له بعدئذ أن يحقق « كتاب التيسير » ، يقول فيها : « أما كتاب التيسير فجاء عنه في كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة ، أن ابن زهر ألفه للقاضي أبي الوليد بن رشد » ٠ وأورد ، كذلك ، ما جاء في كتاب جورج سارتون من « أن ابن زهر ألف « كتاب التيسير » بناء على طلب ابن رشد ليكون تكملة لـ « كتاب الكليات في الطب » ، وكان ذلك قبيل منتصف القرن الثاني عشر الميلادي أي قبيل سنة ٥٤٥ هـ » (٣٠) ٠

ومحاضرة ثالثة للدكتور سلفادور غوميث نوغاليث ، يقول فيها : ومن المؤكد « أن ابن رشد قد أحس بالتقدير العظيم نحو ابن زهر ، وأكثر من ذلك كان هو الذي طلب من ابن زهر أن يكتب احدى أعماله الهامة (!) وهي « كتاب التيسير » ، ويتابع : وكان « كتاب التيسير » « يهتم بكل واحد من

---

(٢٨) سنشير الى هذا المرجع باسم « محاضرات المجلس » ٠

(٢٩) محاضرات المجلس : ١٥٦ ، ١٥٨ ، والمحاضرة بعنوان « نظرات الى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الاندلسية » ٠

(٣٠) محاضرات المجلس : ٢٤٧ ، والمحاضرة بعنوان « لغة ابن زهر » ٠ ومما تجدر ملاحظته أن ابن زهر ان كان قد ألف كتابه قبيل سنة ٥٤٥ هـ المشار اليها ، فان صديقه ابن رشد لم يكن قد أكمل الخامسة والعشرين من عمره في ذلك الحين !

الامراض على حدة ، وهو ما نستطيع أن نسميه اليوم بعلم العلاج وعلم الاعراض وعلم والعلل • وكان هذا هو أفضل اضافة الى انتاج ابن رشد » ! (٣١) •

وفي هذا المرجع الهام محاضرتان أخريان لم ترد فيهما مثل هذه « الاشارات » ، احداهما « ابن زهر وأسرته » للاستاذ عمر رضا كحالة ، والاخرى « كتاب الاقتصاد في اصلاح الانفس والاجساد لابن زهر ومكانة الطبيب في الحضارة العربية » للدكتور عبد الكريم اليافي ، التي نشرها فيما بعد في كتاب له ضاما اليها دراسة ثانية بعنوان « تتمة في بيت بني زهر » ، قال فيها لما بدأ بتعداد كتب عبد الملك بن زهر : « ١ ـ كتاب التيسير في المداواة والتدبير ألفه للقاضي أبي الوليد بن رشد » ، ثم قال : ويذكر « ابن أبي أصيبعة في ترجمة ابن رشد : أنه كان بينه وبين أبي مروان مودة • ولما ألف كتابه في الامور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الامور الجزئية ، لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب » ، وأشار الى ذلك ابن رشد نفسه في آخر كتابه ونوه بتمام الكتابين » ، وأضاف : ان « تعاون ابن رشد وابن زهر في تأليف الكتابين المتتامين يشف عن مدى التضامن العلمي القوي اذ ذاك » ! (٣٢) •

وكان المجلس الاعلى للعلوم قد أصدر ، عام ١٩٧٢ ، كتابا سماه « الطبيب العربي الاندلسي عبد الملك بن زهر الايادي بمناسبة الذكرى التسعمائة لمولده ، أسبوع العلم الثالث عشر ١٩٧٢ » (٣٣) ، توخى أن يشتمل على كثير من النصوص والآراء التي كتبت أو قيلت في طبيبنا الاندلسي ، ووضعه بين أيدي المحتفلين بذلك الاسبوع • ولدى عودتي الى هذا الكتاب ، رأيت أن غير قليل من الباحثين والكتاب قد أجمعوا على أن ابن رشد قد طلب من ابن زهر تأليف « كتاب التيسير » • وسوف نستعرض موجزات من هذه الآراء ، التي انتظمها الكتاب حسب تاريخ صدورها من أصحابها ، وكلها قيل خلال مئة السنة الاخيرة :

---

(٣١) محاضرات المجلس : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، والمحاضرة بعنوان « ابن زهر الطبيب الاندلسي » ، والمحاضر عامئذ رئيس قسم الدراسات الاسلامية بجامعة مدريد •

(٣٢) « معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية » للدكتور عبد الكريم اليافي ، دمشق ، الشركة المتحدة للتوزيع ، ١٤٠٢ هـ/١٩٨٢ ، ص١٢١ ، ١٢٢ •

(٣٣) سنشير اليه باسم « كتاب المجلس » •

رصنف ابن رشد « كتاب الكليات في الطب » فجنح فيه الى الفلسفة • ولما رأى نفسه في شغل شاغل عن الحاقه بكتاب آخر يتناول التفاصيل في علمي الامراض والمداواة ، طلب الى ابن زهر تأليف هذا الكتاب ، فالف له « كتاب التيسير » نزولا عند طلبه • وذهب بعض المؤلفين الى أن « كتاب التيسير » انما هو تكملة أو تذييل لـ « كتاب الكليات » ، ولكن الاقرب الى الصواب أن يقال ان الكتابين صنوان يتمم أحدهما الآخر ، ف « الكليات » نحا فيها ابن رشد منحى الفلسفة النظرية ، في حين أن « التيسير » سلك فيه ابن زهر طريق الطب التجريبي » (٤٥) •

وسط هذا الحشد المكثف من الآراء ، التي دارت كلها حول فكرة أن ابن رشد قد طلب من صديقه ابن زهر أن يؤلف كتابا في الامور الجزئية في الطب ليكون مكملا للكتاب الذي ألفه هو في الامور الكلية ••• تلوح لنا أصبع تشير الى ابن أبي أصيبعة (المتوفي سنة ٦٦٨ هـ) ، فمن كتابه « عيون الانباء في طبقات الاطباء » اقتبس الباحثون والعلماء ، من شرق ومن غرب ، هذه المقولة ، التي لم يسبقه اليها أحد من المتقدمين عليه ! (٤٦) •

فمن أين جاء بها ابن أبي أصيبعة ؟ وما هو قوله في ذلك على وجه التحديد ؟ •

٦ ــ ابن أبي أصيبعــة ، مؤرخ الاطباء :

ورد في « الاعلام » أنه أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي موفق الدين ، أبو العباس ابن أبي أصيبعة (٥٩٦ ــ ٦٦٨هـ/١٢٠٠ــ١٢٧٠م) « الطبيب المؤرخ ، صاحب عيون الانباء في طبقات الاطباء ، في مجلدين • كان مقامه في دمشق ، وفيها صنف كتابه سنة ٦٤٣ هـ ، ومولده بها • زار مصر سنة ٦٣٤ وأقام بها طبيبا مــــدة سنة • ومن كتبه أيضا ، التجارب والفوائد ، وحكايات الاطباء في علاجات الادواء ، ومعالم الامم • وله شعر كثير • وتوفي بصرخد ، من بلاد حوران في سورية » (٤٧) •

---

(٤٥) كتاب المجلس : ١٨٤ ، ١٨٥ •

(٤٦) لم ترد ، في علمنا ، اشارة الى مثل هذا القول قبل ابن أبي أصيبعة • وأما معاصروه « ابن الأبار » (توفي ٦٥٨ هـ) ، فقد قال ، في أثناء حديثه عن أبي مروان بن زهر مما ورد فيه ذكر لابن رشد : « ••• وألف كتاب التيسير في مداواة الادواء على أعضاء الانسان ، شهر في الناس واستعلى كثيرا ، وكان القاضي أبو الوليد ابن رشد يثني عليه ويجل أبا مروان هذا ويفصح بتقدمه في علمه » ، التكملة لكتاب الصلة ، مجريط ١٨٨٦ ، ص ٦١٦ (كتاب المجلس : ٢٣) •

(٤٧) الاعلام لخير الدين الزركلي ، ١ : ١٨٨ ، ١٨٩ •

وليس من شك في أن ابن أبي أصيبعة قد قدم لقومه وللعلم أحسن صنيع ، عندما قام يصنف ما توافر له في أيامه من المعلومات عن أطباء زمانه والاطباء الاوائل من عرب ومسلمين وأعاجم ، حتى تأتى له أن يخرج كتابه الموسوعي « عيون الانباء في طبقات الاطباء » ، الذي ظل الباحثون يقتبسون منه على مر الزمن معلومات فيه قد اندثر كثير من مصادرها الاولى(٤٨) ٠

فماذا ورد في « طبقات الاطباء » عن ابن زهر وابن رشد مما يتعلق بالمقولة التي نحن بصدد تحقيقها ؟

يقول ابن أبي أصيبعة في ترجمته لابن زهر :

« ٠٠٠ ولابي مروان بن أبي العلاء بن زهر من الكتب : كتاب التيسير في المداواة والتدبير ، ألفه للقاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد »(٤٩) ٠
ولكنه يقول في ترجمته لابن رشد :

« ٠٠٠ وله في الطب كتاب الكليات ، وقد أجاد في تأليفه ٠ وكان بينه وبين أبي مروان بن زهر مودة ، ولما ألف كتابه هذا في الامور الكلية قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الامور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب » (٥٠) ٠

ودعما لروايته ، يتابع ابن أبي أصيبعة : « ولذلك يقول ابن رشد في آخر كتابه ، ما هذا نصه ، قال (٥١) :

---

(٤٨) يقول العالم الدكتور أحمد شوكت الشطي عن « طبقات الاطباء » : « ذلك الكتاب التاريخي ، الذي يعتبر بحق أكبر مرجع لا لتاريخ الطب عند العرب فحسب بل لتاريخ الطب العام » ٠ وقد عمد ، رحمه الله ، في بحثه المستفيض الذي قدمه في أسبوع العلم الثالث عشر ١٩٧٢ ، الى أن يستكمل ما رآه نواقص في هذه الموسوعة مما له صلة بالاندلس وأطبائها ، محاضرات المجلس : ١٤٠ ، ١٤١ ، بحث عنوانه : « نظرات الى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الاندلسية » من ص ١٢١ ــ ٢١٨ ٠

(٤٩) «عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة ، ٢ : ٦٧ ، المطبعة الوهبية (القاهرة) ١٣٩٩ هـ/١٨٨٣ م ٠

(٥٠) الطبقات ، ٢ : ٧٥ ٠

(٥١) سنعارض النص التالي ، الذي ينقله ابن أبي أصيبعة هنا عن ابن رشد ، بما ورد في الصفحة الاخيرة من « كتاب الكليات » طبعة مصورة ، منشورات معهد الجنرال فرنكو ، العرائش (المغرب) ١٩٣٩ ، ص ٢٣٠ ٠

« فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الامراض ، بأوجز ما أمكننا وأبينه . وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عرض عرض من الاعراض الداخلة على عضو عضو من الاعضاء . وهذا وان لم يكن ضروريا ، لانه (٥٢) منطو بالقوة فيما سلف من الاقاويل الكلية ، ففيه تتميم ما وارتياض ، لانا (٥٣) تنزل فيها الى علاجات الامراض بحسب عضو عضو ، وهي الطريقة التي سلكها أصحاب الكنانيش ، حتى نجمع في أقاويلنا هذه الى الاشياء الكلية الامور الجزئية ، فان هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها الى الامور الجزئية ما أمكن ، الا أنا نؤخر(٥٤) هذا الى وقت نكون فيه أشد فراغا ، لعنايتنا في هذا الوقت بما يهم من غير ذلك . فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء ، وأحب أن ينظر بعد ذلك في الكنانيش ، فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب ب « التيسير » ، الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر . وهذا الكتاب سألته أنا اياه ، وانتسخته ، فكان ذلك سبيلا الى خروجه ، وهو ــ كما قلنا ــ كتاب الاقاويل الجزئية الذي قلت (٥٥) فيه شديدة المطابقة للاقاويل الكلية ، الا أنه مزج (٥٦) هنالك مع العلاج العلامات واعطاء (٥٧) الاسباب ، على عادة أصحاب الكنانيش . ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا الى ذلك ، بل يكفيه من ذلك مجرد العلاج فقط (٥٨) . وبالجملة من تحصل له ما كتبناه من الاقاويل الكلية ، أمكنه (٥٩) أن يقف على الصواب والخطأ من مداواة أصحاب الكنانيش في تفسير العلاج والتركيب » (٦٠) .

وهكذا يتبين لنا أن المستند ، الوحيد ــ الذي اعتمده ابن أبي أصيبعة في مقولته هذه ، التي قدمها مرة لدى ترجمته لابن زهر وثانية لدى ترجمته لابن رشد ــ هو هذا النص الذي كان قد اختتم به ابن رشد كتابه « الكليات » والذي حرص مؤرخ الاطباء على أن يورده في « طبقاته » كاملا .

---

(٥٢) الكليات : فانه .

(٥٣) الكليات : فانا .

(٥٤) الكليات : آننا نرجىء .

(٥٥) الكليات : قيلت .

(٥٦) الكليات : شرح .

(٥٧) الكليات : وأعطى .

(٥٨) الكليات : مجرد العلاج .

(٥٩) الكليات : يمكنه .

(٦٠) طبقات الاطباء ، ٢ : ٧٥ ، ٧٦ .

فماذا نجد في « نص » ابن رشد من « المؤيدات » لمقولة ابن أبي أصيبعة ؟

نرى ابن رشد يشير ، قبل أن ينفض يده من تاليف « الكليات » ، الى كتاب آخر يعنى بالجزئيات في الطب (وهو يسمي الكتب) التي تهتم بالجزئيات في هذه الصناعة « الكنانيش » (٦١) : فمن « أحب أن ينظر بعد ذلك في الكنانيش ، فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب ب « التيسير » ، الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر » ٠

فهل يعني هذا الكلام سوى أن كتاب ابن زهر كان مؤلفا قبل أن يفرغ ابن رشد من تأليف كتابه ؟ وهو ، حرصا منه على استكمال الفائدة ، يحيل قارئيه اليه ! ٠

لعل مرد الوهم ، الذي وقع فيه ابن أبي أصيبعة ، الى تلك العبارة التي أوردها ابن رشد في خلل كلامه هذا ، قال : « وهذا الكتاب (أي التيسير) سألته أنا اياه ، وانتسخته ، فكان ذلك سبيلا الى خروجه » ٠

ولكن هذه العبارة ، التي أرسلها ابن رشد مشوبة بغموض ، تدل ، بعد امعان النظر ، على أن الفيلسوف الطبيب الشاب قد سأل معاصره ـ الطبيب العالم ـ الكتاب ، ولم يسأله « تصنيف » الكتاب ! ثم هو سأله اياه « لانتساخه » وفي هذا تبعيد للظن بطلب التصنيف ! وأما « خروج » الكتاب ، فلا يعني بالضرورة خروجا من العدم ، بل قد يعني ظهوره بعد خمول ، أو خروجه من بلد مصنفه ، اشبيلية ، وانتشاره في بلد ابن رشد ، قرطبة !

رب معترض يقول : ان هذا « تأويل » منا لعبارة ابن رشد الاخيرة هذه٠ ونقول : ولكنه تأويل ـ أو هو تفسير ـ موافق لما تقدم من قول ابن رشد نفسه : « كتاب التيسير الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر » ٠ فتفسيرنا يحقق الانسجام والتكامل بين العبارتين اللتين وردتا في آخر « كتاب الكليات » ٠

---

(٦١) الكنانيش (ج كناش أو كناشة) : كلمة كانت تطلق قديما على كل كتاب علمي او طبي أو لغوي يكون البحث فيه على وجه التفصيل ، وهي تعريب لكلمة «كناشا» السريانية التي تعني مجموعة أشياء وخصوصا الاشياء المكتوبة ٠ وقد رأينا كيف أن ابن زهر قد عبر ، في مقدمة كتابه ، عن ضيقه بأن تلزه (تضطره) تلك « الجهة » ـ التي جهلناها ـ الى أن يكون تأليفه للكتاب على « الطريق الكناشي ، المذموم عند أهل البصائر والعلوم » ، وذلك قبل أن يعرب لنا عن أنه وفق الى أن ينهج طريقا وسطا في التأليف تجمع بين ما لزوه اليه وبين ما يرغب في التوسل به من « سبل أخرى علمية وأمور في الطب قياسية » ٠

وأما « التأويل » فهو ما فعله ابن أبي أصيبعة ، حين وهم أن سؤال ابن رشد صديقه الكتاب ، لينتسخه وينتفع به وينفع الناس ، يعني : أنه « قصد من ابن زهر أن يؤلف كتابا في الامور الجزئية لتكون جملة كتابيهما ككتاب كامل في صناعة الطب » ، ثم يقوده هذا الوهم الى أن يعلن ، في أثناء ترجمته لابن زهر : ان « كتاب التيسير » قد « ألفه (أبو مروان) للقاضي أبي الوليد » ٠ وهو تأويل يناقض عبارة ابن رشد ــ المتقدمة ــ ويلغي مضمونها ، ويفرغها من المعنى ، ويحل محلها زعما ما كان لابن رشد أن يدعيه (٦٢) ٠

---

(٦٢) أحب أن أبين هنا أني ، بعد أن فرغت من كتابة هذا البحث ، زرت ظهيرة الخميس ٢٩ آذار (مارس) ١٩٨٤ ، صديقي الطبيب الدكتور مختار هاشم ، فأيدني فيما ذهبت اليه من تفنيدي لمقولة ابن أبي أصيبعة ، وأعرب لي عن أنه كان يخامره شك في صحة هذه المقولة منذ عهدوا اليه بمراجعة « التيسير » لوضع فهارس له بالمصطلحات الطبية (على نحو ما أشرت اليه في الحاشية رقم ١٠) ٠

وأعترف بأني قد تعرفت ، لدى صديقي العالم الجليل خلال هذا اللقاء ، فكرتين تتصلان بموضوعي اتصالا وثيقا ، أسجلهما له في ختام هذا البحث :

الفكرة الاولى : أن ابن زهر قد ألف « التيسير » لامراء دولة الموحدين ، الذين كان قد استتب لهم الامر في المغرب والاندلس ابتداء من سنة ٥٤٢ هـ ٠ والدليل هو ما استهل به ابن زهر خطبة الكتاب ، الثانية (فقد ذكرني بأن في « التيسير » خطبتين اثنتين لا واحدة !) : « الحمد لله الذي كل ما تقع الحواس عليه يشهد له بـ الوحدانية والمقدرة ، وصلى الله على محمد المرتضى ، ورضي عن أصحابه أعلام الدين ومصابيح « المهديين » ، وسلم تسليما » (التيسير : ٧) ، فان لفظتي « الوحدانية والمهديين » تنمان عن « الموحدين » وعن « المهدي بن تومرت » الزعيم الاول لهذه الحركة الدينية التي كتب لها أن تقوض دولة المرابطين ٠ مع الاشارة الى ما جاء في الحاشية رقم ١٦ من « التيسير » التي تقول ان العبارة الاخيرة « أعلام الدين ومصابيح المهديين » ، قد وردت في مخطوطات للكتاب أخرى على هذا النحو : « وسلالة المهدي المعصوم الرضى ، وأعلى أمور خليفته أمير المؤمنين وجعل من أنصاره الاقدار والقضا » (التيسير : ٧) ٠

الفكرة الثانية : أن خطبة الكتاب ، الاولى ، تلك التي كنا قلنا ان فيها شكوى طفحت في صدر ابن زهر حتى بلغت شبا قلمه ، من أنه قد طلب منه أن يؤلف الكتاب بـ « الطريق الكناشي ، المذموم عند أهل البصائر والعلوم » على حين يريد هو التأليف « بسبل أخرى علمية وبأمور في الطب قياسية » ، وأنه وفق الى أن يأخذ بالطرفين ويجمع بين الامرين ، وشكواه الاخرى من أن « من كان كالموكل عليه » في أثناء التأليف ، والذي أراد أن يكون الانتفاع بالكتاب « لمن لم يحقق شيئا من أعمال الطب » ، قد حمله على أن يذيل الكتاب « بجزء منحط الرتبة سميته بـ الجامع ، وألفته مضطرا ، وخرجت فيه على الطريقة المثلى كارها » (التيسير : ٧ ، ٨) ٠

ان هذا الذي رأيناه شكوى ، أو شكويين اثنتين يصعدهما المؤلف في خطبة الكتاب الاولى ، يراه الدكتور هاشم بمثابة « اعتذار » ، أو « تسويغ » ، من ابن زهر ، قد حرص على أن يضمنهما هذه الخطبة ، والتي ما هي ــ في رأيه ــ الا خطبة قد خص
←

٧ ـ هذه « الغلطة الراحلة » !

ان هذا الوهم ، الذي وقع فيه ابن أبي أصيبعة ، قد تجسد ، في « طبقات الاطباء » ، « غلطة » أخذت ترحل ، عبر التاريخ ، من كتاب الى كتاب !

لقد تناقل القدماء هذه الغلطة ، وتداولها المحدثون من عرب وغربيين ، وكل يتناولها بالاضافة والتزيد :

ألف ابن زهر « التيسير » بناء على رغبة من ابن رشد ، بايعاز منه ، باشارة ، نزولا على طلبه ! ••• « كتاب التيسير » هو « تذييل » لـ « كتاب الكليات » ! ••• وبلغ الامر أن ينظر الى هذا الكتاب ـ الموسوعة على أنه « أفضل اضافة » الى انتاج ابن رشد !!

ولكنها غلطة ـ والحق نقول ـ لا تضير كتابا موسوعيا غزير المادة وافر الزاد ، قد استوعب ترجمات أعداد كبيرة من الاطباء على مر الزمان • ومثل هذه الغلطة لا تستبعد في كتاب وان ألفه فريق من علماء اليوم ، مع ما يتوافر لهم من أسباب المراجعة والتحقيق والتدقيق •

ان أبا العباس موفق الدين ابن أبي أصيبعة ، مؤرخ الاطباء ، وان شئنا قلنا : « طبيب المؤرخين » ! ـ قد أوتي له أن ينفع العلماء والباحثين عبر الاجيال ، بمؤلفه النفيس ، الذي يكاد يكون فريدا في التاريخ مثل فرادته بما حوى •

← بها أبو مروان تلك النسخة التي قدمها الى صديقه ابن رشد ، الذي كان قد سأله الكتاب ، وهو حذر ومشفق من أن ينتقد الطبيب الشاب ما في كتابه من « طريق كناشي » في التاليف ، أو أن يستهجن ذلك الملحق الذي سماه « الجامع » ، فقام ينوه ، في هذه الخطبة المضافة ، بملابسات التأليف ، ويصف ، كالمعتذر ، الملحق بأنه « جزء منحط الرتبة ••• ألفته مضطرا ••• كارها ••• » !

ومن ناحيتي ، أرى هذا التخريج مقبولا ، وأضيف اليه : ان ابن رشد قد أعجب بـ « التيسير » على كل حال ، بدليل نصحه لقارئيه بالرجوع اليه ، ولكنه لم ينزه الكتاب عن أنه واحد من « الكنانيش » ، الا أنه « أوفقها » !

وأقول : اني أستمد من هذا تأييدا لما ذهبت اليه في تفسيري لعبارة : « وانتسخته ، فكان ذلك سبيلا الى خروجه » ، فان ابن رشد بعد تلقيه الكتاب ، قد أتاح انتساخه لمن يريد ، فكان ذلك ، في رأيه ، سبيلا الى انتشاره في بلدة قرطبة وغيرها ، بتلك الخطبة التي خص بها ابن زهر النسخة التي قدمها الى صديقه الطبيب الفيلسوف •

ابن أبي أصيبعة

في السيرة والاثر

الاستاذ محمد شحادة كرزون

١ ـ في السيرة :

ليس من المبالغة في شيء القول أن أجل مصدر يعتمد في العصر الحديث في تاريخ الطب العربي الاسلامي في عصوره المختلفة ، والى الثلث الاخير من القرن السابع الهجري ، هو المصنف الجليل الموسوم بعيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة الطبيب ، الكاتب في تاريخ الطب والمؤلف في التراجم .

لقد حوى تراجم لاطباء من اليونان والهند ، والاطباء السريان وأطباء الاسكندرية ، وجنديسابور ، والاطباء النقلة في العصر العباسي الاول ، وأطباء العرب* قبل الاسلام ، وأطباء الجزيرة والعراق وديار بكر ، وأطباء الشام ومصر ، وأطباء المغرب والاندلس ، فيما تقارب عدتهم أربعمائة علم من وجوه هذه الصنعة وفنونها ، وأورد تفاصيل وفيرة ومهمة عن تحصيلهم وثقافاتهم وآرائهم ، ونوادرهم وعلاقاتهم بأمراء وملوك وسلاطين ووزراء وكتاب أزمانهم على من تعلموا ، وبخدمة من التحقوا ومن تلقى العلم والتدريب على أيديهم ، ثم تنتهي كل سيرة من هذه السير بجريدة ، يذكر فيها مؤلفات ومترجمات ومقالات صاحب الترجمة وفصلة مستقصاة ، مما دل على علم غزير ومادة عظيمة ، استقاها من مصادرها في خزائن الكتب العربية ، في حاضرتي الدولة العربية لعصره : (الدولتان النورية والصلاحية في دمشق والقاهرة) اللتين كانتا زاخرتين بهذه الكنوز فاغترف منها ، تستوي في ذلك الخزائن العامة (كتلك التي كانت ملحقة بالبيمارستانات(١)) أو الخزائن الخاصة التي أورد أطرافا من ذكرها لدى الحديث عن أصحابها خلال ترجمته

---

(١) كان نور الدين قد وقف جملة كثيرة من الكتب للبيمارستان الذي أنشأه في دمشق وكانت في خزائن في صدر الايوان : (ص ٦٢٨ من عيون الانباء) .

لهم ، كخزانة المبشر بن فاتك وخزانة ابراهيم بن الزفان ، وخزانة بلمظفر بن معروف • صحيح أن هؤلاء كانوا قبل ولادة ابن أبي أصيبعة ولكنه ينص صراحة على أنه اطلع على هذه الكتب أو على شيىء منها (٢)•••

بيد أن للامر دلالة أخرى وهي أن موفق الدين أبا العباس أحمد بن أبي قاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي بن أبي أصيبعة كان باحثا كبيرا ، وموسوعيا محترما ، استطاع أن يعود الى عشرات من المراجع الهامة ، حتى استوت له منها مادة ضخمة ، كان من نتاجها هذا المؤلف الضخم الجليل ، الى جانب ما أنتج من مصنفات أخرى •

ينجم في هذا المجال سؤال هو : لماذا لم يكتب موفق الدين سيرته الذاتية ، وقد كتب لبضع مئات من أعلام الاطباء ؟ • ولماذا لم ينزل ترجمته الذاتية منزلتها بين ترجماتهم ؟ •

لقد كان من عادة من تجردوا للكتابة في التراجم ، أن يضعوا لأنفسهم ترجمة فيما يكتبون ، فهذا موفق الدين عبد اللطيف البغدادي كتب سيرته ، وكتب علي بن رضوان سيرته وكذلك فعل الشيخ الرئيس ابن سينا والرازي وغيرهم ، ويمضي بنا التساؤل الى : ما الذي دفعه فوق اغفاله أن يترجم لذاته ، أن يهمل الترجمة لابيه وجده ، على حين كتب ترجمه لعمه رشيد الدين ؟

وهل يعقل أن كاتبا له هذا الحظ من العلم والثقافة والنشاط في الحفظ والتاليف والاشتغال بصناعة الطب : كحالا ثم طبيبا ، وله هذه الميزة الفذة في كتابة التراجم واستقصاء مفرداتها من فطانها هل يعقل أن يكون قد جاء اغفاله ايراد ترجمة له ذاتية أمرا عفويا ، أو اهمالا غير مقصود •

هل هو من قبيل التواضع ؟ أم تراه ترك ذلك لغيره من كتاب السيرة وأصحاب التراجم لعصره أو العصور اللاحقة كي ينزلوه منزلته التي يستحق بين الاطباء والمصنفين ؟ أم لعله أورد سيرته الذاتية في مصنف آخر من مصنفاته الاخرى ؟

---

(٢) كقوله عن كتب المبشر بن فاتك • « وكثير منها يوجد وقد تغيرت الوان الورق الذي له بفرق أصابه » •• وكذلك قوله عن كتب ابن الزفان : « انني قد وجدت كثيرا من الكتب الطبية وغيرها وعليها اسم ابن الزفان والقاب الافضل عليها » ، وواضح أنه قد اطلع عليها في خزانة الافضل ابن أمير الجيوش الذي اشترى منه عشرة آلاف مجلد ضنا منه أن يرحل بها تاجر كتب عراقي ، هذا مع أن افرانيم بن الزفان المذكور قد خلف سوى هذه من الكتب عند وفاته ما يزيد على عشرين ألف مجلد ••• أو قوله عن كتب « مظفر بن المعروف » وان جميع كتبه لا يوجد شيىء منها الا وقد كتب على ظهره مكحا ونوادر مما يتعلق بالعلم الذي قد صنف الكتاب فيه ، وقد رأينا كتبا كثيرة ، من كتب الطب وغيرها من الكتب الحكمية وكانت لابي المظفر وعليها اسمه ••

ينفع » • وكانت الصداقة الاكيدة والوثيقة بين جد موفق الدين أحمد وبين أستاذه الرحبي طريقا لان تجعله ــ وعمه رشيدا قبله ــ من خاصة تلاميذه وأحبهم الى قلبه •

ولم يكن رضي الدين أستاذا له في الطب علما وعملا فحسب بل كان له أستاذا في تاريخ هذا العلم وأربابه •

وتدرب في البيمارستان الكبير بدمشق على عمران بن صدقة الذي تقدم ذكره • وكانت له طرائق حسنة في العلاج وتحقيق الامراض (تشخيصها) مثيرة للعجب وقد رآه موفق الدين يعالج ــ ثمة ــ أمراضا مزمنة كان أصحابها سئموا الحياة ، ويئس الاطباء من برئهم ، فكان برؤهم على يديه « بأدوية غريبة يصنعها ومعالجات بديعة عرفها » وقد أورد ابن أبي أصيبعة أطرافا منها في كتابه التجارب والفوائد (٥) •

كما قرأ على موفق الدين يعقوب بن سقلاب (٦٢٥ هـ) شيئا من كلام أبقراط ، وابن أبي أصيبعة يمدح شرحه وطريقته في التدريس والتلخيص والتحصيل والاستشهاد الدقيق ، وكانت هذه القراءة قد تمت في المعسكر المعظمي (نسبة الى الملك المعظم ابن الملك العادل) ، قبل أن يتفرغ للدراسة في دمشق ، وكان شديد الاستقصاء في الامراض حتى يعالجها على الصواب •

أما ابن البيطار (أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي) النباتي ، (ضياء الدين) فكان فريد عصره في علمه في النباتات والاعشاب : تحقيقها واختيار مواضع نبتها ونعت أسمائها وأنواعها ، درس عليه دراسة عملية في دمشق وظاهرها ، وتعرف كثيرا من النباتات في مواضعها ، كما قرأ عليه تفسيره لاسماء أدوية كتاب (ديسقوريدس) وكانت له طريقة موصوفة في التدريس فلا يغادر شيئا الا وذكره ، وما كان يذكر دواء الا ويحدد موضعه من كتاب (ديسقوريدس) و (جالينوس) وترتيبه بين الادوية في مقالته التي ورد فيها •

وكان من جملة شيوخه شمس الدين الخوبي (أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر المتوفي في دمشق عام ٦٣٧ هـ) قرأ عليه التبصرة لابن سهلان ، وكان علامة وقته في الامور الشرعية وشغل منصب قاضي القضاة بدمشق أيام الملك المعظم عيسى بن أبي بكر بن أيوب •

---

(٥) انظر صفحة (٦٩٧) طبقات الاطباء •

وقرأ شيئا من العلوم الحكمية على رفيع الدين الجيلي ، الذي صار قاضي القضاة في دمشق زمن الملك الصالح عماد الدين اسماعيل باشارة من صديقه الوزير أمين الدولة ، ورفيع الدين هذا هو الذي حمل مصنف ابن أبي أصيبعة الى الوزير أمين الدولة ، الذي كان قد رغب أن يكون في خزانته ، فأرسله موفق الدين اليه مشفوعا بقصيدة في مدحه ٠

ومن الطريف ، أن القاضي الجيلي حين تصفح نسخة من كتاب ابن أبي أصيبعة بحضور مؤلفه ولم تكن ترجمة الجيلي مذكورة في تلك النسخة ، تأثر وقال وهو ينظر الى ترجمة السهروردي معاتبا تلميذه : « ذكرت هذا وأفضل ما ذكرته » ؟ ٠ مشيرا الى نفسه ٠ وكان موفق الدين قد قرأ عليه شيئاً من كتاب الاشارات والتنبيهات لابن سينا ، وكان بينهما أنس كبير ٠

ومن أساتذته سيف الدين الآمدي المتوفي سنة (٦٣١ هـ) اشتغل عليه في كتاب رموز الحكمة من تصنيفه وكان سيف الدين صديقا لوالده ولولاه هذه الصداقة لما أقرأه لانه كان ضنينا بالعلوم الحكمية وقال له حين زاره في داره مع والده في دمشق : « ما رأيت ولدا أشبه بوالد منكما » ٠

واضح مما تقدم أن والده رغب أن يكون ابنه طبيبا لما لهذه الصنعة من شرف وجاه وأن والده لعب دورا في توجهه هذا وفي تيسير الطريق له ولتمهيد السبيل أمامه مستثمرا صداقاته الوطيدة مع أعلام المعلمين لهذه الصناعة ، كي ينتظم أحمد تلميذا في جملة تلاميذهم ، ونلمس أثر ذلك أيضا حين رغب هو أن يأخذ شيئا ويتعلم على عبد اللطيف البغدادي وهو بحلب قبل أن يتوجه الى بلاد الروم فبعث الى والده يعتذر بالقول : « عندي ولد والولد أغلى من الولد وهذا موفق الدين ولد ولدي وأعز الناس عندي ٠٠٠ ولو أمكنني أن آتي اليه بالقصد ليشتغل علي لفعلت » ٠

وواضح أيضا أن ثلاثة من المعلمين كان لهم أثر عظيم في تنشئته الطبية من الوجهتين العملية والعلمية ، وتهيأ له من اجتماع هؤلاء الثلاثة الاعلام حظ عظيم من التمكن واشتداد الساعـــد وأعني بهم رضي الدين الرحبي والدخوار وابن صدقة ، فكان بعد الفراغ من تدربه العملي على يدي الدخوار وابن صدقة يجلس مع الشيخ رضي الدين يعاين كيفية استدلاله على الامراض وما يصفه للمرضى وما يكتب لهم ويساله عن كثير من الامراض وعلاجها ٠

ويورد لنا صورة من برنامج يومي كان أستاذه مهذب الدين يأخذ نفسه به وهو : العمل في البيمارستان ـ تفقد المرضى من أعيان الدولة ـ قراءة ودرس ومطالعة ونسخ في داره ـ دخول الاطباء والمشتغلين من الطلاب فالقراءة

اننا وان كنا لا نستطيع أن نقطع برأي ، فاننا نستطيع القول ــ مطمئنين ــ ان هذا الكتاب العظيم في التراجم هو أجدر مصنفاته في أن يضم ترجمته الذاتية بين تراجم هؤلاء الجلة من العلماء ، لانه مخصص ابتداء لهذا الغرض ، مفرد له أما كتبه الاخرى فلعلها تبرز حذقه في جانب الطب العملي الذي توفر له ، وانه وان كانت هذه الكتب مجهولة حتى يومنا هذا فان أسماءها كما أوردها هو ، لا تنبىء عن أننا نجد ضالتنا بين دفتي واحد منها وهي « التجارب والفوائد » و « معالم الامم وأخبار ذوي الحكم » و « حكايات الاطباء في درجات الادواء » وهي لا تشجع ــ من أسمائها على الافتراض ــ ناهيك عن الترجيح ــ أن تكون ترجمته قد وردت في واحد منها (٣) كما أن روايته لديوان أبي الحكم عبيد الله بن المظفر الاندلسي لا تحفزنا على مثل هذا الافتراض وهو الديوان المسمى بنهج الوضاعة ٠

واذن فان ما نفتقد، من ترجمته التي نجهل لماذا أغفلها ، كان موضعها الحق هو هذا المصنف دون سائر مصنفاته الاخرى ٠

على أنه قد عوضنا قليلا من هذا النقص الذي نجده ، ذلك فيما أورد من أطراف يسيرة من سيرته في ثنايا حديثه عن أساتذته ومعلميه ومن تدرب عليهم من العلماء والاطباء في البيمارستان النوري بدمشق والبيمارستان الصلاحي في القاهرة ، وكذلك حين انتظم في المعسكر المعظمي ، أو في الحديث عن زملاء دراسته أو أثناء حديثه عمن ترجم لهم من معاصريه من الاعلام أو ممن قرأ لهم ٠ أو كانت بينه وبينهم مراسلات أو لقاءات أو مطارحات شعرية (٤) ٠

ان هذه النبذ الصغيرة اذا جمعت كان لنا منها على ضآلتها ما يوفر استخلاص مشروع ترجمة ما نحسب أنه يكتب أوسع منها ، لو أنه أراد أن يخص نفسه بترجمة ذاتية ضمن كتابه ٠ أما اسمه فهو أحمد بن القاسم بن خليفة وكنيته أبو العباس ولقبه موفق الدين وخليفة جده (المولود في دمشق) وهو ابن يونس السعدي الخزرجي ابن أبي أصيبعة يرقى نسبه الى الصحابي الجليل سعد بن عبادة الانصاري الخزرجي ممن شهدوا وقعة (أحد) مع الرسول (ص) وضمدوا جرحه في تلك الوقعة ٠

---

(٣) نعتقد أن له كتابا خامسا هو كتاب اصابات المنجمين الذي أورد ذكره في ترجمته للبديع الاصطرلابي (ص ٣٧٦ ، ٣٦٧) حيث يقول عن البرهان المنجم وقد ذكرت أشياء منها (حكايات عنه) في كتاب اصابات المنجمين ٠

(٤) كان لموفق الدين شعر كثير في المدح والاخوانيات والتهاني (ص٦٤٨) ٠

ولد موفق الدين أحمد في دمشق سنة ستمائة للهجرة (وفي قول بحدود ٥٩٥ هـ) وتوفي في صرخد سنة ثمان وستين وستمائة للهجرة (وفي تاريخ وفاته شك) ٠

والده سديد الدين القاسم بن خليفة (المولود في القاهرة سنة ٥٧٥ هـ) كان من مهرة الكحالين بدمشق لعصره ، واليه آل نظر الكحالين فيها ، وكانت وفاته في دمشق سنة (٦٤٩ هـ) وكان قد خدم في البيمارستان النوري وقلعة دمشق ودفن في ظاهر باب الفراديس في طريق جبل قاسيون ٠

اختلف موفق الدين أحمد بن القاسم وهو صبي على الكتاب ، وتعلم على الشيخ أبي بكر الصقلي ، ثم صار شيخه في العربية والنحو ــ بعدئذ ــ تقي الدين خزعل بن عسكر بن خليل ٠ ثم لما أتقن العلوم اللسانية ، تلقى صناعة الطب على والده ثم استزاد من معين غيره في طب العيون ٠

أما الطب فدرسه على مشاهير الاطباء في عصره ، كمهذب الدين عبد الرحيم بن علي (الدخوار) (المتوفي في سنة ٦٢٨ هـ) ورضي الدين الرحبي وعمران بن صدقة اليهودي والسديد بن أبي البيان وابن البيطار العشاب وغيرهم وذلك في كل من دمشق والقاهرة ولكل من هؤلاء دور مهم في ثقافته الطبية النظرية والعملية ، وفضل في تنشئته مما يقر به ويذكره مثلما يذكر عالم فاضل ما لغيره من فضل في تعليمه وتكوينه واعداده ٠

فأما (الدخوار) الذي كان يدرس الطب في دمشق بحدود سنة ٦١٥ هـ وكان قد أقرأ كثيرا من أعيان الاطباء ، فقد جاءه ابن أبي أصيبعة الى دمشق كي يقرأ عليه كتب (جالينوس) وكان قبل ذلك قد اشتغل عليه في المعسكر ولازمه في وقت معالجته للمرضى في البيمارستان وتدرب عليه ثم باشر أعمال صناعة الطب ، ودربه مع الدخوار عمران بن صدقة ، فأصاب فائدة عظيمة : اقتبس منهما وانتفع من محاوراتهما ومن مداواتهما للمرضى ووصفاتهما العلاجية ٠ وتحصلت له فوائد جمة من التدريب العملي على يديه ، وللمتدربين من تلامذته مشاهدات فريدة له في قاعـــة المحرورين وقاعــة المحمومين في البيمارستان الكبير ٠

وقرأ في سنتي اثنتين وعشرين وثلاث وعشرين وستمائة على رضي الدين الرحبي كتابا في الطب وخاصة ما يتعلق بالجزء العملي من كلام الرازي وغيره وهو طبيب معلم تتلمذ عليه جمهور كبير من أطباء الشام ممن خرجوا أنساقا بعدهم ، من طرائفه معه أنه كان يقرأ عليه كلاما للرازي في ترتيب تناول الغذاء : (مرتان في اليوم ومرة في اليوم الذي يليه ٠٠) فقال له الرحبي « لا تسمع هذا ٠٠٠ فالاكل عند الشهوة الصادقة للاكل هو الذي

والمدارسة والشرح فالتعمق ، وكان يكلف كل طالب من طلابه أن تكون نسخة من الكتاب المقرر في يده ، ويضع الاستاذ الى جانبه مراجعه اضافة الى حرصه أن تكون ــ مع ذلك كله ــ كتب الصحاح للجوهري والمجمل لابن فارس وكتاب النبات لابي حنيفة الدينوري ، فاذا ما انقضت فترة التدريس هذه تناول طعامه ثم بدأ مطالعته ·

ويذكر له فضلا مشكورا وهو وقفه لدار له كانت بدمشق فجعلها مدرسة يدرس فيها من بعد صناعة الطب ، وجعل لها أوقافا ضياعا وأماكن مستغلة كي تقوم بالانفاق على المدرسة والمدرس والعاملين بها ، وأوصى أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين بن علي الرحبي ·

هذا عن أساتذته ومعلميه في الشام ، أما في مصر فلقد قرأ وتدرب على الشيخ السديد أبي البيان الاسرائيلي الذي كان طبيبا في البيمارستان الناصري بالقاهرة زمن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان السديد حسن التأني لمعرفة الامراض وتحقيقها ومداواتها وكان مجيدا في تركيب الادوية ، ومعرفة مقاديرها وأوزانها قرأ عليه كتاب (الاقرباذين) المقتصر على الادوية المركبة التي كانت مقررة متداولة في البيمارستانات في مصر والشام والعراق ، وفي حوانيت الصيادلة وشارك أستاذه في جمعه ···

وقرأ فيها كذلك على أفضل الدين الخونجي في سنة اثنين وثلاثين وستمائة بعض الكليات من كتاب القانون للشيخ الرئيس ابن سينا ·

أما معاصروه من الاطباء ممن عمل معهم في دمشق والقاهرة فهم كثر : منهم من زامله في الطلب على الشيوخ الاوائل الذين سلف ذكرهم جمعته بهم أوقات الطلب والتدرب وأماكنهما ، ومنهم من كان من مشاهير الاطباء لزمانه ، ومنهم من تولى مناصب ادارية أو قضائية رفيعة ومنهم من اجتمع به في القاهرة ودمشق من أطباء العراق والمغرب مثل شمس الدين الخسروشاهي الذي اجتمع به في دمشق فأعجبه سمته وكلامه وذكاءه وتحصيله ، وأعجبه فوق ذلك تعظيمه لشيخه فخر الدين الخطيب ··· ومثل نجم الدين بن اللبودي وشرف الدين الرحبي وهو مدرس (الدخوارية) الطبية المتقدم ذكرها (٦) وظل مدرسها الى أن خلفه عليها بدر الدين بن قاضي بعلبك بمنشور من شمس الدين محمود ابن الملك العادل وذلك في سنة سبع وثلاثين وستمائة ·

---

(٦) تم وقفها في عام ٦٢٢ هـ قبل أن يسافر الواقف (الشيخ الدخوار) الى الملك الاشرف وكان موقعها في الصاغة العتيقة قرب سوق المناخلين وبدأ التدريس بها سنة ٦٢٨ هـ في احتفال مشهود وصفه ص

وكان شرف الدين هذا من أصدقاء ابن أبي أصيبعة الحميمين وكانت بينهما مراسلات ، تبين عن هذه العلاقة ، ذلك أنه حين التحق موفق الدين بصاحب صرخد الامير عز الدين أيبك المعظمي ، راسله شرف الدين من دمشق وكتب له قصيدة كره له فيها الاقامة في صرخد ، والابتعاد عن دمشق ، ورغبه في العودة اليها ، مذكرا اياه بطيب العيش فيها ، حاثا اياه أن يعود لوالد اغتم لبعده ، فأجابه ابن أبي أصيبعة أنه ما كان مختارا حين فارق والده وابتعد عن أصحابه ، شاكيا له سوء حاله ذاما القوم لعجمتهم ، مظهرا الحنين الصادق الى دمشق .

ومن أصحابه رشيد الدين الصوري الذي كان قد أهدى لموفق الدين تاليفا له ، يحتوي على فوائد ووصايا طبية فبعث اليه برسالة شكر ، وقد كانت لرشيد الدين طريقة فذة في التعرف للاعشاب والتصنيف في عملها حيث انه كان يستصحب معه مصورا (رساما) ومعــه الاصباغ والليق فيتوجهان الى مواضع النبات فيشاهده ويحققه ، ويريه المصور ، فيعتبر هذا لونه ، ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله ، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها ... وكان يري المصور النبات في ابان طراوته فيصوره ، ثم يريه اياه وقت كمالــه وظهوره بزره فيصوره ، ثم يريه اياه وقت جفافه ويبسه فيصوره ، فيكون النبات الواحد مصورا في الكتاب طبق حالاته المتبدلة المتابعة في الطبيعة وتلك طريقة ممتازة في التأليف والايضاح .

وكان سديدالدين بن رقيقه (المتوفي سنة ٦٣٥ هـ) من أصحابه واظب على معالجة المرضى في البيمارستان النوري الكبير اعتبارا من سنة ٦٣٢ هـ وزامله ابن أبي أصيبعة في هذه الفترة في المستشفى نفسه حيث كان هو يعالج المرضى وامتدت صداقتهما والزمالة الى أن توفي سديد الدين (سنة ٦٣٥ هـ) وكان موفق الدين قد انتقل في في عام (٦٣٤ هـ) الى صرخد ... وكثيرا ما كان سديد الدين يناشده الاشعار من شعره وفي بعضها وصايا طبية وفي بعضها تهنئه وفي غيرها رثاء .

ومن أصدقائه مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد ، لقيه في دمشق وزاره في داره مهنئا بسلامة العودة بعد أن أطلق من حبسه ، وكان قد قبض عليه الملك الامجد وعلى جميع السمرة المتولين في دولته لما اشتد عسفهم بالرعية ، وكان قد وزر له في بعلبك وحظي عنده وحاز مقاما .

ومنهم أمين الدولة أبو الحسن بن غزال بن أبي سعيــد بــن أخي مهــذب الدين السابق ذكره ، وقد كان سامريا ثم أسلم ، ووزر الملك الصالح صاحب حماه ثم بعلبك ، وكان جماعا للكتب الكثيرة الفاخرة في شتى العلوم ، وفي خدمته نساخ مخصوصون به وكان في الاصل صديقا لوالد موفق الدين فطلب

من الوالد وهو بدمشق ، أن يبعث موفق الدين اليه بنسخة من كتابه الذي لهجت بالثناء عليه الالسن ، كي تكون في خزانته الى جانب أكثر من عشرين ألف مجلد نفيس فيها ، فهيأ له موفق الدين نسخة بخط الناسخ شمس الدين محمد الحسيني وجلدها أربعة أجزاء ، وارسلها مشفوعة بقصيدة مدح واهداء الى أمين الدولة (٧) ، رفقة قاضي القضـــاة بدمشق رفيـع الدين الجيلي المتقدم ذكره .

وكان بدر الدين ابن قاضي بعلبك من أصدقائه كذلك وزميلا له في الدراسة على مهذب الدين بن علي (الدخوار) وثابر هذا في الاشتغال عليه حتى رحيله عن دمشق لخدمة الاشرف موسى بن الملك العادل (٦٢٢ هـ) حيث سار بـدر الدين مع شيخه ثم عاد الى دمشــق وتولى بعدئذ في سنة (٦٣٥ هـ) رياسة جميع الاطباء والكحالين والجرائحيين فيها ثم خلف الرحبي على التدريس بالدخوارية .

وأهدى ابن قاضي بعلبك الى موفق الدين أحمد نسخة من كتابه (مفرج النفس) فشكره برسالة وأبيات ، ولما أخبره والده ــ والد موفق الدين أن بدر الدين قد آلت اليه نظارة الطب ورياسة الاطباء بعث اليه يهنئه برسالة وفيها شعر (٨) .

وكان شمس الدين الكلي* زميـلا لــه في الدراســة عـلى الدخـوار ، وسمي شمس الدين بالكلي لانه أخذ نفسه بحفظ الكليات : الكتاب الاول من القانون لابن سينا .. وكان زميلا له في الخدمة في البيمارستان الكبير بدمشق .

ومن رفاقه في الطلب على الشيخ الحكيم مهذب الدين عبد الرحيم بن علي موفق الدين عبد السلام ، وكان صديقا له ، وكان قد خدم الملك الناصر يوسف بن محمد بن غازي صاحب حلب ، ثم عاد الى دمشق لما ملكها الناصر ، وكان موفق الدين عبد السلام قد كتب اليه قصيدة يتشوق فيها الى دمشق ويمدحـــه .

---

(٧) انظر ص (٧٢٥) (طبقات الاطباء) .

(٨) انظر ص (٧٥٢) (طبقات الاطباء) .

(*) يقول (ماكس مايرهوف) في دائرة المعارف الاسلامية ص١٩٦ ان موفق الدين تلقى الطب على شمس الدين الكلي . وليس في ترجمته للرجل ما يشير الى ذلك ولا ندري ما هو مصدره في هذا الزعم .

(٩) يعود نسب عز الدين الى الصحابي الجليل الانصاري اليثربي سعد بن معاذ .

وعز الدين السويدي كان كذلك من رفاقه وكان والد عز الدين صديقا لوالده وكلاهما ينتمي الى عائلة يثربية من الانصار ، وكانت ولادتهما في سنة واحدة ودرسا في المكتب (الكتاب) على الشيخ الصقلي المتقدم ذكره ، والمودة بينهما قديمة ، وخدم طبيبا في البيمارستان النوري الكبير ، ثم خدم بالبيمارستان الآخر بباب البريد ، وتردد الى القلعة طبيبا للخاصة السلطانية ، ودرس في الدخوارية ، وكان قـد كتب نسخة بخطه (كان يكتب على طريقة ابن البواب وله خط يشبه مولد الكوني) من كتاب منافـــع الاعضاء لجالينوس بشرح ابن أبي صادق وخطه ، وكان قد استعارها من سديد الدين والد صديقه ابن أبي أصيبعة ، ولم يكن قد وصل الشام غيرها (سنة ٦٣٢ هـ) وهي في جزأين وكان قد قال أبياتا حين فرغ صديقه ابن أبي أصيبعة من تأليف كتابه في تاريخ المتطببين المرسوم بعيون الاطباء يمدح له عمله ٠٠٠

ومن أصدقائه كذلك عماد الدين الدنيسري لقيه في دمشق لاول مرة سنة (٦٦٧ هـ) وسمع منه من شعره ، وخدم في البيمارستان النوري وكان قبلها يتردد على الدور اليوسفية في قلعة دمشق ٠

وكان يناشده الاشعار ٠

تدرب ابن أبي أصيبعة كما هو واضح مما تقدم في أماكن ثلاثة هي المعسكر المعظمي حيث كان والده وجلة من أساتذتـه هناك (ابن سقلاب والدخوار) وفي دمشق في البيمارستان النوري الكبير بين سنة ٦١٥ هـ وسنة ٦٣٢ هـ ثم تعلم في القاهرة في سنوات ٦٣٢ ـ ٦٣٤ هـ حيث اختص بعدها بأمير صرخد عز الدين ايبك المعظمي ٠٠ وكان كثير الاجلال لاساتذته ، محبا لهم بارا طيعا ، وكان شديد النهم الى المطالعة واقتناء الكتب (١٠) ، يهديها وتهدي اليه وانه كان كثير التحصيل محبا للشعر بل انه يصرح أنه رواية ديوان نهج الوضاعة لابي الحكم عبيد الله بن المظفر الاندلسي وهو ديوان فيه مجون وتهتك وهجاء وسخر مما يدل على أنه يتوفر على ميل الى المرح والمزاح والعبث البريء ، وان كان شعره الذاتي فيه تعفف ، وبعد عن مثل أشعار أبي الحكم ٠

---

(١٠) يقول في التعريف بناسخ كتابه طبقات الاطباء انه كان ينسخ لهم الكتب (له ولاسرته) ٠

٢ ـ في الأثر :

يوضح ابن أبي أصيبعة في مقدمة كتابه الباعث الذي حفزه على أن يشرع في تأليف مصنفه طبقات الاطباء وهو الافتقار الى مرجع شامل في معرفة طبقات الاطباء وكذلك يوضح خطته في التأليف ألا وهي أن يذكر المتميزين من أرباب هذه الصناعة (الطب) قديما وحديثا ، وتصنيفهم طبقات وفق الزمان والمكان ، مع ايراد نبذ من أقوالهم ونوادرهم ومحاوراتهم وذكر شيء من أسماء كتبهم ، ثم يحدثنا عن تقسيمه الكتاب الى أبواب يعددها فتصل الى خمسة عشر بابا : أولها في كيفية وجود صناعة الطب وحدوثها وآخرها طبقات المشهورين من أطباء الشام ٠

في ظني أن ما أفصح عنه من باعث ليس هو الوحيد وراء هذا النتاج القيم ، وانما وراءه ثقافة ممتازة عميقة توفرت للرجل ، وفكر موسوعي واضح ، يدفع صاحبه دفعا الى التعبير عنه والابانة عن مكنات صاحبه الفذة والمنوعة ، فهو مطالع ممتاز نهم ، يدل على ذلك عدد جم وفير من المراجع تهيأ بين يدي عمله ، وعدد أكبر اضطلع عليه ، فدفعه الى البحث والاستقصاء فالتصنيف مع ميل في طبعه لهذا الامر ، ثم ان الرجل كان جماعا للكتب كأكثر أعلام عصره ، وقد صرح بذلك في ترجمته لحنين حيث يقول : « ٠٠ وجدت من هذه الكتب كتبا كثيرة وكثير منها اقتنيته وهي مكتوبة مولد الكوفي بخط الازرق كاتب حنين ٠٠٠» ومثل هذه الملاحظة ترد في غير واحدة من الترجمات التي عملها ٠

ثم ان عصر الرجل ـ العصر الثقـافي أعني ـ كان عصر الموسوعات : نجزت ـ قبله وبعده ـ مجموعات هائلة من المصنفات العربية في سائر العلوم ٠٠ وكان قد تهيأ في نتــاج الثقافة العربية ـ حتى ذلك الوقت ـ مصنفات في الطبقات خاصة ، في شتى العلوم من طبقات المحدثين الى طبقات القراء ، طبقات الادباء والشعراء طبقات النحويين وطبقات الاطباء ، واذن فلم يكن مصنف ابن أبي أصيبعة فريدا في بابه ، ولا في لونه فلقد ألف غيره في هذا المجال ، وان كان مصنفه هو يتميز عنها بأشياء نذكرها في موضعها من هذه الدراســة ٠

أما ناسخ الكتاب فقد ذكر اسمه في معرض ترجمته لامين الدولة وهو الشريف الناسخ شمس الدين محمد الحسيني ، وذكر أنه كثيرا ما كان ينسخ لهم الكتب (وأغلب الظن أن الضمير عائد هنا عليه وعلى أبيه وعمه الذين يشكلون أسرة مثقفة جيدة الثقافة احترف أفرادها الطب وكان لكل واحد منهم في مجالها شأن غير قليل) واستفادت هذه الاسرة من اقترابها من الاسرة الايوبية فائدة جليلة ، كان لها أثرها الخطير في مستقبلهم الثقافي العلمي ، مما أتاح لهم التعلم ومصاحبة رجال الدولة وأعيانها ٠

مدح ابن أبي أصيبعة خط ناسخه الشريف المذكور وأشاد باتقانه العربية وأخبرنا عن قطع الكتاب (ربع البغدادي) وعن أجزائه (أربعة أجزاء) وذكر تاريخ الفراغ من نسخه (أوائل سنة ثلاث وأربعين وستمائة) ومكان النسخ (دمشق) .

مما سبق يتضح أن هذا الكتاب كان موجودا قبل أن يهدى الى أمين الدولة سنة ثلاث وأربعين ويتبين ذلك أيضا من عدة تلميحات واشارات وردت تؤكد هذا الوجود : ان رغبة أمين الدولة أن تضم خزانته هذا المصنف الذي كثر اطراؤه والذي تقدم الحديث عنه في القسم الاول من هذه الدراسة لتدل على أنه يستهدي شيئا موجودا ، سمع الثناء عليه من الآخرين ، ثم انه قد تقدم أن المؤلف قد تلقى عتبا من أستاذه الجيلي قاضي القضاة ، حين اطلع على الكتاب فلم يجد ترجمته مدرجة في التراجم ، ومن المؤكد أن الملاحظة هذه تنصب على اطلاع الجيلي على نسخة سابقة على النسخة التي حملت الى أمين الدولة ، لان النسخة الاخيرة كانت تحوي ترجمة للجيلي ... ونعتقد أن الكتاب قد مر بتطورات كانت تطرأ فيها عليه زيادة في كل مرة ففي المرة الاولى التي اطلع فيها رفيع الدين الجيلي على نسخة من هذا الكتاب كانت خلوا من ترجمته فعتب عليه ، وحين أهدي الى أمين الدولة ، كانت النسخة المهداة تحتوي على ترجمة الجيلي ، ثم انه يترجم لامين الدولة يذكر تاريخ وفاته (!!) كيف يهدى الكتاب الى رجل دولة استهداه ثم يسجل في ترجمة المهدي اليه تاريخ وفاته ؟! والتفسير المعقول لهذا الاضطراب هو ما قدمنا من أن هذا الكتاب قد مر بتطورات كان في كل واحدة منها يزاد عليه والا فكيف تهيأ له أن يذكر تاريخ وفاته (٦٤٨ هـ) ويسهب في ذكر هذه الوفاة وما حصل له من المحن الى حين شنقه بالقلعة بالقاهرة نتيجة الصراع المحموم الذي اشتد بين أفراد الاسرة الايوبية في مصر والشام ... ثم ان اضافات ثالثة قد حصلت على هذا المؤلف بعد سنة ٦٤٨ وهي تخص الترجمات التي ذكر وفاة أصحابها بعد هذه السنة مثل ترجمة نجم الدين المنفاخ (ت ٦٥٢ هـ) وبدر الدين بن قاضي بعلبك .

ومن المؤكد اذن أن هؤلاء لم تكن ترجماتهم مذكورة في النسخة المهداة الى خزانة أمين الدولة ، أو على الاقل لم يكن تاريخ وفاتهم مثبتا لانهم كانوا أحياء عند الاهداء (في سنة ٦٤٣ هـ) ... وأشد من ذلك اضطرابا أن في الكتاب ترجمات لاناس كانت وفاتهم بعد وفاة المؤلف . (اذا سلمنا ان وفاته كانت فعلا في سنة ٦٦٨ هـ) وهما ترجمتان واحدة ليعقوب السامري وكانت وفاته سنة ٦٨١ والثانية لتلميذه ابن القف ووفاته سنة ٦٨٥ هـ . وحل هذا الاضطراب المشكل هنا ــ كما تقدم ــ بأحد افتراضين وهما : اما أن تكون وفاة ابن أبي أصيبعة ليست في عام ٦٦٨ هـ وانما في عام ٦٨٥ هـ وما بعد

حتى يمكن القول انه ترجم لاثنين مات آخرهما في عام ٦٨٥ هـ أو أن نقول أن زيادة رابعة قد وقعت على هذا المصنف فأضافت ترجمة هذين العلمين ونحن نرجح الافتراض الاول ونميل الى الشك في وفاة ابن أبي أصيبعة لانه حين يترجم لتلميذه ابن القف يقول : لا زمني ·· وقرأ علي ·· وأمثال هذه العبارات مما يدل على أنه هو الذي يكتب الترجمة وليست الترجمـــة من اضافات النساخ ·

وفي تاريخ النسخ والاهداء اضطراب اذا ما قورن بوفاة الجيلي · فالفراغ من النسخ كما ورد في ترجمة أمين الدولة من قول ابن أبي أصيبعة كان أوائل سنة ثلاث وأربعين وستمائة وحمله الجيلي الى المهدى اليه ، وفي ترجمة الجيلي (ص٦٢٧) يذكر تاريخ وفاته على أنه عام ٦٤١ هـ وهذا غير معقول ، ان وفاة الجيلي كانت بعد اهداء الكتاب وخروج المهدى اليه من دمشق وذلك كان في سنة٦٤٣كما هو في قول ابن أبي أصيبعة وكما هو ثابت فيالتاريخ(١١)·

لقد حظي الكتاب باهتمام وتقريظ أعلام عصر المؤلف ففضلا عن اهتمام أمين الدولة أن يخص بنسخة من الكتاب في خزانته ، يجزي عليها المال والاحسان والثناء ، واضافة الى عتب الجيلي وحرصه أن يكون اسمه بين أعلام من حوتهم النسخة ، فاننا نقع على مديح له في عبارة الوزير الصاحب بن مطروح وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب حين يقول له : « ما سبقك الى تأليف كتابك في طبقات الامم أحد » وبغض النظر عما في العبارة من حكم قابل للنقاش فانه تقريظ للكتاب واشادة بأهميته ، وكذلك فاننا نجد شيئا مماثلا في ترجمة رشيد الدين أبي حليقة حيث يقول (١٢) : « ولما اجتمعت بالحكيم رشيد الدين أبي حليقة وكان قد بلغه أنني ذكرت الاطباء المشهورين من أهله ووصفت علمهم وفضلهم فتشكر مني » ·

أما مهذب الدين سعيد ابن أبي حليقة فيكتب اليه في سنة سبع وستين وستمائة وكان أبو سعيد اذ ذاك في المعسكر المنصور الظاهري يقول : « انه وجد بمصر نسخة من هذا الكتاب الذي ألفه في طبقات الاطباء ، وقد اقتناها وصارت في جملة الكتب التي حواها ، وبالغ في الوصف الذي يدل على كرم أخلاقه وطيب أعراقه » وكذلك قـرظ الكتاب شعرا صديقـــه عز الدين السويدي وأنشده قصيدة منها :

---

(١١) كان ترسيم الجيلي في منصبه في عهد السلطان الملك الصالح عماد الدين اسماعيل الذي ملك دمشق سنة ٦٣٧ هـ وأخذت منه سنة ٦٤٣ هـ : الاعلاق الخطـيرة ج ١/٣ ص ٢٠٠ وقوت القلوب في مناقب بني أيوب ص ٣٧١ ص ٣٨٠ ·

(١٢) انظر صفحة ٥٩٦ ·

« موفق الدين بلغت المنى : ونلت أعلى الرتب الفاخره »

« حملت في التاريخ من قد مضى : وان غدت أعظمه ناخره »

« فخصك الله باحسانــــه : في هذه الدنيا وفي الآخره »

ما هي المصادر التي اعتمدها ابن أبي أصيبعة في تصنيف كتابه القيم هذا ؟

ان المعلومات الثرة الغزيرة التي حواها الكتاب استقاها المؤلف من مصادر عدة هي النقول والمشافهات والمعاينات المشاهدات ، وفي كل واحد من هذه المصادر تلحظ الجهد العظيم في التحصيل والاطلاع والتقييد ... وهو حريص أشد الحرص على أن يذكر لك من أين استقى مادته ففي مصادره المكتوبة نجد أنه قد استفاد من ما ينوف عن اثنين وخمسين مرجعا مكتوبا(*) تشكل خزانة غنية جدا في الطب وعلومه المساعدة ، وتاريخ الصنعة ، وترجمات أعلامها ، وأسماء كتبهم ومصنفاتهم ، هذا غير نقوله عما لم يصرح بذكر الكتاب وانما ذكر المؤلف ، كنقوله التي أخذها عن فثيون الترجمان ، فهو لم يصرح باسم الكتاب الذي نقل عنه ، ولم يدرج في ترجمته سوى كتاب واحد(١٣) وهو ليس من الكتب التي تتحدث عن تاريخ الطب والاطباء .. أو قوله نقلت من رسائل ابن الصيرفي(١٤) .. أو نقوله التي قدم لها بقوله : « نقلت من بعض التواريخ » وهي عبارة ترد في كثير من المواضع(١٥) أو « وجدت في بعض الكتب »(١٦) .. أو قوله : « وفي التاريخ »(١٧) أو : « نقلت من خط بعض المشايخ »(١٨) ..

يلاحظ على هذه المصادر المكتوبة أنها تقع في ثلاثة أقسام :

١ ــ منها ما يتعلق بالعلوم الطبية المحضة ، أو تاريخ الطب .

٢ ــ ومنها ما يتعلق بالعلوم الحكمية والعلوم المساعدة لصناعة الطب .

٣ ــ ومنها ما يتعلق بالتاريخ العام وتاريخ الادب .

---

(١٣)

(١٤) انظر صفحة ٥٠٢ .

(١٥) انظر صفحة ١٩٢ ــ ٢٠٢ ــ ٢٢٥ ــ ٣١٥ .

(١٦) انظر صفحة ٤٧٥ .

(١٧) انظر صفحة ٥٤٣ ــ ٦٠٦ .

(١٨) انظر صفحة ٦٠٣ .

(*) تجدها في ثبت ملحق بهذه الدراسة (ملحق رقم ١) .

وأما المشافهات فهي كثيرة وطبيعي أنه استقاها من أعلام عصره : شيوخه ، وزملائه في العمل وأصحابه من المثقفين من أصحاب المناصب الادارية قضاء ووزارة من المهتمين بشؤون الثقافة العامة والطب وتاريخه والادب وتاريخه والتاريخ العام والسياسي منه بشكل خاص . وبلغت عدة من شافههم وروى أطرافا من أحاديثهم أربعة وأربعين علما (**) هم صفوة أعلام الثقافة في عصره خاصة في العلوم الطبيـــة وتاريخها منهم الطبيب والنحوي والكاتب والعواد والناسخ والكحال والوزير والكتبي . هذا سوى ... من لم يذكر أسماءهم صراحة بل أجمل القول : « حدثني بعض الاطباء(١٩) » أو قوله : « حدثني بعض المصريين(٢٠) » وكذلك قولـــه : « حدثني بعض فقهـــاء العجم(٢١) » أو « حدثني بعض أهالي حلب »(٢٢) .

وتشكل المشاهدات المصدر الثالث لهذا الكتاب وقد تمت هذه المشاهدات في أربعة مواضع هي دمشق وصرخد والمعسكر المعظمي والقاهرة ، ولا نعلم له أماكن غير هذه أقام فيها أو دون شيئا من مشاهداته فيها سواها .

وهذه المشاهدات غنية بالمعلومات الطبية والنكات والنوادر وطرائق التدريب ، وما يكون بين الاطباء من تعاون أو بغض وتحاسد ، ومعابثات ، وأحوال ، مثلها في ذلك مثل المصدرين السابقين : النقولات والمشافهات .

في دمشق عاش منذ مولده والى أن انتظم بالمعسكر المعظمي ، ثم عاد الى دمشق وارتحل الى القاهرة ، وكان هناك سنوات اثنين وثلاث وثلاثين وأربع وثلاثين(٢٠) وبعدها التحق بصاحب صرخد سنة أربع وثلاثين ، وهذا لا يعني انقطاعه عن دمشق ففيها أهله وأصحابه ، وهي ملعب طفولته ومغنى شبابه ، كان يتردد عليها وخاصة سنة ٦٤٣ هـ حين أصطحب مسودات كتابه ليهيىء نسخة منها يهديها الى أمين الدولة كما تقدم الخبر بذلك .

(**) تجد أسماءها في ثبت ملحق بهذه الدراسة (ملحق رقم ٢) .

(١٩) انظر صفحة ٤٩١ .

(٢٠) انظر صفحة ٤٦١ .

(٢١) انظر صفحة ٦٤٢ .

(٢٢) انظر صفحة ٦٤٤ .

(٢٠)مكرر وربما كان فيها سنة احدى وثلاثين أيضا ، ولم تكن اقامته في القاهرة في هذه السنوات اقامة متصلة ، فهو قد كان في دمشق مع أستاذه ابن البيطار العشاب في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة (ص ٨٥٣) .

فمن مشاهداته ما رواه من نادرة للاسعد المحلي يعقوب بن اسحق صديق عمه رشيد الدين حين عاد بعض نساء أهله (أهل المؤلف) وكان عرض لها مرض تطاول فأعيا ، فأعطاها علاجا ، أقراصا قال انه ركبها خاصة لهذا المرض · ومؤدي الخبر ها هنا الاشادة ببراعته في التشخيص ودقته في اعداد العلاج اللازم (الدواء الذي ركبه) فلما تناولتها وفق ما رتب شفيت : (حسن تنظيم العلاج) ·

أو ما شاهده من حسن تأتي الشيخ السديد ابن أبي البيان لمعرفة الامراض وتحقيقها (التشخيص) وذكر مداواتها وبراعته في تركيب الادوية بمقاديرها وأوزانها حتى للامراض النادرة من سفوفات وأقراص وأشربة ·

وكذا ما شاهده من ذكاء ابن البيطار وفطنته ودرايته بالنبات والاعشاب ، وما رآه من حسن تأتي الحكيم عمران في المعالجة وتحققه للامراض مما يثير العجب ، من ذلك معالجته مفلوجا حتى برىء في البيمارستان الكبير بدمشق ووصفاته للمزاوير لمرضاه حسب ميولهم ، ومعالجته أمراضا كثيرة مزمنة قد أعيا شفاؤها ، فشفى الحكيم أصحابها بدوائه وعلاجه(٢١) ·

وما شاهده من ملح أستاذه مهذب الدين في صناعة الطب وغرائبه في المداواة ، وتحققه للامراض ، والمعالجة فقد عالج مريضا بمرض الجنون السبعي باضافة مقادير من الافيون الى ماء الشعير الذي كان يسقيه فشفي أو كشفه لطلابه حالة مريض نبضه ضعيف في اليمنى قوي في اليسرى ، وهي حالة نادرة في الناس مما يشتبه على الكثير من الاطباء ، فيؤولون ضعف النبض عندهم الى مرض وماهم كذلك ·

وما عاينه من كيفية استدلال الحكيم رضي الدين الرحبي على الامراض وما يصنفه بموجب ذلك للمرضى وذلك في البيمارستان النوري الكبير بدمشق ·

وما رآه من براعة والده في معالجة العين الميؤوس منها أو مما تكون مداواتها بالحديد (الجراحة) يبرئها بالدواء ويستغني عن الحديد ·

وما شاهده وسمعه من اطراء وعلم الدين قيصر لعمه رشيد الدين لشدة ذكائه واستيعابه وقدرته على التحصيل ، حيث كان يدرس عليه علم الهيئة (علم البحث عن أحوال الاجرام السماوية) فأنجز بين يديه في نحو شهر ما يتعلمه غيره في خمس سنين !! ·

(٢١ مكرر) انظر صفحة ٦٠١ ـ ٦٩٧ ·

يبدأ الكتاب بعد صفحتي العنوان بترجمة لابن أبي أصيبعة ، والترجمة ليست دقيقة ولا وافية وتحتل الصفحتين ٥ ـ ٦ ولا تحمل اشارة الى منشئها ، ثم تأتي مقدمة ابن أبي أصيبعة لكتابه على الصفحات (٧ ـ ٩) ، ثم تبدأ مادة الكتاب بالباب الاول (ص١١) وتنتهي المادة في نهاية الباب الخامس عشر وهو آخر الابواب بترجمة ابن القف (ص ٧٦٨) ولا تشتمل النهاية على ذكر الفراغ من النسخ واسم الناسخ ومكان النسخ على ما جرت عليه عادة الناسخين ، ثم يلي ذلك فهرس المواضيع (ص ٧٦٩ ـ ٧٧٦) وهو فهرس ناقص قليل الفائدة لانه يكتفي بترقيم بدء الباب دون ترقيم صفحات كل علم من الاعلام في هذا الباب يلي ذلك الصفحات (٧٧٧ ـ ٧٩٢) وفيها فهرس للاعلام والاماكن سيء الاعداد عديم الفائدة ٠

والكتاب من خلال هذه الطبعة مليء بالاخطاء عامر بالاوهام التي وقع فيها الناشر منها :

١ ـ كثيرا ما يقع خطأ في ترقيم الحاشيه (انظر ص ٤٠٨ ـ س ط) و (ص ١٩٤) ٠

٢ ـ يميل الى حاشية غير موجودة أصلا (انظر ص ٤٧٧) ٠

٣ ـ يخطيء في فهم معاني المفردات فيشرحها شرحا خاطئا نابعا من سوء الفهم (انظر ص ٣٠١) فلقد فهم معنى البذرقة على أنها التبذير على حين أنها تعني في السياق التي وردت فيه الخفارة(٣٠) ٠

٤ ـ يخطيء في الاماكن أسمائها ومواقعها (٣١) ٠

٥ ـ يخطى في الاعلام فتحول عنده اسم تاج الدين بن الحسن الكندي الى النكدي النحوي(٣٢) ٠

٦ ـ يخلط بين اثنين من أعلام الصحابة هما سعد بن عبادة (الجد الاكبر للمؤلف) وسعد بن معاذ (الجد الاكبر لصديقه السويدي) انظر ص ٧٣٦ ـ ص ٧٥٩ ٠

---

(٣٠) انظر اللسان مادة بذرق ٠

(٣١) انظر ص ١١٨ حيث يتحدث عن مسكن جالينوس وهو في سمرنا بالقرب من قرية ! قرّه ٠ والصواب بالقرب من قره ٠٠ وكذلك انظر ص ٤٥٤ حيث يقول عن وادي كنعان أنه (على ما يعتقد كذا !) في لواء ديالي وهو المكان الذي كسر فيه قطز التتار وهو في فلسطين والحادثة مشهورة معروفة وانظر كذلك ص٦٤٣ في ترجمته للسهروردي فيسمي المدرسة الحلاوية المدرسة الجلاوية ٠

(٣٢) انظر ص ٦٣٧ ـ ٦٥٢ ـ ٦٩٢ ـ ٦٨٢ ـ ٧٢١ ٠

٧ ـ يخطيء في التاريخ فيقول عن وفاة نور الدين محمود أنه توفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة ثم يقول انها في سنة تسع وستين وخمسمائة(٣٣)، والتاريخ الثاني هو الاصوب ، وكذلك قوله عن وصول رشيد الدين أبي حليقة الى القاهرة سنة تسع وخمسمائة وهذا خطأ لأنه يذكر أنه ولد سنة احدى وتسعين وخمسمائة في قلعة جعبر .

٨ ـ لم يتحقق من تاريخ ولادة المؤلف (٦٠٠ هـ أم ٥٩٥) ؟ . كما لم يتحقق من تاريخ وفاته التي جعلها بحدود ٦٦٨ هـ على حين أننا نرى أن المؤلف ترجم لمن كانت وفاتهم بعد هذا التاريخ (٦٨١ هـ) وكذلك ترجمته لابن القف (٦٨٥ هـ) (٣٤) .

أما عن الاخطاء المطبعية املاء ونحوا وتصحيفا فحدث عنها ولا حرج ، فلقد عثرت على جملة منها بلغت عدتها نيفا وخمسين (*) .

توفرت لهذا المصنف الجليل من الاسباب جعلته من الاهمية بمكان ونذكر فيما يلي طائفة منها :

١ ـ احتوى على تراجم لحوالي أربعمائة من أعلام الطب أو من اشتغلوا بصناعته أو بعلوم أخرى مساعدة ضرورية مكملة لهذه الصناعة .

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال وهو لماذا لم يترجم لمعاصره ابن القفطي مع أنه كثير النقل عنه ، ثم لماذا لم يترجم لمعاصره ابن النفيس (٦٠٧ ـ ٦٨٧) ولم ترد الاشارة اليه ولو في معرض الحديث عن آخرين كما هو حاصل أحيانا في ترجماته للبعض اذ أنه يورد أطرافا من أخبار من عاصر المترجم له من أعلام هذا الفن (٣٥) .

وهل يكفي هنا في تعليل افتقارنا لترجمة ابن النفيس الافتراض أن ابن النفيس أغفل لما كان يعانيه من الجراحة جريا على عادة العرب الذين كانوا لا ينظـرون الى الجراحين (أو الجرائحيين باصطلاح تلك الحقبة) نظرة عدم الارتياح بله الاحترام ، بما يلحق عملهم بالجسم الانساني من تشويه

---

(٣٣) انظر على التوالي ص ٦٣٥ وص ٦٣٧ .

(٣٤) انظر على التوالي ص ٦٦٧ وص ٦٨٥ .

(*) وردت في ثبت خاص في نهاية الدراسة ـ ملحق رقم (٣) .

(٣٥) ففي ترجمته لعمه رشيد الدين نجد أطرافا من أخباره هو وأخبار والده ، وفي ترجمته لامين الدولة نجد أخبارا عن رفيع الدين الجيلي وفي أخبار رفيع الدين نجد أخبارا عن السهروردي ... الخ .

الا أن معظم مشاهداته وأهمها وأوفرها كان قد أورده في كتابه «التجارب والفوائد (٢٢)» ·

يتبع ابن أبي أصيبعة في الترجمة أسلوبا نمطيا واحدا ، وقد تمتد الترجمة على عدة صفحات تتراوح بين العشرة الواحدة الى العشرات الاربع الا أن ترجمات أخرى قد تتضاءل الى أن تغدو من بضعة أسطر ·

يتناول في الترجمة جوانب كثيرة من حياة المترجم له تتضمن كلاما كليا حول أخباره ـ مكانته وفضله تعمقه الصنعة ـ عصره ومعاصريه ، موطنه ومسكنه ، تحصيله ومعلميه ، ثقافته ، نبذ من آرائه ، صفته وأخلاقه عاداته ونوادره علاقاته بأصحابه وأعلام عصره ممن كان في خدمتهم أو خدم معهم ، والاماكن التي خدم فيها ثم أخيرا مصنفاته وانتاجه ·

لم يلتزم ذكر الاسم كاملا (الاسم والكنية واللقب ، ولا تاريخ المولد والوفاة) · بعض العناصر المتقدم ذكرها قد ترد في بعض الترجمات كاملة وقد يغيب عنصر أو عناصر في ترجمات بعضهم الآخر وقد يجري التركيز على عنصر فيتوسع فيه عند واحد ، دون سائر العناصر ولا يخلو الامر من بعض الاستطرادات والخواطر والشعر ·

وهو محقق لا يقبل الكلام على علاته ، بل يناقش ويثبت وينفي ، ويعارض ويقابل ويحتاط ويتحفظ ويفحص ، وعلى الرغم من اعتماده أساسا على المنقول فانه شديد الانتباه الى ما يقع أحيانا من تناقض في نقل خبر من جهتين مختلفتين(٢٥) ويرد التناقض الى النساخ أحيانا(٢٦) ·

أما انشاؤه فمتوسط ، ولا تخلو عبارته ـ أحيانا ـ من لفظ من الدخيل : جامكية (عن المنح السلطانية) دستور (عن الوصفة) أقرباذين (كتاب الادوية) بيمارستان (عن المستشفى) علة (الورشكين) الخ ·· مما كان شائعا استعماله في التعامل ، وفي انشاء زمانه ، ومصنفات عصره ، وقد يستعمل

(٢٢ مكرر) انظر صفحة ٦٩٧ ·

(٢٣) كما في ترجمة جالينوس ·

(٢٤) انظر صفحة ٣٣٢ على سبيل المثال ·

(٢٥) حول الخلاف في حياة جالينوس على سبيل المثال ص ١٠٩/١١٠ من خبرين أحدهما منقول عن يحيى النحوي والثاني من سيرة جالينوس · انظر كذلك صفحة ٣٩١ ·

(٢٦) يقول ذلك : « وقد يكون سبب هذا الخلط من النساخ ويستمر حتى تحصل حجة يضل بها من لم يفحص عن حقائق الامور » ·

جموعا خاصا (الأدر ج دار) ، وقد يستعمل ألفاظا ذات مدلول خاص كاستعمال لفظ الدار بمعنى أهـــل البيت ، أفراد الاسرة وعلى الخصوص الزوجة كما هو شائع في بعض اللغات المحكية في ريف بلاد الشام ومصر ، وخاصة الصعيد ، وقد ترد ألفاظ خرج بها عن معناها الاصلي الى معنى مستحدث : خدم بمعنى أبدى الاحترام والطاعة ، التحية الخاصة للسلاطين الخ .. أو يستعمل ألفاظا يبلغ بها الخروج عن معناها الاصلي الى اسلوب العاميات : (توجديه بمعنى تظهري له) (وكان يرى لها كثيرا) بمعنى يستمع لرأيها . وقد تصل بعض عباراته الى حد الركاكة(٢٧) ، بل قد يقع في الخطأ النحوي (٢٨) .

نشر الكتاب لاول مرة الالماني أوغست مولر August Muller في عـــام (١٢٩٩ هـ ـ ١٨٨٢ م) في القاهرة ثم نشر مقدمة له في كونزبرغ ١٨٨٤ م وهذا خلاف ما ذكره الناشر في بيروت من أن نشر مولر للكتاب كان في عام ١٩٨٤ .

ثم طبع في مصر عام ١٣٢٩ هـ نقلا عن طبعة مولر .

ثم نشر في بيروت عام ١٩٦٥ م بدار مكتبة الحياة .

ويشار الى طبعة أخرى في بيروت عام ١٩٦٥ بمطبعة الاقبال . ولسنا نعلم ما اذا كانت طبعتا بيروت ١٩٦٥ واحدة ، حيث لم نقع على هذه الاخيرة (لمطبعة الاقبال) وكذلك فان دار مكتبة الحياة لم تذكر المطبعة التي تم الطبع عليها مما يحمل على الشك أنهما طبعة واحدة .

كل الطبعات العربية التي تمت حتى الآن اعتمدت على طبعة مولر الاولى وفي دائرة المعارف وبروكلمان يشـــار الى طبعـة مولر ويشار الى الجـزء والصفحة منها .

في مقدمة الكتاب لم يشر ابن أبي أصيبعة الى الاجزاء وانما ذكر الابواب الخمسة عشر على حين أنه يذكر خلال ترجمته لامين الدولة أنه أهدى اليه الكتاب أربعة أجزاء (٢٩) وعلى هذا فان موللر حين نشر الكتاب حافظ على الكتاب بأجزائه .. وطبعة بيروت خالية من هذا التقسيم وليس فيها ما يشار الى حدود الاجزاء فهي منشورة في مجلد واحد من القطع الكبير يقع في سبعمائة واثنتين وتسعين صفحة .

---

(٢٧) انظر صفحة ٥٦٨ ـ ٥٩١ ـ ٦٠٠ ـ ٦٠١ ـ ٦٤٣ ـ ٦٥٤ ـ ٦٥٨ ـ ٦٦٠ ـ ٦٢٨ .

(٢٨) انظر صفحة ٢٤ ـ ٧٠٠ .

(٢٩) صفحة ٣٢٥ .

مما لم يكونوا يستحلونه لدواع فقهية (كما تورد دائرة المعارف الاسلامية) واذا اطمأن البال الى مثل هذا التعليل الواهي فكيف نبرر ترجمته لمعاصره وتلميذه ابن القف الذي كان جرائحيا أيضا وكان تلميذا ـ في الوقت نفسه ـ لابن النفيس ؟! ٠

٢ ـ حوى الكتاب نبذا من كتب مفقودة ككتب (جالينوس) وقد وردت أخباره وآراؤه ونبذ صغيرة منقولة من كتبه في البابين الاول والثاني في المقام الاول ثم في سائر الابواب حيثما عرضت ٠٠ ومثل ذلك كتب حنين مؤلفه أو مترجمة ، وكتب عبيد الله بن بختيشوع الذي كانت له منها نقولات غزيرة وخاصة ما تعلق بأخبار الطب والاطباء والنقل في العصر العباسي وكذا ابن جلجل والمبشر بن فاتك وأخبار الدخوار وغيرهم ٠

٣ ـ حوى الكتاب لما ومعلومات عن الطب اليوناني والطب الهندي ، وربط بين مدرسة الطب العربي الاسلامي التي يعود فضل انشائها الى المنصور والخلفاء من بعده وبين الاصول والمنابع التي استمدت منها النسخ فنما باسقا في منبت عربي شديد الشغف الكل ما هو علمي فنهل من تعاليمها وتقاليدها في منابعها المتاحة من مدرسة جنديسابور ومدرسة الاسكندرية والمدارس الاقدم لدى اليونان والهند (٣٦) ٠

٤ ـ أورد تفاصيلا مفيدة وطريفة عن الحيـــاة الاجتماعية في الوطن العربي والعالم الاسلامي منذ العصر الجاهلي وحتى السنة السابقة لوفاة المؤلف منها على سبيل المثال عادة حضور الحاسبين والمنجمين مجلس الطبيب حين يعود أحدا من رجال البلاط وابداؤهم الرأي قبولا ومعارضة فيما اختاره الطبيب من ضروب العلاج ، ان شخصيتي الحاسب والمنجم في الحضارة القديمة والى عهد الخلفاء والسلاطين المسلمين تحتـــاج الى بحث مستقل فقد كانت هاتان الشخصيتان من خواص السلطان وموضع الرأي والمشورة في أمـوره الشخصية كالعلاج (انظر ص ١٧٧ ـ ١٩٢) أو في الامور العامة أوليـس أصحاب الرواية والنجوم هم الذين نهوا المعتصم عن أن يباشر فتح عمورية لان نجومهم قالت لهم ان الوقت المناسب لفتحها هو وقت نضج التين والعنب وهم من عناهم أبو تمام معرضا :

السيف أصدق أنباء من الكتب	في حده الحد بين الجد واللعب
أين الرواية ؟ بل أين النجوم وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب

---

(٣٦) انظر صفحة ٢٢٦ ـ ٥٤٧ ـ ٣٠٠ ـ ٣٠٥ ـ ٣٣٦ ٠

فما الكتب التي عناها الطائي الا كتب المنجمين ، وما الرواية الا ما يرويه هؤلاء المنجمون والحاسبون عن نجومهم ، ومؤدى هذا أن المنجم والحاسب كان عظيم المنزلة لدى السلطان وكان بسبب هذا يحتل مناصب ادارية وتنفيذية عالية في بلاطات الملوك والسلاطين ٠

ومنها كذلك ما سنه الرشيد لبني العباس (وللناس تبعا لهم) من عدم الجلوس على النمارق في المآتم وانما على البسط (انظر ص ٤٧٦) ٠

ومنها ما يكون من مكايد نساء البلاط وخدمهم (ص٤٠٥) ، وعادة فحص البول والاستدلال منها على المرض ـ وما وصفه من هيئة الاطباء الذميين وهيئة الاطباء المسلمين وشاراتهم وملابسهم وما يميزهم عن سائر أصحاب المهن الاخرى ، وذكره عادة أكل لحوم الخيل في دمشق لزمانه(ص٦١١) وذكره لمراسم فحص الاطباء قبل مباشرتهم المهنة (ص٣٥٣ ـ ٣٠٧ ـ ٣٠٨) ومنها ما يورده أن كتابة الاختزال قديمة وكانت شائعة أيام جالينوس(٣٧)٠٠ وغير ذلك كثير ٠

٥ ـ شكل مدونة كبيرة لاسماء مؤلفات الاطباء الذين ترجم لهم وهذه قيمة عظيمة الفائدة وضعت بين أيدينا صوى وعلامات في طريق البحث وعلم المراجع وهو أمر له خطره في طريق البحث والتحقيق والبعث الثقافي لكنوز آثارنا العلمية المتنوعة مما عد مفقودا بسبب ما ألـم بالوطن العربي من كوارث مدمرة للحضارة في أثمن دعائمها ومن أبـرز هذه الكوارث المدمرة الغزوان المغولي التتاري من الشرق والصليبي من الغرب ثم ما تلا فتـرة الضعف والتراجع أواخر عهد الدولة العثمانية من حرب سرية شنتها أوروبة على ما تبقى من موجودات الخزائن العربية التي لم يطالها التدميران السابقان في بعض حواضر الوطن العربي في حلب ودمشق والقديس وبغداد والقاهرة وامتدت هذه الحملة المسعورة والسرية التي حررت نفسها من أي التزام أخلاقي والتي تسلحت (بميكافيلية) مطلقة امتدت خلال فترة الانتدابـات والاحتلالات الفرنسية والبريطانية والايطالية فنهبت معظم ما تبقى من كنوز ثقافية وفكرية في هذه الحواضر (*) ٠

---

(٣٧) في ترجمة جالينوس يقول ما نصه : « وسألني رجل من أوليائي وأعداء مرطاليس أن أملي الكلام الذي قلته في ذلك المجلس على كاتب ماهر بالكتاب الذي يكتب بالعلامات سريعا ٠ (انظر صفحة ١١٥) ٠

(*) انظر : تراثنا بين ماض وحاضر ٠ عائشة عبد الرحمن ٠

لقد عني ابن أبي أصيبعة ، في نهاية كل ترجمة ان يضع ثبتا بأسماء مؤلفات الطبيب العلم المترجم له ، ومترجماته ومساهماته العلمية المصنفة وقد يكون الطبيب صاحب أثر أو أثرين أو بضعة آثار ، وقد يصل الثبت لدى بعض غزيري الانتاج منهم الى مئات(٣٨) مما يثير الاعجاب حول قدرة هؤلاء الافذاذ على العطاء والنشاط الى التأليف والتفرغ له ·

ولا يكتفي ابن أبي أصيبعة بايراد أسماء المقالات والكتب الخاصة بصاحب الترجمة بل يلقي أحيانا على بعض منها اضاءات كاشفة حول الموضوع والمحتوى ولمن ألفت ولمن أهديت ، وأحيانا يورد محتوى الكتب الهامة بتفصيل مفيد · وأحيانا يبدي رأيه في نسبة أثر من هذه الآثار لغير صاحبه ويرجح رأيا على رأي وهي اضاءات مهمة للباحث ، وهي في دلالتها اشارات أصيلة الى أثر العرب في تأسيس علم المراجع ، وعلم أصول البحث ذلك الذي بدأت تدون قواعده الاساسية عند الشروع في ضبط الحديث · وتجعل هذا الكتاب واحدا من سلسلة كتب مهمة في التراجم كالفهرست ومعجم الادبـاء وكتب الطبقات في سائر العلوم وكشف الظنون وسلسلة ثمينة متصلة من مثيلاتها في هذا الباب ويحتل الكتاب الذي ندرسه ـ ههنا ـ موقعا بارزا بينها ·

٦ ـ يعطي فكرة واضحة ووافية عن مدارس الطب وعن الاطباء المعلمين والمصنفين في عصره وفي العصور التي عاش فيها من ترجم لهم وعن طرائق تعليمهم وتدريبهم لطلابهم ، وعن انشاء المستشفيات والانفاق عليها من قبل السلاطين والامراء وبعض الاطباء المعلمين(٤٠) ·

---

(٣٨) بلغت قائمة كتب ورسائل يعقوب بن اسحق الكندي (٢٦٨) كتابا ورسالة · وقائمة كتب ورسائل ثابت بن قره الحراني (١٤١) كتابا ورسالة · وأما كتب الرازي فقد بلغت (١٣١) كتابا ورسالة · وجاوزت كتب الشيخ الرئيس المائة · وبلغت كتب ومقالات ابن الهيثم (١٧٤) كتابا ومقالة ·

(٣٩) انظر ص ٣٥٠ ·

(٤٠) أمثال السلطان نور الدين محمود الذي أنشأ البيمارستان النوري الكبير · والسلطان صلاح الدين الذي أنشأ البيمارستان الناصري في القاهرة وأنشـأ البيمارستان العضدي · وكذلك الوزير علي بن عيسى الجراح الذي كان يهتم بأموره والانفاق عليه من مخصص معلوم وغيرهم من الاموال العامة · والدخوار (علي بن عبد الرحيم) الذي أنشأ المدرسة الطبية المعروفة باسمه ورتب لها أوقافا محبوسة عليها وعلى الانفاق في شؤونها ·

ان الكلام على طرائق التعليم والتدريب والمعالجة وسير العمل في هذه المؤسسات الصحية التعليمية الكبرى يرد في كثير من صفحات هذا المصنف في معرض ذكره لاوضاع المترجم لهم من الاطباء المعلمين أو المتعلمين ، وهي في مجملها لا تكاد تقل عن ما وصلت اليه طرائق التدريس والتعليم والتدريب في المؤسسات المماثلة لها في عصرنا الحديث * ، كذلك يورد شيئا من نوادرهم ومعابثاتهم ومكايدهم وذكر لبعض طرائقهم في التأليف المدعم بالصور الملونة الموضحة .

٧ ـ يؤرخ لاسر طبية كاملة لعهده والعهود السابقة وبغض النظر عما تعنيه أن تدور مهنة الطب في أسر معينة كما هو الحال في أسرة المؤلف نفسه فهذا أمر طبيعي وفي سائر العصور الا أن تنظيمه لتراجم هؤلاء ضمن أسر مستقلة يعطيك فكرة عن حرص بعض المثقفين ممن كانوا قريبا من السلطان أو في طبقة الخاصة على هذه الامتيازات التي توفرها مهنة الطبيب اضافة الى أنها تتيح وبصورة آلية تقريبا لمن تتحقق له هذه الصلة بالسلطان عن طريق المهنة أن يصعد الى المناصب السياسية والادارية العليا وقد اطرد ذلك من أيام المنصور والى العصر الايوبي . ومن الاسر التي أرخ لها أسرة أبي الحكم واسرة بختيشوع ، وأسرة الطيفوري ، وأسرة أبي سليمان داود بن أبي المنى وأسرة أبي الحكم عبيد الله بن المظفر وغيرهم كثير(٤٢) .

٨ ـ يحدثك عن مكانة الطبيب في الهيئة الاجتماعية في تلك الازمنة : حظوتهم لدى الخلفاء والسلاطين والملوك والامراء ، وافرادهم بمزايا لا تكون لغيرهم (ص٥٨٩ ـ ٢٠١ ـ ٢٠٤) واعتدادهم بأنفسهم (ص ٧٢٩) ومشابهتهم الملوك والامراء في مساكنهم (ص ٦٥٢ ـ ٦٥٣) وثرواتهم(٤٣) ، رحمتهم بمرضاهم من الفقراء وأزياؤهم (ص ٦٧١ ـ ٧٣٣ ـ ٧٥١ ـ ٦٥٤) المسلمون منهم والذميون . ثقافاتهم ومكايدهم ومعابثاتهم ودعاباتهم .

(*) انظر ص ٤١٦ في وصف مجلس درس الرازي و ٦٢٨ في وصف العمل في البيمارستان والمرور على المرضى وتفقد أحوالهم من قبل الطبيب الشيخ ومعه المشرفين والقوام ، وتقديم الدواء وفق دستور معين .

وكذلك وصف مجلس تدريس أفضل الدولة أبي المجد محمد بن أبي الحكم .

(٤١) انظر الصفحات ٤١٦ ـ ٤٢٨ ـ ٧٠٣ .

(٤٢) انظر على التوالي الصفحات (١٧٥ ـ ١٧٨) ، (٢٢٠ ـ ٢٢٥) ، (٥٨٧ ـ ٥٨٨ ـ ٥٨٩) ، (٦١٢ ـ ٦٢٨) ، (٥٢٠) .

٩ ـ يحدثك عن نبذ من فوائد طبية كان مغرما بايرادها : كصفة تجميد الماء (ص١٢٤) (الحصول على الثلج) ومعالجة جبرائيل زبيدة من الفواق (أرعبها فزال الفواق ص ٢٠٨) وابرائه محظية الرشيد التي تيبست يدها اثر تمطيها (بازعاجها بشدة الحياء ص ١٨٨) ولجوء حكم الدمشقي الى قطع نزف شرياني أعيا ، فعمد الى نصف قشرة فستقة على موضع النزف وشده باحكام وتبريد الموضع بماء بردى حتى الليل ثم اشرافه على المريض حتى سقطت الفستقة بعد سبعة أيام ونهاه عن حك الجلبة المتخلفة حتى يشفى تماما وغير ذلك كثير ٠

١٠ ـ يعد تاريخا مكملا لتواريخ كثيرة ألفت في ملوك وسلاطين وأمراء ووزراء الاسرة الايوبية في مصر والشام ٠

كما يؤرخ لمعالم هامة في دمشق والقاهرة (حاضرتي ملك الايوبيين) وفي القدس ، مساجدها وبيمارستاناتها وقلاعها ومدافنها وساعاتها وأبوابها وأحيائها ٠

١١ ـ ثم أنه يعد أجل كتاب ألف في بابه ، قيم عظيم الفائدة في تاريخ الطب العربي ، ومصدرا اضافيا من مصادر التاريخ العام والتاريخ الادبي حيث يمدنا بمعلومات كثيرة ذات صلة بالتاريخ العام وتاريخ الادب والتصنيف، ولا يحتج لدفع هذه الميزة أن معظم ما أورده في هذا الباب مذكور في مظانه التاريخية ، اذ أن المؤرخ الذي يعتمد التوثيق والتحقيق لا يمكن أن يعرض عما ورد فيه من لمحات عظيمة الفائدة ٠

ان الحاجة ملحة وقد رأينا خطر هذا الكتاب وعظيم فائدته ، وما رأينا من رداءة المتوفر من طبعات الكتاب ـ على قلتها ـ والتي اعتمدت أساسا على عمل (موللر) الذي مضى عليه زمن طويل ، الحاجة ملحة الى أخذ هذا المصنف بالنشر العلمي الجيد يتوفر فيه تحقيق النص وخدمته وتيسير الرجوع اليه وجعله سهل التناول بين أيدي الباحثين في تاريخ الطب العربي خاصة وتاريخ الحضارة العربية بشكل عام ٠

---

(٤٣) بلغت خطوة جبرائيل بن بختيشوع عند الرشيد أنه قال : كل من كانت له الي حاجة فليخاطب بها جبرائيل لاني أفعل كل ما يسألني فيه ويطلب مني (وعن ترفهم) أن المتوكل زار بختيشوع ونظر ما هيأه المضيف من ألوان الترف الخارق في المطعم والمشرب والروائح الطيبة مما يفوق الوصف فوقع الحسد منه عليه فنكبه بعد أيام يسيره وكان موفق الدين بن المطران يدل على صلاح الدين حتى أنه كان يشابهه في المسكن والمطعم والسلوك ، وكانت له دار فريدة في عمارتها بها بركة أنابيبها من الذهب ٠

٣ ـ الملاحـــــق :

ملحق رقم ١

في المصادر التي اعتمدها ابن أبي أصيبعة

مسلسل	الكتــــــاب	المؤلـــــف
١	بستان الاطباء وروضة الالباء	موفق الدين أسعد بن المطران*
٢	مختار الحكم ومحاسن الكلم	أبو الوفاء المبشر بن فاتك
٣	شرح علي بن رضوان لكتاب جالينوس في فرق الطب	علي بن رضوان
٤	كتاب المنافـــع	علي بن رضوان
٥	كتاب التيســـير	عبد الله بن زهر
٦	كتاب المعتبـــر	أوحد الزمان ، أبو البركات بن علي البلدي
٧	تعاليق السجستاني	محمد بن طاهر**
٨	الالـــوف	ابو معشر البلخي المنجم
٩	التعريف في طبقات الامم	صاعد بن أحمد بن صاعد
١٠	نوادر الفلاسفة والحكماء	حنين بن اسحاق
١١	المسالك والممالك	المسعودي
١٢	الفهرست	محمد بن اسحق النديم
١٣	مفتاح الطب	أبو الفرج بن هندو***
١٤	الامثـــال	أبو عبيد القاسم بن سلام
١٥	رسالة المكافأة	يوسف بن ابراهيم الحاسب (ابن الداية)
١٦	الجماهر في الجواهر	أبو الريحان البيروني
١٧	مناقب الاطباء	عبيد الله بن جبرائيل****

(*) وهو كتاب قصد فيه ابن المطران جمـع ملح ونوادر وتعريفات مستحسنة من مطالعاته أو سماعه من الشيوخ أو نقوله من الكتب الطبية وهو كتاب لم يتم ، ورأى ابن أبي أصيبعة منه جزأين بخط شيخه مهذب الدين الاول قرأه على الحكيم مهذب الدين علي ابن المطران والثاني لم يتمه .

(**) وهو تعاليق حكمية وملح ونوادر .

(***) وهي مقالة ألفها لاخوانه من المتعلمين في عشرة أبواب .

(****) كتاب ذكر فيه شيئا من أحوال الاطباء ومآثرهم ألفه في سنة ٤٢٣ .

مسلسل	الكتـــــــاب	المؤلـــــف
١٨	أدب الطبيب	اسحق بن الرهاوي
١٩	الهدايا والتحف	الخالديان
٢٠	الاوراق	الصولي
٢١	اللهو والملاهي	أحمد بن الطيب السرخسي
٢٢	من أخبار الاطباء والفلاسفة	ابن جلجل سليمان بن حسان*
٢٣	دعوة الاطباء	ابن بطلان
٢٤	حسن العقبي	احمد بن يوسف بن ابراهيم
٢٥	فرائد الدرر	عبد الله بن قتيبة
٢٦	الحكم والامثال	الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكري
٢٧	الكنايات	أحمد بن محمد الجرجاني القاضي
٢٨	تاريخ أبو الحسن ثابت بن سنان	ابو الحسن ثابت بن سنان بن ثابت**
٢٩	مقالة في علة نقل الاطباء المهرة تدبير أكثر الامراض التي كانت تعالج قديما بالادوية الحارة الى التدبير المبرد .	ابن بطلان
٣٠	كتاب في الرد على ابن رضوان في أن تحصيل الصناعة (الطب) من الكتب أوفق من المعلمين .	ابن بطلان
٣١	أخبار العلماء بأخبار الحكماء	جمال الدين بن القفطي
٣٢	الفرج بعد الشدة	المحسن بن علي التنوخي
٣٣	كتاب بلمظفر بن معروف	بلمظفر بن معروف***
٣٤	أخبار الدولة (دولة المهدي بالمغرب)	ابن الجزار أحمد بن ابراهيم
٣٥	نظم الجوهر	سعيد بن البطريق
٣٦	رسالة لابن الهيثم فيما صنعه وصنفه حتى سنة ٤١٧ هـ .	ابن الهيثم
٣٧	كتاب المقدمات (أو كنز الاطباء)	ابو الحسين عبدالله بن عيسى بن بختويه
٣٨	مقالة فيما صنعه وصنفه (ابن الهيثم) حتى سنة ٤١٩ هـ .	ابن الهيثم

(*) ألفه أيام المؤيد بالله (الاندلس)

(**) وقد ذكر فيه الوقائع والحوادث التي جرت في زمانه من سنة ٢٩٥ هـ والى ٣٦٣ هـ

(***) لعله كتابه مختارات في الطب أو أحد تعليقاته عليه (انظر ص٥٧١) .

مسلسل	الكتــــاب	المؤلــــف
٣٩	فهرست وجده المؤلف لكتب ابن الهيثم حتى آخر سنة ٤٢٩	ابن الهيثم
٤٠	الرسالة المصرية	أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت
٤١	في معنى اسم الفلسفة	أبو نصر الفارابي
٤٢	كتاب المغاذي المغتذي	أبو جعفر أحمد بن محمد بن أبي الاشعث
٤٣	سراج الملوك	الطرطوشي
٤٤	ديوان المبشرات والقدسيات في وصف الحروب والفتوح الجارية على يد صلاح الدين .	حكيم الزمان عبد المنعم الجلياني
٤٥	الخريدة	عماد الدين محمد بن حامد الاصبهاني
٤٦	مقالة في رؤية الهلال	أبو الفضل بن عبد الكريم المهندس
٤٧	كتاب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون .	ابن جميع المصري
٤٨	كتاب مسارب التجارب وغرارب الغرائب .	البيهقي
٤٩	الكامل في الطب	محمد بن محمد بن أبي طالب
٥٠	رسالة لاجلاء في هفوة الاطباء	الحسن بن أحمد بن علي

ملحق رقم ٢
في المصادر الشفهية (المشافهات) التي اعتمدها

مسلسل	العلم	ملاحظات
١	جمال الدين النقاش السعودي	
٢	القاضي نجم الدين عمران محمد الكريدي	
٣	شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسن بن محمد الكاتب البغدادي	
٤	شهاب الدين عبد الحق الصقلي النحوي	
٥	موفق الدين يعقوب بن اسحق بن القف النصراني	
٦	سديد الدين محمود بن عمر بن رقيقة	
٧	رشيد الدين ابو سعيد بن يعقوب النصراني .	
٨	مهذب الدين عبد الرحيم بن علي	
٩	سعد الدين بن أبي السهل البغدادي العواد .	
١٠	عفيف الدين أبو الحسين علي بن عدنان النحوي الموصلي .	
١١	رضي الدين الرحبي .	
١٢	السني البعلبكي .	
١٣	مهذب الدين أبو نصر محمد بن محمد ابن الخضر الحلبي .	
١٤	نجم الدين حمزة بن عايد الصرخدي	
١٥	كمال الدين أبو القاسم بن أبي تراب البغدادي .	
١٦	شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسرو وشاهي .	
١٧	شمس الدين محمد الوتار الموصلي	
١٨	نجم الدين يوسف بن شرف الدين علي ابن محمد الاسفزاري .	
١٩	بديع الدين البتدهي .	
٢٠	سديد الدين المنطقي	

مسلسل	العلم	ملاحظات
٢١	القاضي أبو مروان الاشبيلي	
٢٢	أبو القاسم المعاجيني الاندلسي	
٢٣	محي الدين أبو عبد الله بن علي بن محمد بن العربي الطائي الحاتمي .	
٢٤	القاضي أبو مروان محمد بن أحمد بن عبد الملك اللخمي ثم الباجي .	
٢٥	أبو العباس أحمد بن محمد بن أحمد الاشبيلي .	
٢٦	علم الدين قيصر بن ابي القاسم بن عبد الغني بن مسافر الحنفي المهندس.	
٢٧	أبو عبد الله المالقي الناسخ .	
٢٨	والده سديد الدين القاسم بن خليفة .	
٢٩	القاضي نفيس الدين بن الزبير	
٣٠	أسعد الدين بن عبد العزيز ابن أبي الحسن	
٣١	رشيد الدين أبو حليقة	
٣٢	سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي الآمدي .	
٣٣	عمه رشيد الدين أبو الحسن علي بن خليفة .	
٣٤	شمس الدين أبو الفضل بن أبي الفرج الكحال المعروف بابن المطواع .	
٣٥	صفي الدين خليل بن أبي الفضل بن أبي منصور التنوخي اللاذقي .	
٣٦	عز الدين أبو اسحق ابراهيم بن محمد السويدي .	
٣٧	عمران الاسرائيلي	وزير الملك الاشرف ابن الملك العادل
٣٨	صفي الدين ابراهيم بن مرزوق	
٣٩	بدر الدين بن قاضي بعلبك	
٤٠	شمس الدين الكتبي المعروف بالخواتمي	
٤١	شرف الدين الرحبي	
٤٢	الامير سيف الدين المشد علي بن عمر	

ملحق رقم ٣

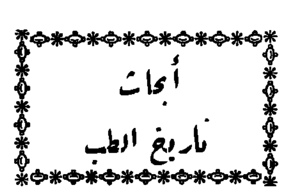
ثبت الاخطاء الواردة في طبعة بيروت ١٩٦٥

منشورات دار مكتبة الحياة من طبقات الاطباء

مسلسل	الصفحة	السطر	الخطــــأ	الصـــواب	ملاحظـــات
١	٢٤	١٢	فيبرأوا	فيبرؤون	
٢	٢٦	٩	الكرندي	الكريدي	
٣	١٠٦	١٣	عرضاه	عرضـــا	
٤	١٤٧	١٩	كتـــاب	كتــــاب	
٥	١٤٧	الحاشية (١)	نظرتي	نظر في	
٦	١٥١	١٥	البغدادي يحي	يضاف الحرف(عن) البغدادي ويحي	
٧	١٦٥	١	فرغـــاء	فرعـــاء	
٨	٢٠٣	٥	ما اقتصدت	ما افتصدت	
٩	٢٠٧	٦	المتوكل والمعتر	المتوكل المعتز	
٩ مكرر	٢٥٠	١٨	يخلط	يحلـط	
١٠	٢٥٨	٨	الخوزان	الخيزران	
١١	٢٦٦	١٣	غير مصدق شيىء	غير مصدق شيئا	
١٢	٤٠٨	٢٢	أحمد بن بن	أحمد بن	
١٣	٤١٠		يسمونه العجم	تسميه العجم	
١٤	٤١٥	٢٤	غمر	عمــر	
١٥	٤٣٠	٢١	بحوالي	تجوالي	
١٦	٤٣٨	٥	ومهمته	وفهمتــه	
١٧	٤٥٩	٥	وهي	وهــو	
١٨	٤٨٦	٢٢	عن	عنــد	
١٩	٤٨٩	١	وبــرا	وبــرأ	
٢٠	٤٩٥	١٣	فحـــكا	محكما	
٢١	٥٠٣	٢١	انشاء الله	ان شاء الله	
٢٢	٥١٥	٨	الــذف	الــذي	
٢٣	٥٢٣	٢٧	فتجادع	فتحاضع	

مسلسل	الصفحة	السطر	الخطــــأ	الصــــواب	ملاحظــــات
٢٣مكرر	٤٣٩	١٢	فوجدناه	فوجدنا	
٢٤	٥٤٧	١٣	وصفف	وصنف	
٢٥	٥٤٧	١٦	ولـــده	والـــداه	
٢٦	٥٤٧	١٧	مــن	الـــى	
٢٧	٥٦٨	٢٠	الطب افرائيم	الطب على افرائيم	
٢٨	٥٧٢	١٣	واقصد	وأقصد	
٢٩	٦١٤	٢٢	المربى	المغربي	
٣٠	٦٤٢	٢٧	الفانون	القابون	
٣١	٦٤٨	٢١	المظفر	للمظفر	
٣٢	٦٥٩	١	باسم	بابن	
٣٣	٦٦٩	١٧	وامروه	وأمروه	
٣٤	٦٧١	٢٣	القمع	القمح	
٣٥	٦٧٦	٢٠	قمر	قعــر	
٣٦	٦٧٩	٢٥	تصومه	تصرمــه	
٣٧	٦٨٠	الاخير	غن	عـــن	
٣٨	٦٨٩	١٤	وآحرى	وآجرى	
٣٩	٦٩٢	٢٦	عقته	عبقـــا	
٤٠	٦٩٦	٣	السرسام	البرسام	
٤١	٦٩٦	١٦	بـــرآ	بــــرءا	
٤٢	٧٠٠	١٣	نازلو	نازلــين	
٤٢مكرر	٧١٣	١٦	الكلس	الكـأس	
٤٣	٧٢٢	١٧	لـــه	لهــــم	
٤٤	٧٢٤	١٦	الآمــر	الأمــر	
٤٥	٧٢٤	١٦	تطلـــع	نطلـــع	
٤٦	٧٢٤	١٨	وزيــره	ووزيــره	
٤٧	٧٣٤	٤	ممـــدود	مودود	
٤٨	٧٣٦	١٤	يحـــب	يحـــت	

مسلسل	الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	ملاحظات
٤٩	٧٣٦	٢٣	هذا تقي	تقي هذا	
٥٠	٧٣٩	١٧	الفريس	الفراديس	
٥١	٧٥٥	٩	مفرج	مفرح	
٥٢	٧٥٧	١٦	التردد	التتر	
٥٣	٧٥٩	قبل الاخير	معقولة	منقولة	


أبحاث
تاريخ الطب

طب الفقراء وطب الاغنياء

الدكتور محمد زهير البابا

المرض كما هو معلوم لا يفرق بين غني وفقير وأمير وحقير • الا أن الاصابة بالمرض هي أكثر حدوثا في الجسم الضعيف منها في الجسم القوي • وبما أن الفقير يعوزه الغذاء والكساء والمأوى الصحي لذلك يكون جسمه أكثر عرضة للاصابة بالمرض ، من جسم الغني الذي توافرت له أسباب الصحة والقوة•

كانت الادوية وطرق العلاج ، لدى مختلف الشعوب القديمة ، محدودة العدد ، بسيطة قليلة الكلفة • وكان يشترك فيها الغني والفقير ، ولكن حينما أخذت عقاقير الشرق الاقصى تصل الى بلاد العالم القديم ، وهي على العموم غالية الثمن وعزيزة المنال ، فقد أصبح هناك طبان :

ـ **طب للفقراء** ، وهو يقتصر على تناول الادوية المحلية والوصفات الشعبية ، دون الرجوع الى استشارة الطبيب ،

ـ **وطب للاغنياء** ، وهو يعتمد على استعمال وصفات معقدة التركيب ، صعبة التحضير ، ويدخل في صنعها عدد كبير من العقاقير المستوردة الغالية الثمن • ويقوم بوصفها وتحضيرها اطباء وصيادلة تفرغوا لخدمة الملوك والامراء وأصحاب المال والوجهاء •

لقد تمركز الاطباء وأصحاب الصناعات منذ فجر التاريخ في المجتمعات السكنية المكتظة ، حيث تتواجد السلطات الحاكمة • أما في القرى والارياف فقد كانت ولما تزل ، عند الشعوب المتأخرة ، محرومة من الخدمات الصحية • وقد ظهر في زمن قدماء الرومان بعض المؤلفات التي تجمع المعلومات الضرورية لساكني الريف ، وذلك كالموسوعة التي قام بتأليفها كاتون الرقيب Caton le Censeur ، والتي أطلق عليها أسم De Re rusticor • لقد حوت تلك الموسوعة الى جانب المعلومات المتعلقة بخدمة الارض وتربية المواشي والدواجن ، كثيرا من الوصفات التي يحتاج اليها الرجل الريفي ، خلال القرن الثاني قبل الميلاد(١) •

---

(١) تاريخ العلم لجورج سارتون : الجزء (٣) ـ الصفحة (٢٩٨) •

وإذا رجعنا الى كتاب عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ، نجده يذكر(٢) ، في معرض حديثه عن الطبيب اليوناني روفوس (وهو من أطباء القرن الاول للميلاد) أن من بين مؤلفاته يوجد كتاب عنوانه (من لا يحضره طبيب) ، ويتألف من مقالتين · كما نجد له مؤلفا آخر عنوانه (في تدبير المسافر) ويذكر ابن أبي أصيبعة أيضا عند الكلام عن الطبيب جالينوس(٣) (وهو من أطباء القرن الثاني للميلاد) ان له كتابا عنوانه (مداواة الاسقام) وهو معروف أيضا باسم (طب المساكين) ويتألف من مقالتين ·

وعند الكلام عن الطبيب فيلقريوس(٤) (وهو طبيب روماني جاء بعد جالينوس) يقول ابن ابي أصيبعة أن له كتابا يدعى (من لا يحضره طبيب) يتألف من مقالة واحدة · الا أن جميع هذه المؤلفات مفقودة ·

وفي كتب الفلاحة التي ظهرت في أوائل العصر العباسي ، مثل كتاب الفلاحة النبطية الذي ترجمه ابن وحشية (٢٩١ هـ ـ ٩٠٤ م) ، وكتاب الفلاحة الرومية أو اليونانية ، وله عدة ترجمات منها لسرجيوس بن هليا ، وقسطا بن لوقا ، (٢٥٠ ـ ٣١١) هـ ، نجد فيهما كثيرا من الوصفات الشعبية التي كان يستعملها سكان الارياف لاسعاف المرضى عند وجود الطبيب أو عند غيابه ·

مما سبق يتبين لنا أنه كان يوجد عدة نماذج من كتب الطب ، ظهرت منذ القرن الثاني قبل الميلاد ، وقد تشابهت هذه المؤلفات بمواضيعها واختلفت بأسمائها :

من لا يحضره طبيب ـ طب المساكين ـ تدبير المسافرين ··· ولهـــذه المؤلفات أهمية خاصة في تاريخ الطب العربي بصورة عامة ، ذلك لاننا نجد فيها مختلف أسماء الامراض ، وطرق العلاج ، التي كانت شائعة في الطب الشعبي · كما تضم أسماء العقاقير والادوية التي كانت متوافرة في الاسواق المحلية ، والتي كان يمكن أن يحصل عليها الغني والفقير ، يضاف الى ذلك وجود كثير من الوصفات التي كانت تستعمل في حالات الاسعاف الاولي وخاصة عند غياب الطبيب ·

أما في العالم العربي فقد كان لأبي بكر محمد بن زكريا الرازي (المتوفى ٣٢٠ هـ ـ ٩٣٢ م) الفضل في وضع كتابين لهما نفس الموضوع السابق ، الاول ويدعى (برء ساعة) والثاني (لمن لا يحضره طبيب) ·

---

(٢) الجزء الاول ـ الصفحة (٥٥) ·

(٣) كتاب عيون الانباء (الجزء الاول) ـ الصفحة (١٥٣) ·

(٤) المصدر السابق ـ الصفحة (١٥٥) ·

كتاب برء ساعة :

وهو رسالة صغيرة لا يتجاوز عدد صفحاتها (١٣) صفحة ، من القطع الوسط قام بتحقيقها الدكتور P. Guiguets ، الاستاذ في كلية الطب والصيدلة ، في الجامعة اليسوعية ، في بيروت ، ونشرها باللغتين العربية والفرنسية عام ١٩٠٤ م ٠

يقول أبو بكر الرازي في مقدمة هذا الكتاب : « كنت عند الوزير أبي القاسم عبد الله ، فجرى بحضرته ذكر شيء من الطب ، و (كان) هناك جماعة ممن يدعيه ٠ فتكلم واحد منهم بمقدار ما بلغه في ذلك علمه ، حتى قال بعضهم: ان العلل (تنشأ) من مواد تكون قد اجتمعت على مر الايام والشهور ، وما يكون هذا سبيل كونه (أي طريقة تشكله) لا يكاد أن يبرأ في ساعته بل يكون في مثل ذلك من الايام والشهور ، حتى يتم برؤ العليل ٠

فسمع كلامه (أي وافق عليه) جماعة من حضر من المتطببين ، كل ذلك يريدون به الذهاب والمجيء الى العليل ، وأخذ الشيء (أي الاجرة) منه ٠

فسألني الوزير أن أؤلف فيه كتابا يشتمل على جميع العلل التي تبرأ في ساعة ، وهو مثل كتاب (السر في الصنعة) لأن هذا الكتاب دستور في الطب ، والله الموفق للصواب ، واليه المرجع والمآب » ٠

يضم كتاب (برء ساعة) ٢٩ بابا ، غير مرقم ٠ تكلم الرازي في كل واحد منها عن أحد الامراض الشائعة وعن أسرع طريقة ناجعة في مداواتها ٠ وفيما يلي لائحة بأسماء تلك الامراض ، مع الطرق المستعملة في مداواة كل منها :

١ ــ باب الصداع :

آ ــ اذا كان في مقدم الرأس ، فسببه فضول الدم ، وعلاجه : الحجامة أو الفصد ــ شم الافيون المصري الجيد ــ أخذ شيء من العناب او شرابه ــ تناول مرقة العدس وشيء من الكزبرة اليابسة ٠

ب ــ اذا كان الصداع في وسط الرأس ، فسببه الحرارة ، وعلاجه : تبلل خرقة كتان بدهن ورد وخل ، وتوضع على الرأس ــ أو تبل الخرقة بلبن جارية من غير دهن ورد ــ يدلك أسفل الرجلين بدهن بنفسج وملح ــ يشم النيلوفر ــ يؤكل لب الخيار الموضوع في الخل ــ يتناول شيء من الربوب الحامضة ٠

ج ــ اذا كان الصداع في مؤخر الرأس ، فسببه البلغم ، وعلاجه : يقيأ العليل بسكنجبين وماء الفجل ــ يشرب ماء الشبت الحار حتى يتقيأ البلغم ــ يتناول شيئا من الاهليلج الكابلي أو الاملج ــ يتغرغر بأيارج فيبرأ ٠

٢ ـ باب في هيجان العين :

يكون سببه المشي في الشمس ، وعلاجه الافيون المصري وطلاء العين به ٠ أو يكون سببه الجلوس قرب النار ، وعلاجه أن يكتحل بشيء من الاهليلج الكابلي ٠

٣ ـ باب الزكام :

وهو من العلل التي يصعب شفاؤها في ساعة واحدة ، وعلاجه : صب الماء الحار على يافوخ المريض ، أو وضع خرقة كتان مسخنة على النار ، على رأسه ٠

٤ ـ باب وجع الاسنان :

يؤخذ حبتان أو ثلاث من زبيب الجبل ، تلف بقطنة وتبلل بالماء وتدق بين حجرين ، وتوضع على سن العليل ـ أو يؤخذ وزن قيراطين من سكر العشر العتيق ، وتلف بقطنة وتجعل على الضرس ـ أو تستعمل الغالية والقطران وكي النار ٠

٥ ـ باب قلع الاسنان بغير حديد :

ينقع عاقر قرحا في خل خمر مدة شهر حتى يلين ٠ ويجعل منه وزن شعيرة على الضرس العليل ، فانه يقلعه في الوقت ٠

٦ ـ باب في البخر :

يؤخذ زبيب بزوري ، ويدق مع أطراف الآس الرطب ، ويجعل بنادق توضع في الفم ٠

٧ ـ باب في الخوانيق :

يتغرغر برب التوت مع خرء الكلب ٠

٨ ـ باب في العلق اذا تشبث في الحلق :

يتغرغر بالخل ـ أو يؤخذ درهم من الذباب الذي يكون في الباقلاء ، يدق وينخل ، ويحل بخل خمر ، ويتغرغر به ٠

٩ ـ باب في الشقيقة :

علاجها أن يبخر بعرطنيثا ـ أو يبخر بعظام كلب ٠

١٠ ـ باب في الصرع :

يؤخذ أفتيمون أو (أفيون) ، وعاقرقرحا ، وبسفايج • تدق وتعجن بزيت ، ويتناول مثل الجوزة قبل الطعام •

١١ ـ باب في الدوي والطنين في الاذن :

ينقع الافيون الجيد بالماء ، ويقطر في الاذن •

١٢ ـ باب الرعاف :

ينفخ في الانف شب يماني ـ أو توضع محجمة على الجانب الذي يرعف منه •

١٣ ـ باب في البواسير :

يبخر بوزن دانق لوف شامي ـ وان عمل حبا وطرح فيه وزن دانق منه كان أبلـــغ •

١٤ ـ باب في النواصير :

يذر عليه التوتيا الاخضر ، فانه يبرأ في الحال •

١٥ ـ باب في الجراحات العتيقة :

تغمس فتيلة في سمن بقري عتيق ، وتوضع في الجرح فيقطع المدة ، ويتم التحام الجرح •

١٦ ـ باب في الجراحات الطرية :

يوضع مزيج من مسحوق صمغ البلاط والاهليلج الكابلي والكافور ، ويلين بدهن وعسل •

١٧ ـ باب ما يذهب الوجع عن الاعضاء من سقطة أو ضربة :

يؤخذ مسحوق يتألف من أقاقيا وصبر وماش ومفات وطين أرمني • يبل بماء الآس ويطلى على مواضع الالم ، فتذهب الخضرة التي تولدت •

١٨ ـ باب في حرق النار ووجعه :

يؤخذ مسحوق يتألف من مرد استنج ونورة وورد وحناء ، يبل بدهن ورد وينثر •

١٩ ــ باب في خروج المقعدة :

يؤخذ ظلف شاة وقرنها ، فتحرق وتدق وتنخل ، وتخلط مع جلنار وشب وعفص وورد وقشر رمان وآس ، تطبخ بماء قليل على النار ، ويقعد صاحب الداء في الماء المرشح من ذلك المطبوخ ٠

٢٠ ــ باب في القولنج :

تؤخذ حنظلة ، ويستخرج شحمها ، ويعمل منها فتيلة يتحملها المريض ٠ الا أنه يحدث من ذلك مغص وكرب ٠ وعلاج ذلك أن يؤخذ من الكزبرة والكمون والكراويا وحب الرمان ، مع كف شعير وتطبخ على النار ٠ يرشح المزيج ويحلى بمربى العسل ويشرب ٠

٢١ ــ باب زحير الصبيان :

حب الرشاد وكمون ، يدق ويعجن بسمن بقري عتيق ، ويسقى مع لبن أمــــه ٠

٢٢ ــ باب في خلفة (أي اسهال) الصبيان :

يسقى من أنفحة جدي بلبن أمه ٠

٢٣ ــ باب في وجع القلب (البطن) :

يؤخذ حبة خضرا وزنجبيل بلدي وجرجير ، يدق ناعما ويخلط بعسل ويلعــــق ٠

٢٤ ــ باب فيما يعقل البطن :

قشر خشخاش ، يدق ويعجن بماء الورد ، ويؤخذ نصف درهم صباحا وآخر مساء ٠

٢٥ ــ باب عرق النسا :

صخر سقطري وسورنجان أبيض ٠ يدق وينخل ويعمل حبا ، فيسهل خمس الى ست مرات ٠

٢٦ ــ باب في الخدر :

رماد السرطان يخلط بزيت ويضمد به ــ القطران ينفع شرابا وطليا ــ شحم الحنظل يقلى في الزيت ويمرخ به ٠

٢٧ ـ باب في الاعياء والتعب :

تطلى الاظافر بأي دهن ـ يصب الماء البارد صيفا ، والماء الحار شتاء ٠

٢٨ ـ باب في الجرب (عند الحيوان) :

يدق الترمس البري ، وينقع في الماء ، يوم أو يومين وتغسل (الدابة) ، وبعد الغسل يدهن به ٠

٢٩ ـ باب في الاطراف اذا عرض لها الحكة في الشتاء :

يؤخذ ماء حار ويطرح فيه كف ملح وتوضع الاطراف فيه ٠

مما سبق يتبين لنا أن كتاب برء ساعة ، لأبي بكر الرازي ، يمكن اعتباره كتابا في الاسعاف الاولي والسريع ، كما يصلح أن يسمى كتاب طب الفقراء لأن جميع الادوية المذكورة فيه هي مما يمكن تداركه بسهولة ويسر ٠

كتاب الى من لا يحضره طبيب :

وهو من جملة مؤلفات أبي بكر محمد بن زكريا الرازي ٠ ذكره ابن أبي أصيبعة وقال(٥) : « ان غرض مؤلفه هو ايضاح الامراض ، وتوسع في القول ، وذكر فيه علة علة ٠ وانه يمكن أن يعالج بالادوية الموجودة ، ويعرف أيضا بكتاب (طب الفقراء) » ٠

لقد قمت بدراسة هذا الكتاب مستندا الى نسخة مصورة منمكروفيلم محفوظ في مكتبة معهد التراث العلمي العربي بحلب ٠ أما المخطوط الاصلي فمحفوظ في معهد ويلكم لتاريخ الطب بلندن ، تحت رقم (WMS. or. 23) عدد الاوراق (٥٥) ـ القطع وسط ـ المسطرة (١٥) سطرا ٠ الخط نسخي جميل ، الا أن الاوراق الاخيرة من الرقم (٤٧ ـ ٥٥) مشوهة ، تصعب قراءتها ، لوجود كثير من لطخات الحبر عليها ٠ لا يوجد اسم للناسخ ، أما تاريخ النسخ فهو عام ١١٨٩ هـ ، في البلدة اللاهور ٠

يقول أبو بكر الرازي في مقدمة كتابه هذا ما يلي :

« لما رأيت فضلاء الاطباء ذكروا في تصانيفهم أدوية وأغذية لا تكاد توجد الا في خزائن الملوك فأحببت أن أجعل مقالة وجيزة في علاج الامراض بالاغذية والادوية المشهورة ، الموجودة عند العام والخاص ، ليكون أحرى أن ينتفع بها

---

(٥) كتاب عيون الانباء ـ الجزء الثاني صفحة (٣٥٣) ٠

أكثر الناس في مرحلهم ومرتحلهم • وقد تتبعت مشايخ ، شكر الله سعيهم ، في النزول من أعلى البدن الى أسفله ، ذاكرا علة علة ، وعلاجا علاجا ، وسميته (لمن لا يحضره الطبيب) راجيا من الله حسن الثواب انه كريم وهاب ، وأسأله التوفيق بصواب القول والفعل ، بمنه وطوله) » •

لم يقسم الرازي كتابه الى مقالات أو أبواب أو فصول ، كما لم يضع له عناوين رئيسية وأخرى جانبية ، ولم يجعل له فهرسا يسهل على المراجع معرفة المواضيع الواردة فيه • وسأذكر فيما يلي عناوين أهم الابحاث الواردة في كتاب (الى من لا يحضره طبيب) مراعيا أرقام الاوراق الحاوية على تلك المواضيع :

رقم الورقة	المواضيع
٢	المقدمة ـ القول في أمراض الرأس ـ الصداع الحار •
٣	مما يهيج الصداع الحار ـ علاج الصداع مع السعال •
٤	ما يستعمل في اسهال البطن وخشونة الصدر ـ ما يسهل الصفراء وينفع السعال
٦	ما يغتذي به صاحب الصرع ـ ما ينفع من ضربان الاصداغ والشقيقة ـ ما ينفع به من الصداع الذي يكون من الخمار •
٧	علاج للصداع المزمن ، وعلل الدماغ •
٨	علاج السكتة والفالج والعلل الباردة •
٩	أدوية للصرع اذا كان معه حرارة ـ في السدر والدوار •
١٠	المقيات ـ ما ينفع من الكابوس والماليخوليا والامراض السوداوية الداخلية والخارجية •
١١	تبريد الرأس وترطيبه ، جلب النوم ، وتسكين الهذيان •
١٢	ما ينفع من التوحش وخبث النفس ـ في السرسام ، مع حمى وحرارة ـ النزلة والسعال •
١٣	في السبات وفساد الذكر ـ في الرمد •

رقم الورقة المواضيـــــــــــــــــع

رقم الورقة	المواضيـــــــــــــــــــــع
٤١ـ	كثرة البول الذي لا عطش فيه ـ كثرة البول بلا حرقة ـ عسر البول •
٤٠ـ٤٣	المنعظات ـ كثرة الاحتلام ـ كثرة الطمث ـ أوجاع الارحام والحيض ـ أمراض الرحم ـ ما يعين على الحبل ـ أمراض الخصية والقضيب •

أمراض الرحم ـ ما يعين على الحبل ـ أمراض الخصية والقضيب •

٤٤ـ٤٦	النقرس وأوجاع المفاصل ـ عرق النسا ـ الدوالي ـ داء الفيل
٤٧ـ	أدوية الزينة ـ أنواع الخضاب ـ علاج تساقط الشعر ـ داء الثعلب ـ الحزاز والسعفة •
٤٨ـ	السحج ـ النفاطات الحادثة من الخف ـ قمل الليل ـ الكلف والنمش الجرب والحكة •
٤٩ـ	البهق الابيض والاسود ـ البرص ـ البلخية ـ الجذام •
٥٠ـ	الشرى ـ الحصف ـ القويا ـ البلخية المزمنة ـ القـــروح والجراحات والدمال •
٥١ـ	لسع العقرب ـ نهش الرتيلاء والحيات ـ عض الكلب •
٥٢ـ	علاج من سقي ـ الذراريح ـ اللفاح ـ البنج ـ الزرنيخ ـ الدفلي ـ الفطر والكمأة •
٥٢ـ٥٣	الحميات ـ حمى الغب ـ النافض ـ العرق المدني •

لم يترك الرازي ، في كتابه هذا ، مرضا من الامراض المعروفة في زمنه الا وتكلم عن الادوية المستعملة في معالجته • وقد نحا في تأليفه منحى من سبقه من الاطباء القدامى فبدأ الكلام بعلاج الامراض التي تصيب الرأس ثم هبط الى الامراض التي تصيب الصدر ثم البطن ثم أعضاء التناسل ـ وانتقل بعد ذلك الى أدوية أمراض الجلد والشعر ، وهو ما كان يعرف باسم ادوية الزينة • وانتهى الى ذكر الادوية النافعة في علاج لسع الحشرات وعض الكلب وانقاذ المتسممين من مختلف أنواع السموم الحيوانية والمعدنية والنباتية المعروفة قديما • واخيرا أنهى كلامه بذكر بعض الادوية المستعملة في علاج أصناف الحميات والعرق المدني •

لقد أورد الرازي الى جانب كل مرض من الامراض التي ذكرها مجموعة من الادوية التي تستعمل في علاج تلك الامراض ، وهذه الادوية تختلف عن بعضها البعض من عدة وجوه : فبعضها يضم في تركيبه عدة عقاقير ، حيث تدخل بنسب معينة • وهذا ما يستدعي وجود الاوزان والميزان ، الى جانب بعض الادوات الصيدلية الضرورية • الا أن أكثر الطرق التي ذكرها الرازي لمعالجة الامراض كانت لا تتطلب أكثر من عقار واحد او اثنين ، يهيأ منها دواء بسيط وبطريقة سريعة ، دون الحاجة لادوات وأوزان • ولكي يخفف الرازي على المريض مشقة الحصول على الدواء المناسب فقد أورد ، لكل مرض ، مجموعة من العقاقير المتشابهة بالتأثير ، بحيث يمكن استعمالها مجموعة أو مفردة ، بحسب الحال •

وتتفاوت الادوية المذكورة بشدة تأثيرها ، بحيث يمكن استعمال الادوية الخفيفة في الحالات المرضية المبتدئة ، أما اذا كان المرض شديداً أو مزمنا فينتخب من أجله أدوية أشد تأثيرا •••

طب الفقراء وطب الاغنياء في المغرب العربي :

أقامت الجمهورية التونسية في هذا الشهر مهرجانا حافلا بمناسبة مرور الف عام على وفاة طبيب قيرواني مشهور هو أحمد بن ابراهيم المعروف باسم ابن الجزار ــ وحينما عزمت على الاشتراك بذلك المهرجان فقد سعيت للحصول على بعض مؤلفات ابن الجزار الطبية ، التي لم تحقق او تدرس ، لكي أجعلها موضوعا لبحثي •

لقد وضع هذا الطبيب مجموعة كبيرة من المؤلفات ، طرق فيها مواضيع شتى ، بلغت حسب احصاء قام به بعض الباحثين ، الثلاثين ، بين كتاب ورسالة، الا أن أكثرها مفقود •

ومن بين بعض المؤلفات ، التي ذكرها ابن أبي أصيبعة ، يوجد لابن الجزار أربعة كتب لها علاقة مباشرة بعلمي العقاقير والادوية وهي :

آ ــ كتاب الاعتماد في الادوية المفردة •

ب ــ كتاب البغية في الادوية المركبة •

جـ ــ كتاب زاد المسافر

د ــ كتاب طب الفقراء والمساكين •

بالاضافة الى رسالة صغيرة في ابدال الادوية المفردة ، ذكرت تحت اسم (بدل العقاقير) وكلها مؤلفات لم تحقق أو تنشر باللغة العربية •

لقد استطعت الحصول على عدة نسخ مصورة تضم بعض هذه المؤلفات ، منها :

أولا ــ نسخة مصورة لكتاب زاد المسافر حصلت عليها من المكتبة الوطنية بباريس تحمل الرقم (٢٨٨٤) وهي صورة لمخطوطة حديثة نقلت عن مخطوطة قديمة ، محفوظة في مكتبة درسدن في المانيا الديموقراطية ٠

ثانيا ــ نسختان مصورتان من كتاب طب الفقراء والمساكين وهما لمخطوطتين محفوظتين في المكتبة الوطنية بباريس ، احداهما مغربية الاصل والخط ، رقمها (٦٨٤٤) ويعود تاريخ نسخها لعام ٩٨٦ هـ ٠

والثانية شرقية الخط والمنشأ ، رقمها (٣٠٣٨) ويعود تاريخ نسخها لعام ١٠٥٢ هـ ٠

ولدى مقارنة النسختين المذكورتين تبين لي ان النسخة الاولى ، وهي الاقدم ، صعبة القراءة ، لوجود كثير من الكلمات والجمل المطموسة فيها ، أما النسخ الثانية فهي واضحة الخط ، الا أن الناسخ ادخل كثيرا من الاضافات والتعديلات على متن الكتاب ومصطلحاته بحيث أصبح حديث الاسلوب ، كما تدارك بعض التغيرات والاخطار الكتابية لذلك يمكننا أن نعتبر النص الموجود في النسخة المغربية أقرب الى الاصل من النص الوارد في النسخة المشرقية ــ علما بأن عدد الاوراق في النسخة الاولى (٢٩) ورقة ، بينما عدد الاوراق في النسخة الثانية (٥٥) ورقة ٠

مقارنة بين كتاب زاد المسافر وكتاب طب الفقراء والمساكين :

لقد كنت أرغب في اجراء المقارنة بين كتاب البغية في الادوية المركبة ، وبين كتاب طب الفقراء والمساكين وكلاهما لابن الجزار ، على اعتبار أن الاول منهما يمثل طب الاغنياء ، أما الثاني فيمثل طب الفقراء الا أن الكتاب الاول مفقود ، لذلك اضطررت الى استبداله بكتاب زاد المسافر لاجراء المقارنة ٠

يعتبر كتاب زاد المسافر أشهر مؤلفات ابن الجزار وأهمها ٠ ويعود في ذلك الى قيام قسطنطين الافريقي ، في القرن الحادي عشر ، بترجمته الى اللغة اللاتينية تحت اسم Viaticum Peregrinatum دون ذكر الاسم الحقيقي لمؤلفه ٠ وقد اقتصرت شهرة هذا الكتاب على بلاد الاندلس واوربا ، ولم تمتد الى شرق العالم العربي ٠

لقد شرح ابن الجزار في مقدمة كتابه (زاد المسافر) الاسباب التي دعته الى تأليفه فقال : « فألفت أدام الله لنا سلامتك ، كتابا جمعنا فيه عيون ما ذكره أفاضل الاطباء ، من مكنون علمهم وصحيح تجربتهم ومختصر سرهم ، في طرق مداواة الادواء التي تعرض في أعضاء الجسد ، عضوا عضوا ، من أعلا الرأس الى القدمين • وسلكت في ذلك من تأليفه وجمعه مسلكا بينا مختصرا واضحا مشروحا مفسرا ، لينظر فيه الراغب ، ويقتصر عليه الطالب ، ويكون تذكرة للعالم الماهر وزادا للمسافر في البلدان البديعة ، التي لا يوجد بها طبيب » •

واذا قارنا بين هذه المقدمة التي ذكرها ابن الجزار في كتابه (زاد المسافر) وبين المقدمة التي ذكرها أبو بكر الرازي ، في كتابه (لمن لا يحضره طبيب) نجد تشابها كبيرا بين المواضيع المطروحة ، الا أن الكتاب الاول يمثل طب الاغنياء والثاني طب الفقراء •

ذكرت فيما سبق أنني حصلت على صورة لنسخة مخطوطة من (زاد المسافر) محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس • عدد أوراق هذه المخطوطة (٣٣٩) ورقة الابعاد ٥ر٣١ × ٢٠ سم ـ المسطرة (١٩) سطرا • يتألف كتاب زاد المسافر من سبع مقالات ، استوعب فيها ابن الجزار جميع الامراض التي تصيب الانسان من رأسه لقدمه ، مع ذكر أسباب وأعراض ومداواة كل مرض ، حسب الترتيب التالي :

المقالة الاولى :

ذكر فيها الادواء والعلل التي تعرض في الرأس ، وتضم خمسة وعشرين بابا بدأ فيها بالكلام عن داء الثعلب وتناثر الشعر وتشققه وانتهى فيها بالكلام عن الفالج والسكتة واللقوة والتشنج والرعشة والخدر •

المقالة الثانية :

في الادواء التي تعرض في الوجه ، رتب فيها الامراض في خمسة وعشرين بابا ، تكلم فيها عن أمراض العين ، فالاذن ، فالانف ، فالفم وانتهى فيها بالكلام عن الكلف في الوجه •

المقالة الثالثة :

في الادواء التي تعرض في آلات التنفس ، رتبت في ستة عشر بابا ، أولها في الذبيحة وتفجر الاورام في الحلق وأوجاع اللهاة واللوزتين ثم السعال وأمراض الصدر وخفقان القلب والغشي والورم العارض في الثديين وأخيرا نتن الابطين •

المقالة الرابعة :

في الادواء التي تعرض في المعدة والمعا ، رتبت في عشرين بابا ــ أولهما في عسر الابتلاع وبطلان شهوة الطعام والشراب ، ثم العطش والجشأ والفواق والتخم والنهم وانتهى بالكلام عن أمراض المعاء كالقولنج وأنواع الديدان والبواسير وأورام وقروح واسترخاء المقعدة ٠

المقالة الخامسة :

في الادواء التي تعرض في الكبد والكلى ، مرتبة في عشرين بابا ، يبدأ فيها الكلام عن سوء مزاج الكبد والسدد والاورام التي تتشكل فيه ٠ ثم تكلم عن الاستسقاء والرقاية وأمراض الطحال والكليتين وانتهى الى الكلام عن أمراض جهاز البول ٠

المقالــة السادسة :

فيالادواء التي تعرض في آلات التناسل ، مرتبة في عشرين بابا : تكلم فيها عن ضعف الباه والانعاظ ، وأمراض القضيب والانثيين ٠ ثم انتقل الى أمراض جهاز التناسل عند المرأة وانتهى الى الكلام عن عرق النسا ومرض النقرس ٠

المقالة السابعة :

في الادواء التي تعرض في داخل الجلد ، مرتبة في ثلاثين بابا : تكلم فيها ابن الجزار عن أصناف الحمى ــ وعلاج من شرب شيئاً من السموم أو أصيب بلدغ حيوان سام ٠ ثم انتقل الى الكلام عن مداواة مختلف أمراض الجلد من جذام وبرص وبهق ، وانتهى الى القول في الحرق والجرح والشقاق ٠ ويكون مجموع عدد الابواب في هذا الكتاب (١٥٦) بابا ٠ ان تسمية هذا الكتاب بزاد المسافر تجعل الانسان يظن بأنه يضم أدوية بسيطة التركيب ، سهلة التحضير ، يدخل فيها عقاقير يمكن للمسافر أن يتداركها في أي مكان وجد فيه ، خلال حله وترحاله ٠ الا أن الامر جاء مخالفا لذلك ، ففي مداواة أمراض الجلد مثلا ورد ذكر عدد كبير من الادهان واللطوخات واللعابات ، وفي أمراض الشعر استعمل الفسولات والخضابات ، ولاستفراغ اخلاط البدن واصلاحها استعمل ابن الجزار المطبوخات والايارج والحبوب والسكنجبينات ٠ ولهضم الاطعمة وتقوية المعدة استعمل أصناف الجوارشنات ، ولتعديل السموم أو الوقاية منها وصف أشكالا من المعاجين والترياقات ، هذا عدا عن الاشياف والقطورات المستعملة في أمراض العين ، والسعوطات المستعملة في أمراض الرأس ، والغراغروالسنونات المستعملة في أمراض الفم ٠

وكلها أشكال صيدلية مهيأة غالية الثمن ، نظرا لأن تحضيرها وحفظها يحتاج الى زمن ومهارة في الصنعة ، بالاضافة الى غلاء ثمن العقاقير العديدة الداخلة في تركيبها ·

مما سبق يتبين لنا أن كتاب زاد المسافر لا يمكن للفرد العادي ، من الناحية العملية ، أن يستفيد منه بسهولة في حالة سفره · أما اذا كان المسافر من طبقة الملوك والامراء ، وكان بصحبة طبيبه الخاص مزودا بصيدلية متنقلة تضم مختلف العقاقير والادوية التي يحتاج اليها ، فيمكن اعتبار كتاب زاد المسافر في هذه الحالة مرجعا مفيدا للطبيب بصورة خاصة ·

لقد شعر ابن الجزار بهذا الامر ، لذلك قام بتأليف كتاب آخر اطلق عليه اسم (كتاب طب الفقراء والمساكين) ، وذكر في مقدمته ما يلي :

« اني رأيت كثيرا من عظماء الرجال وضعوا كتبا في علاج الامراض التي تعرض في أعضاء البدن ، وعنوا بذلك بحسب ما هو للعناية أهل · الا أن منهم من أول وأكثر في مقدار الحاجة ، ومنهم من قصر عما يحتاج اليه ·

فالفت عندما علمت ذلك كتابا في علاج الادواء التي تعرض في جميع أعضاء البـدن وسميته (زاد المسافر وقوت الحاضر) وأخرجته من فساد التكليف والتطويل ، ومن قباحة التقييد والتعليل فشاع في البلدان خبره ، وحسن عند الاطباء والحكماء أثره ، الا أني لما رأيت كثيرا من الفقراء وأهل المسكنة يعجزون عن ادراك منافع ذلك الكتاب وغيره ، عن سائر الكتب التي ألفها الحكماء في حفظ الصحة للاصحاء ، ورد المريض الى الصحة ، لفقرهم وقلة طاقتهم عن وجود الاشياء التي يقدر الطبيب لها في الكفاية والصفة التي تكون في الامراض ، أعني الاطعمة والاشربة والادوية ·· فالفت عند ذلك ، مما قد علمته ، كتابا في الادوية التي يسهل وجودها بأخف مؤونة وأيسر كلفة ، فيسهل حينئذ على الاطباء علاج العوام من الناس ، والعلل الصغيرة والممكنة منها ، بهذه الادوية ، التي جمعناها من كتب جالينوس ودياسقوريداس وبولس وأبو قراط ، وغيرهم من أفاضل الاطباء · ورتبنا فيها سبعين بابا ، والله المستعان على ما يصفون بمنه ·· » ·

نماذج من الادوية التي ورد ذكرها في كتاب طب الفقراء والمساكين لابن الجزار:

انتخب ابن الجزار مجموعة من الامراض الشائعة ، التي يصاب بها أكثر الناس ، غنيهم وفقيرهم مبتدئا من الرأس ، منتهيا بأمراض الجلد وعلاج السموم · وسأذكر فيما يلي بعض النماذج عن الادوية وطرق المعالجة التي لجأ اليها ابن الجزار في كتابه هذا ·

١ ــ علاج الصداع الذي يعرض من الحر : دهن الورد مع خل ــ زيت زيتون مع خل ــ او يسكب ماء بارد فقط على الرأس ·

٢ ـ ان كان الصداع شديدا : يضاف لما سبق : ماء الرجلة أو عنب الثعلب أو بزر قطونا أو لب القرع أو عصارة الحصرم أو الخس البري أو ورق الكرم أو الابخرة . أو يصنع ضماد من الصبر والنطرون والملح .

٣ ـ الصداع الذي يعرض من البرد المفرط : يستعمل أحد الدهون الآتية : سنداب ـ غار ـ مرزنخوش ـ بابونج ـ شبت ـ اقحوان ـ سوسن ـ أو يستعمل مطبوخ أحد هذه النباتات أو بعضها يبلل به الرأس بواسطةاسفنجة .

٤ ـ علاج وجع الرأس من سقطة أو ضربة : فصد القيفال ـ حقنة ملينة ـ ويصب على الرأس ماء طبخ فيه : آس وعدس وقشور الرمان ـ أو مطبوخ الورد بماء العسل ـ أو مطبوخ السفرجل مع الخمر .

٥ ـ علاج داء الثعلب : مسهل ـ حلق الشعر ـ الدلك بالخردل أو البصل أو ورق التوت .

٦ ـ علاج الاصابة بالقمل : ماء البحر ـ ملح وخل ـ مسحوق زبيب الجبل مع خل ـ عصارة الفجل مع دهن عاقر قرحا وخل ـ ماء منقوع الترمس مع خل ـ شبت مع زيت ـ ورق الغار مع مرارة ـ دهن الغار ـ والسذاب .

٧ ـ لوجع الاذن : يقطر فيها ماء الكزبرة الرطبة والكاكنج ـ ماء ورق القرع ـ بياض البيض ـ ماء عنب الثعلب ـ لبن الجارية ـ دهن ورد مع أحد المياه السابقة ـ دهن لوز حلو .

٨ ـ علاج وجع الاذن العارض من البرد : زيت يغلي مع السذاب ـ عصارة السذاب مع قشر الرمان عصير قشر الفجل مع الزيت ـ دهن الغار ـ زيت يغلي مع الثوم ـ زيت يغلي مع ورق السذاب والمرزنخوش .

٩ ـ ثقل السمع والطنين وسيلان القيح : يقطر ماء البصل ـ يسخن البول مع قشر الرمان ويقطر بالاذن مسحوق اللوز المر مع بول صبي ـ مرارة الضأن مع ماء الكرات .

١٠ ـ علاج ورم خلف الاذن (نكاف) والخنازير . يصنع ضماد من : مسحوق الترمس مع العسل ـ بعر الشاة وروث الثور ـ بزر كتان أو ورقة واصلة ـ عنب الثعلب مع الملح ـ دقيق الباقلا والحلبة أخثاء البقر أو زبل الحمام مع الخل ـ نخالة الشعير مع الزفت الرطب والموم وبول الغلام وزيت المصباح .

١١ ـ علاج الظلمة والعشاوة في العين : مرارة بعض الطيور (رخم ـ ديك) أو مرارة بعض الحيوانات (أرنب ـ دب ـ تيس ـ ثور ـ سلحفاة) تخلط مع العسل ، أو عصارة الرازيانج ويكتحل بها عصارة البصل مع العسل ٠

١٢ ـ علاج العين الوارمة والحمرة فيها ، ماء الرمانين مكثف ـ صبر وسكر وماء يسخن حتى ينعقد ويكتحل به ٠

١٣ ـ قروح الانف : خبث الفضة وخمر ودهن آس تسحق جيدا وتوضع في اناء فخار وتكثف على حرارة وتستعمل لطوخا ٠

١٤ ـ علاج السلاق : سماق أحمر وورد يعجن بعسل ويطلى أو يتمضمض به ٠ ورق زيتون وآس يطبخ مع الماء أو الخمر ويضاف اليه الخل ـ قشور النحاس مع دهن سمسم تسحق جيدا وتستعمل طلاء ٠

١٥ ـ السعال : مغلي حب البلسان وأعواده مع سكر ـ ماء السذاب مع عسل ـ تين وحبق وسذاب مع عسل ٠

١٦ ـ علاج الزكام : يشم دخان القرطاس المحرق ـ أو دخان الاصطرك أو اللبان أو السندروس أو الثوم البري ـ يسحق البرش ويجعل في صرة ويشتم دخانها ـ يكتحل بالزعفران ٠

١٧ ـ علاج القيء والعطش والحرارة : توضع قشور الفستق الخارجة في الماء قبل شربه ـ تمضغ أغصان الكرمة الرطبة ـ يسقى مطبوخ الفوتنج ـ يعطى عصارة السفرجل وحب الآس المطبوخ مع العسل ٠

١٨ ـ علاج النفخة والمغص : يطبخ السذاب مع الشيت اليابس ويشرب ماؤهما أو يعطى الكراويا وبزر الجزر والنانخواه مع الشراب ـ أو يقلى الجاورس ويضمد به حارا ـ أو يحتقن بماء البحر ٠٠٠

١٩ ـ علاج اصناف الاختلاف (الاسهال) : قضبان الكرمة وحب السماق تطبخ ويشرب ماؤها ـ وكذا يستعمل العدس والعفص ـ أو تطبخ الباقلا بالخل ـ ويعطى مسحوق عجم الزبيب ـ أو يوضع ضماد من دقيق الشعير والعوسج وقشر الرمان ٠

٢٠ ـ علاج الرعاف : قشور البيض تحرق وتسحق وتنفخ في المنخرين بأنبوب ـ قشور البيض وعفص تسحق وتعجن وتوضع على الانف من خارج ـ يطلى الجبين بجبسين مخلوط بطين الفخار ـ تغمس اسفنجة بخل وتوضع على حجر محمى حتى يرتفع البخار منها الى أنف صاحب العلة ٠

هذه نماذج من أدوية أكثرها نافع في علاج العلل التي وصفت من أجلها ، الا أن ابن الجزار لجأ ، في كتابه طب الفقراء والمساكين ، الى طرق غريبة من العلاج ، لا يقرها العقل والعلم · ان معرفة تلك الطرق عظيم الفائدة بالنسبة لتاريخ الطب ، لانها تمثل بعض المراحل التي مرت بهذا العلم عبر التاريخ وعند مختلف الشعوب ــ وسأذكر فيما يلي بعضا من تلك الطرق المستعملة في العلاج ·

١ ــ لطرد البرد من الرأس وجميع البدن يتبخر بشعر الارنب ·

٢ ــ لعلاج الصداع البارد يوضع على الرأس قطعة من جلد رأس الهدهد مصرورة في خرقة ·

٣ ــ في داء الثعلب يؤخذ جلد الضفدع فيحرق ويخلط بزيت ويطلى به · أو يصاد الذباب وتشدخ رؤوسها على موضع داء الثعلب بعدان يمسح مسحا جيدا ·

٤ ــ بنات وردان ، اذا سحقت مع الزوقا ، حللت الريح العارض في الاذن (ديسقوريدس) ·

٥ ــ تقلى الخنافس مع الزيت وتقطر في الاذن لمعالجة الصمم ·

٦ ــ تعلق اصول الحماض أو لسان الحمل في رقبة من به داء الخنازير ·

٧ ــ اذا أحرق الخطاف مع أفراخه في قدر واحد واخذ رمادها وخلط بعسل واكتحل به ينفع في الظلمة والغشاوة (ديوسقوريدس) ·

٨ ــ ان السبج ، وهو صخر أسود براق ، اذا اتخذ منه مثل المرآة وأدق النظر فيه نفع في ضعف البصر (ارسطاطاليس) ·

٩ ــ خرء كلب أبيض يسحق وينخل وينفخ في الحلق فيفيد في الخوانيق (جالينوس) ·

١٠ ــ روث الحمار اذا رش عليه خل واشتم قطع الرعاف (الساهر) ·

هذه نماذج من الادوية التي كان اسلافنا يستعملونها في معالجة الامراض، علما بأن جميع ما نشاهده حاليا من أدوية حديثة وتطور في فن المداواة ، لا يتجاوز عمره المائتي عام والسلام ·

المصادر التراثية العربية

في تراجم المتطببين(١) ومؤلفاتهم

الاستاذ كمال شحادة

دبلوم الدراسات العليا في تاريخ العلوم

في العام العاشر للهجرة والموافق لعام ٦٣٢ للميلاد ، بدأ العرب فتوحاتهم وفي فترة تقل عن مائة عام كان العرب قد بسطوا نفوذهم على مناطق واسعة من العالم شملت بلاد السند وايران وأفغانستان وما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر والشمال الافريقي واسبانيا ·

وقد رافق هذه الفتوحات مواجهة العرب لحضارات قائمة ولتراث حضاري علمي متعدد الجذور ، فاندفعوا في التفاعل مع هذه الحضارات في مجالاتها العلمية والاجتماعية المختلفة بايجابية بناءة وبقلوب مفتوحة لا تعرف التمييز بين أمة وأخرى ، ولا بين دين واخر ·

وليستطيع العرب تمثل ما أفرزه العقل البشري مما كان معروفا في تلك العصور ، كان لا بد لهم من نقل الكتب الهامة المتعلقة بتلك الحضارات الى اللغة العربية ، فنشطت الترجمة نشاطا كبيرا مدعوما من الخلفاء والامراء وذوي النفوذ ، ومن الاثرياء المحبين للعلم ·

والجدير بالذكر أن المترجمين أولوا اهتماما خاصا للمؤلفات الاغريقية والهلنستيه بسبب ما كان لها من نفوذ ثقافي في تلك العصور دون أن يهملوا ترجمة المؤلفات الرئيسية للحضارات الاخرى القديمة والمعاصرة لهم من هندية وسريانية وفارسية وغيرها ·

---

(١) جاء في قاموس « لسان العرب » لابن منظور أن المتطبب هو الذي يتعاطى علم الطب· وكلمة متطبب بالمفهوم التراثي تعني المزاول لمختلف المهن الطبية في آن واحد أي آن المتطبب كان طبيبا وصيدليا ومخبريا معا ·

وفي القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) كان العرب قد تمثلوا هذه العلوم وانتقلوا الى دور العطاء الذاتي المبدع ، وفي القرن الرابع الهجري شهد التاريخ ميلاد نهضة علمية عربية شاملة لم يسبق لها مثيل ، فكثرت وتنوعت الكتب المترجمة ، والعربية الاصيلة ، مما أصبح معه من الضروري تأليف كتب تترجم لحياة العلماء القدماء والمعاصرين وتعرف بمؤلفاتهم وذلك لتسهيل اطلاع الباحثين عليها ٠

ومن الطبيعي أن يكون مجال العلوم الطبية من المجالات التي شملها اهتمام مؤلفي مثل هذه الكتب التي هي بمثابة فهارس تتضمن تعريفاً بالعلماء وحياتهم وانتاجهم ومؤلفاتهم ٠

وأهم تلك الكتب الفهرسية التي ندين لها بأكثر معلوماتنا عن العلماء الذين عملوا في المجالات الطبية منذ أقدم العصور وحتى عصور متأخرة ، وخاصة العلماء العرب في المشرق العربي ومغربه هي :

كتاب « الفهرست » لابن النديم ٠

كتاب « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل ٠

كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة ٠

كتاب « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » لحاجي خليفة ٠

١ ــ كتاب الفهرست « لابن النديم » :

ابن النديم هو أبو الفرج محمد بن اسحق ، ويرد لقبه في الكتب التراثية بالنديم تارة وبابن النديم تارة أخرى عاش في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) وتوفي عام ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م ٠

أما ولادته فلا يعرف تاريخها بالضبط ، ولكننا نستطيع تقديرها بوجه تقريبي ، اذ أن ابن النديم ذكر في كتابه « الفهرست » أنه كان في عام ٣٤٠هـ/٩٥١ م يلتقي بالعلماء ويناقشهم ويأخذ عنهم(٢) فاذا فرضنا أن عمره كان في ذلك الوقت في حدود عشرين عاما (وهو العمر الذي يمكنه من المناقشة مع العلماء) نستنتج أن ولادته كانت حوالي عام ٣٢٠ هـ/٩٣٢ م ٠ وبالطبع فان هذا الاستنتاج يقبل الخطأ عدة سنوات زيادة أو نقصانا ٠

---

(٢) انظر « الفهرست » لابن النديم تحقيق رضا تجدد ٠ طبع طهران/١٣٧١ صفحة ٢٩٥ ٠

كان والد ابن النديم ، أبو يعقوب اسحق بن محمد ، وراقا ، والوراق بالمفهوم التراثي كلمة تعني تاجر كتب • وبالفعل فان والد ابن النديم كان صاحب مكتبة كبيرة في بغداد يبيع فيها الكتب ، وكانت كلها آنذاك مخطوطات يحضرها النساخون بخط اليد •

وقد عمل ابن النديم منذ حداثته مع والده في تلك المكتبة يساعده في تموينها بالمخطوطات ، بشرائها من المكتبات الخاصة ، وفي استنساخ بعضها ، أو الاشراف على استنساخها وبيعها •

كان ابن النديم منذ نشأته ذكيا متقد الذهن ، حفظ القرآن وهو في العاشرة(٣) •

وكان شغوفا بالاطلاع على مضمون الكتب التي يتاجر بها مع والده • ويبدو أنه بدأ منذ وقت مبكر من حياته بعمل قائمة بالمؤلفين وبالكتب التي ألفوها لتكون دليلا لمكتبة والده لتسهيل العمل فيها • ومن المحتمل أن يكون ابن النديم قد نظم بعد ذلك أوراقا (على نمط البطاقات) يخصص كل واحدة منها لواحد من المؤلفين يضمنها ترجمة مختصرة لحياته وأسماء الكتب التي وضعها وموضوع كل كتاب ، ويضيف اليها أية معلومات تصله مما يتعلق بذلك المؤلف وكتبه •

وبعد أن تجمعت لدى ابن النديم أعداد كبيرة من هـــذه الاوراق (البطاقات) جمع المعلومات الواردة فيها وبوبها في فصول سماها « مقالات » ولكل مقالة أبواب سماها فنونا « فكان من ذلك كتاب الفهرست » الذي أنجزه ابن النديم ودفعه إلى النساخ عام ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م •

وهذا يعني أنه أنجز كتابه قبل وفاته بحوالي ثلاث سنوات ، ولا بد من القول أن ابن النديم لم يمض كل وقته في مكتبة والده ، بل كان مع عمله في المكتبة مهتما بتلقي العلم عن أساتذة مشهورين في زمانه كأبي الفرج الاصفهاني، وأبي عبد الله المرزباني ، وأبي سعيد الصيرفي وغيرهم(٤) ويبدو أن ابن النديم كان يبحث عن المخطوطات في أمكنة أخرى في غير مدينة بغداد أيضا • والمرجح أنه زار البصرة والكوفة مرارا باعتبار أن هاتين البلدتين شهدتا حركة علمية

---

(٣) انظر ترجمة الاستاذ بايار دودج لكتاب الفهرست طبع جامعة كولومبيا/١٩٧٠ ص/١٧ من المقدمة •

(٤) انظر كتاب
The Fihrist of Al-Nadim by Bayard Dodge (Editor and Translater)
Colombia University Press — New York 1970 صفحة ١٧ من الجزء الاول/المقدمة •

واسعة منذ القرن الثاني للهجرة ، وأنه زار حلب (سورية) التي كان حاكمها سيف الدولة الحمداني راعيا لحركة ثقافية ناشطة فيها • ومن المؤكد أن ابن النديم كان يتردد على الموصل عندما كان ناصر الدولة الحمداني حاكما لها بين عامي ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م و ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م • ويذكر ابن النديم في « الفهرست » أنه كان يقابل في الموصل أناسا جامعين للكتب ، ولا بد من أن يكون من زوار مكتبات الموصل وأقصد بهذه المكتبات متاجر الكتب وذلك للاطلاع على ما فيها ولشراء ما يروق له من كتب(٥) •

تضمن كتاب « الفهرست » ذكرا لمؤلفين وكتب في مختلف مجالات المعرفة منذ أقدم العصور حتى عصره في اللغة والنحو والشريعة والتاريخ والشعر والفقه والعلوم •• الهندسية والموسيقية والطبية والكيميائية والميكانيكية (علم الحيل) وغير ذلك من حقول العلم والمعرفة •

ولما كان كثير من علماء تلك العصور موسوعيين مبرزين في أكثر المجالات العلمية ، فان مهمة ابن النديم تبدو غير سهلة في تبويب كتابه • وقد بذل كل جهد ممكن في هذا المجال فجاء كتابه محتويا على عشر مقالات ويتفرع عن كل مقالة أبواب سماها « الفنون » ، وقد خص كل مقالة بعنوان رئيسي ، وكل « فن » بعنوان فرعي •

وبالنسبة للمتطببين فقد خصص لهم ابن النديم الفن الثالث من المقالة السابعة بعنوان : « اخبار المتطببين القدماء والمحدثين وأسماء ما صنفوه من كتب » (٦) فذكر ترجمة لما يقرب من خمسين منهم مع ذكر كتبهم التي ألفوها • وهذا العدد يبدو ضئيلا بالنسبة للذين عملوا في مجالات العلوم الطبية الا أن قراءة « الفهرست » بكامله سرعان ما توضح أن ابن النديم قدم ترجمات ومؤلفات لعدد كبير آخر من المتطببين ، في فصول خصصت لعلوم أخرى • فقد تكلم ابن النديم عن ثابت بن قرة وابنه سنان واسحق بن حنين في الفن الثاني من المقالة السابعة (٧) ، أي في مكان لم يخصص للمتطببين • كما ذكر أثنين وعشرين كتابا طبيا ليعقوب بن اسحق الكندي(٨) في الفن الاول من المقالة السابعة والمخصص للفلاسفة والطبيعيين والمنطقيين » • ونجد في الفن الثالث من المقالة الثامنة(٩) كتبا في السموم والصيدلة لابن البطريق والكندي وقسطا ابن لوقا وناقل الهندي والرازي •

---

(٥) نفس المصدر ج١ ص/١٩ •

(٦) انظر « الفهرست » تحقيق رضا تجدد الحائري المازندراني ــ طبع طهران/١٩٧١ صفحة ٣٤٥ •

(٧) نفس المصدر ص/٣٣١ ، ٣٤٣ •

(٨) نفس المصدر ص/٣١٨ •

(٩) نفس المصدر ص/٣٧٩ •

وأما المقالة العاشرة من الـكتاب(١٠) ، والتي خصصت بكاملها للكيميائيين ، فقد احتوت على ترجمة لستة عشر ممن برزوا في العلوم الكيميائية وفي صناعة تحويل المعادن الخسيسة الى الذهب والفضة ، وفي هذه المقالة ، مثلا ، عدد كبير جدا من كتب جابر بن حيان الطبية والكيميائية مع ترجمة مفصلة عن حياته(١١) ٠

وكفكرة احصائية عن محتويات كتاب « الفهرست » أقول أن فيه ترجمة لما يزيد عن ألفي مؤلف وذكراً لحوالي ستة الاف كتاب ولحوالي /٢٦٠/ من أسماء الأماكن والبلدان ولما يقرب من مائة من أسماء القبائل على أنه ينبغي القول ان ابن النديم لم يقدم ترجمات وافية عن حياة كل من ذكره من مؤلفين ، فلم يتجاوز الكلام عن بعضهم سوى جملة واحدة أو سطر واحد ٠ كما جاء ذكر بعضهم على أنهم تلاميذ للعالم الفلاني دون أي توضيح لحياتهم أو لانتاجهم العلمي ٠ وهنالك أمكنة تركت بيضاء من بعض السطور لاملائها بالمعلومات اللازمة ويبدو أن السنوات الثلاث الاخيرة التي عاشها بعد دفع الفهرست للنساخ ، لم تسمح له بالحصول على المعلومات التي يتطلبها املاء تلك الامكنة الفارغة ٠

ولكن بالرغم من هذه النواقص ، فان « الفهرست » يبقى مرجعا تاريخيا هاما وموسوعيا في مجال البيوغرافيا والببليوغرافيا ، أثار اهتمام المؤرخين والباحثين منذ القرن التاسع عشر الميلادي ٠ فقد قام العالم غوستاف فلوغل Gustav Flugel في عام ١٨٧١ م بتحقيق هذا الكتاب وطبعه ٠ ونظرا لأن هذا العالم لم تتوفر له آنذاك نسخ مخطوطة واضحة وجديرة بالاعتماد في التحقيق ، فقد جاء تحقيقه مليئا بالاخطاء ٠ وعندما ظهرت الطبعة المصرية عام ١٩٣٨ ، كانت نسخة طبق الاصل عن طبعة فلوغل ٠

وفي عام ١٩٧٠ قام الأستاذ بايار دودج Bayard Dodge مدير الجامعة الاميركية في بيروت بعمل مشكور فقد أصدر ترجمة بالانكليزية لكتاب « الفهرست » تولت مطبعة جامعة كولومبيا طبعه في مجلدين في نيويورك ولندن٠ وقد استندت هذه الترجمة الى نسخ مخطوطة قيمة وواضحة لهذا الكتاب ٠ وقد أضاف هذا العالم الى ترجمته للمتن العربي للفهرست ، حواشي وشروحا قيمة اضافة الى فهارس مفصلة ٠ وفي عام ١٩٧١ قام السيد رضا تجدد الايراني الجنسية بتحقيق النص العربي لكتاب « الفهرست » وبطبعه في طهران مستندا الى مخطوطين يعتبران من أفضل النسخ المعروفة حتى الآن وهما :

---

(١٠) نفس المصدر ص/٤١٧ ـ ٤٢٥ ٠

(١١) نفس المصدر ص/٤٢٠ ـ ٤٢٣ ٠

١ ـ المخطوط الموجود في مـــكتبة جستر بتي Chester Beatty في دبلن عاصمة ايرلندا الجنوبية برقم ٣٣١٥ ٠

٢ ـ المخطوط الموجود في مكتبة شهيد علي باشا برقم ١٩٣٤ في اسطمبول وهذان المخطوطان رغم وجودهما في مكانين مختلفين ، فهما يشكلان كامل كتاب الفهرست وقد حررا بنفس الخط وعلى ورق متماثل في الحجم والنوع وبشكل مقروء واضح ٠

وميزة هذه الطبعة للأستاذ رضا تجدد ، أناقة طباعتها واحتواؤها عـلى فهارس مفصلة تسهل على الباحثين الاستفادة من هذا الكتاب ٠

٢ ـ كتاب « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل :

ابن جلجل هو أبو داود سليمان بن حسان ، وابن جلجل هو لقبه ٠ وبالاستناد الى الترجمة الذاتية التي كتبها ابن جلجل عن نفسه مما جاء في كتاب « التكملة » لابن الابار(١٢) ، فان ابن جلجل ولد عام ٣٣٣ هـ/٩٤٤ م ، وانه بدأ بدراسة الطب وعمره أربع عشرة سنة وأتقنه وأفتى فيه وهو ابن أربع وعشرين ٠ أما تاريخ وفاته فغير معلوم بالضبط ، الا أن ابن الابار يذكر لنا نقلا عن ابن جلجل أن « ابن البغونش »(١٣) المولود عام ٣٦٩ هـ حضر من طليطلة الى قرطبة ليكون من تلاميذ ابن جلجل ٠ فاذا فرضنا أن « ابن البغونش » بدأ بتعلم الطب على يد أستاذه عندما كان عمره ست عشرة سنة ، فلا بد من أن يكون ابن جلجل من الأحياء عام ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م أي أن ابن جلجل توفي بعد هذا التاريخ ٠

كان ابن جلجل ، الى جانب اهتمامه بشؤون التشخيص والمعالجة ، يعنى بدراسة الحشائش الطبية وبالادوية ، وله كتاب في تفسير النباتات الدوائية الواردة في كتاب الحشائش Materia Medica الذي ألفه ديوسقوريدس العين زربي ٠ وهو كتاب كانت له شهرة واسعة في المشرق العربي ومغربه ، وقد سبق

---

(١٢) انظر كتاب « التكملة لكتاب الصلة في تاريخ أئمة الاندلس » في القسم الذي نشر من الكتاب في مدريد عام ١٩١٥ ، وكان هذا القسم مفقودا من الاصل الذي طبع في مدريد عام ١٨٨٣ ٠

وابن الأبار هو محمد بن عبد الله البلنسي ولد عام ٥٩٥ هـ/١١٩٩ وتوفي عام ٦٥٨ هـ/١٢٦٠ م ٠ مؤرخ ومحدث وسياسي قتل في تونس ٠

(١٣) ابن البغونش هو سعيد بن محمد الطليطلي ولد عام ٣٦٩ هـ/٩٧٩ م وتوفي عام ٤٤٤هـ/١٠٥٢ م ٠

لاسطفان بن باصيل أن ترجمه من اليونانية وصحح الترجمة حنين بن اسحق وذلك في القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) • وقد أعيدت ترجمة كتاب ديوسقوريدس في الأندلس وكان ذلك على مرحلتين : الأولى من اليونانية الى اللاتينية من قبل الراهب نيكولا ، والثانية من اللاتينية الى العربية من قبل مجموعة من المتطببين الأندلسيين برئاسة الطبيب حسداي بن شبروط • وكان امبراطور القسطنطينية رومانوس أرسل نسخة من كتاب ديوسقوريدس بالنص اليوناني هدية الى الخليفة عبد الرحمن الناصر عام ٣٣٧ هـ/ ٩٤٨ م ثم اتبعها بالراهب نيكولا عام ٣٤٠ هـ/٩٥١ م ليقوم بترجمتها الى اللاتينية لعدم وجود من يعرف اليونانية في الاندلس(١٤) •

مما تقدم نرى أن ابن جلجل عاش في القرن الرابع الهجري في الأندلس ، في نفس العصر الذي عاش فيه ابن النديم في المشرق العربي ببغداد • ومن غريب الصدفة أن ابن جلجل أنجز كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » عام ٣٧٧ هـ/٩٨٧ م(١٥) وهو نفس العام الذي أنجز فيه ابن النديم كتابه « الفهرست » الذي سبق الكلام عنه •

ولئن كان كلا هذين الكتابين يبحثان في تراجم المتطببين ومؤلفاتهم ، فهنالك بينهما بعض الفروق أهمها :

آ ــ ان كتاب « طبقات الأطباء والحكماء » خصصه ابن جلجل بكامله للكتابة عن حياة ومؤلفات المتطببين ، في حين أن كتاب « الفهرست » لابن النديم تضمن تراجم لعدد كبير من العلماء في مختلف المجالات العلمية ومنهم عدد وافر من المتطببين مع ذكر أسماء الكتب التي ألفوها •

ب ــ كتاب ابن جلجل هو أول كتاب من نوعه يؤلف في المغرب العربي (الأندلس) ، أما كتاب ابن النديم فلم يكن له فضل الاسبقية في المشرق العربي، فقد سبقه ظهور كتاب ألفه اسحق بن حنين المتوفي عام ٢٩٨ هـ/٩١٠ م باسم « تاريخ الأطباء والحكماء »(١٦) وحسب الأدلة التاريخية المتوفرة حتى الآن فان اسحق بن حنين هو أول مؤرخ في العصور الاسلامية وضع كتابا بالعربية خصصه لتراجم المتطببين وتصانيفهم •

---

(١٤) انظر كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » لابن أبي أصيبعة تحقيق نزار رضا • مكتبة الحياة ــ بيروت ١٩٦٥ صفحة ٤٩٣ •

(١٥) انظر « طبقات الأطباء والحكماء » لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد طبع المعهد الفرنسي للآثار الشرقية/القاهرة ١٩٥٥ صفحة (يو) من المقدمة •

(١٦) توجد منه مخطوطة في مكتبة حكيم اوغلو علي باشا اسطمبول • حققها روزنتال وطبعها مع ترجمتها بالانكليزية في مجلة Oriens الجزء السابع لعام ١٩٥٤ •

جـ ـ اعتمد ابن جلجل في مصادره ، عن الأطباء من غير العرب ، على ترجمات عربية من أصول لاتينية ، في حين أن ابن النديم اعتمد في فهرسته على الترجمات العربية من أصول اغريقية ٠

ويبدو أن تلك الترجمات العربية من أصول لاتينية تمت في اسبانيا قبل عصر ابن جلجل بقليل وفي عصره ٠ ومن المعروف أن اللغة اللاتينية كانت معروفة في اسبانيا آنذاك ، بعكس اللغة اليونانية التي يندر وجود من يعرفها هناك ٠ وكان الامر بعكس ذلك في المشرق العربي الذي كان فيه عدد الذين يتقنون اللغة اليونانية كبيرا ، مع ندرة من يعرف اللغة اللاتينية ٠

د ـ لم يعتمد ابن جلجل في كتابه على مصادر من المشرق العربي ، رغم وفرتها ، مما يدل على أنه لم يكن مطلعا عليها ٠ ويبدو أن انتقال الكتب المؤلفة والمترجمة من المشرق العربي الى اسبانيا كان في بدايته أيام ابن جلجل ٠ ويؤيد ذلك ما ذكره ابن جلجل نفسه(١٧) من أن انتشار الكتب المشرقية لم يعرف بشكل جدي في الأندلس الا في عصر الامير عبد الرحمن الناصر(١٨) الذي حكم من عام ٣٠٠ حتى ٣٥٠ للهجرة ٠ أورد ابن جلجل في كتابه ترجمة لسبعة وخمسين من المتطببين وصنفهم في تسع طبقات بدءا من عهد النبي ادريس قبل الطوفان ٠ ونجد أنه خص واحداً وثلاثين من هذه التراجم لمتطببين من الاغريق والمشرق ، والعدد الباقي كان لعلماء من أفريقيا واسبانيا ٠

ومن الملاحظ أن الذين ترجم لهم ابن جلجل ممن كانوا في أفريقيـــا واسبانيا ، لم يكونوا معروفين في المشرق العربي ، وقد عرفوا فيما بعد من كتاب ابن جلجل ٠

ويمدنا ابن جلجل في كتابه بخبر له قيمة تاريخية كبيرة ، وهو أن ماسرجويه المتطبب البصري ترجم في عهد الخليفة الاموي مروان بن الحكم خلال عامي ٦٤ ، ٦٥ للهجرة كناشا من تآليف اهرن بن أعين القس السكندري ، من السريانية الى العربية ، ثم عمل الخليفة عمر بن عبد العزيز على نشره للانتفاع به(١٩) ٠ وهذا يعني أن حركة الترجمة الى اللغة العربية بدأت في عهد مبكر من المرحلة الاسلامية ، أي منذ منتصف القرن الأول الهجري ، وفي هذا رد على كثير من المستشرقين والمتأثرين بهم في أن الحركة العلمية العربية والترجمة لم تبدأ الا في القرن الثالث الهجري على يد حنين بن اسحق وابنه ومساعديه في بيت الحكمة ببغداد ، الذي أسسه الخليفة العباسي المأمون ٠

---

(١٧) انظر كتاب طبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل ٠ تحقيق فؤاد سيد ص ٩٧ ٠

(١٨) هو الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث بن محمد ، كان أميرا ثم جعل عام ٣١٧ هـ أمارته خلافة واستمرت خلافته حتى عام ٣٥٠ هـ ٠

(١٩) انظر كتاب « طبقات الاطباء والحكماء » لابن جلجل تحقيق فؤاد سيد صفحة ٦١ ٠

أما المصادر التي استند اليها ابن جلجل في كتابه ، فقد ذكرها ابن جلجل نفسه ، ككتاب « الألوف » لأبي معشر البلخي المتوفي عام ٢٧٢ هـ/٨٨٥ م ، وكتاب « وصف الدول والحروب » للمــؤرخ الاسباني باولوس أوروسيوس Paulus Arosius الذي عاش في القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ويسميه ابن جلجل « هروشيوش »(٢٠) ، وكتاب « القروانقة » Chronica الــذي ترجمه القديس ايرونيــم St. Jerom (٢١) الى اللاتينية وهو بالأصل من تأليف يوسبيوس القيسراني أسقف قيسارية ، وكتاب « الحوليات » لايسيدور الاشبيلي Jsi dorus Sevillinos أسقف اشبيلية ، وكتب أخرى ذكرها ابن جلجل في كتابه ٠

على أن ابن جلجل لم يعتمد على المصادر المكتوبة فقط ، بل اعتمد أيضا على أخبار مرويه بالسماع عن علماء ومتطببين ومؤرخين معاصرين له ٠ وخاصة ممن عملوا في المشرق العربي وأفريقيا ثم عادوا الى الاندلس كيونس الحراني ، وأبي زكريا يحيى بن مالك ، وسليمان الفقيه وغيرهم(٢٢) ٠ وفي بعض الاحيان ينقل ابن جلجل معلومات مروية عن أشخاص لم يذكر أسماءهم ، ففي ترجمته لحياة ابن الجزار القيرواني قال : « حدثني عنه من أثق به ٠٠ » ثم يكرر في مكانين آخرين « قال الذي حدثني ٠٠ »(٢٣) والمرجح أن المروي عنه هو عمر بن بريق الذي تتلمذ على ابن الجزار ثم عاد الى الاندلس ٠

٣ ـ كتاب « عيون الأنباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة :

وهو موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بــن يونس السعدي الخزرجي ، وقد عرف بابن أبي أصيبعة نسبة الى لقب جده ٠

ولد في دمشق عام ٦٠٠ هـ/١٢٠٣ م أو قبل ذلك بسنتين ، وتوفي في صرخد عام ٦٦٨ هـ/١٢٦٩ م ٠

---

(٢٠) ترجم كتاب هروشيوش الى العربية في زمن الخليفة الأندلسي « الحكم المستنصر » الذي دام حكمه من عام ٣٥٠ حتى ٣٦٦ هـ ولا بد أن يكون ابن جلجل اطلع على هذه الترجمة ونقل منها ٠

(٢١) يسميه ابن جلجل يرونيم الترجمان ٠ ويبدو أن هذا الكتاب ترجم الى العربية من اللاتينية في عصر ابن جلجل ٠ لم تصلنا تلك الترجمة ولم يذكر أحد من المؤرخين المسلمين سوى ابن جلجل ، وقد ورد ذكرها عرضا في مخطوطة ٠ موجودة في مكتبة جامع عقبة بن نافع في القيروان ٠

(٢٢) لمزيد من الأمثلة والتوضيح يمكن الرجوع الى المقدمة من كتاب ابن جلجل/طبع القاهرة تحقيق فؤاد سيد ٠

(٢٣) نفس المصدر صفحة ٨٩ ٠

نشأ ابن أبي أصيبعة في جو علمي طبي فقد كان أبوه الذي ولد بدمشق عام ٥٧٥ هـ/١١٧٩ م كحالا ، أي طبيبا للعيون ، كما كان عمه رشيد الدين طبيبا واسع الشهرة خدم في بلاط الملك العادل أبي بكر بن أيوب ثم في بلاط ابنه ، « الملك المعظم » بالاضافة الى أنه عمل في البيمارستانين الكائنين آنذاك بدمشق ويتقن الفارسية والتركية بالاضافة الى تمكنه من اللغة العربية(٢٤) . وبالاضافة الى الجو العلمي الذي كان يعيش فيه ابن أبي أصيبعة ، فقد تلقى علومه الطبية عن أساتذة كبار في عصره ، منهم رضي الدين الرحبي(٢٥) ومهذب الدين عبد الرحيم بن علي المعروف بالدخوار(٢٦) وعمران الاسرائيلي(٢٧) وكان هؤلاء يعملون في البيمارستان النوري الكبير الذي أنشأه نور الدين بن زنكي ، وكان ابن أبي أصيبعة يلازمهم ويتعلم منهم ويحضر مناقشاتهم الطبية ومعالجاتهم للمرضى .

عمل ابن أبي أصيبعة طبيبا للعيون وطبيبا عاما في البيمارستان الكبير بدمشق لمدة طويلة . وفي عام ٦٣٤ هـ/١٢٣٦ م شغل مركزا في شعبة طب العيون في البيمارستان الناصري بالقاهرة ، الا أن بقاءه لم يطل هناك ، اذ استدعاه في العام التالي الأمير عز الدين أيبك المعظمي أمير صرخد(٢٨) . وبقي ابن أبي أصيبعة في صرخد ، مع تردده الى دمشق ، حتى تاريخ وفاته عام ٦٦٨/١٢٦٩ م . ترك ابن أبي أصيبعة لنا كتابا هاما خصصه بكامله لترجمة المتطببين ومؤلفاتهم ، وهو كتاب :

« عيون الأنباء في طبقات الأطباء » .

وهو أهم الكتب التراثية في تراجم المتطببين لغناه بالمعلومات المفصلة لمن ترجم لهم ولأنه تناول تاريخ الطب والصيدلة والمشتغلين بهما منذ العصور القديمة ولدى مختلف الشعوب . ويتميز هذا الكتاب بما يلي :

---

(٢٤) انظر كتاب « عيون الأنباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة . منشورات مكتبة دار الحياة/بيروت ١٩٦٥ صفحة ٧٣٦ .

(٢٥) ولد بدمشق عام ٥٣٤هـ/١١٣٩ م وتوفي فيها عام ٦٣١هـ/١٢٣٣ م .

(٢٦) توفي الدخوار بدمشق عام ٦٢٨هـ/١٢٣٠ م . وقبل وفاته بست سنوات خصص داره الكبيرة لتكون مدرسة طبية وقد وقف لها أملاكا وضياعا ، ومحلها في سوق المناخلية بدمشق ـ انظر عيون الانباء صفحة ٧٢٨ ـ ٧٣٥ .

(٢٧) هو الحكيم أوحد الدين عمران بن صدقة ولد عام ٥٦١هـ/١١٦٥م وتوفي عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩ م .

(٢٨) انظر دائرة المعارف الاسلامية طبع مكتبة الشعب بالقاهرة /١٩٣٣ المجلد الاول صفحة ١٩٦ .

١ ـ كان ابن أبي أصيبعة دقيقا جدا في كتابته عن تراجم المشتغلين بالعلوم الطبية وبشكل خاص أولئك الذين عاصروه أو الذين سبقوه بعهود قريبة ٠

٢ ـ اعتمد ابن أبي أصيبعة في كتابه هذا ، على مؤلفات غيره ممن اهتموا قبله بمثل اهتمامه التاريخي منهم ابن جلجل ، ابن النديم ، والقاضي صاعد بن أحمد صاعد ، كما اعتمد على مؤلفات « يحيى النحوي » فيما يتعلق بالطب الجالينوسي(٢٩) ٠

٣ ـ حصلنا من هذا الكتاب على معلومات قيمة عن الطب الاغريقي والمتطببين الاغريق وعلى أسماء كتب يونانية ترجمت الى العربية ثم فقدت ، ولولا ذكرها في هذا الكتاب لما عرفنا وجودها أصلا ٠

٤ ـ كان عدد المتطببين الذين تكلم عنهم هذا الكتاب كبيرا يقرب من أربعمائة ، ولا نجد أي كتاب من نوعه ، حتى تاريخ وفاة ابن أبي أصيبعة ، يحتوي على مثل هذا العدد الكبير من المشتغلين بالعلوم الطبية ، كما لا نجد أي كتاب آخر في مثل غناه بالمعلومات واتساع مجالات البحث ٠

٥ ـ كانت طريقة ابن أبي أصيبعة في سرده للتراجم أن يذكر تاريخ ولادة من يترجم له اذا كان يعرف ذلك التاريخ ، ثم بعض حوادث تتعلق بصلات ذلك المتطبب مع زملائه ، ويذكر أسماء أساتذته ، وأمثلة عن طرق المعالجة التي طبقها على مرضاه ، كما يذكر مؤلفاته وقصصا عنه ، ويبرز أهم صفاته الشخصية من النواحي الاجتماعية والعلمية والادبية ـ واذا كان يقرض الشعر ، ذكر له بعضا من قصائده وأشعاره ، واذا كانت له اهتمامات بعلوم أخرى غير المجالات الطبية عددها ، ويذكر ابن أبي أصيبعة أيضا مكان وتاريخ وفاته اذا استطاع معرفة ذلك ٠

٦ ـ يعطينا هذا الكتاب معلومات قيمة عن مزاولة المهن الطبية ، وعن التعليم الطبي والصيدلي وعن المستشفيات والمؤسسات الطبية والعلمية في عصور مختلفة ، والوظائف الرسمية الهامة التي شغلها كثير ممن ترجم لهم ٠ ونستنتج من هذا الكتاب أن المتطببين العرب ، كانوا في الغالب علماء موسوعيين، اذ كانوا يجمعون الى جانب علمهم بالشؤون الطبية والصيدلية ٠ اطلاعا واسعا في مجالات العلوم الفلسفية والرياضية والفلكية والكيميائية وغير ذلك من علوم الاوائل ٠

---

(٢٩) عاش يحيى النحوي Jean le Grammairien في الاسكندرية وكان مخضرما أي كان قبيل الفتح الاسلامي لمصر وبعده ٠ قام بتفسير أكثر كتب جالينوس التي كانت تدرس في مدرسة الاسكندرية ، ولبراعته في النحو فقد سمي بالنحوي ٠

٧ ـ من يقرأ هذا الكتاب بتمعن ، يرى أنه لا يهم المشتغلين في تاريخ العلوم الطبية فقط ، بل يهم المشتغلين في تاريخ العلوم بشكل عام ، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر ، الترجمات التي وردت في هذا الكتاب عن الكندي ، وابن سينا ، والفارابي ، وابن الهيثم ، وابن رشد ٠٠ فالكتاب لم يحصر كلامه عنهم في شؤون الطب والدواء بل تعداه الى نطاق العلوم التي برزوا فيها مع ذكر أهم مؤلفاتهم في تلك الميادين ٠

٨ ـ احدى الظواهر التي نجدها في تراجم المتطببين ، ممن ذكرهم ابن أبي أصيبعة في كتابه ، هي تلك المكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها أكثرهم لدى الملوك والأمراء والحكام ، والأموال الكثيرة التي كانت تغدق عليهم ٠ وهذا ما جعل المستشرق فرند Freind يعتقد أن غرض ابن أبي أصيبعة من ذلك انما هو لابراز هذه الفكرة ، باعتبار أنه قدم كتابه هذا الى الوزير أبي الحسن ابن غزال السامري ، وزير الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ليلفت نظر الوزير الى الاهتمام به جريا على عادة الملوك والحكام مع المتطببين ٠ ويبدو أن مثل هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن ابن أبي أصيبعة عندما ألف كتابه هذا كان يتمتع بالمركز المرموق لدى الحكام بسبب مهاراته الفنية(٣٠) ٠

٩ ـ أدخل ابن أبي أصيبعة في كتابه كمية كبيرة من الأشعار وعددا وافرا من القصائد الشعرية التي نظمها المتطببون ممن جاءت ترجمتهم في الكتاب ٠ ويمكن تقدير كمية هذه الاشعار والقصائد بما يقرب من ربع مضمون هذا الكتاب ٠ وأعتقد أن ابن أبي أصيبعة أثبت هذه الاشعار ليعطي لكتابه بعض الطراوة وليكون في ذلك تشويق للقراء ٠

١٠ ـ تبدو الروح العلمية المجردة مسيطرة على ابن أبي أصيبعة ٠ فقد كان لا يبخل بالتقدير والتبجيل لأي مستحق ممن ترجم لهم ، دون التأثر بأي جنسية أو دين أو قومية ، ويبدو ذلك واضحا في كل مكان من كتابه ، وخاصة بالمقطع الذي أورده في مقدمة كتابه :

« ٠٠٠ فان كثيرا منهم (أي المترجم لهم) وان قدمت أزمانهم ، وتفاوتت أوقاتهم ، فان لهم علينا من النعم فيما صنفوه ، والمنن فيما جمعوه في كتبهم ٠ من علم هذه الصناعة ووصفوه ، ما هو تفضل العالم على تلميذه ، والمحسن الى من أحسن اليه » ٠

---

(٣٠) انظر كتاب تاريخ الطب العربي l'historie de la Medecine Arabe تأليف الاستاذ لوسيان لوكلير بالفرنسية ٠ طبع Burt Franklin بنيويورك عام ١٩٧١ ـ الجزء الثاني صفحة ١٩٠ ٠

ومن المفيد أن نذكر ، لزيادة التعريف بهذا الكتاب ، أنه يضم خمسة عشر بابا هي التالية :

الباب الأول : في كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثها .

الباب الثاني : في طبقات الأطباء الذين ظهرت لهم أجزاء من صناعة الطب وكانوا المبتدئين بها .

الباب الثالث : في طبقات الأطباء اليونانيين الذين هم من نسل اسقليبيوس

الباب الرابع : في طبقات الأطباء اليونانيين الذين أذاع بقراط فيهم صناعة الطب .

الباب الخامس : في طبقات الأطباء الذين كانوا منذ زمان جالينوس وقريبا منـــــه .

الباب السادس : في طبقات الأطباء الاسكندرانيين ومن كان في زمنهم من أطباء النصارى وغيرهم .

الباب السابع : في طبقات الأطباء الذين كانوا في أول ظهور الاسلام من أطباء العرب .

الباب الثامن : في طبقات الأطباء السريان الذين كانوا في ابتداء ظهور بني العباس .

الباب التاسع : في طبقات الأطباء النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي وذكر الذين نقلوا لهم .

الباب العاشر : في طبقات العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر .

الباب الحادي عشر : في طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد العجم .

الباب الثاني عشر : في طبقات الأطباء الذين كانوا من الهند .

الباب الثالث عشر : في طبقات الأطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا فيها .

الباب الرابع عشر : في طبقات الأطباء المشهورين من أطباء ديار مصر .

وفي الأربعينات من عصرنا الحاضر ، وبالتحديد عام ١٩٤٢ م ، ظهرت أول طبعة لكتاب في التراجم الطبية ، ألفه المؤرخ الدكتور أحمد عيسى ، وأطلق عليه عنوان :

« معجم الأطباء ـ ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة »٠

وقد تضمن هذا الكتاب ترجمة لحوالي تسعمائة من المتطببين الذين عاشوا منذ سنة ٦٥٠ هـ/١٢٥٢ م وحتى تاريخ ظهور الكتاب ٠

وقد أوضح الدكتور أحمد عيسى عمله بقوله في مقدمة كتابه :

« اني وان كنت التزمت تدوين الأطباء من عهد وفاة ابن أبي أصيبعة فاني قد نقلت ما عثرت عليه من تراجم الأطباء الذين تقدموه ، وفاته أن يترجم لهم ، أو الذين ذكرهم بالاسم فقط ولم يترجم لهم فكان كتابي هذا ذيلا لكتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة »(٣١) ٠

٤ ـ كتاب : « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » لحاجي خليفة :

المؤلف هو مصطفى بن عبد الله القسطنطي المشهور بحاجي خليفة وكاتب جلبي ٠ ولد عام ١٠١٧ هـ/١٦٠٨ م في اسطمبول ، وتوفي فيها عام ١٠٦٧ هـ/ ١٦٥٦ م ٠ وله كتاب كبير باسم « كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون » متسلسل هجائيا على أساس أسماء الكتب ، فيذكر اسم الكتاب واسم مؤلفه ٠ ويعطي تعريفا مختصرا عن المؤلف ، وعن تاريخ ولادته وتاريخ وفاته ، وفي أي بلدة تمت الولادة والوفاة ٠ كما يعرف بالكتاب وموضوعه ،وكثيرا مايورد نص أول سطر من الكتاب الذي يورده ٠

أورد حاجي خليفة في كتابه ما يقرب من عشرين ألف كتاب تتعلق بمختلف العلوم والفنون ، ومنها كتب كثيرة في العلوم الطبية ٠

طبع كتاب حاجي خليفة مرارا ، ففي عام ١٢٧٤ هـ/١٨٥٧ م طبع في مطبعة بولاق بمصر ، وفي عام ١٣٠٠ هـ/١٨٨٢ م في ليبزغ ولندن ، كما طبع في الآستانة عام ١٣١٣ هـ/١٨٩٥ م ، وعام ١٣٢٠ هـ/١٩٠٢ م وآخر طبعة له كانت في الآستانة عام ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ م في مجلدين كبيرين ٠

---

(٣١) انظر معجم الاطباء ـ ذيل عيون الانباء في طبقات الاطباء لابن أبي أصيبعة ـ طبع دار الرائد العربي بيروت ـ الطبعة الثانية ١٩٨٢/المقدمة صفحة ٤ ٠

أثار هذا الكتاب اهتمام الكثير من الباحثين والمؤرخين ، مما دفع المؤرخ اسماعيل البغدادي لوضع ذيل له أسماه : « ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون » ويطلق عليه اختصارا « ذيل كشف الظنون » ضمنه الكتب التي فات على حاجي خليفة ذكرها اضافة الى الكتب التي ألفت بعد وفاة حاجي خليفة وحتى عام ١٣٣٠ هـ/١٩١١ م وهو العام الذي صدر فيه هذا الذيل · وقد بلغ عدد الكتب المفهرسة في هذا الذيل حوالي خمسة عشر ألف كتاب مع ذكر مؤلفيها ،وذلك على نفس أسلوب « كشف الظنون » أي بالتسلسل الهجائي على أساس أسماء الكتب ·

الا أن اسماعيل البغدادي المذكور أدرك ضرورة وجود كتاب فهرسي على أساس المؤلفين للكتب الواردة في كتابي « كشف الظنون » وذيله ، فألف كتابا بذلك من مجلدين ، أسماه :

« هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين » ·

وقد تضمن هذا الكتاب ترجمة لحوالي تسعة آلاف من المؤلفين مع ذكر مؤلفاتهم ·

أدركت وزارة المعارف التركية ، أن هذه الكتب الثلاثة :

« كشف الظنون » و « ذيل كشف الظنون » و « هدية العارفين » تشكل مجموعة فهرسية متكاملة كبيرة النفع للباحثين ، فقامت بطبع هذه المجموعة بكاملها في ستة مجلدات كبيرة وذلك في عام ١٣٧١ هـ/١٩٥١ م ، ثم أعادت مكتبة المثنى في بغداد وبيروت طبع هذه المجموعة بالأوفست عام ١٣٨٦ هـ/١٩٦٦ م على ورق صقيل وبتجليد أنيق ·

وميزة هذه المجموعة الفهرسية أنها متضمنة لعدد كبير جدا من المؤلفات ، وتراجم لعدد كبير من العلماء والمؤلفين في مختلف المجالات بما فيها مجالات العلوم الطبية ·

وقبل ختام هذا البحث لا بد لي من أن أوضح ما يلي :

١ ــ لم أتطرق الى ذكر المصادر المعاصرة في التراجم والمؤلفات مثل « كتاب الأعلام » لخير الدين الزركلي بمجلداته الثمانية ، و « معجم المؤلفين » لعمر رضا كحالة بأجزائه الخمسة عشر ، مع أهميتها الكبيرة للباحثين ، وانما حصرت بحثي بالمصادر التراثية التي ألفت منذ العهود الاسلامية الاولى وحتى القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر للميلاد ·

٢ ـ وباعتبار أن بحثي يتجه بالأصل نحو المصادر المتعلقة بتراجم المتطببين وتصانيفهم فقد تكلمت عن أربعة كتب تدخل في نطاق فئتين من المصادر :

الأولى : فئة المصادر المتخصصة في تراجم المتطببين وفي مؤلفاتهم وأهمها بنظري كتابا ابن جلجل وابن أبي أصيبعة ٠

الثانية : فئة المصادر العامة في التراجم والتي تحتوي على عدد كبير من تراجم المتطببين وأهمها كتابا ابن النديم ، وحاجي خليفة ٠

٣ ـ ان المصادر الأربعة التي تناولها بحثي ، بالرغم من أني أعتبرها أهم المصادر التراثية في غناها بتراجم المشتغلين بالعلوم الطبية ، الا أنها ليست وحدها المفيدة في هذا المجال .فهنالك مصادر أخرى هامة لا يستغني عنها الباحثون ، أذكر منها على سبيل المثال الكتب التالية :

ـ « تاريخ الأطباء والحكماء » لاسحق بن حنين المتوفي عام ٢٩٨ هـ/٩١٠م

ـ « طبقات الأمم » للقاضي صاعد الأندلسي المتوفي عام ٤٦٢هـ/١٠٦٩م ٠

ـ «حكماء الاسلام» لظهير الدين البيهقي المتوفي عام ٥٦٥هـ/١١٧٠م ٠

ـ «اخبار العلماء بأخبار الحكماء» لجمال الدين القفطي المتوفي عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م ٠

ـ « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأبار الأندلسي المتوفي عام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م

ـ « تاريخ مختصر الدول » لغريغوريوس أبي الفرج بن العبري المتوفي عام ٦٨٥هـ/١٢٨٦ م ٠

ـ « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والأعلام » لمحمد بن أحمد الذهبي المتوفي عام ٧٤٨هـ/١٣٤٨ م ٠

ـ « الوافي بالوفيات » لصلاح الدين بن أيبك الصفدي المتوفي عام ٧٦٤هـ/١٣٦٣م ٠

ـ « البداية والنهاية » لأبي الفداء اسماعيل بن كثير البصري المتوفي عام ٧٧٤هـ/١٣٧٣م ٠

ـ « السلوك لمعرفة دول الملوك » للشيخ تقي الدين المقريزي المتوفي عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م ٠

- « الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلاني المتوفي عام ٨٥٢هـ/١٤٤٨م ٠

- « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » لمحمد عبد الرحمن السخاوي المتوفي عام ٩٠٢هـ/١٤٩٧ م ٠

- « شذرات الذهب في أخبار من ذهب » لابن العماد الدمشقي المتوفي عام ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م ٠

- « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » لمحمد أمين المحبي المتوفي عام ١١١١هـ/١٦٩٩م ٠

وهنالك مصادر كثيرة غيرها مما لا يتسع المجال في مثل هذا البحث لذكرها ٠

الطرق العلاجية في الطب القديم حسب ابن سينا

الدكتور فلوريال سناغوستان

لا يخفى على أحد ان ابن سينا كان من كبار الاطباء الذين أسهموا في تأسيس ما اطلق عليه اسم « الطب العربي » بغض النظر عن أصل أصحاب الكتب الطبية وعقائدهم الدينية فيبرهن على دوره الاساسي هذا تأليفه للقانون في الطب الذي يجمع كل ما كان عليه الطب في القرن الرابع للهجرة (الحادي عشر للميلاد) من عناصر مختلفة ، سواء أكانت يونانية أو هندية أو عربية ٠

لكنه لم يكن مجرد جامع لكتب من سبقه من العلماء ، بل كان أيضا ذا عقل مبتكر فذ ، فعلى سبيل المثال قد ميز بين التهاب المدياستنيتس الصدري ومرض ذات الجنب ووصف مرض الكلب وصفا دقيقا ٠

فهناك من يقول بأن ابن سيناً مال الى الطب النظري أكثر منه الى الطب العملي ٠ طبعا علينا أن نعترف بأن القانون في الطب يحتوي على وجوه نظرية كثيرة تتناول تعريف الطب وما هية الانسان وأصل الحياة ، لكن هذا البحث النظري يندمج في اطار أوسع وأشمل يعالج أيضا أمورا تطبيقية بحتة ، كما أشرنا الى ذلك في دراسة قمنا بها عنوانها : العمليات الجراحية عند ابن سينا » حيث لاحظنا أن ابن سينا لا يرجح الوجه النظري على الوجه العملي بل يسخر الاول في سبيل الثاني بغية ايجاد نظرية طبية كلية تلبي تساؤلات انسان ذلك العصر وتؤمن له شتى الوسائل العلاجية ، من أدوية مفردة ومركبة وجراحـــة ٠

وكذلك ذهب بعضهم الى أن ابن سينا اكتفى بنقل الطب الاغريقي القديم كما هو ، دون أي تعديل أو تطوير ، فهذا اجحاف لا مبرر له ٠ صحيح انه اعتمد ، كغيره من الاطباء ، على ابقراط وجالينوس الا انه أتى بتجارب ذاتية وملاحظات شخصية واطلع على ما اكتشفه الهنود في مجال الصيدلة ٠ فحسبنا أن نقول أن ٣٠٪ فقط من الادوية المفردة المذكورة في القانون تعود الى أصل اغريقي ٠ أما ماعداها فآشوري أو عربي أو هندي أو فارسي ٠

مهما يكن من الامر ، فالمهم ان قانون ابن سينا سرعان ما حصل على شهرة رائعة في الاوساط الطبية واثر تأثيرا بالغا مستمرا في طبقات كثيرة من الاطباء الشرقيين كانوا أم غربيين ، الى حد أن الطبيب الجراحي الفرنسي كي دي شولياك (القرن الرابع عشر) يستشهد بأقوال الشيخ الرئيس ويذكره كثيرا في « كتابه في الجراحة » وانه صار عمدة البرامج الجامعية الاوروبية الى آخر القرن السابع عشر · ففي رأينا ، يعود مدى أثر هذا الكتاب الى مستواه العلمي الرفيع وترتيبه المنطقي الواضح وأبعاده الموسوعية التي جعلت منه المرجع الطبي الاساسي الى أيام الاكتشافات الفيزيولوجية الكبرى التي شهدها القرن السابع عشر فلذلك لفت القانون في الطب انتباه معاصريه فبدأوا يعلقون على كتابه الاول في الكليات ويشرحونه ، ومن شروحه المشهورة : شرح الامام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦) ، وشرح قطب الدين ابراهيم المصري (ت ٦١٨) ، وشرح ابن النفيس (ت ٦٧٨) ، وشرح قطب الدين الشيرازي (ت ٧١٠) ، وشرح ابن القف الكركي (ت ٦٨٥) ··· الخ ·

حتى في أوربا ترجمه الى اللاتينية جيرار دي كريمون في القرن الثاني عشر وشرحه جان ديبار بجامعة باريس في نهاية القرن الرابع عشر ، وطبع لاول مرة في نابلي سنة ١٤٩١ فترجما الى العبرية ونشرت له ترجمة لاتينية في البندقية سنة ١٥٤٤ وأخرى بروما سنة ١٥٩٣ ·

وفيما يتعلق بمحتواه ، يشتمل القانون في الطب على خمسة أجزاء : أما الكتاب الاول فهو مخصص للامور الكلية من علم الطب : في حد الطب وموضوعاته وفي الاركان والامزجة والاختلاط وفي ماهيـــة العضو وأقسامه والعظام والعضلات ، وفي تصنيف الامراض وأسبابها وتدبير الصحة وقوانين المعالجات · والكتاب الثاني خاص بالمفردات الطبية · وفي الكتاب الثالث يدرس ابن سينا الامراض الجزائية الواقعة بكل جزء على حدة · وفي الكتاب الرابع دراسة للامراض التي لا تخص عضوا معينا مثل الحميات ويعالج فيه أيضا الاورام والبثور والجذام والكسر والجبر · وأخيرا يدرس ابن سينا في الكتاب الخامس الادوية المركبة او الاقرباذين ·

والكتاب الاول هو الذي يهمنا اليوم اذ أن ابن سينا يتناول فيه وجوه المعالجة بطريقة واضحة تبين لنا أهمية هذا الباب من الطب · والجدير بالذكر هنا أن لنظرياته العلاجية أصولا فيزيولوجية هامة قد تلخص كما يلي :

١ ـ ان المفهوم الفيزيولوجي الاول هو ان صحة الانسان منوطة بحسن توازن اخلاله وقواه · فيسمى توازنها المثالي « حالة الاعتدال » التي نادرا ما يعيشها الانسان · فبالاضافة الى حالة الاعتدال المثالية الشاملة هذه ، التي تختلف باختلاف الاشخاص ولكل انسان اعتداله الخاص ، فهناك اعتدال آخر

خاص بكل عضو ، بكل جزء من الجسم ، مما يجعل عمل الطبيب أمرا صعبا بمكان • فحسب هذا المفهوم ، يعتبر المرض خرقا لهذا التوازن اما على صعيد الجسم كله واما على صعيد البعض منه • وعلى الطبيب اذن أن يعيد حسن التوازن بما لديه من وسائل علاجية متنوعة كما سنراه فيما بعد •

٢ ــ أما المفهوم الفيزيولوجي الثاني فهو أن طبيعة الانسان ، وهو سقيم ، تسعى دائما الى استرجاع حالة الصحة وهذا ما سماه القدماء «الطبيعة الشافية»، ملحين على أهميتها في عملية العلاج • فينبغي أن يساعد هذه القوى الطبيعية في نزعتها الفطرية الى مكافحة أسباب المرض والمواد المعفنة •

٣ ــ وأما المفهوم الثالث الذي يعود الى طريقة العلاج فهو ان المرض يجب أن نعالجه بالضد • فمثلا أصيب الانسان بمرض حار فليتناول أدوية باردة ، واذا اعترته سكتة دماغية فليفصد في رجله بغية جذب الدم الى الاسفل •

٤ ــ والمفهوم الفيزيولوجي الرابع الذي لا تقل أهميته عما سبق هو أن الكثير من الاعراض الخطيرة يسببها انسداد يعرض للمجرى فيحول دون حركة الاخلاط والفضلات •

فهذه الفكرة أساسية لفهم النظريات العلاجية القديمة لان الصحة كما انها تترتب على اعتدال الاخلاط كذلك تترتب على حسن تحركها الى حد اننا قد نحدد فيزيولوجيا ابن سينا بأنها نوعا ما «اعتدالية تحركية» ، فما أن تحدث سدة أو عرض امتلاء في عضو من الاعضاء حتى يضطر الانسان الى التداوي بالمسهلات والملينات والمقيئات والمدرات الى غيرها من الادوية والى اللجوء الى الفصد والحجامة والعلق •

٥ ــ هناك أيضا فكرة رئيسية كثيرا ما يشير اليها ابن سينا ، ألا وهي « الطب الوقائي » اذا جاز هذا التعبير الحديث وفعلا يخصص صاحبنا صفحات عديدة تذكر الوسائل الوقائية التي قد تحافظ على صحة الانسان مثل شرب أنواع معينة من المياه وتصفيتها حال السفر بمصفاة من الصوف وتجنب المناطق الرديئة المؤذية للصحة خاصة بسبب وجود المستنقعات فيها او هواء غير صالح للانسان وكذلك ينصح لمن يقصد الارتحال ان يتدرب على تحمل الظمأ والجوع والحرارة والبرد تفاديا لمشقات السفر ما أمكن الامر ويوصي كل انسان بممارسة الرياضة ودخول الحمام والاقتناع من المبالغة فيما يتعلق بوظائفه البدنية والنفسانية •

٦ ــ أما الميزة الاخيرة التي يتسم بها الاطباء القدامى فهي قدرتهم على ملاحظة عناصر البيئة التي يعيش فيها الانسان بما فيها من أمكنة وأزمنة وعادات وحياة عائلية ومهنية وتربية وتغذية ••• الخ •

فبفضل انتباههم الى بعض هذه الظواهر أستطاعوا أن يستنتجوا منها عدة قوانين طبية وخاصة في ميدان الصيدلة حيث اقتنوا بطول التجربة مئات الاعشاب والعقاقير • وبالتالي ، مكنهم نظرهم وان أخطأوا في وجوه كثيرة لعدم اطلاعهم على وجود الجراثيم ، مكنهم من ان يضبطوا بشكل مقبول العلاقة التي بين سبب المرض والمرض نفسه • فنذكر على سبيل المثال انتباههم لدور المياه الراكدة في انتشار الاوبئة ، فلا يخفى على أحد اليوم ان هذه المياه هي بيئة مناسبة لتزايد بعض أجناس البعوض الحاملة لجرثوم الحمى الصفراء بعد هذه الكلمة التمهيدية نتطرق الى صلب الموضوع وهو الطرق العلاجية حسب ابن سينا كنموذج لمرحلة من مراحل تطور الطب العلاجي فبشكل عام يعتمد العلاج على ثلاثة أشياء هي :

١ ــ التغذية والتدبير وهو ما نسميه اليوم حفظ الصحة •

٢ ــ استعمال الادوية •

٣ ــ عمل اليد ، يعني الجراحة صغراها وكبراها •

أ ــ **أما التدبير** فقد نلخص المراد منه بقول مأثور : «خير الامور اوسطها»، فلا بد لمن أراد أن يحفظ صحته أن يتجاوب مسلكه في الحياة مع حاجاته الفيزيولوجية من نوم ويقظة وراحة وعمل وشرب وأكل وعواطف ، وان يتجنب كل افراط أيا كان ، وفضلا عن ذلك يجب أن يعدل كيفية تصرفه بما يناسب مراحل حياته وتقدمه في السن وتتابع فصول السنة التي تؤثر في مزاجه وطبعه تأثيرا خليقا يأخذه بعين الاعتبار ويراعيه • والحقيقة اننا أبناء القرن العشرين لا نعلق على هذه الامور مما يجعلنا نعاني من أمراض كثيرة عصبية وغير عصبية •

أما التغذية فهي أساس العلاج تبعا لآراء ابقراط • فبتعديله لكمية الغذاء ولكيفيته يستطيع الطبيب أن يحدث تبدلات هامة في بدن الانسان حسب نوعية المرض •

فالغذاء بحسب خصائصه ينقسم الى ثلاثة أقسام هي :

ــ الغذاء السريع النفوذ كالخمرة والمخدرات •

ــ الغذاء البطيء النفوذ •

ــ نوعية ما يتولد منه من الكيموس عند الهضم •

لان هناك غذاء حسن الكيموس وغذاء رديئه •

ب ـ المعالجة بالادوية : تستند هذه المعالجة الى ثلاثة أسس هي :

ـ قانون اختيار كيفية الدواء نظرا للمرض الذي يراد علاجه • فلدى الطبيب أصلا أربعة أنواع من الدواء : الحار ، البارد ، اليابس ، الرطب ، يصفها مطبقا المبدأ القائل بأن المرض يعالج بالفصد والصحة تحفظ بالمشاكل •

ـ قانون اختيار كمية الدواء في وزنه ودرجة قوته • فيقدر الطبيب مقداره عن طريق فحصه للمريض وتحديده لنوع المرض ومزاج العضو المصاب • فمثلا اذا كان العضو متخلخلا كفاه دواء لطيف واذا كان حساسا امتنع من الادوية اللذاعة والاكالة وكلما كان أبعد من جهاز الهضم احتاج الى دواء أقوى •

ـ قانون تنظيم أوقات تناول الدواء • هذه النقطة متعلقة بتحديد وقت البحران اذا ان كل مرض يقطع ٣ مراحل : الابتداء ، البحران والانتهاء • فلكل مرحلة أدويتها الخاصة ويعتبر الطبيب ماهرا قادرا اذا استطاع أن يعدل شكل مداواته حسب معرفته لاوقات المرض وخصوصا حدسه وقت البحران • ففي هذا المجال قد انتبه ابن سينا الى مدى الانفعال عند بعض الاشخاص اثر اللجوء الى العلاج القوي ، وكذلك يشير الى فعالية طرق علاجية خاصة قائلا : « واعلم ان من المعالجات الجيدة الناجعة الاستعانة بما يقوي القوى النفسانية والحيوانية كالفرح ولقاء من يستأنس به وملازمة من سر به ••• ومما يقارب هذا ، الانتقال من بلد الى بلد ومن هواء الى هواء ومن هيئات الى هيئات ••• » فلا شك ان هذه النظرة حديثة نوعا ما اذ نرى مذاهب طبية معاصرة تأخذ بالمبادىء نفسها وتثبتها •

وعلى الصعيد العملي يتوفر أمام الطبيب عدة أنواع من الادوية المقصود منها مكافحة شتى الامراض سواء أكانت أمراض سوء المزاج وأمراض مع مادة أم أمراض حادة مزمنة • والى جانب الادوية المبردة والمنضجة والقابضة وما أشبه ذلك ، هناك أدوية أساسية تدخل في باب الاستفراغ الذي يشمل أيضا عدة وسائل جراحية كالفصد •

ان هدف الاستفراغ هو جذب الاخلاط الزائدة المعفنة الى غير المكان الذي استقرت فيه أو اخراجها تماما منه بالقيء والاسهال وادرار البول والطمث والفصد • لكنه ينبغي للطبيب أن يتقيد فيه بقوانين وشروط محددة •

١ ـ الاسهال :

انه الوسيلة العلاجية الاكثر استعمالا في الطب القديم لكنها صعبة الاستعمال لما فيها من خطر اعياء وتشنج وغثيان ومغص • ولهذا السبب يضبط ابن سينا قوانينه بدقة ذاكرا ضرورة اعداد البدن لقبول المسهال وظروفا تحول دون استعماله •

٢ ــ القــــيء :

هي وسيلة لا يتحملها الا القليل وتستعمل للامراض المزمنــة العسيرة (صرع ــ استسقاء ــ ماليخوليا ــ جذام ــ نقرس) ٠

فلنذكر بين الادوية المقيئة الماء الفاتر والجرجير وجوز القيء والتقيؤ بالريشة ٠ وبالرغم من أن القيء نافع كل النفع في رأي ابقراط فانه يؤدي في بعض الاحيان الى عواقب سيئة كوجع المعدة والصدع مما يدفع ابن سينا الى ذكر علاج وتسكين من أفرط من القيء ٠

٣ ــ الحقنـــة :

سواء أكانت في الاحليل أو المقعدة وهي على حد قول ابن سينا علاج لنفي الفضول عن الامعاء ومسكن لاوجاع الكلي والمثانة وأورامها ٠

٤ ــ الاطلية والاضمدة :

ان الفرق بينهما أن الاطلية سيالة والاضمدة متماسكة لكن طريقــة استعمالها واحدة ، انها تستعمل عادة بواسطة خرق فتدخل في معالجة أمراض محلية خارجية كالامراض الجلدية (خنازير ، قروح) ومن مقوماتها السويق ٠

٥ ــ النطولات :

تعتبر علاجا محليا جيدا فهي عبارة عن غسل بعض الاعضاء ولا سيما الرأس والمقعدة بأدوية مركبة سائلة لمداواة امتلاء أو احتقان ٠

ج ــ الجراحــة : وهي تنقسم الى قسمين : أولا الجراحة الصغرى التي تضم الفصد والحجامة (بالشرط أو بلا شرط) ووضع العلق فلا يعتبرها ابن سينا وسائل جراحية محضة بل وسائل استفراغية عادية ، وثانيا الجراحة الكبرى التي تحتوي على عمليات الجـــبر والبط والقطـع وأمراض تفرق الاتصال والكي ٠

١ ــ الفصـــد :

لو أردنا أن نعرف ماهية الفصد في نظر الاطباء القدماء حتى نهاية القرن التاسع عشر لاستشهدنا بقول ابن سينا : « الفصد هو استفراغ كلي ٠٠٠ فاما أن يفصد لكثرة الدم واما لرداءة الدم واما أن يفصد لكليهما » ٠ ولا ريب أن الفصد كان ، وما زال طيلة قرون عديدة العلاج المثالي للامراض الدموية

مصدع العرق في الرئة والصرع والسكتة ومرض الرمد والاورام الداخلية فللفصد شروط معينة لانه ربما أدى الى الغشي وخاصة في حالة حمى حادة أو ضعف المريض أو في أيام ثوران العلة • ومن جهة أخرى يعتقد ابن سينا أن تكثير عدد مرات الفصد أوفق من تكثير مقداره ويرجو من الفصاد أن يتقن والفصد في وجوهه الثلاثة وهي الفصد المورب والفصد المطول والفصد المعرض •

وبطبيعة الحال الفصد أسهل على العروق الساكنة من على العروق الضاربة يعني الشرايين لما فيها من خطر نزف الدم • أما الاوردة فأشهرها عملا القيفال والباسليق وحبل الذراع وأسهلها فصدا القيفال أما الشرايين فأصعب عملا وان كان فصدها جيد النفع ، وأكثرها فصدا شرايين اليد والعجيب في الامر ان القدامى قد ميزوا بين الدم الوريدي والدم الشرياني رغم عدم معرفتهم للدورة الدموية ، فيقول ابن سينا في هذا المجال : « واصابة الشريان أن يخرج دم رقيق أشقر يثب وثبا ويلين تحت المجسة » • وبصرف النظر عن أخطار نزف الدم ان صناعة الفصد صعبة من وجوه أخرى فمثلا يجب على الفصاد ان يحذر قطع الاعصاب والروابط عند عملية الفصد وان يتجنب اطالة الربط الشديد خوفا من تورم العضو وانتشار الغنغرانا •

٢ ـ الحجامـة :

يبدو أن الحجامة ، وهي لا تزال مستعملة في أنحاء كثيرة من العالم حتى أيامنا هذه ، نافعة للجسم من جهة ان تنتقيها لنواحي الجلد السطحية أكثر من تنقية الفصد • يصف ابن سينا طريقتين في الحجامة :

ـ الحجامة بلا شرط : أدواتها المحاجم فملقط ، وغايتها جذب المادة الى ناحية معينة من البدن مثل وضعها على الثدي لحبس الحيض وجذب الدم الى العضو وتسخينه • وهذه الحجامة نافعة لصاحب السعال ووجع الرأس والنقرس والفتق ووجع المفاصل •

ـ الحجامة بالشرط : المقصود منها هو استفراغ العضو بشكل كامل ، فقبل أن توضع المحاجم يشرطه المتحجم تشريطا غائرا •

٣ ـ العلـــق :

ان العلق تشكل الوسيلة الاستفراغية الاخيرة التي يذكرها ابن سينا فيعود فضل استعمالها الى الهنود ونفعها نفع الحجامة بالشرط تقريبا • فقبل وضعها يجب على الطبيب أن يحذر فينظفها بماء عذب ويغسل موضع ارسالها بالبورق وكان ابن سينا قد أدرك كونها عاملا من عوامل العدوى • وفائدتها العلاجية معالجة الامراض الجلدية وحالات الامتلاء والصداع •

٤ ـ البـــط :

ان البط وما يشاكله من الوسائل يعتبر المرحلة العلاجية الثالثة التي لا يستخدمها الطبيب القديم الا بعد اخفاق العلاج بالتدبير والتغذية والتداوي بالادوية المفردة والمركبة يستعمل البط حالة نضج الاورام والقروح باخراج ما فيها من مدة وصديد ومواد عفنة • ففي هذا الصدد شدد صاحبنا على أهمية علم التشريح لمن يريد أن يقوم بهذا العمل اذ يقول :

« ويجب أن يكون الباط عارفا بالتشريح ، تشريح العصب والاوردة والشرايين لئلا يخطىء ويجب أن يكون عنده عدد من الادوية الحابسة للدم ومن المراهم المسكنة للوجع » •

٥ ـ القطــع :

هو علاج فساد العضو والعملية الاخيرة لمنع انتشار المرض الى سائره من الاعضاء • ويذلل الطبيب عقباتها السيئة مثل نزف الدم والتورم بواسطة الكي بالدهن المغلي ونتساءل كيف ذكر ابن سينـــا ربط العروق في بعض الاحيان ولم يشر اليه في هذه المناسبة فيعود الفضل في تعميم ربط العروق في عملية القطع الاطراف الى الجراح الفرنسي الكبير امبرواز باري الذي عاش في القرن السادس عشر اذ أحل هذه الطريقة الجديدة محل الكي بالحديد أو بالدهن المغلي •

ويجب على من يريد أن يقطع عضوا أن يدخل المجس فيه ليتأكد من حد الموضع الفاسد ، ثم يقطع العظم تارة بالمثقب وتارة بالمنشار •

٦ ـ الكـــي :

ان المقصود من الكي هو منع انتشار الفساد وقطع نزف الدم • وكان للكي في الطب القديم منزلة مرموقة الى حد ان الكثير من الاطباء افرطوا فيه كما أفرطوا في الفصد وبالرغم من ذلك كان وسيلة مطهرة فعالة في منع العفونة • وفضلا عن الكي بالزيت المغلي الذي قد سبق وذكرناه ، هناك الكي بالحديد (المكوى) الحامي والكي بالادوية اللذاعة الكاوية • ولم يكن الطبيب يقتصر على كي المواقع الظاهرة من البدن بل كان يكوي أيضا مواقع باطنية غائرة كقروح الانف والفم وبواسير المقعدة الغائرة وحتى الكبد عن طريق شق صغير في البطن •

٧ ـ علاج تفرق الاتصال :

ان هذه النقطة تضم الجبر وعلاج شتى الجروح • أما الجبر فقد كان صناعة متطورة أيام ابن سينا لطول التجربة ووجود الادوات اللازمة من رباطات وخشبات ورفائد •

أما علاج الجروح أيا كانت فمبدؤه مراعاة أصول ثلاثة هي :

- قطع سيلان الدم والصديد بالقوابض والمجففات ·

- الحام الشق وادماله بالادوية المدملة ·

- منع العفونة ما أمكن ·

وفي هذا الباب يأتي ذكر الادوية المسكنة للوجع والمخدرات اذ كان الاطباء القدماء يستعملونها خلال عملياتهم الجراحية وفي الامراض الحادة والمزمنة أو لتسكين الاعصاب ·

فلنختم هذه الكلمة قائلين ان الطب العربي القديم ، بالرغم من تناقضاته يمتاز بوجود ايجابية كثيرة تبناها الطب الحديث · فنذكر ، على سبيل المثال ضرورة أخذ البيئة التي يعيش فيها المريض بعين الاعتبار ، والدور الاساسي الذي يلعبه رفع معنوياته من أجل نجاح معالجته ··· فابن سينا ، كغيره من الاطباء العرب ، الح على هذه النقطة التي صارت عمدة بعض المذاهب الطبية العصرية · وفي الحقيقة ، نلاحظ في أيامنا هذه ، أن أصحاب الطب يتصرفون مع هذه الصناعة وكأنها تابعة للعلوم المضبوطة · فهذا غلط لان العوامل الانسانية فيها أساسية ، فالطبيب ليس فقط الذي يعطي الوصفة بل أيضا الذي يحاول أن يفهم حالة المريض النفسية · وهناك وجه آخر من الطب العلاجي العربي القديم وهو أولا اعتماده على صيدلة مزدهرة غنية ، حافلة بمئات الاعشاب والعقاقير ، لا يزال معظمها مستعملا الى اليوم في دول كثيرة ، وثانيا معاملته لكل مريض وكأنه فذ لا نظير له ·

وهكذا يستطيع الطبيب أن يلائم بين علاجه واستعداد المريض وحالته · فهاتان الفكرتان نقطة انطلاق نظرية طبية جديدة في القرن الثاني عشر سميت « اوميوباتي » يطبقها حتى الآن آلاف الاطباء الاوربيين وغير الاوربيين ، ومن منافع هذا العلاج انه طبيعي لا يحدث حساسية عند المريض ·

وعندما ندرس الطب العربي القديم ونحلله يجب ألا نطبق عليه مفاهيمنا الطبية والفلسفية العصرية ، اذ ان هذا الطب لم يكن آنذاك علما مستقلا ، بل كان يندمج في نظرية علمية فلسفية تشمل الكون بكامله ومحاولة تفسير جميع مظاهره الطبيعية والميتافيزيقية · ومن ثم ، أصبح الطب اليوناني ـ العربي القديم ، وخاصة عند ابن سينا ، نظاما مرتبا ثابتا ، نقله المترجمون الى أوربا حيث أثر تأثيرا بالغا هائلا وبقي مستخدما الى القرن التاسع عشر رغم الاكتشافات العديدة التي شهدها القرن السابع عشر ·

أما اليوم فتطور ما نسميه « الطب العربي » بشكل مستقل بالنسبة للطب الحديث . والجدير بالذكر ان ملايين من الناس يلجأون اليه وخصوصا في أفريقيا وآسيا حيث تقوم مخابر رسمية (في الهند مثلا) بتحاليل دقيقة بغية تحديد نوعية العناصر الفعالة التي تحتوي عليها الاعشاب . وفعلا ، هذا الطب أصيل ناجح في كثير من الاحيان وفي أمراض معينة (أمراض جلدية ، أمراض الجهاز الهضمي ... الخ) ، شرط أن يتخلص من وجوهه السحرية الخرافية التي تشوبه أحيانا . فلا ريب أن القانون في الطب للشيخ الرئيس ابن سينا يشكل أحد المراجع الاساسية لهذا الطب العلاجي .

نظريات نشوء الطب كما ترد لدى موفق الدين بن أبي أصيبعة

وبعض المؤلفين العرب الآخرين

د٠ أحمد مضر صقال

١ ــ مقدمة :

اذا حاولنا استعراض الطب الحديث ، وتاريخه الحالي ، فاننا سنلاحظ ــ ولا شك ــ كما هائلا من الدراسات التي تفيدنا في معرفة مراحل تطور هذا العلم ، والخطوات المتتالية التي مر بها ليصل الى ما نراه اليوم : من أبحاث حول حقائق الامراض ومظاهرها وعلاجها ، اضافة الى المعلومات المتعلقة بعلوم ترتبط بالطب من قريب أو بعيد ، كالتشريح والغريزة وسواهما من العلوم ٠

ويوضح لنا تاريخ الطب الحديث المعالم الرئيسية ، والخطوط الاساسية التي مرت بها الانسانية ، والجهود المبدعة والشاقة التي أدت الى التطور المستمر ، لنصل الى هذه المحصلة العلمية التي تزداد اتساعاً وشمولا يوما بعد يـــوم ٠

فاذا انتقلنا الى الطب العربي القديم ، ونظرنا من وجهة نظر الطبيب القديم الى علم الطب في عصره ، مشكلا خط وجود عدد كبير نسبيا من المعلومات التي توفرت في القرون الاولى من الحضارة العربية ، ولكننا حين نبحث عـــن المراحل التي أوصلت الى هذا التطور ، فستصادفنا الصعوبات ، وخاصة فيما يتعلق بالبدايات ٠

لقد كان من الطبيعي والمنطقي أن يتساءل المؤلفون العرب القدامى ، الذين كتبوا في ميدان الطب وتاريخه ــ عن بداية هذا العلم : كيف بدأت هذه المعلومات في التكون ، ومن أين حصلوا على هذه المعالجات ، وما الوسائل التي نقلتها اليهم ، وبكلمة واحدة : كيف نشأ علم الطب ؟

واذا كان البحث في تاريخ الطب ، متيسرا لنا في تأريخنا للطب الحديث ، لكثرة الدراسات المتعلقة به ، الا أن الوضع أعقد وأصعب كثيرا بالنسبة للطب القديم ، وخاصة لدى المؤلفين القدامى ، الذين لم تتوفر لهم المعلومات والمراجع الكافية ، التي توجههم في بحثهم ولقد كان ممكنا أن يعرفوا من الذي أضاف بعض العلاجات أو اكتشف بعض الاكتشافات ، ولكن الصعوبة الكبيرة كانت في البحث حول كيفية نشوء علم الطب أصلا ٠

وقد جانب بعض المؤلفين والمؤرخين العرب القدامى ، الحديث في هذا الموضوع فلم يذكروه في كتبهم ، وتطرق اليه آخرون بشكل موجز مختصر ، وتفرد ابن أبي أصيبعة بتفصيله الحديث في هذا الموضوع بشكل واف ومطول ٠

وسنعرض في هذا البحث ، أهم ما استطعنا استخلاصه من الكتب العربية القديمة ٠ التي عرضت لهذا الموضوع ، ثم نخص بالذكر والدراسة ما أورده موفق الدين بن أبي أصيبعة في أول فصول كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » حيث استقصى في كتابه هذا كل ما ذكره السابقون ، ثم كون نظرية خاصة متكاملة ، تفسر نشوء الطب ، وتضع ابن أبي أصيبعة في صف أهم المنظرين لهذا الموضوع في تاريخ الطب العربي ٠

٢ ــ نظريات نشوء الطب لدى المؤلفين السابقين لابن أبي أصيبعة ٠

لقد أغفل بعض المؤرخين ذكر هذا الموضوع ، فلم يذكر البيهقي(١) مثلا شيئا يتعلق به ٠ كما أننا لم نجد ما يمس هذا الموضوع أو يتطرق اليه ، في بعض أهم الكتب الطبية مثل المسائل لحنين بن اسحق ، والحاوي والمنصوري للرازي ، والقانون لابن سينا والموجز في الطب لابن النفيس ، والكفاية في الطب لعلي بن رضوان ، وقاموس الأطباء للقوصوني وسواها من الكتب الهامة ٠

وقد تطرقت بعض الكتب الى هذا الموضوع ، ولكنها لم تصلنا بل وصلنا مقتطفات من هذه الكتب عن طريق كتب أخرى مثل كتاب الألوف لأبي معشر البلخي(٢) ، وتاريخ يحيى النحوي(٣) وتاريخ ثابت بن قرة الحراني(٤) وتاريخ اسحق بن حنين(٥) ٠

وأهم المؤلفين الذين عرضوا لهذا الموضوع :

٢ ــ أ ــ النديم :

بحث النديم في الفن الثالث من المقالة السابقة من كتاب « الفهرست »(٦) بشكل موجز عن نشوء الطب ، فنقل عدة آراء عن تاريخ اسحق بن حنين ، ولكنه لم يرجح أحدها ، وقد ذكر أن الطب نشأ في واحد من البلدان والمناطق الجغرافية أو بين الاقوام التي سكنت في احدى المناطق التالية :

١ ــ أهل مصر ٠

٢ ــ هرمس : استخرج سائر الصنائع والفلسفة ، والطب مما استخرجه

٣ ــ أهل قو ، ويقال قوالوس ٠

٤ ــ السحرة ٠

٥ ــ أهل بابل أو أهل فارس ، أو الهند أو اليمن ، أو الصقالبة ٠

ويكتفي النديم بنقل ذلك ، ثم ينتقل الى ذكر أول من تكلم في الطب فيقول ان أهمهم كما يذكر يحيى النحوي ـ وسقلبيوس الاول ، وغوروس ومنيس ، وبرمانيدس ، وفلاطن الطبيب ، واسقلبيوس الثاني ، وأبقراط ثم جالينوس ٠

ويقول أن التصانيف قبل بقراط لم تصل اليه أو أنها لم تنتقل الى العربية ، ربما لم يكن لهم تصانيف ، وانتقلت تعاليمهم مشافهة ٠

اذن فان الآراء التي نقلها النديم ، وتبناها تشير الى نشوء الطب في منطقة جغرافية محددة أو لدى قوم من الأقوام أو عن طريق طبيب مشهور ، وتدل كلها على أن الطب ـ في نظر النديم ـ نشأ عن طريق الاستنباط والتعليم والاستخلاص من البشر ، لا عن طريق الوحي والالهام كما سنجد عند غيره ٠

٢ ـ ب ـ الطبري :

لا يذكر الطبري هذا الموضوع في بداية كتابه « فردوس الحكمة » ، لكنه يتطرق اليه في الباب الاول من المقالة الرابعة من النوع السابع(٧) حيث ينقل مقتطفات من كتب الهند الطبية ، فترد فيها الاراء التي طرحتها هذه الكتب في موضوع نشوء الطب وبدايته ، ويذكر الطبري رأيين صادفهما في هذه الكتب في الباب الاول الذي سماه : « في علة الطب » :

١ ـ فيقول نقلا عن كتاب جرك : ان الناس كانوا في صحة وسلام ، لأنهم كانوا متحابين متوافقين ، فلما انتشر الحرص والحسد والغضب والتعب ، وسواها من أنواع الهموم والمفاسد والذنوب ، اضطربت طبائع الجسم ، وأصيب الناس بالامراض ، وشغلوا عن عبادة الله ، واستحكم فيهم الجهل ، وعند ذلك طلب العلماء والصلحاء من الناسك « فرسريرا طرى » أن يتضرع الى الله ، لينقذهم ، فغفل طويلا ، وعند ذلك علمه الله الطب ٠

٢ ـ ونقلا عن سيسرد : « يذكر أن علم الطب أخذه دهميطرا عن برهمن وتلقاه برهمن عن الوحي »(٨) ٠

ولا يتحدث الطبري عن الموضوع أكثر مما جاء في الكتابين آنفي الذكر ، ولا يستقصي النواحي الاخرى للموضوع ، وينسب الرأيين اللذين أوردهما تعلم الطب الى وحي من الله ٠

وهكذا تبرز لنا وجهتا نظر في موضوع نشأة الطب أورد النديم أولهما ، ويرى في الطب عملا من أعمال الناس ، استنبطوه ، واستخرجوه وطوروه ، وأورد ثانيهما الطبري ، ويرى في الطب وحيا من الله للبشر ٠ ويمثل هذان القولان وجهتي النظر الرئيسيتين اللتين تعارضتا وتناقضتا مدة طويلة من الزمن ، قبل أن يطرح ابن أبي أصيبعة نظريته الخاصة في هذا الميدان ٠

٢ ـ ج ـ ابن جلجل :

لا يوجد لديه ذكر مباشر لنشأة الطب في كتاب طبقات الاطباء والحكماء ، ولكن يتحدث ابن جلجل عن أوائل الأطباء(٩) فيرد ذكر نشأة الطب من خلال حديثه عنهم . وينقل في كتابه ما ذكره أبو معشر البلخي في كتاب الألوف حيث يقول عن هرمس ـ أو ادريس كما يسمى بالعربية « ٠٠ وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها ، وأول من نظر في الطب وتكلم فيه »(١٠) ٠

ويضيف بعد ذلك فكرة هامة حول كيفية انتقال الطب ، وسواه من العلوم عبر مهمة الأجيال عن طريق النحت والنقوش : « وخاف ذهاب العلم بالطوفان ، فبنى البرابي ، وهو الجبل المعروف بالبربا ، نحته وصور فيه جميع الصناعات، وصنائعها نقشا وصور جميع آلات الصناع وأشار الى صفات العلوم برسوم ، حرصا على تخليد العلوم لمن بعده ، وخيفة أن يذهب رسم ذلك من العالم »(١١)٠

فادريس ـ حسب ما يروي ابن جلجل ـ ابتكر هذه الطريقة لحفظ العلوم ، كيلا تضيع مع ضياع أصحابها ، فانتقلت الى الأجيال التالية ، لتضيف اليها اضافاتها ، ويتطور العلم من البداية التي بدأها ٠

ثم يتحدث عن هرمس الثاني فيقول انه(١٢) حدد من علم الطب والفلسفة وعلم العدد ما كان قد درس بالطوفان ببابل » ٠

ثم يتحدث عن هرمس الثالث : فيقول انه(١٣) « كان بعد الطوفان ، وكان فيلسوفا طبيبا ٠٠ وله تلميذ اسمه أسقلابيوس » ٠

اذن ينسب ابن جلجل ـ نقلا عن أبي معشر البلخي ـ نشوء الطب الى مواهب ومقدرات هرمس الاول الشخصية ، وتحدده بعد الطوفان الى مواهب هرمس الثاني ببابل وهرمس الثالث بمصر وتلاميذهما من بعدهما ٠

٢ ـ د ـ القفطي :

يتحدث الزوزني بايجاز في بداية كتابه(١٤) المختصر عن كتاب القفطي ، عن نشأة الطب وبداياته ، فيذكر اختلاف آراء العلماء في أول من تكلم في الطب ، ويقول ان كل أمة نسبت الطب الى من تكلم فيه عندها ، وان هذه البداية٠هي بدايته عند هذه الامة ، وليس بدايته الفعلية ، وان نشأة الطب كان « نبوة أنزلت على ادريس »(١٤) وكل من ذكرهم العلماء على أنهم الاوائل كانوا من « تلاميذه أو تلاميذ تلاميذه الاقرب فالأقرب »(١٤) ٠

فهو ينسب نشأة الطب الى الوحي والالهام ، ويرجع بدايته الى نبوة أنزلت على ادريس ٠

ويتطرق ثانية وبشكل عابر الى آراء القدماء في هذا الموضوع عند حديثه عن استلبيوس(١٥) فيقول بوجود فرقة تقول بقدم الطب وأخرى بحدوثه ويقسم الاخيرة الى قسمين : أولهما يقول بخلق الطب مع الانسان وثانيهما يقول أن الطب خلق بعد خلق الانسان ٠

ونلاحظ من كل ما ذكر ، أن جل المؤلفين والمؤرخين السابقين لابن أبي أصيبعة أجمعوا ــ أو كادوا ــ على أن بداية الطب كانت على يد شخص بعينه ، كما رجح أكثرهم أنها نزلت عن طريق الوحي من الله ٠

٣ ــ نظريات نشوء الطب لدى ابن أبي أصيبعة في كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » :

نلاحظ عند قراءة كتاب عيون الانباء لابن أبي أصيبعة ــ تطورا في دراسة موضوع نشوء الطب ، فنحن لا نجد في أي من الكتب التي استعرضناها سابقا ، بحثا مستفيضا للموضوع بحد ذاته وانما نجد المؤلفين السابقين قد أجملوا ذكر هذا الموضوع بشكل موجز مختصر في مقدمة كتبهم ، أو في فصل بسيط من فصوله ، أنه عرض بشكل عابر في أدراج حديثهم عن أوائل الاطباء ٠

ولأول مرة في كتب تاريخ الطب نجد مؤلفا أفرد بابا خاصا لدراسة هذا الموضوع ، واستفاض في شرحه ، واستوفى طرح مختلف جوانبه ، مع استقصاء كافة الآراء والافكار التي عرضت له : لقد أفرد ابن أبي أصيبعة الباب الاول من كتابه ، نشأة الطب ، ووضع له عنوانا خاصا به هو « كيفية وجود صناعة الطب وأول حدوثه»(١٦) ٠

ويتبع ابن أبي أصيبعة في كتابته منهجا واضحا وعلميا : فهو ينوه أولا لصعوبة دراسة مثل هذا الموضوع ، ثم يستقصي ذكر آراء القدماء التي وردت عند سابقيه في تفسير كيفية نشوء التطبيب وظهور الطب ، وأخيرا يذكر رأيه الخاص بشكل مجمل وموجز ، ثم يفصل نقاطه المختلفة بشكل موسع موضحا اياها بالامثلة ، معتمدا على الملاحظات العلمية والعملية ٠

وسنلاحظ من عرضنا لهذا الباب وتحليله ودراسته أن ابن أبي أصيبعة قد تفوق في طرحه لهذا الموضوع على سابقيه ، ليس من ناحية الاستيفاء والاستقصاء للاراء المختلفة فحسب ، وانما من ناحية تعميق البحث ، وتطوير النظرة الى كيفية نشوء الطب بحيث أنه كون نظريته الخاصة في المجال المدروس بشكل متكامل ومنطقي ، ومقبول ، ليوضح لنا كيف نشأ الطب ، وكيف تطور في العصور التي لم تسجله ، ليأخذ الشكل الذي وجده هو وسابقوه في عصر أبقراط وجالينوس ، وهو الشكل الذي انتقل الى العرب في عصر نهضتهم ، عصر الحضارة العربية الاسلامية ٠

٣ ـ أ ـ آراء القدماء في نشوء الطب :

ينوه ابن أبي أصيبعة أولا ، باختلاف أقوال القدماء في هذا المجال ، مما يقود للغموض أو الالتباس ، كما يذكر صعوبة دراسة موضوع بعد به العهد ، ومضى زمن طويل على أصحابه ، ولم تصل فيه آراء سابقية الى نتيجة محددة ، متفق عليها ، أو رأي نهائي واضح ومؤكد ، يقطع الشكوك ، ويحسم النقاش ·

ثم يصنف المؤلفين القدامى الذين درسوا هذا الموضوع الى مجموعتين :

١ ـ المجموعة الاولى : تعتقد بقدم الطب : أي أن الطب كان موجودا منذ القدم مثل وجود الطبيعة والانسان ·

٢ ـ المجموعة الثانية : تعتقد بحدوث الطب : أي أن الطب نشأ مع ظهور الانسان أو بعده ·

وتعود أهمية اتباع أحد هذين الرأيين الى ارتباطه بالفلسفة ، وبموقف معتنقي كل رأي من العلم والفكر بشكل عام ، اذ يتبع رأي كل منهما من موقفه الفلسفي ، ومن نظريته في نشأة العلوم لدى الانسان ، وعلاقة الناس بها ، بشكل عام ·

فهذا جالينوس مثلا يقول في تفسير كتاب الايمان لبقراط ـ كما ينقل ابن أبي أصيبعة ـ(١٧) :

« والاولى أن نقول أن الله تبارك وتعالى خلق صناعة الطب ، وألهمها الناس ، وذلك أنه لا يمكن في مثل هذا العلم الجليل أن يدركه عقل الانسان لكن الله تبارك وتعالى ، هو الخالق الذي هو بالحقيقة فقط يمكنه خلقه ، وذلك أنا لا نجد الطب أحسن من الفلسفة ، التي يرون أن استخراجها كان من عند الله تبارك وتعالى » ·

ويفصل ابن أبي أصيبعة بعد ذلك الحديث في ثاني هذين الرأيين ، فيقسم مؤيديه بدورهم الى قسمين :

الاول : يقول ان الطب خلق مع خلق الانسان ·

والثاني : يقول ان الطب حصل بعد ذلك ، وهؤلاء أيضا فريقان :

١ ـ فريق يقول ان الله تعالى ألهمه للناس : ويعد منهم : جالينوس وأبقراط ، وأصحاب القياس ·

وينقسم هؤلاء بدورهم الى فرقتين :

ــ فرقة تقول انه الهام بالرؤيا : حيث يرى بعض الاشخاص في أحلامهم أدوية أو طرق علاج وحين يستعملونها في اليقظة تفيدهم أو تشفيهم من أمراض صعبة ، ثم يعلمونها للناس ٠

ــ وفرقة تقول ان الله ألهمه بالتجربة : أي جاء استعمال العلاج أو الدواء بالصدفة ثم يتعلمه الناس ٠

٢ ــ فريق يقول ان الناس استخرجوه : ويعد منهم أصحاب التجربة وأصحاب الحيل ، وثاسلس المغالط ، وفيلن ٠

وأما من استخرجه من الناس ، فهناك خلاف كبير حوله وأقوال كثيرة متباينة ، وآراء متعددة يوردها كلها كالتالي :

١ ــ في مصر ٠

٢ ــ هرمس ٠

٣ ــ أهل قولوس ٠

٤ ــ أهل موسيا وأفروجيا ٠

٥ ــ حكماء قو ٠

٦ ــ ثلاث جزائر هي رودوس ، وقنيدس وقو ٠

٧ ــ الكلدانيون ٠

٨ ــ السحرة من أهل اليمن ٠

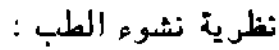
٩ ــ السحرة من أهل بابل أو فارس ٠

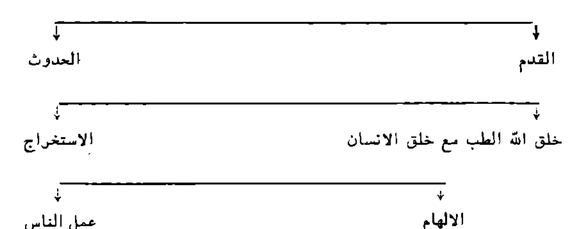
١٠ ــ الهند ٠

١١ ــ أهل أقريطش (كريت) ٠

١٢ ــ أهل طور سينا ٠

وهكذا يستقصي ابن أبي أصيبعة كل الفرق المتعارضة ، وجمع كل الآراء المتواترة ، ويمكن وضع مخطط اجمالي يمثل هذه الفرق المختلفة وآراءها كما يلي :





الرؤيا بالاحلام المصادفة والتجربة

وهؤلاء أقسام كثيرة مع خلافة فيمن أول
هؤلاء (١٢ قولا) (انظر النص)

٣ ـ ب ـ صراع النظريات لدى المؤلفين :

ينقل ابن أبي أصيبعة بعد ذلك رأيين لمؤلفين آخرين :

أولهما : رأي أبي جابر المغربي ، ويرى أن الطب الهام ووحي ٠

وثانيهما : موفق الدين أسعد بن الياس بن المطران : الذي ينتقد الرأي الاول ، ويأخذ بنظرية الاستنباط والاستخراج ٠

وهنا يدور حوار فكري طريف حول هذا الموضوع بين المؤلفين ، وتتطرق مناقشاتهما للنواحي الفلسفية من الموضوع ، مع استنادها للنواحي العملية في نفس الوقت ، لبيان استحالة فكرة أو صحة رأي :

فأبو جابر يقول(١٨) : « ومن البين أن الاشخاص ذوات مبدأ لوقوعها تحت العدد ، فكل معدود فأوله واحد تكثر ، ولا يجوز أن تكون أشخاص الناس الى ما لا نهاية له ، لأن خروج مالا نهاية له الى الفعل محال » ٠

ويعلق ابن المطران على هذه الفكرة قائلا : ليس كل مالا يقدر على حصره فلا نهاية له ، بل قد تكون له نهاية يضعف عن حصرها » ٠

ويتابع أبو جابر كلامه ، بعد أن وضع الفرضية المذكورة ، فيقول : اذا كانت الاشخاص التي لا تقوم هذه الصناعة الا بها ، ذوات مبدأ ضرورة ، فالصناعة ذات مبدأ ضرورة » ٠

ثم يورد حججه المنطقية في أن هذه الصناعة لا يمكن أن تكون من صنع الناس :

١ ـ « من البين أن الشخص الذي هو أول الكثرة ، مفتقر اليها كافتقار سائرهم » ٠

٢ ـ « لا يأتي من أول شخص وجد علم هذه الصناعة استنباطا لقصر عمره وطول الصناعة » ٠

٣ ـ « لا يجوز أن يجتمعوا في مبدأ الكثرة على استنباطها ، من أجل أن الصناعة متقنة محكمة ، وكل أمر متقن لا يستنبط بالاختلاف بل بالاتفاق » ٠

ثم يذكر أنه لا يمكن للكثرة الاتفاق على أمر بهذا الاحكام لأن أشخاصها مختلفون متمايزون غير متساوين ولا متماثلين ٠

وينتقد ابن المطران ثانية كلام أبي جابر فيقول : « هذا يؤدي أيضا في باقي العلوم والصناعات الى أنها الهام ، لأنها ذوات اتقان أيضا ، وقوله ان الاشخاص لا يجوز أن تجتمع على شيء متقن ليس بشيء ، بل اجتماعيا لا يكون الا على أمر متقن ، وانما الاختلاف يقع مع عدم الاتقان » ٠

ويكمل أبو جابر حججه حيث يستطيع انسان واحد ، أو كثرة من الناس دفعة واحدة معرفة هذا الكم الهائل من المعلومات المتعلقة بمختلف نواحي الطب٠

ويجيب « فان سهل ذلك وهونه كذب ، وان صعب أمره في علمه من جهة المعرفة ، قلنا استنباطه ممتنع » ٠

وهكذا يصل أبو جابر الى النتيجة التي أوردها أولا ، وأراد اثباتها عن طريق نفي النتائج الاخرى ٠ أي : الطب بدأ اما بالاستنباط او بالالهام والوحي ٠

ولما كان الاستنباط غير وارد ، وفقا للحجج التي أوردها ـ فلم يبق سوى طريقة واحدة هي الوحي والالهام ٠ فابن جابر يلجأ الى اثبات نظريته ببرهان رياضي : يضع الفرضيات والحلول ، ثم يتوصل الى نفي أحد الحلين وفقا لفرضياته ، فيبقى الحل الثاني ٠

أما ابن المطران ، فبعد أن ينتقد كلام أبي جابر يطرح نظرية بديلة لنظرية الوحي التي دافع عنها أبو جابر ۰ فكيف نشأت صناعة الطب حسب رأي ابن المطران ؟ ۰

انه يقول : « لكن تبعيد حصول هذه الصناعة باستنباط العقول خطأ ، وتضعيف العقول التي استنبطت أجل من صناعة الطب » ۰ اذن فهو يؤيد النظرية الثانية : الاستنباط ، وهو يلجأ الى الفكر العملي ، ليفسر بطريقة أخرى نشوء الطب ، فيضرب عدة أمثلة لمرضى تصادف شفاؤهم نتيجة :

رعاف مثلا (ومن ذلك تعلم الانسان أن يفصد نفسه للعلاج ، وأصبح الفصد تدريجيا من الاسس العلاجية في الطب) ۰

أو اسهال أو اقياء (ومن ذلك استعمل هاتين الطريقتين للعلاج ، واكتشف الادوية التي لها هاتين الخاصتين صدفة ثم طورها) ۰

وهو يعطي أمثلة أخرى ويوضح فائدتها بنفس الطريقة ۰

ويقول ان صناعة الطب تطورت بعد ذلك حيث أكمل كل جيل ما وصله من سابقه « واذا غلط متقدم سدد متأخر ، واذا قصر قديم تمم محدث ، هكذا في جميع الصناعات ، كذا الغالب في ظني » ۰

ثم تجيء مرحلة أخرى هي مرحلة التفتيش والبحث « والعالم الفطن ، يقدر على علم كيفية استخراج شيء من المعلومات اذا نظر فيه على قياسنا الذي وضعناه له » ۰

وهكذا ينقل لنا ابن أبي أصيبعة النظريتين المتناقضتين وصراع الافكار لدى أبي جابر وابن المطران ، والحوار الذي دار بين أفكارهما ، وما طرح كل منهما من الحجج ليصل الى اثبات صحة نظريته ۰

٣ ـ جـ ـ نظرية ابن أبي أصيبعة في نشوء الطب(١٩) :

استقصى ابن أبي أصيبعة ـ كما لاحظنا ـ الآراء المختلفة في هذا الموضوع، شأنه في ذلك شأن المؤرخ المطلع ، فوضح الخلافات والمناقضات التي أوردها علماء مؤيدون لهذه النظرية أو تلك ، وسرد المناقشات التي دارت حول هذا الرأي أو ذاك ، ولكنه لم يكتف بهذا المقدار من البحث والدرس ، وانما وضع نظريته الخاصة في نشوء الطب ۰

وتعتبر نظرية ابن أبي أصيبعة ، تكاملا بين بعض نواحي وجهتي النظر المختلفتين ، ولقاء بين بعض جوانب النظريتين المتصارعتين اللتين مر ذكرهما ، وهي في الوقت نفسه استقصاء أشمل للموضوع من مختلف جوانبه واحتمالاته ، وسعي للوصول الى كل ما يمكن الوصول اليه من الحقائق في هذا المجال :

يمهد ابن أبي أصيبعة لكلامه بمقدمة يقول فيها : انه لا يبعد أن يتفوق قوم على قوم في المعرفة الطبية نتيجة ظروف حياتهم وبيئتهم ، كما يمكن أن تتوفر هذه المعرفة لدى أشخاص متميزين عن غيرهم بتمام رأيهم ، وقوة حنكتهم ، وسداد تمييزهم فيجتمع عندهم مع الزمن كثير من صناعة الطب ٠

ثم ينتقل الى طرح نظريته ، فيتحدث أولا عن البداية التي نشأ منها الطب وهو يرى بوجود عدة مصادر عملت في نفس الوقت ، وبشكل متضافر على ظهور هذا العلم ، ويفصل الحديث في كل مصدر منها بفصل خاص حيث يستقصي الافكار المتعلقة به ، ويوضح أبعاده ، ويمثل له أمثلة ، ويروي حوادث تؤيد وجوده وتأثيره ، وفائدته ٠

ويتحدث بعد ذلك عن الخطوات التي تلت البداية : فيوضح كيف تطورت المعرفة الطبية من هذه البدايات ، وكيف أخذت شكل علم متكامل له قوانينه ، وأسسه الخاصة ، كما وصل الى عصره ٠

١ ــ البداية :

وهي ناجمة ــ في رأي ابن أبي أصيبعة عن عوامل عدة ومصادر مختلفة ، ساهم كل منها بدوره في رفد المعرفة الطبية ، فكمل بعضها بعضا ، ليظهر علم الطب الى الوجود ، وهي :

١ ــ عن الانبياء والاصفياء :

حيث وصلتهم المعرفة بالتأييد الالهي : ويستقصي كل من ورد عنه شيء يتعلق بهذا العلم :

سليمان بن داود عليهما السلام (حديث شريف)

وموسى عليه السلام (عن اليهود)

وكهان وصلحاء الصابئة (عن الصابئة)

أو شيت وراثة عن آدم عليه السلام (عن الصابئة)

أو زارادشت (عن المجوس)

أو هرمس الهرامسة المثلث بالحكمة (عن نبط العراق والسودانيين والكلدانيين والكسدانيين وغيرهم من النبط القديم)

أو يو قال بن لامخ بن متوشالخ (عن بعض علماء الاسرائيلين)

ويتطرق هنا الى فكرة هامة هي انتقال هذه العلوم من الفرس الى اليونان في زمن الاسكندر وانتقالها من الهند الى اليونان ·

٢ ـ الرؤيا الصادقة :

أي في الاحلام : ويورد عدة أمثلة وقصص وردت في كتب مشهورة توضح هذا وتؤيده ، بنقل بعضها عن جالينوس ، وبعضها عن أريباسيوس ، ومنها ما ورد نقلا عن أحد خلفاء المغرب ، وغيرها عن علي بن رضوان ، أو عبد الله بن زهر ·

وربما كانت هذه الاحلام ، مرتبطة بالعقل الباطن للطبيب الذي يفكر بشكل مستمر في حل معضلة طبّية معينة ، ولكننا لا نريد هنا أن نبحث في تفسير هذه الظاهرة أو صحتها ، فليس هذا مجاله ·

٣ ـ الاتفاق والمصادفة :

ويورد هنا عدة أمثلة ، عن قصص ذكرها الاطباء القدامى ، وتدور حول مصادفات مرت بهم أو بمن حولهم ، وأدت الى كشف علاج أو معرفة دواء ، أو حل معضلة طبية ، فينقل عن أندرو ماخس ثلاث مصادفات أدت الى كشف فائدة لحوم الافاعي في الترياق (على ما كانوا يعتقدون) ، كما ينقل حادثة حصلت لمريض بالبصرة ، وقصة حالة أخرى مرت بافلوللن وهو طبيب من سلالـــة أسقلبيوس ، وأدت كلها الى كشوف طبية ·

٤ ـ المعرفة من ملاحظة الحيوانات والاقتداء بأفعالها :

وينقل على الرازي في كتابه (الخواص) عدة أمثلة عما تفعله بعض الحيوانات في حال مرض أحد أبنائها أو مرضها ، أو أثناء التغيرات التي تطرأ على حياتها ، كما ينقل أحد الامثلة المشابهة عن جالينوس · وربما جرب الناس الاستفادة مما شاهدوه لدى هذه الحيوانات ، فقادهم الى اكتشاف بعض المعالجات ·

٥ ـ الالهـــــام :

وتسمى اليوم الفطرة أو الغريزة · ويورد ابن أبي أصيبعة أمثلة عــن الغريزة لدى الحيوانات وكيف تقودها نحو المرعى الصالح ، وتبعدها عن

المراعي المؤذية ، ويقول بعد ايراد عدة أمثلة عن الغريزة الحيوانية(٢٠) : فاذا كانت الحيوانات التي لا عقول لها ألهمت مصالحها ومنافعها كان الانسان العاقل المميز ، المكلف ، الذي هو أفضل الحيوان أولى بذلك ، وهذا أكبر حجة لمن يعتقد أن الطب انما هو الهام من الله سبحانه لخلقه » ٠

٢ ــ الاستمرار : ويتم بعدة مراحل كما يذكر ابن أبي أصيبعة :

١ ــ تتضافر البدايات : عن طريق الاتفاق والمصادفة ، والالهام وسواها ويضاف اليها ما يحصل بالتجربة ٠

٢ ــ ثم تتكاثر المعلومات ، وتزداد ، بالقياس حسب مشاهدات العلماء ، وبما تقودهم اليه فطرتهم ٠

٣ ــ بعد اجتماع كم كبير من المعلومات ، يتأمل الناس خاصة العلماء ــ هذه المعلومات ليكشفوا جوهر أسبابها ، والعلاقات الموجودة بها ، والروابط المشتركة بينها ، وبذلك يبدأ العلم بالتكون ، وتظهر القوانين العامة التي تنظم سلك هذه المعلومات ضمن نهج واضح ، وخط ثابت ٠

٤ ــ تصبح هذه القوانين والمعلومات هي الاساس في دراسة هذه العلوم « وتحصل لهم من ذلك قوانين كلية ، منها يبدأ بالتعلم والتعليم ، والى ما أدركوه منها أولا ينتهي »(٢٠) ٠

وبهذا تكتمل سلسلة الحلقات في تكون العلم : فمن طريق الملاحظة ثم الاستقراء والاستنتاج والقياس يستخلص العلماء القوانين العامة الشاملة وعندها يصبح منطلق تعليم هذه العلوم هذه القوانين العامة ، ومنها ينتقل المتعلم الى الجزئيات التي كانت هي الاصل ٠

وأخيرا يختم ابن أبي أصيبعة نظريته هذه ، ويتطرق للاسباب التي جعلت كل قوم ينسبون بدء الطب الى شخص منهم ، فيوضح مقولة هامة هي تسلسل وتكامل حلقات العلم ، وانتقال الدراسات ونتائجها من قوم لقوم ، ومن أمة لأمة ، فنحن انما نشاهد المحصلة الاجمالية لهذه الخطوات ، ولا نشاهد الخطوات نفسها ، وربما اندثر قوم أو زالت أمة وانقرضت ، لكن ما نقل عنها من العلوم قد يبقى ، فتتضارب بذلك الآراء والاقوال ، وينشأ الاختلاف الذي لاحظناه في هذا المجال ٠

٤ ـ الخاتمـــة :

وأخيرا لا يسعنا الا أن نحيي هذا العالم والمؤرخ الثقة الذي ترك لنا هذه الدراسة الطريفة والمستقصية والمعمقة في نشأة الطب وبدايته ، والذي لم يكتف باستقصاء آراء سابقية ، شأن المؤرخ الدقيق ، وانما أضاف الى هذه الآراء كلها رأيه الشخصي ، فوضع لنا نظريته الخاصة في نشوء الطب معتمدا على المعلومات المتوفرة لديه مع استخدام المنطق العلمي والعملي في بناء هــذه النظرية مما يدعونا للاعجاب الشديد به ، كمؤرخ ذي نظرة مميزة في تاريخ الطب ، وذي نظرية متفردة في كيفية نشوئه ٠

الهوامـــــــش

(١) البيهقي : ١٢ ـ ١٤

(٢) ابن أبي أصيبعة : ٢٩ وابن جلجل : ٥

(٣) النديم : ٣٤٦ وابن أبي أصيبعة

(٤) ابن أبي أصيبعة : ٣٣

(٥) الفهرست : ٣٤٥

(٦) الفهرست : ٣٤٥ ـ ٣٤٦

(٧) فردوس الحكمة : ٥٥٧ ـ ٥٥٨

(٨) فردوس الحكمة : ٥٥٨

(٩) ابن جلجل : ٥ ـ ١٥

(١٠) ابن جلجل : ٥ ـ ٦

(١١) ابن جلجل : ٦

(١٢) ابن جلجل : ٩

(١٣) ابن جلجل : ١٠

(١٤) الزوزني : ١

(١٥) الزوزني : ١١

(١٦) ابن أبي أصيبعة : ١١ ـ ٢٧

(١٧) ابن أبي أصيبعة : ١٣

(١٨) ابن أبي أصيبعة : ١٣ ـ ١٥

(١٩) ابن أبي أصيبعة : ١٧ ـ ٢٧

(٢٠) ابن أبي أصيبعة : ٢٧

المراجـــــــــع

١ ـ ابن أبي أصيبعة :

عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تأليف أحمد بن قاسم بن خليفة السعدي المعروف بابن أبي أصيبعة شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا ـ منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٦٥ ٠

٢ ـ ابن جلجل :

طبقات الأطباء والحكماء تأليف سليمان بن حسان الاندلسي المعروف بابن جلجل تحقيق فؤاد سيد ـ مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للاثار الشرقية بالقاهرة ـ ١٩٥٥ م

٣ ـ البيهقي :

تاريخ حكماء الاسلام تأليف ظهير الدين البيهقي ، عني بنشره وتحقيقه محمد كرد علي مطبعة الترقي بدمشق ، ١٣٦٥ هـ (١٩٤٦ م) ٠

٤ ـ الزوزني :

تاريخ الحكماء : وهو مختصر الزوزني المسمى المنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي ، مصور بالاوفست من مطبعة لا يبزغ ١٩٠٣ م تحقيق : جوليوس ليبرت ٠

٥ ـ الطبري :

كتاب فردوس الحكمة في الطب ، تأليف علي بن سهل بن الطبري ، نسخ وتصحيح الدكتور محمد زبير الصديقي وطبع في مطبعة آفتاب ببرلين سنة ١٩٢٨ م ٠

٦ ـ النديم :

الفهرست للنديم محمد بن أبي يعقوب اسحق المعروف بالوراق ـ تحقيق رضا تجدد (لا يوجد تاريخ أو مكان الطبع ، ولكن تاريخ كتابة المقدمة ١٩٧١ م) ٠

ما ورد عن طب الجلد في كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء

لابن أبي أصيبعة

د٠ توفيق حنا بشور

هو موفق الدين أبو العباس أحمد بن قاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة ٠ ولد في دمشق عام /٦٠٠ هـ/ ، ودرس الطب على مشهوري أطبائها ، وسافر الى القاهرة والتحق بالبيمارستان الناصري ، وأخذ يعمل على تحصيل العلم فاشتهر بذكائه وحسن مداواته لامراض العيون فالحق بخدمة الدولة ، وبعد أن اشتهر استدعاه أمير صلخد عز الدين فرحل اليه وقضى القسم الاكبر من عمره في خدمته وتوفي في صلخد عام /٦٦٨ هـ/ ٠

ان مصدرنا الرئيسي لدراسة حياة ومؤلفات الاطباء العرب في العصر الاسلامي هو كتب التراجم وفي التاريخ العربي ظهرت عدة كتب حوت الكثير من التراجم ككتاب تاريخ الاطباء والحكماء لاسحق بن حنين الترجمان في القرن الثالث الهجري وأعتقد انه أول كتاب عربي عن تراجم الاطباء ، وفي القرن الرابع الهجري وضع ابن النديم كتابه الفهرست في نفس الوقت الذي ألف فيه ابن جلجل كتابه طبقات الاطباء الحكماء تقريبا ٠ لكن هذا الاخير كما هو واضح كان كتابا متخصصا في حين أن الاول كتاب عام في التراجم ٠ وجاء في القرن السادس والسابع ثلاثة كتاب كبار وضعوا ثلاثة مؤلفات هامة وهم الوزير جمال الدين القفطي وألف كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، والقاضي شمس المدين بن خلكان وألف كتاب وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان، وثالثهم وأعظمهم ابن أبي أصيبعة الذي توج جهود المؤلفين العرب بكتابه الذائع الصيت عيون الانباء الذي كتبه في القرن السابع الهجري وقدمه لامين الدولة وزير الملك الصالح ٠

وسنتصفح معا هذا الكتاب القيم ، وسأتوقف لاذكر لكم بعض الحالات التي أوردها ابن أبي أصيبعة في سياق حديثه عن بعض الاطباء والتي ذكر فيها تدبيرهم لبعض الامراض الجلدية ، كما سأذكر لكم أسماء الكتب التي ألفها بعض أصحاب التراجم وأوردها ابن أبي أصيبعة وتتحدث عن طب الجـــلد ٠

فعندما يتحدث عن طبقات الاطباء اليونانيين الذين أذاع أبقراط فيهم صناعة الطب ، يذكر كتب أبقراط مشيرا أن له كتابا هاما في البثور ، ومقالة في الاورام الصلبة ، ومقالة في علة (ديونوسوس) وهو القيح ، ومقالة في شرى المماليك ويذكر أيضا من خلال ترجمة أبقراط ، الاطباء بين أبقراط وجالينوس ومنهم أقريطن الملقب بالمزين وهو صاحب كتاب الزينة وأعتقد أن مجرد افراد كتاب عن الزينة في ذلك الوقت يشير الى مدى اهتمام الاطباء في ذاك العهد بالامراض الجلدية وبصحة الجلد • وعندما يتحدث عن جالينوس معددا مقالاته يورد من بينها مقالة في الاورام وسماها جالينوس أصناف الغلظ الخارج الطبيعة ووصف في هذه المقالة جميع أصناف الاورام ودلائلها ، ومقالة في الاسباب البادية وهي الاورام التي تحدث من خارج البدن يبين في هذه المقالة أن للاسباب البادية عملا في البدن ونقض قول من دفع عملها وعندما يتحدث عن كتاب جالينوس (تركيب الادوية) يورد مثالا عن الادوية التي تبني اللحم في القروح والادوية التي تدمل ، ومن كتبه أيضا تفسير كتاب القروح لابقراط الذي سبق ذكره وجعله في مقالة واحدة ، ومن مقالاته أيضا مقالة في اليرقان ومقالة في القوباء •

وعندما يحدثنا ابن أبي أصيبعة عن طبقات الاطباء السريانيين الذين كانوا في بدء ظهور دولة بني العباس ، ومن خلال ترجمته ليوحنا بن ماسويه يورد هذه الحادثة على لسان يوسف بن ابراهيم ، قال يوسف : وشكا اليه رجل بحضرته جربا قد أضر به فأمره بفصد الاكحل من يده اليمنى فأعلمه أنه قد فعل فأمره بفصد الاكحل أيضا من يده اليسرى فأعلمه أنه قد فعل ، فأمره بشرب المطبوخ فقال قد فعلت ، فأمره بشرب الاصمخيقون فأعلمه أنه قد فعل ، فأمره بشرب ماء الجبن أسبوعا وشرب مخيض البقر أسبوعين فأعلمه أنه فعل فقال له لم يبق شيء مما أمر به المتطببون الا وقد ذكرت أنك فعلته وبقي شيء مما لم يذكره أبقراط ولا جالينوس وقد رأيناه يعمل على التجربة كثيرا فاستعمله فاني أرجو أن ينجح علاجك ان شاء الله فسأله ما هو فقال : ابتع زوجي قراطيس وقطعهما رقاعا صغارا واكتب في كل رقعة رحم الله من دعا لمبتل بالعافية وألق نصفها في المسجد الشرقي بمدينة السلام والنصف الآخر في المسجد الغربي وفرقها بالمجالس يوم الجمعة فاني أرجو أن ينفعك الله بالدعاء اذا لم ينفعك العلاج •• وقال يوسف أيضا وشكا بحضرتي الى يوحنا رجل من التجار جربا به في أيام الشتاء فقال ليست هذه من أيام علاج ما تجد وانما علاج دائك هذا في أيام الربيع فابتعد عن أكل المعفنات كلها وطري السمك ومالحه صغار ذلك وكباره وكل حريف من الابذار والبقول وما يخرج من الضرع فقال له الرجل هذه أشياء لست أعطي صبرا على تركها فقال له يوحنا فان كان الامر على ما ذكرت فأدمن أكلها وحك بدنك فلو نزل المسيح لك خاصة لما انتفعت بدعائه لما تصف به نفسك من الشره •

وعندما يعدد ابن أبي أصيبعة كتب يوحنا يقول : له كتاب في الجذام لم يسبقه أحد الى مثله • وعندما يحدثنا عن حنين بن اسحق معددا كتبه يذكر أن له كتابا في الزينة •

ثم ينتقل لذكر طبقات الاطباء العراقيين وأطباء الجزيرة وديار بكر ، فيحدثنا عن يعقوب بن اسحق الكندي ذاكرا من بين رسائله رسالة في علة الجذام وأشفيته ، ورسالة في العطر وأنواعه ورسالة في كيمياء العطر ، وعن أحمد بن الخطيب السرخسي وهو من تلاميذ الكندي يقول ان له مقالة في البهق والنمش والكلف • ولابي الحسن ثابت بن قرة الحراني كتاب في البياض الذي يظهر في البدن ، ورسالة في الجدري والحصبة ، ومقالة في الصفرة العارضة في البدن معددا أصنافها وأسبابها وعلاجها • ولابراهيم بن بكس مقالة في الجدري ، ولاحمد بن أبي الاشعث كتاب في الجدري والحصبة والحميقاء وهذا الكتاب مقالتان وله أيضا كتاب في البرص والبهق ومداواتهما وهو مقالتان أيضا • ثم يحدثنا عن أمين الدولة بن التلميذ يقول : حدثني أبو الفرج بن توما وأبو الفرج المسيحي قالا : كان الاجل أمين الدولة بن التلميذ جالسا ونحن بين يديه اذ استأذنت عليه امرأة ومعها صبي صغير فأدخلت عليه فحين رآها بدرها فقال : ان صبيك هذا به حرقة البول وهو يبول الرمل فقالت نعم ، قال فليستعمل كذا وكذا وانصرفت • قال فسألناه عن العلامة الدالة على أن به ذلك ، وأنه لو أن الآفة في الكبد أو الطحال لكان اللون من الاستدلال مطابقا • فقال حين دخل رأيته يولع باحليله ويحكه ووجدت أنامل يديه مشققة قاحلة فعلمت أن الحكة لاجل الرمل وأن تلك المادة الحادة الموجبة للحكة والحركة ربما لامست أنامله عند ولوعه بالقضيب فتقحل وتتشقق فحكمت بذلك وكان موافقا • ويذكر عن أوحد الزمان أبو البركات هبة الله ابن علي ملكا البلدي قائلا حدثني أبو الفضل تلميذ أبي البركات المعروف بأوحد الزمان قال : كنا في خدمة أوحد الزمان في معسكر السلطان ، ففي يوم جاءه رجل به داحس الا أن الورم كان ناقصا وكان يسيل منه صديد • قال فحين رأى ذلك أوحد الزمان بادر الى سلامية أصبعه فقطعها ، قال : فقلنا له يا سيدنا لقد أجحفت في المداواة وكان يغنيك أن تداويه بما يداوي به غيرك وتبقي عليه أصبعه ولمناه وهو لا ينطق بحرف • قال : ومضى ذلك اليوم وجاء في اليوم الثاني رجل آخر مثل ذلك سواء فأوصى الينا بمداواته وقال فعلوا في هذا ما ترونه صوابا قال : فداويناه بما يداوي به الداحس فاتسع المكان وذهب الظفر وتعدى الامر الى ذهاب السلامية الاولى من سلاميات الاصبع وما تركنا دواء الا وداويناه به ولا علاجا الا وعالجناه ولا لطوخا الا ولطخناه ولا مسهلا الا وسقيناه ومع ذلك يزيد ويأكل الاصبع أسرع أكل وآل أمره الى القطع فعلمنا أن فوق كل ذي علم عليم • قال : وفشا هذا المرض في تلك السنة وغفل جماعة منهم عن القطع فتأذى أمر بعضهم الى اليد ، وبعضهم الى هلاك أنفسهم •

وفي طبقات الاطباء الذين ظهروا في بلاد العجم يحدثنا عن أبي بكر محمد ابن زكريا الرازي وعند تعداد ما كتبه يذكر مقالته الشهيرة في الجدري والحصبة ، وعندما يحدثنا عن كتابه المنصوري معددا مقالاته ومواضيعها فيذكر أن المقالة الخامسة هي في الزينة والمقالة السابعة جمل وجوامع في صناعة الجبر والجراحات والقروح • ويذكر مقالة هامة في العلة التي من أجلها يعرض الزكام لابي زيد البلخي في فصل الربيع عند شمه الورد • واعتقد أن هذه الملاحظة هي من أولى الاشارات الى التحسس الناجم عن غبار الطلع ، ومن مقالاته أيضا بحسب ابن أبي أصيبعة مقالة في البهق والبرص وكتاب في الزينة ومقالة في البواسير والشقق في المقعدة ورسالة الى الوزير أبي الحسن علي بن عيسى بن داؤد بن الجـراح القنائي في الاعلال الحادثة على ظاهر الجسد ، ثم يحدثنا ابن أبي أصيبعة عن طبيب لامع كان يقضم الشعر ومن أبياته في مدح داء الجرب أذكر هذين البيتين :

يهيـج مسرتي جرب بكفي   اذا ما عد في الكرب العظام

تجنبني اللئـام لذاك حتى   كفيت بـه مصافحة اللئام

وعن أبي سهل المسيحي يذكر أن له مقالة في الجدري •• أما ابن مندويه الاصفهاني فيورد أن له رسالة الى أبي الحسن بن دليل في علاج الحكة العارضة للمشيخة وهي ملاحظة هامة حول الحكة الشيخوخية ، وله أيضا رسالة الى ابنه في علاج بثور خرجت بجسده بماء الجبن وهو صغير •

أما عند الحديث في طبقات الاطباء الذين ظهروا في بلاد المغرب وأقاموا بها فيقول ان لابن الجزار مقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه ، ويروى عن محمد بن فتح طملون قائلا : قال ابن جلجل حدثني أبو الاصبغ بن حوى قال : كنت عند الوزير عبد الله بن بدر وقد عرض لابنه محمد قرح شمل بدنه وبين يديه جماعة من الاطباء فيهم طملون ، فتكلم كل واحد منهم في تلك القروح ، وطملون ساكت ، فقال له الوزير ما عندك في هذا فاني أراك ساكتا ، فقال عندي مرهم ينفع هذه القروح من يومه فمال الى كلامه وأمره باحضار المرهم فأحضره وطلى على القروح فجفت من ليلتها فوصله عبد الله بن بدر بخمسين دينارا وانصرف الاطباء دونه بغير شيء •

وعن سليمان أبي بكر بن تاج يقول : أدركه في آخر أيامه مرض القروح في احليله فلم يمكنه دواؤه ، واعتقد أنه قد يكون اشارة الى بعض الامراض التناسلية •

وعندما يحدثنا عن أبي مروان بن زهر قال : وكان أبو مروان بن زهر كثيرا ما يأكل التين ويميل اليه وكان الطبيب المعروف بالفار لا يفتذي منه بشيء وان أخذ منه شيئا فيكون واحدة في السنة وكان يقول لابي مروان انه لابد أن تعرض لك نغلة صعبة لمداومتك أكل التين والنغلة هي الدبيلة بلغتهم وكان أبو مروان يقول له لا بد لكثرة حميتك وكونك لم تأكل شيئا من التين أن يصيبك الشناج ، قال فلم يمت المعروف بالفار الا بعلة التشنج وكذلك أيضا عرض لابي مروان بن زهر دبيلة في جنبه وتوفي بها وهذا من أبلغ ما يكون من تقدمة الانذار ، قال ولما عرض لابي مروان هذه العلة كان يعالجها ويضع لها مراهم وأدوية ولم تؤثر نفعا يعتد به فكان يقول له ابنه أبو بكر يا أبي لو غيرت هذا الدواء بالدواء الفلاني ولو زدت من هذا الدواء أو استعملت دواء كذا وكذا فكان يقول له : يا بني اذا أراد الله تغيير هذه البنية فانه لا يقدر لي أن استعمل من الادوية الا ما يتم به مشيئته وارادته • وأرى من الوصف السابق أن ابن زهر كان مصابا بالداء السكري وما هذه الدبيلة المعندة على العلاج الا من اختلاطات هذا الداء •

ولابن زهر كتاب في الزينة ورسالة كتبها الى بعض الاطباء باشبيليا في علتي البرص والبهق •

ومن طبقات الاطباء المشهورين من أطباء ديار مصر يحدثنا ابن أبي أصيبعة عن طبيب يدعى الحقير النافع فيقول : وكان طبيبا جرائحيا حسن المعالجة ومن ظريف أمره أنه كان يرتزق بصناعة مداواة الجراح وهو في غاية الخمول ، واتفق أن عرض لرجل الحاكم عقر أزمن ولم يبرأ وكان ابن مقشر طبيب الحاكم والحظي عنده وغيره من أطباء الخاص المشاركين لـــه يتولون علاجه فلا يؤثر ذلك الا شرا في العقر ، فأحضر له هذا اليهودي المذكور فلما رآه طرح عليه دواء يابسا فنشفه وشفاه في ثلاثة أيام فاطلق له ألف دينار وخلع عليه ولقبه بالحقير النافع وجعله من أطباء الخاص • وعن علي بن رضوان يقول : ان له رسالة في علاج الجذام ، ورسالة في أجوبة مسائل سأل عنها الشيخ أبو الطيب أزهر بن النعمان في الاورام ورسالة في علاج صبي أصابه المرض المسمى بداء الفيل وداء الاسد ،•وله مقالة في الاورام • وعن مبارك بن سلامة بن رحمون يقول : ان له مقالة في الجمرة المسماة بالشقفة والخزفة • ووجدت في احدى المجموعات في المكتبة الظاهرية في دمشق رسالة حول الشقفة منسوبة لابي النصر عدنان بن نصر بن العينزربي (رقم المخطوط ٥٠٦٤) •

وعن أبي سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانة يقول : انه أثناء نزول الفرنج على ثغر دمياط أعجب الملك مارا بأبي سليمان فطلبه من الخليفة ونقله مع عائلته الى بيت المقدس حيث ركب أبو سليمان الترياق الفاروق لمعالجة ابن الملك مارا الذي كان مصابا بالجذام •

ومن طبقات الاطباء المشهورين في بلاد الشام يحدثنا عن أبي الفرج اليبرودي قائلا : جاء أبا الفرج اليبرودي رجل فقال : يا سيدي كنت في ساعتي هذه في الحمام وحلقت رأسي وأجد الآن في وجهي كله انتفاخا وحرارة عظيمة ، قال : فنظرنا الى وجهه فوجدناه يربو وينتفخ وتزيد حمرته بغير توقف ولا تدريج ، قال : فأمره أن يكشف رأسه ويلقي به الماء الجاري من قناة كانت بين يديه وكان الزمان اذ ذاك صميم الشتاء وغاية البرد ثم لم يزل واقفا حتى بلغ ما أراد مما أمر به ، ثم أمر الرجل بالانصراف وأشار عليه بالاوفق له وهو تلطيف التدبير واستعمال النقوع الحامض مبردا وقطع الزفر • قال : فامتنع أن يحدث له شرى ما • وهذه الحالة أراها تتناسب مع هجمة شروية حادة بسبب حرارة الحمام أو ما يعرف حاليا بشرى الحرور •

وعن موفق الدين بن المطران يقول : ومما حدثني شيخنا مهذب الدين عنه فيما يتعلق بمعالجاته قال : كان أسد الدين صاحب حمص قد طلب ابن المطران فتوجه اليه وكنت معه فبينما نحن في بعض الطريق واذا رجل مجذوم استقبله وقد قوي به المرض حتى تغيرت خلقته وتشوهت صورته فاستوصف منه ما يتناوله وما يتداوى به فبقي كالمتبرم من رؤيته وقال له : كل لحوم الافاعي ، فعاوده في المسألة فقال : كل لحوم الافاعي فانك تبرأ • قال ومضينا الى حمص وعالج المريض الذي راح بسببه الى أن تماثل وصلح ورجعنا فلما كنا في الطريق واذا بشاب حسن الصورة كامل الصحة قد سلم علينا وقبل يده فلم نعرفه وقال له من أنت ، فعرفه بنفسه وأنه صاحب المرض الذي شكاه اليه وأنه لما استعمل ما وصفه له صلح به من غير أن يحتاج معه الى دواء آخر فتعجبنا من ذلك في كمال برئه وودعنا وانصرف •

وعن الصاحب أمين الدولة يحدثنا مفصلا كتابه النهج الواضح في الطب ويقول :

انه ينقسم الى كتب خمسة ، الكتاب الرابع في تدبير الاصحاء وعلاج الامراض الظاهرة وأسبابها وعلائمها وما يحتاج اليه من عمل اليد فيها في أكثر المواضع ، ويذكر فيه أيضا تدبير الزينة وتدبير السموم •

هذا ما وجدته في كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء من ذكر للكتب التي تحدث مؤلفوها عن طب الجلد ، وسرد لبعض الحالات الجلدية وتدبير الاطباء لها •

ورغم الطابع الروائي وبعض شطحات الخيال وبعض الاخطاء التاريخية التي يصادفها القارىء ، يبقى كتاب ابن أبي أصيبعة أكبر قاموس لتاريخ الطب الاسلامي لا يستغني عنه كل من يفكر في دراسة هذا التاريخ ، وان لم

يكن لابن أبي أصيبعة أي فضل الا أنه حفظ لنا أسماء الكثير من مؤلفات أطبائنا العظماء والتي ضاعت غالبيتها ، وما كنا لنعرف عنها شيئا لولا هذا الكتاب العظيم ٠

وأرى أن عز الدين بن السويدي كان صادقا تماما في مدحه لابن أبي أصيبعة لما ألف كتاب عيون الانباء في طبقات الاطباء حين قال :

موفق الـدين بلغت المـنى ونلت أعلى الرتب الفاخرة

جملت فيالتاريخ من قد مضى وان غـدت أعظمه ناخرة

فخصـــك الله باحسانـــه في هذه الدنيا وفي الآخرة

الدكتور حنا توفيق بشور

من الزهراوي الى ابن زهــر

الصيدلاني محمد يحيى خراط

دبلوم دراسات عليا في تاريخ العلوم

في الخامس من رجب من العام الثاني والتسعين للهجرة الموافق للثاني والعشرين من شهر نيسان عام أحد عشر وسبعمائة ميلادي ، أنتقل سبعة آلاف من المسلمين من عدوة المغرب الى عدوة الاندلس بقيادة طارق بن زياد أحد قادة موسى بن نصير والي افريقية والمغرب ، ونزلوا عند نقطة في أقصى الجنوب من جزيرة الاندلس وهي تعرف الآن بجبل طارق ، ومن هناك ابتدأوا بالزحف شمالا ، فاتحين المدينة تلو الاخرى ، الى أن وصلت جيوش المسلمين في عام خمسة وتسعين للهجرة الى سرقسطة الواقعة الى أقصى الشمال الشرقي من بلاد الاندلس وفي عام ستة وتسعين للهجرة وصلت الى برشلونة أبعد مدينة أندلسية على ساحل البحر الابيض المتوسط ٠

لقد كان فتح الاندلس خطوة هامة في مسيرة الحضارة العالمية ، وربما كان الحافز الاساسي والعامل الهام في ظهور النهضة الاوربية بعد ذلك ٠

استقر المسلمون بالاندلس وعملوا على بنائها وتشييد صروحها العمرانية والثقافية والحضارية ٠ وبعد انتقال الحكم الى العائلة الاموية الاندلسية التي أسسها عبد الرحمن الداخل ، ابتدأ عهد جديد بلغت فيه الفلسفة والعلوم شأوا بعيدا بذت فيه ما وصلت اليه العلوم والفلسفة في شرق الدولة الاسلامية وعاصمتها بغداد ٠ وساعد على تقدم العلوم في الاندلس التشجيع الذي لقيه العلماء من الخلفاء والامراء الاندلسيين واهتمامهم الشخصي بالعلوم ٠

لقد كانت اشبيلية وطليطلة وقرطبة وضاحيتها الزهراء منارات حضارة وموائل لطالبي العلم والثقافة من الشرق العربي ومن الغرب الاوربي معا ٠

وفي عام ٩٣٦ م وضع الخليفة عبد الرحمن الناصر حجر الاساس لبناء مدينة الزهراء ، وعين ابنه الحكم الذي عرف بعد ذلك بالحكم الثاني مشرفا على بناء المدينة التي سرعان ما أزدهرت وأصبحت مدينة جديرة بالخلفاء الامويين الاندلسيين حتى لقبها Doza ب بومباي العرب وسماها هاريز Hariz

فرساي الامويين(١) • وفي مدينة الزهراء ولد الزهراوي عام ٩٣٦ م أي في سنة تأسيس المدينة ، وتوفي فيها عام ١٠١٣ م الموافق ٤٠٤ هـ أي قبل ألف عام تماما من الآن •

لقد تألق الزهراوي عالما في الطب والصيدلة والجراحة في الاندلس وامتدت سمعته الى عالم الغرب ، ولربما كان معروفا في الغرب أكثر مما كان معروفا في شرق الدولة الاسلامية • فابن أبي أصيبعة وهو دمشقي شرقي يقول عنه « لخلف بن عباس الزهراوي من الكتب : كتاب التصريف لمن عجز عن التاليف وهو أكبر تصانيفه وأشهرها » ونحن نعلم الآن حق العلم أنه لم يكن للزهراوي سوى هذا الكتاب • ولربما كان ابن أبي أصيبعة يقصد بعبارة « كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف » المقالة الثلاثين المتعلقة بالجراحة ، أو المقالتين الاولى والثانية ، اللتين ترجمتا الى اللاتينية ولربما اطلع ابن أبي أصيبعة على هذه الترجمات أو سمع بها فظنها كامل كتاب التصريف •

بينما نجد ابن حزم الاندلسي (٩٩٤ ــ ١٠٦٤ م) يعد الزهراوي أحد أربعة علماء من الذين تفوقوا في الاندلس ، ونجد الشيء نفسه بالنسبة الى المؤرخ ابن سعيد الذي عد الزهراوي من بين أفضل خمسة من علماء الاندلس وحائزا على مكانة ذائعة الصيت لتأليفه كتابه النفيس « التصريف لمن عجز عن التاليف » •

عمل الزهراوي في زمن الحكم الثاني الملقب بالمستنصر بالله ومن بعده ابنه هشام الثاني وحاجبه عبد الملك المظفر وهما من بني عامر •

الزهراوي وكتاب التصريف :

فمن هو الزهراوي ؟ الزهراوي هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الانصاري الاندلسي • فاسمه خلف ولقبه أبو القاسم ووالده عباس ونسبته الى الزهراء المدينة التي عاش فيها ، والانصاري تدل على أن والديه كانا من الانصار الذين انضموا الى جيش الفتح واستوطنوا قرطبة ثم انتقلوا الى الزهراء حين تمام بنائها •

يقول عنه ابن أبي أصيبعة « كان طبيبا فاضلا خبيرا بالادوية المفردة والمركبة جيد العلاج وكتابه تام في معناه » •

---

(١) دراسة صيدلية لابي القاسم الزهراوي ــ د• نشأت حمارنة •

وحقا فقد كان كتاب التصريف موسوعيا وجامعا شاملا علوم الاولين ، ولكن الزهراوي تميز عن جميع المؤلفين الذين سبقوه بأمور كثيرة أهمها ما يأتي :

١ ـ خصص في موسوعته « التصريف » مبحثا خاصا بالجراحة كان الاول من نوعه في الطب العربي وفي الطب عامة حتى ذلك الحين ٠ ولم تكن أهمية مبحث الجراحة لما تضمنه من معلومات جراحية فحسب بل لاهمية الآلات التي استعملها وصورها في كتابه ٠

٢ ـ أفرد في المقالة الثامنة والعشرين بحثا مستفيضا عن الكيمياء المعدنية ٠ فتحدث عن عدد من المعادن وكيفية استحصالها وأملاحها المستعملة في المداواة وطرائق استحصال تلك الاملاح وتأثيراتها ٠

٣ ـ تحدث عن صنع الاقراص بالقوالب ، فوصف تلك القوالب وصفا دقيقا ٠ فكان ذلك فتحا في عالم الصيدلة الصناعية ٠

وبهذا كان الزهراوي صيدلانيا وطبيبا وجراحا متقدما على عصره بارعا في كل علم من العلوم الثلاثة ٠

تأثر الزهراوي بمن سبقه من العلماء اليونانيين والهنود والعرب المسلمين وكان يجل الاولين ويحترمهم ويحث على الرجوع الى مراجعهم ، ولكنه لم يكن ليتردد في الخروج على نظرياتهم عندما يثبت عدم صحتها بالتجربة والتطبيق ٠ لقد كان يذكر اسم العالم الذي يأخذ عنه ، فيستشهد بالرازي وجالينوس واسحق بن سليمان وديوسكوريدس ، وعندما يورد رأيا من عنده يقول « يقول خلف » ٠

كان من ذوي الاخلاق العالية فما من مرة فحص امرأة مريضة أو أجرى لها جراحة الا كانت ثالثتهما امرأة قابلة ٠ وكان حريصا كل الحرص على مصلحة المريض ، فمن أقواله « لا تشرع بعمل أي شيء الا اذا كنت واثقا أنه سيعود على المريض بنتيجة طيبة » ٠

ونظرا الى أهمية كتاب التصريف فقد ترجم كله الى اللغة اللاتينية على شكل مقالات متفرقة ٠ وقد قام جيرارد الكريموني في طليطلة بترجمة الجزء الخاص بالجراحة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ٠ كما تمت ترجمة المقالتين الاولى والثانية الى اللاتينية تحت عنوان « الكتاب النظري غير العملي للزهراوي » كما تمت ترجمة المقالة الثامنة والعشرين الى اللغة العبرية واطلق عليها وحدها اسم كتاب التصريف ٠

يتالف كتاب الزهراوي من ثلاثين مقالة . وكل مقالة من تلك المقالات تصلح لان تكون كتابا مستقلا بذاته ولكن كل مقالة ذات علاقة بما قبلها وما بعدها .

وتتناول مقالات التصريف مختلف حقول الطب والصيدلة والجراحة ، وكل مقالة تتالف من أبواب وفصول ، وهذه المقالات هي :

المقالة الاولى : في الاستقصاءات والامزجة وتركيب الادوية وعيونا من التشريح وما أشبه ذلك . وقد جعلها مدخلا لكتابه .

المقالة الثانية : في تقاسيم الامراض وعلاماتها والاشارة الى علاجها .

المقالة الثالثة : في صفات المعاجين القديمة التي تخمر وتدخر .

المقالة الرابعة : في صناعة الترياق الكبير وسائر الترياقات والادوية المفردة في جميع السموم .

المقالة الخامسة : في صفات الايارجات القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها .

المقالة السادسة : في صفات الادوية المسهلة من الحبوب المرة المدبرة في جميع الامراض .

المقالة السابعة : في صفات أدوية القيء والحقن والفرزجات والشيافات والفتل .

المقالة الثامنة : في الادوية المسهلة اللذيذة الطعم المالوفة المامونة .

المقالة التاسعة : في أدوية القلب من الشيافات وأدوية المسك وما أشبه ذلك .

المقالة العاشرة : في صفات الاطريفلات والبنادق المسهلة .

المقالة الحادية عشرة : في صفات الجوارشنات والكمونيات وما أشبه ذلك من المعاجين .

المقالة الثانية عشرة : في أدوية الباه المسمنة للابدان والمهزلة والمدرة للبن ونحو ذلك .

المقالة الثالثة عشرة : في الاشربة والسكنجبنات والربوب ·

المقالة الرابعة عشرة : في البخاتج والمطبوخات والنقوعات المسهلة وغير المسهلة ·

المقالة الخامسة عشرة : في المربيات ومنافعها وحكمة تربيبها وادخارها ·

المقالة السادسة عشرة : في السفوفات المسهلة وغير المسهلة ·

المقالة السابعة عشرة : في الاقراص المسهلة وغير المسهلة ·

المقالة الثامنة عشرة : في السعوطات والقطورات والبخورات والذرورات والغراغر ·

المقالة التاسعة عشرة : في الطيب والزينة ·

المقالة العشرون : في الاكحال والشيافات واللطوخات ·

المقالة الحادية والعشرون : في السنونات وأدويـــة الفم والحلق وما أشبه ذلك ·

المقالة الثانية والعشرون : في أدوية الصدر والسعال خاصة ·

المقالة الثالثة والعشرون : في الضمادات لجميع علل البدن من القرن الى القدم ·

المقالة الرابعة والعشرون : في صناعة المراهم ·

المقالة الخامسة والعشرون : في الادهان ومنافعها وأحكام استخراجها ·

المقالة السادسة والعشرون : في أطعمة المرضى وكثير من الاصحاء مرتبة على الامراض ·

المقالة السابعة والعشرون : في طبائع الادوية والاغذية واصلاحها وقواها وخواصها ·

المقالة الثامنة والعشرون : في اصلاح الادوية وحرق الاحجار المعدنية ·

المقالة التاسعة والعشرون : في تسمية العقاقير باختلاف اللغات وبدلها وأعمارها ، وأعمار العقاقير المركبة وغيرها وشرح الاسماء المركبة في كتب الطب ، والاكيال والاوزان ·

المقالة الثلاثون : في العمل باليد من الكي والشق والبط والجبر والخلع مشروحا مختصرا ·

ويمكن أن نوزع هذه المقالات الثلاثين في سبع مجموعات رئيسة وفق ما يأتي :

١ ـ في الطب العام والطب السريري : وتتضمن هذه المجموعة النظريات الطبية والتعاريف الاساسية ، ووصفا لطبيعة الانسان ومزاجه ، وتقسيم الامراض والاعراض والمعالجة · وتتألف هذه المجموعة من المقالتين الاولى والثانية ·

٢ ـ المادة الطبية والصفات الدوائية والعلاجية للادوية البسيطة والمركبة في علاج الامراض المتنوعة والاشكال الصيدلانية وطرائق تحضيرها ووضعها · وتضم هذه المجموعة المقالات الثالثة والرابعة والخامسة والسابعة والعاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة والسابعة عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة والرابعة والعشرين والخامسة والعشرين ·

٣ ـ في الصيدلة ومعالجة مجموعة من الامراض : وتتألف هذه المجموعة من المقالات السادسة والثامنة والثانية عشرة والحادية والعشرين والثالثة والعشرين ·

٤ ـ في الصيدلــة والادويــة التي تعالج عضوا خاصا : وتتألف هذه المجموعة من المقالات التاسعة والمقالة العشرين والثانية والعشرين ·

٥ ـ في الصحة العامة والحمية وعلاقتها بالطب : وتتألف هذه المجموعة من المقالتين السادسة والعشرين والسابعة والعشرين ·

٦ ـ في تحضير الادوية وثباتها أو البدائل في العقاقير والاوزان والمكاييل والمفردات والمصطلحات الدوائية والتصنيع الدوائي ووسائله الفنية بما فيه من استخلاص وترشيح وجمع وتخزين · وقد تحدث عن ذلك في المقالتين الثانية والعشرين والتاسعة والعشرين ·

٧ ـ القسم الجراحي مع رسوم توضيحية للادوات الجراحية المستعملة ويتألف هذا القسم من المقالة الثلاثين فقط ·

من هذا التوزيع نجد أن كتاب التصريف كان كتابا بالغ الاهمية • ولاشك في أن الزهراوي كان على بينة من أمره عندما رتب مقالاته بالشكل الذي رتبها فيه • فهو عندما ابتدأ مقالاته بالمقالتين الاولى والثانية المشتملتين على أساسيات علوم الطب فكأني به يقول لطلابه « بعد أن تصبحوا متمرسين جيدا بهاتين المقالتين ••• فسيكون من السهل عليكم أن تفهموا بقية المقالات » •

وقد اتبع الزهراوي ـ كأسلافه ـ التسلسل التقليدي في دراسة الامراض وجسم الانسان ، فهو يبدأ بدراسة الرأس وأمراضه ، وينتهي بالقدمين وأمراضهما • وقد بلغ عدد الامراض التي ورد ذكرها في المقالة الثانية ثلاثمائة وخمسة وعشرين مرضا •

بعدما توفي الزهراوي عام ١٠١٣ م الموافق عام ٤٠٤ هـ لم يظهر في الاندلس طبيب له مكانة الزهراوي وعلمه • وفي الحقيقة لا يمكن للاندلس أن تنجب عالما في ظل الفوضى التي سادت البلاد عقب وفاة عبد الملك المظفر عام ١٠٠٨ م • لقد خلف عبد الملك أخوه عبد الرحمن المسمى سانكول الذي كان مكروها من الشعب لفسقه وخلاعته فثار عليه الشعب بقيادة أمير من أمراء بني أمية يدعى محمدا • وقد تمكن الثوار من الوصول الى قصر بني عامر فنهبوه وأشعلوا فيه النيران ، ووقع هشام الثاني ـ وهو الخليفة الشكلي ـ وثيقة تنازله عن الخلافة للامير محمد الذي لقب نفسه بالمهدي • وما ان ارتقى المهدي العرش حتى عزل الحاجب سانكول • ولكن المهدي نفسه لم يحكم طويلا اذ استمرت الفوضى والاضطرابات في البلاد وكان من نتيجة ذلك أن أعلن حكام المقاطعات وأمراؤها استقلالهم • أما اشبيلية والمقاطعات الغربية فقد استولى عليها بنو عباد وكان مؤسس هذه الاسرة قاضي قضاة اشبيلية أبو القاسم محمد الملقب بابن عباد •

وفي عهد بني عباد لمعت عائلة بني زهر التي أنجبت ستة أطباء أفذاذ توالوا على قمة الطب جيلا بعد جيل •

أما الطبيب الاول في هذه العائلة فهو أبو مروان عبد الملك بن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الايادي الاشبيلي • يقول عنه ابن أبي أصيبعة : انه كان فاضلا في صناعة الطب خبيرا بأعمالها مشهورا بالحذق • وقال عنه القاضي صاعد ان أبا مروان بن زهر رحل الى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمنا طويلا ثم رجع الى الاندلس فقصد مدينة دانية فاشتهر فيها لتقدمه في الطب ثم انتقل منها الى اشبيلية ولم يزل فيها الى أن توفي •

لابي مروان بن زهر في الطب آراء غريبة(١)منها منعه الحمام ، واعتقاده فيه أنه يعفن الاجسام ويفسد الامزجة • ويعترف بغرابة رأيه فيقول عنه انه رأي يخالف فيه الاوائل والاواخر ويشهد بخطئه الخواص والعوام ، بل اذا استعمل على الترتيب الذي ينبغي ، يكون رياضة فاضلة ومهنة نافعة لتفتيحه للمسام وتطريقه وتلطيفه لما غلظ من الكيموسات •

وأما الطبيب الثاني من عائلة بني زهر فهو أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان • اشتغل بالطب وهو صغير في أيام المعتمد بالله أبي عمرو بن عباد ، ومن بعده عمل في دولة الملثمين ونال المنزلة الرفيعة عند أمرائهم • يقول عنه ابن أبي أصيبعة ان أبا العلاء معروف بالحذق والمعرفة وله علاجات مختارة تدل على قوته في صناعة الطب واطلاعه على دقائقها • وكانت له نوادر في مداواته المرضى ومعرفته لاحوالهم وما يجدونه من الآلام من غير أن يستخبرهم عن ذلك بل بنظره الى قواريرهم أو عندما يجس نبضهم • وفي زمانه وصل كتاب القانون لابن سينا فذمه وطرحه ولم يدخله الى خزائن كتبه •

لابي العلاء بن زهر مجموعة من الكتب منها كتاب الخواص ، كتاب الادوية المفردة ، كتاب الايضاح بشواهد الافتضاح في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين بن اسحق في كتاب المدخل الى الطب ، كتاب حل شكوك الرازي على كتب جالينوس ، كتاب مجربات ، مقالة في الرد على علي بن سينا في مواضع من كتابه الادوية المفردة ألفها لابنه مروان ، كتاب النكت الطبية كتبها لابنه أبي مروان ، مقالة في بسطه لرسالة يعقوب بن اسحق الكندي في تركيب الادوية •

وبالاضافة الى كون أبي العلاء طبيبا فقد كان شاعرا متمكنا ، لــه أشعار جميلة •

وأما الطبيب الثالث في عائلة بني زهر فهو أبو مروان بن أبي العلاء بن زهر (١٠٧٣ ــ ١١٦٢ م) (٤٨٤ ــ ٥٥٧ هـ) • وهو أوسطهم وأبرزهم • وهو الذي استأثر بلقب « ابن زهر » فعندما يقال « ابن زهر » فالمقصود غالبا أبو مروان بن أبي العلاء • يقول عنه ابن أبي أصيبعة : ان أبا مروان لحق بأبيه في صناعة الطب وكان جيد الاستقصاء في الادوية المفردة والمركبة ، حسن المعالجة قد ذاع ذكره في بلاد الاندلس وفي غيرها من البلاد واشتغل الاطباء بمصنفاته ، ولم يكن في زمانه من يماثله في مزاولة أعمال صناعة

---

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء ــ ابن أبي أصيبعة •

الطب ، وله حكايات كثيرة في تأنيه لمعرفة الامراض ومداواتها مما لم يسبقه أحد من الاطباء الى مثل ذلك ، وأصبح الطبيب الخاص لعبد المؤمن أمير الموحدين ٠

ألف أبو مروان بن زهر الترياق السبعيني واختصره عشاريا واختصره سباعيا ويعرف بترياق الانتلة وله كتب عدة منها : كتاب الاغذية ألفه للامير أبي محمد عبد المؤمن بن علي وكتاب الزينة ، وتذكرة الى ولده أبي بكر في أمر الدواء المسهل وكيفية أخذه ، ومقالة في علل الكلى ، ورسالة كتب بها الى بعض الاطباء باشبيلية في علتي البرص والبهق ، وكتاب تذكرة ذكر فيه لابنه أبي بكر أول ما تعلق بعلاج الامراض ٠ الا أن أهم كتبه وأفضلها هو كتاب « التيسير في المداواة والتدبير » ٠

ومن أهم تلاميذ أبي مروان عبد الملك بن مروان والآخذين عنه أبو الحسين بن أسدون ، وأبو بكر بن الفقيه القاضي أبي الحسن قاضي اشبيلية ، وأبو محمد الشذوني ، والفقيه الزاهد أبو عمران بن أبي عمران ٠

وأما الطبيب الرابع من عائلة بني زهر فهو أبو بكر محمد بن أبي مروان بن أبي العلاء بن زهر ولد باشبيلية وأخذ الطب عن أبيه ٠ وكان أديبا وفقيها وشاعرا وألف الترياق الخمسيني للمنصور أبي يوسف ٠

وأما الطبيب الخامس فهو أبو محمد عبد الله بن الحفيد أبي بكر محمد ابن أبي مروان عبد الملك بن أبي العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر ٠ عمل في بلاط الخليفة أبي عبد الله محمد الناصر ابن المنصور أبي يعقوب وتوفي مسموما بالقرب من رباط الفتح عن عمر يناهز الخامسة والعشرين عاما ٠ وكان على صغر سنه كثير الاعتناء بصناعة الطب ، وقرأ كتاب النبات للدينوري ٠

لقد تألقت عائلة بني زهر في اشبيلية كما تألق قبلها الزهراوي في الزهراء ٠ ولقد تميزت هذه العائلة بأنها أنجبت ستة أطباء خلال ستة أجيال متعاقبة ٠ وكان الطب أصبح شيئا متوارثا فيها ٠ حتى ان نساء بني زهر كن طبيبات حاذقات ٠ فأخت الحفيد وابنتها كانتا عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء وكانتا تدخلان على نساء المنصور ، ولا يقبل المنصور وأهله طبيبة الا أخت الحفيد أو ابنتها بعد أن توفيت أمها ٠

لقد تعاقب بنو زهر يتربعون على عرش الطب في غرب الدولة الاسلامية من أوائل القرن الحادي عشر للميلاد حتى أواخر القرن الثالث عشر ٠ ولم يشاهد في تاريخ الاطباء العرب أي أسرة أنجبت هذا العدد المتلاحق من كبار الاطباء ٠

لقد نبغ بنو زهر في الطب خاصة ولكنهم بالاضافة الى ذلك كانوا رجال علم وأدب وفقه وسياسة ولكنهم لم يؤلفوا في غير الطب ما عدا الحفيد الذي نال مكانة واسعة لا تقل عن مكانته من حيث هو طبيب في نظم الموشحات الاندلسية التي تعد من أرق الموشحات وهو الذي قال الموشح المعروف :

أيها الساقي اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

ونديم همت في غرته وشربت الراح من راحته كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق اليه واتكى وسقاني أربعا في أربع

ابن زهر وكتاب التيسير :

ان مؤلف كتاب التيسير أعظم أطباء بني زهر من دون منازع ، ولا شك في أن كتابه كان سبب ذيوع اسمه فذاع صيته في أوربة ولا سيما بعد أن انتقلت اليها ترجمات الكتاب العبرية واللاتينية وأصبح كتاب التيسير يدرس في جامعات أوربة الغربيّة حتى نهاية القرن السابع عشر • وقد عده ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس • وقال لوكلير(١) : أن ابن زهر لاتجوز مقارنته الا بابن سينا والرازي ويقول عنه سارتون(٢) : انه كان أعظم طبيب في العالمين الاسلامي والمسيحي •

وقد تأتت مكانة ابن زهر من كونه :

١ ـ انقطع الى الطب دون غيره من العلوم •

٢ ـ تجرد من قيود التقليد التي تمسك بها غيره من أطباء عصره •

٣ ـ اعتمد على دقة الدراسة السريرية في تشخيص الامراض ومداواتها •

ومع أنه كان جالينوسي المذهب الا أنه كانت له شخصيته المستقلة • وكان يحكم المنطق في تفكيره ويعتمد في كل أعماله على أساليب التجربة والقياس •

---

(١) كتاب التيسير في المداواة والتدبير ـ لابي مروان عبد الملك بن زهر ـ تحقيق الدكتور ميشيل خوري •

(٢) نفس المرجع السابق •

عاصر ابن زهر الفيلسوف الطبيب ابن رشد وكان بين الرجلين مودة(١)، حتى ان ابن رشد لما فرغ من تأليف كتابه الكليات قصد من ابن زهر أن يؤلف له كتابا مفصلا للامور الجزئية ليكون كتاباهما كتابا كاملا في صناعة الطب • وفي هذا الصدد يقول ابن رشد في آخر كتابه « فهذا هو القول في معالجة جميع أصناف الامراض بأوجز ما أمكننا وأبينه ، وقد بقي علينا من هذا الجزء القول في شفاء عرض عرض من الاعراض الداخلة على عضو عضو من الاعضاء • وهذا وان لم يكن ضروريا لانه منطو بالقوة فيما سلف من الاقاويل الكلية ففيه تتميم ما ، وارتياض ، لاننا ننزل فيه الى علاجات الامراض بحسب عضو عضو ، وهي الطريقة التي سلكها أصحاب الكنانيش ، حتى نجمع في أقاويلنا هذه الى الأشياء الكلية الامور الجزئية • فان هذه الصناعة أحق صناعة ينزل فيها الى الامور الجزئية ما أمكن الا أنا نؤخر هذا الى وقت تكون فيه أشد فراغا لعنايتنا في هذا الوقت بما يهم من غير ذلك • فمن وقع له هذا الكتاب دون هذا الجزء ، وأحب أن ينظر بعد ذلك الى الكنانيش فأوفق الكنانيش له الكتاب الملقب بالتيسير الذي ألفه في زماننا هذا أبو مروان بن زهر وهذا الكتاب سألته أنا اياه وانتسخته فكان ذلك سبيلا الى خروجه ، وهو كما قلنا من الاقاويل الجزئية التي قلت فيه ، شديد المطابقة للاقاويل الكلية الا أنه مزج هنالك مع العلاج العلامات واعطاء الاسباب على عادة أصحاب الكنانيش ، ولا حاجة لمن يقرأ كتابنا هذا الى ذلك بل يكفيه من ذلك مجرد العلاج فقط » •

يتألف كتاب التيسير من سفرين وملحق وقد سماه ابن زهر الجامع • وقد ألف الجامع تلبية لرغبة أمير اشبيلية • وقد ذكر ابن زهر ذلك في مقدمة الكتاب فقال : « ولقد دخل في خلال وضعي له من كان كالموكل علي فيه ، فلم يرضه مني ذلك ، وقال : ان الانتفاع به لمن لم يحذق شيئا من أعمال الطب بعيد ، وانه ليس على ما أمر به ، ولا على غرض مما يريد • فذيلته حينئذ بجزء منحط الرتبة سميته بالجامع ، ألفته مضطرا وخرجت فيه عن الطريقة المثلى كارها ، ووضعته بحيث لا يخفى على المريض وعلى من حول المريض » •

وعن الجامع يقول أيضا « وهذا جزء لمن كان بمعزل عن الطب القياسي وعن النظر الصناعي يشتمل على علاجات بأشربة ومعاجين وأدهان ، مما يحدث في البدن من الامراض والاعراض بحول الله » •

---

(١) عيون الانباء في طبقات الاطباء — ابن أبي أصيبعة •

أمـا السفر الاول فيتحدث فيـه عن أمراض الرأس ثم أمراض الاذن فأمراض الانف فأمراض اللسان والامراض التي تعرض للأسنان فيخصص بحثا لعلة اهتزاز الاسنان وبحثا آخر لأمراض الاسنان ، كما يتحدث عن أمراض العيون المختلفة بما في ذلك أمراض الجفن • ثم يتحدث عن أمراض الدماغ والامراض التابعة لاختلال مزاج الدماغ ، والشقيقة ثم يتحدث عن أمراض الرقبة وانخزال فقار الرقبة ذات اليمين وذات الشمال وأورام الرقبة ، ثم أمراض النخاع وما يعرض له ثم يتحدث عن الذبحة وأورام قصبة الرئة وأمراض المري وما يحدث في الرئة من أمراض بما في ذلك اورام الرئة ثم يتحدث عن السعال وامراض القلب وما يحدث فيه من خفقـــان والرطوبة التي تعرض في غشاء القلب ، ثم يخصص بحثا لامراض الكبد وبحثا لامراض الطحال وبحثا لليرقان ثم يتحدث حديثا موجزا عن جراحات البطن وأمراض المعدة وأورامها وينهي السفر الاول بذكر أمراض الصدر والجراحات والخروق التي تحدث في الصدر والشوصه وذات الجنب والكسر في الصدر مع علاجات كل تلك الامراض •

وأما السفر الثاني فيبتدئه بالكلام على البطن الاسفل وما يعرض في الامعاء من رياح تحتقن فيها ثم الشحج الذي يعرض في الامعـاء فالحصاة المتولدة في المثانة والكلى وأورامها وما يحدث في الكلى من أمراض سوء المزاج وضعف المثانة وخروج البول منها بغير ارادة ثم يذكر علل الانثيين وأورامهما وسوء مزاجهما واسترخائهما فالقضيب والارحام وعللهـــا وما يعرض في الفروج من أمراض • ثم يتحدث عن الدماميل والحكة والجدري والحصبة والبرص والبهق والبهق الاسود والخيلان والثآليل وأمراض الجلد • ثم يتحدث عن التشنج والاختلاج والرعـدة والرعشة والدوالي وداء الفيـــل والسرطان وأوجـــاع العضل والمفاصل والنقرس وعرق النسا والدواحس والحميـــات •

وعلى الرغم من أنه يفرد في نهاية كل مرض علاج ذلك المرض ، الا أنه يذكر في نهاية السفر الثاني مجموعة من الادوية المركبة تنفع في أمراض شتى فهو يذكر شرابا ينفع الاصحاء ويبقي عليهم صحتهم ومعجونا يؤخذ مع الطعام ويعين على الهضم وشرابا ينفع من ضعف البصر وآخر ينفع من حدوث العقد في العنق وشراب ينفع في البحح ••• وأخيرا يتحدث عن ترياق الاربع وترياق الثوم والمرهم النخلي •

وهكذا نرى أن التيسير كتاب جلي الترتيب واضح التنسيق دقيق العرض ينقد فيه مؤلفه آراء المتقدمين الخاطئة مبينا رأيه تبيينا واضحا ومستقلا معتمدا على الملاحظة والتجريب • وقد كتب باسلوب تعليمي يشعر قارئه بأنه يسمع أو يحضر درسا حيا يلقيه أستاذ متمكن ناصع البيان واسع الخيال متين التركيب بلغة رقيقة وان كانت لا تخلو من بعض الكلمات العامية التي يمكن أن تكون شائعة في الاندلس وقت تأليف الكتاب •

وأخيرا لا بد لنا أن نذكر أن بعض المغرضين شككوا بصحة اعتقاده وايمانه ، ونحن هنا لسنا نسعى الى تفنيد تلك الاقاويل ولكن يكفينا أن نقول : انه من خلال مطالعتنا لكتاب التيسير لم نجد في ابن زهر الا الرجل المؤمن الورع ، السليم المعتقد ، يراقب الله في مهنته وأمره كله . وخير ما يعبر عن ايمانه تلك الجمل التي ختم بها كتابه « فان تكن اصابة فتوفيق الله وان يكن تقصير فقد اجتهدت والله شاهدي »(١) .

وما زال الحديث عن التيسير مستمرا فلهذا الكتاب عدد من المخطوطات منها مخطوطة في دار الكتب الوطنية في باريس ونسخة في الرباط ونسخة أخرى في المتحف البريطاني في لندن ، وقد قام بتحقيقها المرحوم الدكتور ميشيل خوري عضو مجمع اللغة العربية في دمشق باشراف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم .

أما كتاب التصريف فله عدد من المخطوطات بعضها تام وبعضها يتألف من بضع مقالات فقط . وقد حقق منه المقالة الثلاثين و
والمقالة الخامسة والعشرين المتعلقة بالادهان الدكتور الصيدلي سامي خلف حمارنة ، والمقالتين الثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين الاستاذ الدكتور الصيدلي محمد زهير البابا ، وأقوم الآن بتحقيق المقالات الصيدلية الاخرى باشراف معهد التراث العلمي العربي في جامعة حلب .

وأخيرا ، لقد كان الزهراوي وابن زهر طبيبين عالمين حقا ، وقد قدما للحضارة الانسانية والعلوم الطبية الشيء الكثير . وكان هذان العالمان هما الطرف الثاني لمعادلة يمثل الرازي وابن سينا طرفها الاول في مشرق الوطن العربي .

---

(١) كتاب التيسير في المداواة والتدبير – لابي مروان عبد الملك بن زهر – تحقيق الدكتور ميشيل خوري .



أبحاث
العلوم الإنسانية
نبات وحيوان

التخصص والولاء البيئي في المنبات في التراث العربي

الدكتور محمد نذير سنكري

رئيس وحدة بحوث البيئة الجافة

يمكن القول بأن العرب أول من عرف وكتب عن هذا الموضوع بدقة علمية جيدة ، فمنهم قد قسموا نباتات جزيرة العرب الى أقسام عدة تبعا لولائها البيئي وتخصصها ومن أهم هذه الاقسام ما يلي :

١ ـ **نباتات الجبال** : وقصد العرب بذلك نباتات جبال اليمن أساسا بالاضافة الى النباتات التي توجد في جبال عسير ، وخاصة ما بين الطائف وابها ، ومن أهم النباتات في هذه المجموعة ما يلي :

العرعر	Juniperus procera	الرنف	Poinciana elata
العتم	Olea chrysophylla	الخزم(١)	Lavandula
الطباق	Psiadia arabica	الأثاب	Ficus salicifolia
الشث	Dodonea viscosa	الجعدة	Teucrium yemenensis
			Chadara velutina
الصوم	Euryops arabicum	النشم	Grewia mollis, G. bicolor
الضرو	Pistacia palaestina	السلم	Acacia flava
الظيان	Clematis angustifolia	الشقب	Phlomis alba
الضبر	Dobera glabra	الضرم	Lavandula dentata
الشوحط	Grewia	الشريان	Grewia populifolia
التالب	Periploca	النبع	Grewia populifolia
الغرف	Cordia ovalis	المجرم(٢)	Ulmus
المظ	Anisotes trisulcus	العثق	Acacia asak
القان	Terminalia brownii	العنصيف	Aster ericaefolia

---

(١) يستبعد أن يكون الخزم هو المقل لأن المقل ليس من أشجار الجبال ، بل من أشجار تهامة والمقل هو Commi Phora Africana وينمو الاخير في سفوح الجبال وهضابها .

(٢) وهو من جنس النشم .

تم دعم الترحال لانجاز هذا البحث من قبل المركز العربي لدراسات المناطق الجافة والاراضي القاحلة ، بدمشق (جامعة الدول العربية) .

		القرظة	Acacia arabica
السراء	Cyperus papyrus	القنفر	Capparis
العزيف	Cynoglosum glochidiatum	البشام (المنشم)	
اللوى	Pentatropis spiralis		Commiphora opobalsamun
اللبخ	Mimusope schimperi	النبش	
	Balanites aegyptiaca	الهمقان	
الخيفان		الفضور	Fimbristylis feruginea
الطثي			

نباتات جبال نجد :

وهذه الجبال جافة بالمقارنة مع جبال عسير أو جبال اليمن ، ونبتها خليط من عناصر نباتية تتوطن جبال عسير ، وقلة منها تنتمي الى جبال بادية الشام ، كما هو الحال بالنسبة للبطم (الحبة الخضراء) Pistacia atlantica الذي كان يوجد في أعالي جبال نجد الا أنه اندثر منها ، كما اندثر من معظم أجزاء وادي السرحان . أما النباتات التي تنتمي الى الجبال الغربية لجزيرة العرب فهي :

البشام	Commiphora opobalsamun	الشريان	Grewia populifolia
والقشور والثغام (العجرم)	Anabasis articulata	والحماض	Rumex
والشرشر (القطب)	Tribulus terrestris		
والقتاد	Astragalus spinosus	والحرشف	Onopordon ambigum

٢ ـ **نباتات السهول :** وقصد العرب بذلك نباتات المناطق السهلية التي لا يزيد ارتفاعها فوق سطح البحر عن ٥٠٠ م تقريبا وخاصة في المناطق الشرقية من الجزيرة العربية ، ومن أهم هذه النباتات ما يلي :

الرمث	Haloxylon salicornicum	الشيح	Artemisia herba - alba
القضبة	Corzophora plicata	الحريث	Lotononis platycarpa
المقضبي	Cadia purpurea	الخزامي	Horwoodia
العرفج	Rhanterium eppaposum	الاقحوان	Anthemis deserti
النقد	Anvilla garcini	الحنوة	Calandula
الشقاري	Mathiola oxycera	الزبادي ، الزباد	Plantago ovata
الحنزاب	Emex spinosus	البهمي	Hordeum murinum
الافاني	Arnebia	القراص (العقار)	Urtica pilulifera
اذن الحمار	onosma echioides	العبثران	Achillea santolina

الكرش		الكثا	Apium
الحلبة	Moltiopsis callosa	الكر	Polycarpea repens
النيمة	Plantago albicans	ثداء	Cyperus conglomeratus
	Plantago cylindrica	الحسار	Torularia torulosa
الشبروم (الصلة)	Zilla spinosa	النجرة	
النفل	Medicago arabica	الحوذان	
الحسك	Medicago aschersoniana	الحبق	Mentha puligium
السعدان	Neurada procumbens	الخشيناء	Ceratocephalus falcatus
الجثجاث	Pullicaria crispa	القيصوم	Achillea fragrantissima
النعض		الذفراء	Haplophyllum spp.
الذنبان	Oligomeris Subulata	الرشا	Cyperus
الرمرام	Heliotropium	الرشاة	
الزقوم	Maurrubium vulgare	السلمسة	Acacia flava
الشيعة		الصعتر	Thymus spp. , Satureia
الضعة	Andropogon aucheri	العضرس	Althea
العجلة			
اليعضد (العضيد)	Lactuca remotiflorum		
المرار	Centauria	الكحلاء	Alkana tictoria
الفراء	Erucaria		
الشبرق	Convolvulus hystrix		
الشبرق	Genista purgans		

٣ ـ **نباتات الجلد والغلظ** : وقصد العرب بذلك الانواع النباتية التي تنمو فوق الهضاب الصخرية والمحجرة والاراضي ذات الرتبة الضحلة والهيكلية. وقد خلف العرب لنا قائمة طويلة هامة بالنسبة لأنواع هذه المواضع البيئية في جزيرة العرب ومن أهم هذه الانواع ما يلي :

السخبر (الصخبر)	Andropogon parkeri		
الاسليح	Malcolmia grandiflora	القفعاء	Astragalus
	Erucaria spp.	القلقل	Dolichos cuncifolius
الارث		الكفنة	
البسباس	Pimpinella cretica	النزعة	
الثغر		الحسار	Torularia torulosa
الجفنة (جرد)	Gymnocarpus decander	الاخريط	Salsola foetida
		الثغام (العجرم)	Anabasis articulata

الحرشف	Cynara		
الحلفاء	Danthonia forsskallii	الحفري	
الحلق	Cissus ternata	الحلة	Indigofera spinosa
راحة الكلب		السلام (سلم)	Acacia
السنعبق		العشرق	Cassia atalica
العتر	Geranium		...ssia obovta
العهنة	Filago		

٤ ـ **نباتات الرمال** : وهي مجموعة النباتات التي يطلق عليها اليوم اصطلاح النباتات الرملية Psamophytes وقد ميز العرب نباتات الرمال في جزيرتهم بدقة جيدة ، حتى يمكن القول بأن ما كتبه الاوائل في هذا الميدان يماثل ما كان يمكن أن يكتب في أوائل هذا القرن العشرين ، بل ان القائمة التي وصفوها كانت القائمة الوحيدة التي تصف نبيت الرمل في جزيرة العرب حتى عام ١٩٥٠ ، ومن أهم نباتات الرمال التي ذكرها العرب ما يلي :

الغضى	Haloxylon persicum	الارطي	Calligonum comosum
العلجان	Pituranthus triradiatus	العلندي	Ephedra alata
الغرف	Gymbopogon	الحرمل(١)	Rhazia stricta
الخطرة (الرخامي)	Convolovulus lanatus		
العلقى	Scrophularia hypercifolia		
الدارم	Calligonum polygonoides		
الشبرق	Indigofera spinosa	العيشوم	Cyperus
الصبغاء (الثيموم)	Pennisetum divisum		
العراد	Salsola tetrondra		
الكرية والبركان	Rhaeopappus		
المصاص	Cyperus conglomeratus		
الالاء	Lasiurus hirsutus		

٥ ـ **نباتات السباخ وأدلة الملوحة** : عرف العرب سباخ جزيرة العرب بشكل جيد ، كما عرفوا نباتاتها وميزوها بشكل جيد ، واستعملوها لرعي ابلهم خلال فترات معينة من العام ، وخاصة عندما تفتقد تلك الابل الحمض (أنواع Chenopodiaceae) ومن أهم نباتات السباخ التي عرفوها :

---

(١) نشير هنا الى حرمل الجنوب لا حرمل الشمال الذي هو Peganum harmala

العصل	Suaeda asal	القلام	Suaeda monaica
أنواع السوادة الاخرى	Suaeda spp.	الحمض (الاشنان)	Anabasis aphylla
العنظوان	Seidlotzia posmarinus		
الغولان (الطحماء)	Anabasis setifera		
الغذام	Salsola	الثليث	Halocnemum strobilaceum
الخرزة (الخريزي)	Salicornia spp.	القطف	Atriplex halimue
الرغل	Atriplex leucoclada	الطرفاء (الاثل)	Tamarix spp.
الهرم	Zygophyllum coccinum		
القرمل	Zygophyllum simplex	الحيهل	Zygophyllum spp.
الحمر	Frankenia	الاريال	Limonium spp.

وغيرها ..

وهذه هي أهم أنواع النباتات الملحية التي تنمو في جزيرة العرب اليوم أيضـــــا .

٦ ـ مجموعة النباتات التي تنمو على ماء أو قريبا من الماء : وتتشابه هذه المجموعة التي ميزها العرب بالنسبة لجزيرتهم مع المجموعة البيئية التي أطلق علماء البيئة النباتية في نهاية القرن التاسع عشر اصطلاح النباتات المائية .

وأهم هذه النباتات التي عرفها العرب ما يأتي :

الاسل	(J. rigidus) Juncus arabicus		
الميشوم	Cladium jamaicens	الثيل	Cynodon dactylon
الرجلة (البقلة الحم	Portulaca soleracea		
السعد	Cyperus rotundus	الغرز	Scirpus Litoralis
الغضور	Fimbristylis feruginea		
النمص(١)	Carex divisa		
بالاضافة الى القصب	Phragmitis communis	الفسفاس	Apium nodi Florum
والحشر	Saccharum spontaneum		

وهذه لعمري هي أهم النباتات التي تنمو على ماء أو بالقرب من ماء في جزيرة العرب اليوم ، أما المساهمات التالية في هذا الميدان فقد كانت قليلة ومتناثرة ، ومنها الملخص الصغير الذي وضعه اخوان الصفا كفصل في رسائلهم (أقل من صفحة) باسم « فصل في بيان أجناس النبات من جهة الاماكن » أشاروا فيه الى التخصص البيئي للنبات :

« واعلم يا أخي بأن النبات ما ينبت في البراري والقفار ، ومنه ما ينبت على رؤوس الجبال ومنه على شطوط الانهار وسواحل البحار ، ومنه ما ينبت في الآجام والغياض ، ومنه ما يزرعه الناس ويغرسونه في القرى والسوادات والبساتين والاخرجة ٠

واعلم يا أخي بأن أكثر النبات ينبت على وجه الارض ، الا القليل منه ، فانه ينبت تحت الماء كقصب السكر والارز والنيلوفر وأنواع من العكرش(١) ٠ ومن النبات ما ينبت على وجه الماء كالطحلب ، ومنه ما ينسج على الشجر والنبات والكشوثي واللبلاب ، ومنه ما ينبت على وجه الصخور كخضراء الدمن(٣) ٠ ومن النبات مالا ينبت الا في البلدان الدفيئة ، ومنه مالا ينبت الا في البلدان الباردة ومنه مالا ينبت الا في التربة الطيبة ومنه لا ينبت الا في الرمال وبين الحصى والحجارة والارض اليابسة ، ومنه مالا ينبت الا في الاراضي السبخة المشورجة » ٠

ولو كتب للمدرسة العربية في البيئة النباتية أن تستمر لما حصل التصحر الذي تعاظم اليوم ، ولكانت المبادىء العربية في هذا العلم على كل لسان اليوم ولكانت الاسماء العربية كذلك ٠

ومن المدهش حقا ، وتأكيدا لأصالة المدرسة العربية في البيئة النباتية والصحراوية ، والتي تكونت خلال الأحقاب المختلفة في مهد العرب ، أن نلاحظ أن الوصف البيئي للعرب قبل أربعة عشر قرنا كان أقل عمومية من أبحاث أجريت عام ١٩٥٧ م في جزيرة العرب من قبل البيئي F. Vesey - Fitzgerald ونشرت في مجلة البيئة البريطانية ٠ وتأكيدا لذلك سأذكر وصف الباحث المذكور لنبت رمال النفوذ والدهناء وغيرها : ان النباتات المعمرة للرمال العميقة هي الارطى والقلقلان (العازر) Artemisia monosperma والعلقي Scrophularia والحشائش النجيلية الخصلية مثل الثمام Panicum turgidum وغيرها مع بعض الشجيرات ذات الجذور الليفية ٠٠ ثم يذكر الانواع الحولية ٠

---

(١) يطلق اسم النميص على Carexstenophylla

(٢) مصحفة عن عكش في النسخ المتداولة اليوم ٠

(٣) الاعشاب المحبة للنتروجين ، أي ما ينبت في الدمن ، والدمنة هي البقعة التي سودها أهلها وبالت فيها وبعرت مواشيهم ٠

أما نبت الرمال الدهناء فقسمة الى قسمين ، فحيث يقل سمك الرمل يسود العرفج Rhanterium epapposum وحيث يسمك تسود الارطى Calligonum commosum أما الحموض التي ذكرها من الضمان فهي الشعران Halogeton alopecuroides والعجرم Anabasis articulata والذي يثير الدهشة أن ما أطلق عليه العرب اصطلاح الملا أطلق عليه الباحث المذكور اصطلاح عشائر الرمال البيضاء الساحلية ذاكرا أنها تمتد ما بين الدهناء والخليج العربي ذاكرا من نباتاتها العرفج والرمث والقصيص ٠

مما سبق يلاحظ أن التراث البيئي يستحق الدراسة الجادة ونحن نملك على عكس غيرنا من شعوب الارض مقومات الدراسة البيئية التاريخية لمهد العرب ٠٠٠ وأن دراسة كهذه سوف تغل ، لا جدال في ذلك ، نتائج ألف عام من الانتظار حول التعاقب النباتي Plant succesion ومعطيات لا حصر لها في علم البيئة والمراعي الصحراوية ٠٠٠

بدايـة المعاجم النباتيـة العربيـة المقارنـة

الدكتور محمد نذير سنكري (١)

المهندس محمد بسام النعسان (٢)

ان المتتبع لتطور علم النبات عند العرب يتبين له أن التجربة النباتية العربية هي تجربة متفوقة بالمقارنة مع تجارب الامم السابقة للحضارة العربية ، سواء من حيث عدد العلماء الذين اهتموا بدراسة النبات ، أو المؤلفات الكثيرة التي ربطت علم النبات بعلوم أخرى كاللغة والطب والفلاحة ··· والدارس لهذه التجربة يلاحظ أن العرب اعتمدوا على مناهج علمية وهو الامر الذي يدل على فهمهم العميق للنبات ، والذي قاموا من أجله برحلات كثيرة للبحث عنه في موطنه ، وأماكن نموه ، ووقفوا على وصفه في مختلف مراحل نموه ، ووصفوه وصفا علميا دقيقا ، من هؤلاء (الدينوري ، الشريف الادريسي ، الغافقي ، ابن الرومية ، ابن البيطار ، الصوري ···) حتى بلغت درجـــة عنايتهم بالنبات أن جعلوا منه علما مستقلا ·

وسنحاول في هذه الدراسة ، أن نسلط الضوء على تجربة فريدة ورائدة عند العلماء العرب الذين لم يكتفوا بذكر أسماء النباتات ووصفها الدقيق ، بل عملوا على وضع الاسماء النباتية المرادفة لتسمياتها العربية مع اللغات الاخرى · مستعرضين هذه التجربة من خلال بعض المؤلفات التي أبرزت الاسماء المترادفة ، والتي اطلعنا عليها ودرسناها ، أو جاءتنا مقتطفات منها في مراجع أخرى ·

أولا ــ مرحلة تدوين أسماء النبات :

لقد تم في هذه المرحلة جمع المفردات النباتية ضمن الكتب والمعاجم اللغوية ، وذلك في بداية القرن الثاني للهجرة ، ولا نجد خلال هذه الفترة اشارات الى معاني أسماء النبات بلغات الاقوام المجاورة ، لان عمل العلماء

---

(١) استاذ دكتور في كلية الزراعة · جامعة حلب وخبير في المركز العربي لدراسة المناطق الجافة · استاذ باحث في معهد التراث العلمي العربي ·

(٢) مهندس زراعي ، دبلوم في تاريخ العلوم من معهد التراث العلمي العربي ·

كان لغويا بحتا • ومن الامثلة على هؤلاء اللغويين : الخليل بن أحمد الفراهيدي ١٧٠هـ (٣) ، النضر بن شميل ٢٠٤هـ (٤) ، أبو عبيدة البصري ٢٠٧هـ(٥)، وابن الاعرابي ت : ٢٣١ هـ (٦) •• وغيرهم كثيرون •

ويعتبر كتاب « النبات »للاصمعي (٧) ت : ٢١٦ هـ أول كتاب خاص بالنبات (٨) ، وهو عبارة عن رسالة قصيرة ، أشار فيها الى الاماكن التي تنمو فيها النباتات ، وقد ذكر الاصمعي نحو (٢٨٠) اسما ومن خلال دراستنا للاسماء الواردة في كتابه ، تبين لنا وجود بعض المترادفات القليلة لاسماء النباتات باللغة الفارسية • ومن الامثلة على هذه المترادفات ما يلي :

التنوم وهو شهدانج البر(٩) ، الحرض وهو الاشنان(١٠) ، الحبق وهو الفوذنج(١١) ، المخاطة وهي التي تسميها الفرس السبستان(١٢) •

وتزداد المرادفات الفارسية لاسماء النباتات في كتاب « النبات »(١٣) لابي حنيفة أحمد بن داود الدينوري (ت : ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م) ويشار أنه كان ايراني الاصل الا أن العلم العربي يجري في عروقه(١٤) ويقع كتاب

---

(٣) ياقوت الحموي : معجم الادباء ، ج١١ ، ص٧٧ •

(٤) نفس المصدر ص٢٤٣ ، ج١٩ •

(٥) هو معمر بن المثنى البصري المعروف بأبي عبيدة البصري ، نفس المصدر ، ج١٩ ، ص٢٤٣ •

(٦) هو محمد بن زياد (المعروف بابن الاعرابي) المصدر السابق ج١٨ ، ص١٩٦ •

(٧) هو ابو سعيد عبد الملك بن قريب الاصمعي ، تاريخ النبات عند العرب ، أحمد عيسى بك ص١٥ •

(٨) نشره هفنر والاب لويس شيخو (ط٢ بيروت ١٩٠٨) وأعاد نشرها عبد الله يوسف الغنيم • ولكن أغلب أسماء النباتات غير محلي التحلية الكافية التي تعرفها •

(٩) الاصمعي ، كتاب النبات ، تحقيق الغنيم ص١٦ •

(١٠) الاصمعي ، المصدر السابق ص١٩ •

(١١) الاصمعي ، المصدر السابق ص١٧ •

(١٢) المصدر السابق ص٣١ •

(١٣) حقق الجزء الثالث منه والنصف الاول من الجزء الخامس المستشرق برنهارد ليفن ١٩٧٣ •

(١٤) الموسوعة الاسلامية ، مادة الدينوري ، الجزء الثاني ص٣٠٠ ،

النبات في ستة أجزاء ضمن الجزئين الاخيرين معجما بأسماء النباتات مرتبة ترتيبا أبجديا وقد أشار الى ذلك عندما ذكر : « ••• ونجعل تصنيف ذلك على توالي حروف المعجم كما تواليها العامة ان شاء الله ، وان تصنيفها على حروف أوائلها أحب الى من تصنيفها على حروف أواخرها •••(١٥) » الا أن ترتيبه اقتصر على الحرف الاول وأهمل بقية الحروف من اسم النبات • وقد وصف الدينوري النباتات وبين فائدتها الاقتصادية (رعوية ــ دباغية ــ عطرية •••) • كما أورد مرادفات الكثير من أسماء النباتات بالعربية والفارسية (منها معرب ومنها دخيل) (١٦) •

ومن أمثلة ذلك نذكر :

آ ــ « ومما لا ينبت بأرض العرب وقد جرى في كلامهم كثيرا المرزجوش وهو عجمي وربما قالت المردقوش ••• » (١٧) •

ب ــ « جل : بالضم ويفتح• وهو الياسمين والورد بأنواعه أبيضه وأحمره وأصفره قاله أبو حنيفة الواحدة بهاء (جله) قال وهو كلام فارسي وقد دخل في كلام العرب ••• » (١٨) •

وقد شاعت بعد ذلك كثير من الالفاظ الفارسية للنبات عن طريق كتاب أبي حنيفة • وقبل أن نترك كتاب النبات للدينوري نحب أن نشير الى أن « ول ديورانت » لم يصب في رأيه القائل : « ليس لدينا الا القليل من بقايا علم الاحياء عند المسلمين في ذلك العصر ومن هذه الآثار كتاب النبات لابي حنيفة الدينوري الذي رجع الى مؤلفات ديسقوريدس ••• » (١٩) فالدينوري لم يرجع فيمؤلفه الى كتاب ديسقوريدس ، وعذر ديورانت أنه لم يطلع أو يدرس أو يقارن المادة النباتية الواردة في كل من المؤلفين (٢٠) •

---

(١٥) الدينوري ، كتاب النبات ، تحقيق ليفن ص٣٩٧ •

(١٦) يشير د• عبد الحميد الشلقاني في كتابه « مصادر اللغة » ص٢٣٠ أن المعرب : هو الاسم الذي هذب حتى أخذ شكل العربية وطاع للاشتقاق فجاء من الفعل فاعل •• وسار في ظل العربية ، أما الدخيل : فقد دخل العربية على هيئته في لغته ، وحرف قليلا على ألسنة أهل العربية •

(١٧) الدينوري ، المصدر السابق المادة / ٧٨٩ •

(١٨) الدينوري ، المصدر السابق المادة / ٨٠٤ •

(١٩) ول ديورانت قصة الحضارة ــ ج١٣ ص ١٨٨ •

(٢٠) يعمل الباحثان على تحقيق وتحلية وتطبيق بعض المعارف الحديثة على أسماء النباتات التي ذكرها الدينوري •

اضافة الى أن المصادر التي اعتمدها الدينوري كانت عربية صرفة ولم يرد فيها أي اشارة لنباتات ديسقوريدس (وقد درس سنكري ، ١٩٨٢ م المادة الطبية ما بين ابن البيطار وديسقوريدس) (٢١) ومنها تبين أن مادة أبي حنيفة في النبات لم يكن من مصادرها كتاب ديسقوريدس ٠

ثانيا ـ مرحلة التعريف بالنبات ورصد مترادفاته :

لقد نشطت حركة الترجمة في العصر العباسي ، وكانت الكتب الطبية من بين العلوم التي ترجمت الى العربية وباعتبار أن النباتات هي المصدر الاول للعقاقير الطبية في ذلك العصر ، لذلك نجد أن المترادفات لاسماء النباتات تزداد عند ترجمتها من اللغات المختلفة الى العربية(٢٢) ولعل كتاب «الحشائش» لديسقوريدس كان له الاثر الاكبر في زيادة المترادفات النباتية لان أطباء المشرق والمغرب العربي والاندلسيين اعتمدوا عليه بشكل كبير في مؤلفاتهم ، بعد ترجمته الاولى في بغداد من قبل اصطفن بن باسيل في عصر المتوكل على الله (ت : ٢٤٧ هـ) وأصلحها حنين بن اسحاق ٠ وكان اصطفن يترك اللفظ اليوناني على حاله وينقله بحروف عربية اذا لم يعلم ما يقابل اسم النبات بالعربية ، والذي يعلمه يذكره بالعربية(٢٣) ٠

وهذه أمثلة من الالفاظ اليونانية وما بين قوسين اللفظ العربي مما علمه اصطفن في وقته (٢٤) :

ألوى (الصبر)	مالنثيون (شونيز)
أوسويس (زوفا)	صرقوقولا (أنزروت)
قالامنتى (فوذنج جبلي)	كومينون آغريا (كمون بحري)
ديقطامينون (مشكطر امشير)	ماراثرن (رازيانج)
مولو (حرمل)	فورثرن (عاقر قرحا)

---

(٢١) قدم البحث في المؤتمر السنوي السادس لتاريخ العلوم عند العرب ، ١٩٨٢ م ٠

(٢٢) أفرد ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الانباء في طبقات الاطباء فصلا بالاطباء النقلة لكتب الطب من اللسان اليوناني وغيره ص٢٧٩ ٠

(٢٣) أحمد عيسى ، المصدر السابق ص٤٠ نقلا عن رواية (ابن جلجل ، في كتاب « عيون الانباء في طبقات الاطباء » لابن أبي أصيبعة ص٤٩٣ ٠

(٢٤) أحمد عيسى ، المصدر السابق ص٤٣ ٠

ومن الذين اعتمدوا على كتاب ديسقوريدس في المشرق العربي وتظهر المترادفات لاسماء النباتات عندهم نذكر ٠

١ ــ ابن سينا (ت : ٤٢٨ هـ) حيث ذكر في القسم الثاني من كتاب « القانون في الطب » معجما مرتبا ترتيبا أبجديا لاسماء النباتات ، وكان يورد الاسماء المرادفة لاسم النبات ومن أمثلة ذلك :

أ ــ « دار شيشعان (الماهية) قال ديسقوريدوس من الناس من يسميه فسقاتن والسريانيون يسمونه وباكسبين وأهل الفرس يسمونه دار شيشعان ٠٠٠ » (٢٥) ٠

ب ــ « سومقوطون (الماهية) قيل أنه حي العالم وقيل أنه ضرب من اللفاح ٠٠٠ » (٢٦) ٠

ج ــ فقلامينوس (الماهية) قيل هو بخور مريم وهو جنس من العرطنثيما ٠٠٠ » (٢٧) ٠

٢ ــ موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (ت : ٦٢٩ هـ) (٢٨) ألف كتاب « انتزاعات من كتاب ديسقوريدوس في صفات الحشائش » ضمنه أسماء نباتية مترادفة حتى يفسر الاسماء النباتية اليونانية الواردة في كتاب ديسقوريدوس ٠

وبعد أن انتقل كتاب ديسقوريدوس الى الاندلس على ترجمته البغدادية ، استعان عبد الرحمن الناصر(٢٩) بالراهب نقولا(٣٠) لترجمة كتاب ديسقوريدوس مرة ثانية سنة (٣٤٠ هـ) حتى يفسر ما بقي مجهولا من أسماء العقاقير اليونانية حتى ينتفع الناس بالمعروف به في الاندلس ٠ ثم كثرت الاجتهادات في وضع الاسماء المرادفة للنباتات بالاستعانة بكتاب ديسقوريدوس ومن العلماء الاندلسيين الذين تظهر عندهم هذه التجربة نذكر :

---

(٢٥) ان سينا ، القانون في الطب ، ج١ ، ص٢٩٠ ٠

(٢٦) المصدر السابق ص٣٨٧ ٠

(٢٧) المصدر السابق ص٤١٢ ٠

(٢٨) أحمد عيسى بك ، المصدر السابق ص٥٨ ٠

(٢٩) ابن أبي أصيبعة ، المصدر السابق ص٤٩٣ ٠ أشار الى أن عبد الرحمن الناصر هو ثامن الامراء في قرطبة لقب نفسه بالناصر (ت : ٩٦١ هـ) ٠

١ ـ أبو داود سليمان بن حسان بن جلجل ألف كتاب سماه « تفسير أسماء الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدوس » في سنة (٣٧٢ هـ) (٣١) ٠

٢ ـ أحمد بن محمد خليل الغافقي (ت : ٥٦٠ هـ) (٣٢) ٠ له كتاب «منتخب كتاب جامع المفردات» وهو شرح للترجمة العربية لكتاب ديسقوريدوس زائدا عليها أسماء نباتات وأدوية أخرى أضافها من بلاد الاندلس وشمالي أفريقيا بعد أن ساح في تلك البلاد وجمع نباتات عديدة ودرس خواصها وذكر كل نبات باسمه العربي واللاتيني والبربري والفارسي ٠٠٠ ومن بين ما أورده : (٣٣)

ـ باذنجان : اسم فارسي ويسمى بالعربية الانب ، والمغد ، والحدق والوغد ٠٠٠

ـ أزدرخت : اسم فارسي معناه حر الشجر وزعم قوم أنه اللبخ ٠٠٠

٣ ـ أبو عبد الله بن محمد بن عبد الله بن ادريس الحسيني الصقلي المعروف بالشريف الادريسي (ت : ٥٦٠ هـ) ٠ له كتاب « الجامع لصفات أشتات النبات ، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطا ، ومن حسن الحظ أننا حصلنا على نسختين منقولتين بالتصوير الشمسي موجودتين في مكتبة معهد التراث العلمي بحلب)(٣٤) ٠ ولنترك الادريسي يعطينا فكرة عن مؤلفه من خلال مقدمة كتابه : (٣٥)

---

(٣٠) المصدر السابق ص٤٩٤ ٠ أشار الى أن الراهب نقولا هو راهب بيزنطي ساهم في نقل مخطوطة ديسقوريدوس الى العربية التي أهداها قسطنطين السابع «أرمانيوس» الى عبد الرحمن الثالث الاندلسي ٠

(٣١) المصدر السابق ، ص٤٩٥ ٠

(٣٢) أبو النصر : تاريخ الزراعة القديمة ص٣٢٠ ـ ٣٢١ ٠

(٣٣) أبو النصر : المصدر السابق ص٣٢٤ ٠

(٣٤) النسخة الاولى والتي تتضمن الجزئين الاول والثاني تحوي /٦١٠/ مفردات من حرف الالف الى حرف النون ٠ ومجموع عدد الاوراق /٢٩٤/ ورقة مصورة من مكتبة دار الكتب المصرية المحفوظة برقم /١٥٢٤/ طب والمنقولة عن المخطوطة الموجودة في خزانة كتب الفاتح باستنبول ومقيدة بها برقم /٣٦١٠/ وهي في أربعة أجزاء ٠ والنسخة الثانية تشتمل على بقية الحروف وفيها جزءان وعدد المفردات /٣٣٤/ مفردة ٠ وهي نسخة المؤلف وعليها اضافات على الهامش بخط عبد العزيز بن محمود بن عبد الله اليعقوبي سنة (٦٨٩ هـ) وعدد أوراقها / ١٨٥ / ورقة ٠

(٣٥) راجع مقدمة كتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » التي ذكرها أحمد عيسى في كتابه تاريخ النبات عند العرب ص٨٤ ٠

« ... فالفت عند ذلك هذا الكتاب ، ورتبت جميع أسمائه على نص حروف أبجد هوز ، وليمكن الناظر فيه وجود ما طلب منه من غير مشقة ، ولا تطويل ، واستوفيت الى ذلك ذكر جميع النبـــات الذي أغفله شيخنـــا ديسقوريدس العين ذربي ، وسميته بكتاب الجامع لصفات أشتات النبات ، وضروب أنواع المفردات من الاشجار والثمار والحشائش والازهار والحيوانات والمعادن ، وتفسير معجم أسمائها بالسريانية واليونانية والفارسية واللطينية والبربرية وهذه ما فاتته ... » ويقسم كتابه الى /٢٨/ بابا في كل باب يبتدىء بالبسملة ثم يذكر أسماء المفردات التي تبتدىء بحرف هذا الباب ومشيرا فيما اذا كان ديسقوريدس قد ذكرهـــا في كتابه أم لا ، ثم يعطي المترادفات لاسماء النبات باللغات المختلفة (٣٦) ، وبعدها يعطي وصفا دقيقا للمفردة ، وهو ينسب الى المصدر الذي نقل منه الوصف ، ثم يذكر الفائدة الطبية منه .

وعندما ينتهي من المفردات الواردة في كل باب يورد تفسيرا لبقية الاسماء المجهولة التي تتبع هذا الباب . ففي نهاية باب الالف مثلا يذكر :

« أفقوس بالرومية هو البطم ، آلوين الصبر ، أفلابوس باليونانية هو الانجرة أقسوس اللبلاب الذي لا ثمر له ، أما ريطن (أما ريقن) هما الاقحوان الاصفر ... » .

ثم يذكر تفسيرا لاسماء العلل المجهولة لكل حرف ، وبعدها يعطي تفسيرا لاسماء الاوزان والاكيال التي تتبع هذا الحرف . وقد لاحظنا أنه يترك فراغا عندما لا يعلم المترادفة للمفردات ببعض اللغات آملا من يأتي بعده ويتعرف على اسمها ويملأ هذا الفراغ .

٤ ـ أحمد بن محمد بن مفرج الاشبيلي المعروف بابن الرومية(٣٧) (ت : ٦٣٧ هـ) والذي ساح في الاندلس وشمالي أفريقية ومصر وسوريا والعراق وألف كتابه . « الرحلة المشرقية » حيث دون فيه نتيجة أبحاثه ومشاهداته ، وذكر كثيرا من الاسماء المترادفة للنباتات بالعربية والبربرية والفارسية ، ومن بين الاسماء النباتية البربرية التي ذكرها ابن الرومية : (زقشته ، قزاح ، قللجة ، فلنجونه) (٣٨) وكلها رآها في افريقية .

(٣٦) انظر الجداول المرفقة في نهاية البحث والتي تتضمن أمثلة عن بعض المترادفات لاسماء النباتات عند الادريسي .

(٣٧) ابراهيم بن مراد : مسيرة علم النبات ، ص٢٣ .

(٣٨) ابراهيم بن مراد : المصدر لسابق ، ص ٢٩ .

٥ ـ وقد أشار ابن البيطار (ت : ٦٤٦ هـ) في مقدمة كتابه « الجامع لمفردات الادوية والاغذية » أن من أحد أغراض تاليفه هو ايراد أسماء الادوية بسائر اللغات المتباينة في السمات كالالفاظ البربرية واللاتينية والفارسية(٣٩)٠

ان عمل الشريف الادريسي وغيره من العلماء الاندلسيين ، في وضع المترادفات لاسماء النباتات هو عمل متميز ، وهو بمثابة جسر هام لنا كي نربط ما بين التسميات العربية والاسماء العلمية الحديثة للنباتات ٠ وان تحقيق كتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » للادريسي وغيره من المخطوطات التي لها علاقة بعلم النبات ، والتي لا تزال دفينة في مكتبات العالم ، سيغل كثيرا في وضع التسميات النباتية العربية ، حتى تتحقق الموسوعة المعجمية لأسماء النباتات العربية(٤٠) والتي دونت في كل العصور وكل الامصار العربية ، وفي كل مستويات اللغة ، مما يفيد في تعميق الابحاث النباتية الحديثة على ضوء كتابات العلماء العرب القدامى ، ورفع الستار عن صفحات مشرقة من اسهامات العلماء العرب في تطوير علم النبات ٠

---

(٣٩) راجع الغرض السادس من تاليفه لكتاب « الجامع مع المفردات الادوية والاغذية » ص ٣ ٠

(٤٠) راجع البحث الذي قدمه د٠ سنكري بعنوان « الموسوعة المعجمية لاسماء النباتات العربية » في المؤتمر السابع لتاريخ العلوم عند العرب ١٩٨٣ ٠

جلول رقم ـ ١ ـ

جلول يتضمن بعض الامثلة عن المترادفات لاسماء النباتات الواردة في كتاب « الجامع لصفات اشتات النبات » للادريسي

الاسم الشائع	اليونانية	اللطينية	الفارسية	الهندية	السريانية	العربيـة	الاسبانية (الافرنجية)	البربرية	الكردية	التركية	الاغريقية
افستين	افستين	انشانسه	جر	برنية	أفسنتهنا			ناشتلت			
آنزروت	صرقولا		كشم	كنجده	عزورخارقوقولا	كحل فارس	افسيتيم	....			
آمس	آمرسين	مرتس	مرزيانج		آسا	الريحان		احمام			
بلسان	بلسامن		مونيامينس	مسحاردار							
جزر	سنطفلين		كزر	كازر	....		يلفمش				برقيش
جمار	....		دلخزما			الدوم (المقل)		اغازاز			جقلونه
دار صيني	قياموس	قياموس	دار صيني		مولون		جفيون	اسطافس			
دم الاخوين	دارقيليون		انساه		....	دم الثعبان (العندم)					
ورد	روذا	رويذه	الجل (كل)		وردا	ورد					
زيتون	الايش	اوليس	....								
كرمنة	اونيلسن	....	كشتى	رتك	كشتى						
كرنب	قولى المارس	فولش	كلتير	بورياتون	كرنجيتا		العلش	ايشامر	زرك		
كمون	كوميون		زيره	احاضي	....				كريتش		
كزبره	فورنتون	قرنبره	حلحلاه	هالي	ملحلاه	كاذ	كليندره				
كرفس	ساليون	آج	كرست	....	....						
عروق صفر			الكركم	دروجويه	كركما	الورس					
فوفل						البندق الهندي					
فرنجمشك	افيلس	فلفيره	افرنجمشك	مرس	فريارجوا	أصابع الفتيات					
فصفصة	مديص	بريه كفوله	اسبست		فيلالوعى						
ضرو	افطرونق	لننسكه				المصطكى					
ضتال	فاليوس	افنيش									

■ الخط المنقط (...............) يعني أن الادريسي قد ترك مكانه فارغا أملا من يأتي بعده ويضيف الاسم المرادف بهذه اللغة ·

جدول رقم ـ ٢ ـ

جدول يتضمن الاسماء المترادفة لأهم النباتات الواردة في حرفي الميم والنون من كتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » للادريسي

الاسم الشائع	اليونانية	اللطينية	الفارسية	الهندية	السريانية	العربية	الاسبانية	البربرية	الكردية	التركية	الاغريقية
مو	مين (يليا ميطن)	شنسره	موجاه	موخيا	....		ميدره	امرغنيس			
مس	موراس										
مقل	يدليون	يدليون	كور	مقل	مقلا		مرانيم				
مصطكى	سنحيس	منطويه		الاجيناس	الكبا	العلك الرومي					ذكية
ميس	لطوني	قيقب		شخت	اخوانس		ميس				
مشتها	افيميلس	مصاع	مرفه		سطانيون		مرفه				
مصاع	رونيا	قليوجربويه	نلك	مسفلا				تيكرتان			
مشكطرامشيع	الاين يستوس		شكطرامشيع	اقديماه	رعيا ديلا ارتتمونس						
ميديون	اميذيون										
مليان	هناقليان		فشك								
مرزنجوش	صمصرجون		مرزنجوش								
مرو	مالسلوفن		مرماخوز	دوميه	دامرن	ريحان الشيوخ	مشاسترن				
ماميثا	هلوقيون										
مواهرن			غاراغيلا					اهردان			
مازريون	خامالا	كليوبتدم	همت برح	جليدما	دنيا ذيرا	أسد الارض	لوربوله	جلديماين			
مستنان	توما لا	قليوجربويه	طويشكه		برثينون	القالى	لطينه	الاصاص			
نخل	فينقس	....	حزبه	كجوزى	داقال (دقلا)						
نعنع	ايذياسمن	مسه	هوارسيون	اقراسماه			منت	تيمرساط	بنك		مثه
نمام	ارقليس	ايرم فيلانس	سيشنبر		فربيون	خضرا	كلميث				قريصموا
ناتحه	....	كوميون	نانخه باسليقو	احمود			ام أوس				
نيلج	ايساطيس	منطويه	نيلج	برانفا	....	الطين الاخضر					

جدول رقم ـ ٣ ـ

جدول يتضمن الاسماء المترادفة لاهم النباتات الواردة في حرفي الياء والهاء من كتاب « الجامع لصفات أشتات النبات » للادريسي

الاسم الشائع	اليونانية	اللطينية	الفارسية	الهندية	السريانية	العربية	الاسبانية	البربرية	الكردية	التركية	الاغريقية
	قتورا					غاف					
ينبوت						(شوك القتاد)					
يفجارس	يفجارس	بارسيه	بادرنجويه	مـل	كروان	الحبق					
ياسمين بستاني			ياسمان			الترنجاني					
			بهرامج								
ياسمين بري		برمه دفوقة				المرعف، العر		انزوا			
يبروح	منداغورس		ساميزلمرته			اللصه ،					
		ان حيلطه	يونانس			تفاح الجن					
يريطون	فرفاذايون	يريطون			صفه						
يحند	نيساليون	نشتاله				يجند					
ينوع	طيثومالس	بتتمالى	حارماس								
يدك	سطو اونسا	قرمنيون	مشلمه	قارناها		يدك		تابعوت		نورلكان	
يولوفيثمن	يولوفيثمن	يولوقيموس			قارسطانس						
يربه يماشيه	آروقه	يربه يماشيه					نيونيس				
		اشفازعش	ماسونج	هيوم		اسفازاج		آلمـه			
هليون	اشفازعش	اسكروله	كشنى		فلنردحويا						
هندبا	مساوس	توضين				هندبا					
هيوفاريقون	اوتازيقون				مرغ			ورحالون			
هاسيموثا			هاسيموثا								

مصـادر البحث ومراجعـه

١ ـ **الادريسي** ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي ، « كتاب الجامع لصفات أشتات النبات » ميكروفيلم يتضمن الجزء الاول والثاني ، مكتبة معهد التراث العلمي بحلب رقم /٣٧/ ٠

٢ ـ **الادريسي** ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس المعروف بالشريف الادريسي ، « كتاب الجامع لصفات أشتات النبات » ، ميكروفيلم يتضمن الجزء الثالث والرابع ، مكتبة معهد التراث العلمي بحلب رقم /٩١٩/ ٠

٣ ـ **الاصمعي** ، عبد الملك بن قريب ـ كتاب النبات ٠ تحقيق عبد الله يوسف الغنيم ـ ١٩٢٧ م ـ مكتبة المتنبي بالقاهرة ٠

٤ ـ **أبو حنيفة** ، أحمد بن داود الدينوري ـ كتاب النبات ـ تحقيق برنهارد ليفن ـ الجزء الثالث والنصف الاول من الجزء الخامس ـ ١٩٧٤ ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ٠

٥ ـ **ابن أبي أصيبعة** ، موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ شرح وتحقيق نزار رضا ـ مكتبة الحياة ـ بيروت ٠

٦ ـ **ابن البيطار** ، ضياء الدين المالقي ـ الجامع لمفردات الادوية والاغذية ـ أعادت طبعه بالاوفست مكتبة المثنى ببغداد ٠

٧ ـ **ابن مراد** ، ابراهيم ، مسيرة علم النبات عند العرب من مرحلة التدوين الى مرحلة الملاحظة العلمية المحض ـ الكويت ١٩٨٣ ٠

٨ ـ **أبو النصر** ، عادل ـ تاريخ الزراعة القديمة ٠

٩ ـ **ابن سينا** ، أبو علي الحسين ـ القانـــون في الطب ، ج١ ـ مؤسسة الحلبي وشركاه ـ القاهرة ٠

١٠ ـ **الحموي** ، ياقوت ـ معجم الادباء ـ عدة أجزاء ـ مطبوعات دار المأمون بمصر ـ الطبعة الاخيرة ٠

١١ ـ **عيسى بك** ، أحمد : تاريخ النبات عند العرب ـ مصور فوتوكوبي عن الطبعة الاولى ١٩٤٤ م ـ مطبعة الاعتماد بمصر ٠

١٢ ـ **سنكري** ، محمد نذير : بحث الموسوعة المعجمية لاسماء النباتات العربية ، معهد التراث العلمي بحلب ـ ١٩٨٣ ٠

١٣ ـ **سنكري** ، محمد نذير : ١٩٨٢ م ٠ المادة النباتية الطبية ما بين ديسقوريدس وابن البيطار ـ المؤتمر السنوي السادس للجمعية السورية لتاريخ العلوم عند العرب ـ جامعة حلب ٠

١٤ ـ **الشلقاني** ، عبد الحميد ، مصادر اللغة ـ جامعة الرياض ـ عمارة شؤون المكتبات ٠

١٥ ـ **ديورانت** ، ول : قصة الحضارة ، الجزء /١٣/ ترجمة محمد بدران ـ الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ٠

١٦ ـ **الموسوعة الاسلامية** ـ الجزء الثاني ٠

خصائص الحيوانات المجترة في التراث العربي

الدكتور محمد مروان السبع

أستاذ في جامعة حلب

لقد أغنى تراثنا العلمي العربي والاسلامي علوم الحياة جميعها بروافد ثرة معطاءة مدعمة بالحجج البليغة والأسانيد المرتكزة على الخبرة والملاحظة والمشفوعة بالتجربة السديدة • ولعل اسهامات علمائنا العرب المسلمين في مجال تربية الحيوان لا تقل غنى ولا تتصاغر أهميتها أمام علوم الحياة الاخرى ولا جدال في أن المنتجات الحيوانية التي يحصل الانسان عليها سواء في مجال التغذية كالحليب واللحم والبيض أو في مجالات التصنيع كالصوف والجلود والقرون والأوبار وما يضاف الى ذلك تتكيء بثقلها كله وعظيم خطرها على فئة من الحيوانات الزراعية جليلة القدر وفيرة العدد عظيمة الفائدة ، ذات خصال متباينة وفضائل متغايرة ومنافع متكاملة يطلق عليها الحيوانات المجترة Ruminant Animals .

ولعل من نافلة القول أن التراث العربي الاسلامي يزخر بالشواهد والادلة على عظمة الدراسات والابحاث المقيضة التي اندفع علماؤنا العرب المسلمون الأفاضل للقيام بها في مجال الحيوانات المجترة ودراسة سلوكها وغرائزها ومعيشتها وتناسلها واظهارهم لفضائلها وخصائصها ، ولقد أطلق هؤلاء العلماء على تلك الحيوانات المجترة كلمة « النعم » • ومن هؤلاء العلماء الافذاذ زكريا القزويني في كتابه « عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات » وابن قيم الجوزية في كتابه « تحفة المودود بأحكام المولود » والجاحظ في موسوعته العلمية «الحيوان» والدميري في معجمه الكبير « حياة الحيوان الكبرى » وغيرهم • ولقد برع هؤلاء العلماء الافاضل براعة مدهشة في كتاباتهم عن النعم وأجادوا في التحليل والوصف والتدقيق ، فلا تقل تلك الدراسات عمقا وجدية عن الدراسات المعاصرة ولا تند عنها في الاصابة والدقة العلمية التي لم تتزحزح حقائقها قيد أنملة منذ أيامهم حتى الآن •

ولقد أوردت في المراجع التراثية التي ذكرنا بعضها أوصاف كثيرة للحيوانات المجترة مثل ما ذكره الجاحظ بأن النعم نوع كثير الفائدة شديد الانقياد وليس له شراسة الدواب (أي البهائم – الفصيلة الخيلية) ولا نفرة السباع (أي اللواحم Carnivorous) وليس له سلاح شديد • أي أن قرونها ليست قوية جدا • ومن

شأنها الثبات والصبر على التعب والجوع والعطش · وخلقت ذلولا كما قال الله تعالى « وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون » · وخلق القرن لها ليتدارك تقصير الحافر · فأظلافها لا تساعد المجترات على العدو والركض السريع · وترك الفك الاعلى للأبقار والاغنام بلا سن وصرف مادتها الى القرن · ولما كان مأكل النعم الحشيش خلقت لها أفواه واسعة وأسنان حادة وأضراس صلبة تطحن بها الصلب من الحب والنوى وخلق لها كرش واسع لتحمل فيه من العلف شيئا كثيرا يفي غذاءها فاذا رجعت الى مكانها تجعلها بالاجترار مهيأة للنضج فتجعل التبن اليابس لحما ودما وحليبا ·

ومن المعلوم أن المجترات تتصف بخاصتين رئيستين :

ـ **الاولى** : أن المعدة في هذه الحيوانات تتكون من أربع غرف متباينة في الحجم والوظيفة وهي على الترتيب : الكرش والشبكية والوريقية والمنفحة ·

ـ **الثانية** : وجود صفة الاجترار ـ أي اعادة مضغ الطعام واسترجاع الكتلة الغذائية لاتمام طحنها وهضمها في الفم ·

ولهذا نجد أن علماءنا قد عرجوا في وصفهم للحيوانات المجترة على هذه النقطة فذكروا « أن ذوات الكروش (المجترات) كلها تقعص بجرتها فاذا أجادت مضغه أعادته » · والجرة هو الفرث · وأشد من ذلك أن يكون رجيعا فهي تجيد مضغها واعادتها الى مكانها ، الا أن ذلك لا يجوز أفواهها ، وليس عند ذوات الحوافر (أي رتبة الخيليات Ord. Perissodactyla) من ذلك قليل وكثير مهما تكن الاحوال · وهذا صحيح حقا فالخيليات تمتلك معدة ذات غرفة وحيدة ليس فيها اجترار ·

وتشتهر النعم كلها بانتاج الحليب الطيب المذاق والنافع المفيد بكميات لا بأس بها حيث يتغذى عليه الانسان في كل مراحل حياته · ويفرز ذلك الحليب من ضروع النعم التي توجد في مؤخرات بطونها · وتختلف أقسام الضروع وأشكالها باختلاف النوع الحيواني الذي ينضوي تحت مفهوم « المجترات » · فللبقر والجواميس أربعة أخلاف (حلمات) في مؤخر بطونها · وللشاة خلفان وللناقة أربعة أيضا · بينما للرجل والمرأة ثديان في الصدر · وللمرأة طبيان لا يصغران عن مقدار بدنها · ولا توجد بهيمة تفطم ولدها عن اللبن دفعة واحدة بل ترتب منعه وتدرجه حتى اذا علمت أن به غنى ان هي فطمته فطاما لا رجعة فيه منعته كل المنع · والعرب تسمي هذا التدبير من البهائم « التعفير » ·

« وكذلك تتميز النعم المجترة بوجود الاظلاف والكروش والقرون • وذوات الظلف (المشقوق) كثيرة الانواع منها الظباء والوعول والنامور والابل والبقر والاغنام والياك والبيزون والبقر الوحشي ، وكذلك الخنازير (مع أنها ليس لها قرون ولا كروش ولا توافقها الا في الظلف فقط) • (ولهـــذا السبب فان الخنازير تصنف مع رتبة ذوات الظلف المشقوق Artiodactyla) الا أنها تختص بتحت رتبة خاصة بها وهي تحت رتبة اللامجترات
Sub — Ord. Non - Ruminantia
وفي الخنازير ما ليس ظلفه بمنشق فيقال هو المخالف بالناب • (وهذه الظاهرة طفرة وراثية نادرة الوجود تسود فيها صفة الظلف المتصل على الظلف المشقوق) •

وأما الظباء فهي أشبه بالمعز منها الأهلي ولها كروش وقرون ولكن لا يوجد بين الظباء والمعز تلاقح ولا تسافد • هي تشبهها في الشعر وانعدام السنام • وتشاكل المعز الخنزير والظباء بالشعر وقصر الذنب • ويخالف البقر الجواميس بطول الذنب وفي عدد أيام الحمل (أيام الحمل عند الأبقار ٩ أشهر و ١٠ أيام وعند الجاموس ٣٠٥ أيام) • ومن ذوات الظلف البقر الأهلي والجواميس وهي أهلية أبدا • وهي موافقة للضأن (أي الغنم) وفي وجود القرون وانعدام الناب والجرة (أي الاجترار) والكرش (أي وجود الغرف الأربع في المعدة) • وتخالف الضأن في الصوف والسنام • (ويقصد بالسنام هنا ارتفاع الغارب قليلا كما هو ملحوظ في الأبقار والجواميس التي تنحدر من أصول هندية أو تنتسب الى الزيبو العربي المنقرض Bos arabicus وتوافق المعز في وجود الشعر وتخالف في عدد أيام الحمل (عدد أيام الحمل في المعز ١٤٩ يوما) •

وهكذا يتضح لنا من هذا التحليل الدقيق سعة اطلاع هؤلاء العلماء الأفذاذ وشمول ملاحظاتهم عند الحديث عن خصائص النعم وميزاتها وفضائلها • وبعد هذا العرض الموجز نقتطف من تراثنا الزاخر تفصيلات أوسع عن كل حيوان تضمه رتبة المجترات حيث نجد شرحا متخصصا لكل نوع •

الابـــل :

وهو من الحيوانات العجيبة • فهو حيوان عظيم الجسم شديد الانقياد ينهض بالحمل الثقيل ويبرك به • وتأخذ بزمامه فأرة تقوده • ويتخذ على ظهره بيت يقعد الانسان فيه مع مأكوله ومشروبه وملبوسه وجمع حاجاته اللازمة للبيت • وربما تصبر الابل عن الماء عشرة أيام ، والجمل يستعين بطول رقبته على النهوض بالحمل الثقيل ، وينال الارض ويرعى منها ليبلغ مشفره جميع جسمه • ويهيج في شباط (اي تبدأ دورة الشبق في أواخر الشتاء) واذا نهشته حية ياكل السرطان وتزول عنه غائلة السم ــ قال ابن سينا وبهذا عرف أن السرطان نافع لنهش الحية • والبعير قبيح السباحة بطيء •

والجمل نوعان : صحراوي ذو سنام واحد Camelus dromidarius وينتشر في شمالي أفريقية والجزيرة العربية ·

: وذو السنامين Camelus bacterianus ويقطن سهول آسية الوسطى وتركستان ·

البقر : Bos taurus premigenus

وهو حيوان شديد القوة كثير المنفعة ولم يخلق له سلاح شديد · وهو ذلول ، ولو كان له سلاح شديد لصعب على الانسان ضبطه · والبقر الأجم (أي العديم القرون Pollless) يعلم أن سلاحه في رأسه فيستعمله محل القرن · وليس للبقر الثنايا الفوقانية فتقطع الحشيش والاعشاب بالتحتانية (واللسان)· ولو لم يخص البقر لم يفد عملا كثيرا لأنه كثير النزوان · (ويجري الخصي في مختلف أعمار الذكور لتسهيل قياده وتحسين نوعية اللحم وخصائصه عند الذبح) وحمل البقرة في تسعة أشهر و (١٠ أيام) ·

بقر الوحش : Bos sp.

ومنه أنواع كثيرة ، وله قرن عظيم ذو شعب كل سنة تنبت على قرنه شعبة زائدة وقرنه مصمت ، وهو يقتل الحيات والافاعي ويأكلها ·

الجاموس : Bubalus bubalus

حيوان عظيم ولا ينام البتة (؟!) ويقتل التماسيح ويغلب الأسد عند الصراع وقال أنه لا ينزو على أمه · والجاموس يغيب بدنه في الماء الى منخريه وحمله يفوق حمل البقر (حيث يصل الى ٣٠٥ أيام) ويعرف الجاموس بالقوة وعظم البدن وهويستطيع أن يقاوم الأسد في النزال · فقد وضع الخليفة المعتصم أنثيين من الجاموس مع الاسد فلم يستطع أن يغلبهما · ووضع أنثى مع ولدها فحاول الاسد ساعة ولم يقدر على مقاومتها · ووضع ذكرا من الجاموس مع الاسد فتناوشا ساعة ثم انسحب الاسد · والجواميس تمنع نفسها وأولادها الاسد بالقرون ولا يقع تلاقح ولا تسافد بين البقر والجواميس ·

الزرافـــــة : Giraffe

رأسها كرأس الابل وقرنها كقرن البقر وجلدها كالنمر وقوائمها كالبعير وأظلافها كالبقر طويلة العنق جدا طويلة اليدين قصيرة الرجلين وذنبها كذنب الظباء ، ويزعمون أن الزرافة متولدة من ناقة الحبش والبقرة الوحشية والنمر وليس هذا صحيحا·وللزرافة خطم الحمل ورجلاها منحنيتان الى أواخرها وليس لرجليها ركبتان ، وانما الركبتان لليدين وكذلك البهائم كلها ·

الضـــأن : Ovis sp.

جعل الله البركة في الغنم فتراها تلد في كل عام مرة واحدة ويؤكل منها ما شاء الله ويمتلىء منها وجه الارض بخلاف السباع فانها تلد ستا وسبعا ولا يرى منها الا واحدا في أطراف الارض • (وحقا فان هذه نقطة تدعو الى الدهشة وتوجب التفكر والتأمل) • ومن عجائبه أن يرى الفيل والبعير والجاموس ولا يخافها مع ضخامة أبدانها ويرى الذئب يخافه (وهذا أمر غريزي فطري جبلت عليه الحيوانات في العلاقة الدائمة على كر الدهور بين آكلات العشب Herbevourus وآكلات اللحم Carnivourus) والأمات (أي الغنمات) تعرف أولادها ولو ابتعدت عنها (بتمييزها بالرائحة الخاصة التي تعرفها عن ولدها) • ويذكر القزويني أن في الهند نوعا من الضأن على صدره اليه وعلى كتفه اليتان وعلى ذنبه الية • وربما تكبر اليه الضأن وتجر العجلة والالية عليها • (ومن الاغنام أنواع كثيرة منها الوحشي ومنها الاهلي والقالبية العظمى ذات قرون متباينة الاشكال) •

المعـــز : Capra hircus

حيوان غبي أحمق • ولذلك يذم الانسان بكلمة التيس • والمعز يفضل على الضأن بغزارة اللبن وثخانة الجلد • وما نقص من الية المعز يزاد فيشحمها • ولذلك قالوا الية المعز في بطنه • ونتن التيس يضرب به المثل •

ولزيادة الايضاح في موضوع الضأن والمعز فقد سرد الجاحظ مقارنة بين فضائل كل منهما بخصائصهما نقتطف منها بعض الشذرات •

تبدأ المقارنة بتفضيل الضأن على المعز ويستشهد على ذلك بدلالة آيات من القرآن الكريم • وعلى الرغم من أن الضأن تلد مرة في السنة وتفرد ولا تتئم (أي لا تضع توائم) وأن الماعزة تلد مرتين وقد تضع ثلاثة توائم وأكثر أو أقل فان البركة والنماء والعدد في الضأن • وكذلك نجد أن الخنزير كثير الخنانيص ولا نماء لها • وكذلك فضل الضأن على المعز أن الصوف أغلى وأثمن وأكثر قدرا من الشعر (وحقا فان للصوف مزايا وخصائص لا يرقى الشعر الى مستواها سواء في التصنيع أو الغزل أو المنتجات) والمثل السائر ان فلانا كبش مـــن الكباش واذا هجوه قالوا انما هو تيس • والحملان يلعب بها الصبيان والجداء لا يلعب بها • ولبن الضأن أطيب وأخثر وأدسم وزبده أكثر ، ورؤوس الضأن المشوية هي الطيبة المفضلة وشحمه يصير كله اهالة واحدة أوله وآخره • والعنز يبقى شحمه على حاله وكذلك لحمه (وهذا صحيح من الناحية العلمية لاختلاف نوعية الاحماض الدهنية الداخلة في تركيب دهن الماعز) • والكباش للهدايا والنكاح فتلك فضيلة في النجدة والثقافة • والملوك تراهن عليها كما تراهن على الخيل • والكبش الكزاز يحمل الراعي وأداة الراعي • وهو له كالحمار

في الرفق ويعيش عشرين سنة • ولا يذكر الماعز بفضيلة الا بانتفاخ ثخن جلده وغزارة لبنه (وفي الواقع فان انتاج الماعز من الحليب يفوق بحوالي ثلاث مرات انتاج الاغنام من الحليب • فقد بلغ انتاج أغنام العواسي من الحليب حوالي ١٤٧ كغ بينما يصل في الماعز الشامي الى ٣٤٠ كغ في السنة) • فاذا صرت الى كثرة النعاج وجلودها أربى ذلك على ما يفضل به الماعز الضأن في ثخن الجلد والغزر في اللبن • والعنز تهدم ولا تبني لأن العنز تصعد على ظهور الاخبيـة فتقطعها بأظلافها • والنعجة لا تفعل ذلك وبيوت الاعراب انما تعمل من الصوف والوبر فليس للماعز فيها معونة وهي تحرقها • ومما فضل الله عز وجل به الكبش أن جعله مستور العورة من قبل ودبر ، ومما أهان الله تعالى به التيس أن جعله مهتوك الستر مكشوف الدبر والقبل • فالتيس كالكلب يفرح ببوله فيردها من خيشومه وبول التيس أخثر البول وأنتنه وريح أبدان التيوس ينتهي اليها المثل • ولو كان في الكبش كان أعذر له لأن الخموم والعفن والنتن لو عرض لجلد ذي الصوف المتراكم الصفيق الدقيق الملتف الكثيف والريح لا تتخلله والنسيم لا تخرقه لكان ذلك أشبه • بينما نجد نتن التيس واضحا مع تخلل شعره وبروق جلده وجفوف عرقه وتقطع بخار بدنه • ولعل ذلك نجده من وضع أنفه على جلودها وجلود أباط الزنج وهذا عيب لا يكون في النعاج • والعنزة هي التي ترضع من خلفها (ضرعها) وهي مخلفة (أي مدرة للحليب) حتى تأتي على لبنها • وهي التي تنزع الوتد وتقلب المعلف وتثير ما فيه • واذا رتعت الضائنة والماعزة فهي في فضل نبت ما تأكله الضائنة ولا ينبت ما تأكله الماعزة لأن الضائنة تقرض بأسنانها وتقطع والماعزة تقبض عليه فتثيره وتخذيه وهي في ذلك تأكله • واذا عظمت اليه النعجة فان الكبش يزيح اليتها بصدره بمقدار ما ينفرج جانبه ثم يسفدها في أسرع من اللمح • والضأن أحمل للبرد والريح والمطر • والموت الى المعزى أسرع وأمراضها أكثر (هذا الكلام ربما لا يكون صحيحا تماما فالاصابة بالامراض في الغنم والماعز لا يقف النوع الحيواني عائقا أمامها) وأصواف الكباش أمنع لها من غلظ جلود المعز • وذكورة كل جنس أتم حسنا من اناثها وربما لم يكن للاناث شيء من الحسن • غير أن التيوس قبيحة جدا •

غير أن الماعز لها فضل لا يخفى فلبنها أكثر وزبدها أطيب ولها غلة نافعة تقوم بأهل البيت ويمدح لحم الماعز الخصي الثني • والجدي أطيب لحما من الحمل • (وهنا قد تختلف الآراء في هذه الفكرة طبقا لأذواق الناس) • والصوف للضأن فقط • أما الوبر فللابل والارانب وغيرها • وأما الشعر فللبقـــر والجواميس والماعز والظباء (والياك) والحيوانات المفترسة والعتاق (الخيول الاصيلة) والبراذين (خيول الجر والحمل) والبغال والحمير وللانسان شعر أيضا • ومن جلود الماعز تصنع القرب والزقاق والمناكل والسقاء والبطائن والقرب وأنطاع البسط وقباب الادم يتفاخر بها العرب • والنعاج آكل من

الكباش وكذا الاناث آكل من الذكور (وهذا فطري بالضرورة ما دام على الانثى القيام باعباء فيزيولوجية مرهقة ليست من اختصاصات الذكور كالحمل والرضاع وافراز الحليب وغير ذلك) ثم يسرد الجاحظ بعد ذلك أسماء الماعز في كل رحلة من مراحل العمر ٠

والشمل والتعاويذ والقلائد انما تتخذ للصفايا (العنزات) ولا تتخذ للنعاج فهي لا يخاف على ضروعها من العين ٠ وكان من الانبياء عليهم السلام من رعى الغنم ولم يرع أحد منهم الابل ٠ ويقول أبو عتاب ليس في الارض شاة ولا بعير ولا أسد ولا كلب يريد الربوض الا مال على شقة الايسر ابقاء على ناحية كبده ٠ وكذلك النعاج والماعز والجداء والحملان ٠ وللانسان الية فهو شبيه بالضأن ٠

وأما موضوع التهجين بين الأغنام والماعز فان الجاحظ يستعرضه استعراضا فيه بعض التفصيل والتضارب في الرأي حيث يقول « ألا ترى أن قرابة الضأن من الماعز كقرابة البخت من العراب والخيل والحمير ٠ وسبيل نتائج الظلف على خلاف ذلك ٠ (وهذا الكلام الذي أورده الجاحظ يسجل بمداد من الذهب لدقته واصابته كبد الحقيقة تماما) وأن التيس على شدة غلمته لا يعرض للنعجة وكذلك الكبش للعنز فضلا عن أن يكون فيها (أي في هذا التلقيح) نتاج لأنه قد يضرب الجنس في الجنس الذي لا يلحقه ٠ ولا يكون للقاح الا بعد ضراب ٠ ويطلب التيس للنعجة قليلا وأقل من القليل ٠ وكذلك الكبش للمنز ولا يوجد تسافد بينهما ٠ الا أن الجاحظ في مكان آخر من كتابه الحيوان يورد فكرة أخرى مغايرة للفكرة السابقة حيث يقول : « ومن الظلف الضأن والمعز » ٠ وقد يكون بينهما تسافد وتلاقح الا أنها تلقيه مليطا قبل أن يشعر وذلك أقل من القليل ٠

(ولعمري أن أقوال الجاحظ هنا تتطابق في الواقع وما نجده من تضارب وتباين في الآراء حول الاخصاب عن التسافد بين الاغنام والماعز ٠ فهناك آراء في الوقت الحاضر تؤكد عدم وجود اخصاب البتة وفي الغالبية العظمى من حالات التلقيح بين الأغنام والماعز ٠ بينما تذكر مراجع أخرى حوادث اخصاب نادرة جدا عند التلقيح بين هذين الجنسين اغنام Ovis arius والماعز Capra hircus ولـكن الجنين المتكون يمتص ويجهض ويطرد من رحم الام في المراحل الجنينية المبكرة من حياته ٠ بينما أثبتت أبحاث عدد من العلماء مثل فاريك ويري وكورلوك التشيكيين وبراتانوف البلغاري خلال سنوات طويلة من البحث المضني امكانية استمرار الجنين في حياته بل والحصول على ولادة طبيعية لهذا الهجين الذي أطلق عليه اسم Ovid عبر سلسلة من العمليات البيولوجية المعقدة لاحداث التقارب الخضري وقهر معضلة انعدام الاخصاب بين الأجناس البعيدة عن بعضها في السلم الحيواني ٠ ولقد بلغت مدة الفترة الجنينية لدى هذه الهجن ١٤٦ يوما ٠

وبحسب الشكل المظهري فان هذه الهجن ذات صفات وسطى بين الكباش والعنزات وصوف شعري طويل وغياب اللحية وانعدام الالية وما الى ذلك • ونسرع الى القول : ان الحصول على أفراد هجينة بين الاغنام والماعز يبقى حالة نادرة جدا تمت بتدخل مضن وقهر للاختلاف البيولوجي بين الانواع ، ولا يمكن أن تعد قياسا أو قاعدة بيولوجية ثابتة يمكن الاستناد اليها • ونخلص الى القول في هذا الموضوع الى أن التلاقح بين جنسي الاغنام والماعز قد ينشأ عنه اخصاب الا أن الجنين يمتص ويجهض ومن ثم نتفق ورأي الجاحظ الذي أوردناه •

الظبي :

وهو أشد الحيوانات نفورا ومن طبعة أن يدخل كناسه مستديرا ويستقبل بعينه ما يخافه على نفسه واذا رعى الحنظل استفاد به وهو يستلذ ماء البحر المر العلقم • وأما ظباء المسك Muskdeer فان لها نابين معنقين خارجين من الفم كما للفيل • والمسك في سرتها لا تنضج الا اذا ألقاه الغزال بأن يحتك بصخرة حادة فتنفجر المادة حينئذ وتسيل على الحجر ويجد الغزال بخروجها لذة • والناس يتبعون مراعيها في الجبال فيجدونه قد جف فيحملونه ويتهادونه فيما بينهم • وقرون الظباء تتشعب اذا أسنت • وهي شداد جدا وانما تقدر الاوعال على الوثوب والقذف بأنفسها من أعالي الجبال على القرون •

الأيـــل :

وهو المعز الجبلي • فاذا لسعته أفعى أو لدغته حية أكل السرطان • وهو يصادق السمك على الساحل • والايل اذا ألقى قرونه علم أنه ألقى سلاحه فهو لا يظهر ، وكذلك اذا سمن علم أنه يطلب فلا يظهر • وأول ما ينبت من قرنه يعرضه للشمس ليصلب ويجف ـ واذا وضعت أنثى الايل ولدا أكلت مشيمته • وربما اصطيد الايل فيجد القناص رؤوس الافاعي وجميع الحيات ناشبة الاسنان في عنقه وجلد وجهه لأنه يريد أكلها فربما بدرته الافعى والاسود وغيرهما من الحيات فتعضه وهو يأكلها ويأكل ما ينال منها بالعض فتبقى الرؤوس مع الاعناق معلقة عليه الى أن تنقطع •

وبعد فهذا غيض من فيض أوردناه من تراثنا العلمي المضيء الباهر في مجال تربية الحيوانات الزراعية المجترة ينبىء عن علم غزير ثر يضج بالحقيقة الناصعة على مر الزمن وكر الدهور ويترع بالسمة العميقة والخبرة المتزنة المعتمدة على التجربة والملاحظة الصادقة • ولقد أفاض علينا علماؤنا العرب المسلمون الافاضل هذه الانجازات العلمية المبدعة في عنفوان سطوع الحضارة العربية الاسلامية لعلها تكون لنا حوافز على نهج الطريق العلمي في شتى فروع العلوم •

المراجـــــــع :

١ ــ كتاب « الحيوان » للجاحظ ٠

٢ ــ كتاب عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزويني ٠

٣ ــ حياة الحيوان الكبرى للدميري ٠

٤ ــ كتاب الخيل للدمياطي ٠

٥ ــ كتاب الخيل للبخشي ٠

٦ ــ السبع مروان تربية الحيوانات المجترة ١٩٨١ جامعة حلب ٠

أهمية وصف الفرس العربي في مؤلفات

الخيـل والبيطـرة العربية

الدكتور موفق فنصة

أهمية الخيل العراب ومكانتها في العالم :

يقول الكاتب الألماني « أوغست يغار »(١) ٠

« يمكن القول بما لا يدع مجالا للشك ان الجواد العربي يحتل المركز الاول بين كل أجناس الخيل العالمية ، وهو أكثرها أصالة ، وان كل ما تمتاز به الجياد الاخرى ذات الصفات الجيدة والدم الاصيل والقدرة على التحمل والسرعة والشكل الخارجي المتناسق ، انما تدين به الى الجواد العربي الأصيل ، وهذا ينطبق على جياد أوربا وعلى تلك الموجودة في الشرق بشكل عام » ٠

أما الكاتبة الانكليزية « ليدني وينتويرث(٢) » فتقول ٠

« ان الجياد تنقسم الى زمرتين ، زمرة تحمل الدم الحار وزمرة تحمل الدم البارد والجياد ذات الدم الحار كلها سامية أساسها من شبه الجزيرة العربية ، وهي أكثر جمالا ورشاقة ونبلا ووفاء وعاطفة ، وهي أسرع جياد الارض علـى الاطلاق ٠ وان سلالة الثوروبريد(٣) الانكليزية المعروفة تعود الى فحول واناث عربية لا شك في نسبهما وأصلهما ، ولكنه سمي كذلك لأنه نشأ وتوالد ومكث في انكلترا زمنا طويلا٠ وان جيمس الاول وكرو مويل وتشارلز الثاني هم الذين استوردوا الخيول العربية الى انكلترة فظهر منذ ذلك الحين الثوروبريد الانكليزي المعروف حاليا » ٠

---

(١) عن ترجمة جزء من الكتاب الالماني Das Orientalische Pferd unddas Privatgestute seiner Majestatdes Konigs Von Wurttemberg

(٢) عن كتاب الخيل العراب وفضلها على الانسال العالمية لقدري الارضروملي ــ بغداد ١٩٧١ ٠

(٣) ثورو بريد Thoroughbred : كلمة انكليزية تعني تام البراعة والتدريب الاصيلـ الانيق ٠

دور الخيل في حياة الانسان العربي :

كان للخيل دور كبير في الحياة الاجتماعية والادبية والعسكرية عند العرب قبل الاسلام وبعده ، فكثيرا ما تغنى شعراء الجاهلية بالخيل وتباهوا بها وفيما قاله أحدهم دليل واضح على تلك العلاقة الانسانية بين الخيل والانسان :

أخلصته حولين أمسح وجهه	وأخو المواطن من يصون ويدأب
وجعلته دون العيال مقربا	حتى انجلت وهو الدخيل المقرب

حتى ان الله سبحانه وتعالى أقسم بها في كتابه الكريم اذ قال :

« والعاديات(٤) ضبحا(٥) فالموريات قدحا · فالمغيرات صبحا · فاثرن به نقعا · فوسطن به جمعا · ان الانسان لربه لكنود » ·

وحين أحب الرسول العربي الكريم الخيل ومدحها في أحاديثه اجتمع حبها عند المسلمين من جهتين جهة الشرع كسنة عن رسول الله ، وجهة طباعها الحسنة في النبل والذكاء والوفاء لذلك لا نرى كتابا عن الخيل والبيطرة يعلو في بابه الاول من أحاديث الرسول (ص) فيها وحبه لها · ومما ورد عنه أنه قال :

« عليكم باناث الخيل فان ظهورها عز وبطونها كنز » ·

وقال أيضا : « الخيل مقصود في نواصيها الخير الى يوم القيامة ، أعرافها أدفاءها وأذنابها مذابها ، التمسوا نسلها ، وباهو بصهيلها المشركين(٦) » متفق عليه) ·

وقال كعب بن مالك الانصاري :

ونعد للأعداء كل مقلص(٧)	ورد ومحجول(٨) القوائم أبلق(٩)
أمر الاله بربطها لعدوه	في الحرب ان الله خير موفق

---

(٤) العاديات : الخيل ·

(٥) ضبحا : صوت الخيل وهي تعدو وهو ليس بالصهيل ولا الجمجمة ·

(٦) المقصود بحديث الرسول (ص) أنه نهى عن قص أعرافها لانها تدفأها وتقطع أذنابها لأنها تنشىء بها الذباب ، وقطع نسلها باخصائها ·

(٧) مقلص : طويل القوائم منضم البطن ·

(٨) محجول وجود اللون الابيض على القوائم ·

(٩) الأبلق : ما كان لونه سواد وبياض ·

لقد كان العرب في معرفة شؤون الخيل وأحوالها بمنزلة لم تصل اليها غيرهم ممن عاصرهم من الأمم ، وبقيت هذه المعرفة من أفراد منهم الى اليوم حائلين في الفيافي والفلوات ، فيعرفون من أدوائها وأدويتها معرفة حاذق متقن ، ولهم في ذلك قدم راسخه وباع طويل ، وورث عنهم ثقات الرواة أخبارا طريفة تستلذها الاسماع • ولشدة ولعهم بالخيل أكثروا ذكرها في أشعارهم ووصفوها أدق وصف بحيث لم يلحقهم في ذلك لاحق ولم يجاريهم في حلبة هذا الميدان أمة من الامم •

والمؤلفات التي تركوها في مجال الخيل والبيطرة أكبر دليل على ذلك حيث وضعوا منها كل ما يتعلق بفضلها وأوصافها ومحاسنها وعيوبها وأسمائها وأسماء وأسماء أعضائها وألوانها وما يعتبرها من الامراض وما تطيب به • وبعض هذه الكتب بقي وحتى وقت قريب مرجعا لتدريس الطب البيطري وعلم الخيل في أوربا(١٠) ومثالنا على ذلك •

ـ كتاب كامل الصناعتين البيطرة والزردقة لابي بكر محمد بن البدر البيطار المصري المتوفي سنة ٧٤١ هـ ، والذي ترجم الى الفرنسية في عام ١٨٥٠م•

ـ الجزء البيطري من كتاب الفلاحة لأبي زكريا محمد بن أحمد بن العوام الأشبيلي من علماء القرن السادس الهجري ، والذي ترجم الى الاسبانية عام ١٨٠٢ م •

صنعات الفرس العربي الظاهرية :

بحكم ارتباط العربي بالخيل وترحاله وغزوه بها ، عرف هذا الانسان وبالفطرة كريم الخيل من هجنتها وذلك من خلال النظر الى شكلها الخارجي ، وهو الشكل الاكثر تناسقا وتلاؤما مع طبيعة الحركة التي تؤديها الخيل في الجري والسبق ، فاصبح الواحد منها آلة الحرب الاولى ومن على ظهورها فتح العرب المسلمون بلادا واسعة وأراضي شاسعة •

ولاعتبار أن الحركة السريعة وقلة التعب والارهاق من مميزات الفرس العربي وجب على شكلها الظاهري أن يخدم قدرتها الحركية وبالتالي قوة نفسها واستقادتها منه • وقد جمع أحد الشعراء العرب صورة الخيل العربية في بيت واحد :

وقد أغتدي قبـل ضوء الصباح	وورد القطا في الفـلاة الحثـاث
بصا في الثـلاث رحيب الثـلاث	قصـير الثـلاث طويـل الثلاث

---

(١٠) انظر كتاب :
Histoire Illustree de la Medecine Vétérinaire Par. E. Lecleainche Tome 1 , Page 169.

وقصد من صافي الثلاث : اللون والعين والغرة ، ورحيب الثلاث : البطن (منحنى الضلوع لا الخاصرتين ، أي ضامر الخاصرتين وسبع الضلوع) والانف والشدق ، وقصر الثلاث الظهر وعسيب الذنب والرسغ ، وطويل الثلاث العوز والشعر والرأس .

وفيما يلي تخليلا لناصر الدين محمد بن يعقوب بن أبي حزام الختلي المتوفي سنة ٢٢٦ هـ(١١) في كتابه الفروسية والبيطرة(١٢) .

« يجب أن يكون عنقه طويلا صحيحا ، شديد النفس ، متسع الجوف ، ومخرج النفس ، ولا تصلح واحدة من هذه الصفات الا بمرافقة الصفات الاخرى وذلك لانه اذا اشتد نفسه ولم تتم فيه بقية الصفات لم ينتفع من نفسه اذا طال عليه الجري كذلك طويل اللسان حتى يكثر ريقه فهو أروح له بالجري وكذلك العنق اذا عرضت عند المذبح كان في الفرس هجنة وضاق مخرج نفسه والأنف اذا كان به فطس تضيق فتحة منخريه » .

أما الحركة بحد ذاتها فتقوم بها القوائم والمفاصل والحوافر لذلك أكد أحمد بن الحسن بن الاحنف(١٣) في كتابه البيطرة(١٤) على ضرورة اختيار الفحل سليم الرجلين من العيوب التي تعدي المهور كالشقاق(١٥) والملح(١٦) والتسريح(١٧) والنفخ(١٨) .

كذلك ذكر ابن أبي حزام الخيلي أن الحوافر يجب أن تكون صلبة قاسية ليست لينة حتى لا تتشقق من كثرة الوطيء على الارض والصخور .

وقال ابن البدر البيطار في صفة الخيل المعدة للنتاج

---

(١١) كان معاصرا لاسحق بن حنين بن اسحق .

(١٢) مخطوطة الفروسية والبيطرة ورقة ٢٠ ب نسخة المكتبة الظاهرية .

(١٣) ربما من القرن الخامس الهجري .

(١٤) مختصر كتاب البيطرة ورقة ٨٦ ب مكتبة أحمد الثالث (مخطوطة) رقم

(١٥) الشقاق : من عيوب منطقة الاشقر فوق الحافر .

(١٦) الملح من عيوب العراقيب .

(١٧) التشريح من عيوب الظهر .

(١٨) النفخ من عيوب العراقيب .

« لقد قيل أن أجود الخيل للنتاج كريمها(١٩) ، طليعها(٢٠) ، تليعها(٢١)، سريعها لاجموحا(٢٢) ، ولاطموحا(٢٣) ، ولا رموحا(٢٤) ، لأن هذه الأعراض تكون في الآباء فتعدي الأبناء أما اذا كان الفحل أصيلا وكانت به عاهـــة كالجرد(٢٥) ، والحور فان هذه لا تفدى » ومن الصفات الظاهرية المستحبة أيضا عرض الجبهة ، ودقة الأذن ، وعدم جحوظ العين ، وقلة لحم الخدين وعرض الكتفين ، واشراف أسفل الحارك وملاسة المتن وقصر القضيب ، وميل الرجلين الوحشي وتحنب اليدين وعرض الخافر ٠

وصف ما يخالف الذكر الأنثى :

جميع الصفات السابقة يجب توفرها في الذكر والأنثى على السواء ، الا أن هناك بعض الصفات في الشكل الظاهري والأخلاق والطباع ذكرها العرب يجب أن تختلف فيها الأنثى عن الذكر لاعتبارات مهمة ذكرت في وظيفة الاستيلاد وقد اتفق معظم المؤلفين العرب عليها ، وفيما يلي تحليلا لابن أبي حزام الختلي(٢٦) :

« يجب أن لا تكون الانثى سمينة كسمن الذكر لأن السمنة تسبب العقم ومن ذلك قلة لحمة اللهزمة وهي موضع القلادة أسفل العنق ، والشفة والخدود والقوائم وضمر الحشا ابتداء من الظهر وقرب ما بين رجليها وكعبيها لأن ذلك يجعلها أكثر احتمالا للحفا وهي رقة الحوافر من كثرة المشي ، وقصر العجان والعجز وهو مؤخرة الجسم لأنه لو اتسع عجانها لقصر وركها وبذلك تضعف الأرجل ، وأن يكون خصرها وثبا للذكر لا يتمقط وينبسط كما يفعل الذكر أثناء الجماع حتى لا يغترها وينثني عنها » ٠

وأما طباعها مستحب من الانثى كثرة الوقوف والقيام على المعلف وقلة الربوض(٢٧) ، أو الرفود ، وكثرة الحركة ومما أورد المؤلفون من أمثلة شاعت بينهم :

---

(١٩) شديدة القوائم من الخيل ٠
(٢٠) طليعة : التي تتقدم على ما سواها ٠
(٢١) تليعها : طويلة العنق ٠
(٢٢) جموح : معاندة ومشاكسة ٠
(٢٣) طموح : حادة الطبع ٠
(٢٤) رموح : عضاضة ٠
(٢٥) جرد : التهاب مزمن في عرقوب القائمة الخلفية ٠
(٢٦) مخطوطة الخيل والفروسية نسخة مكتبة الفاتح رقم
(٢٧) الربوض : كثرة الاقامة ٠

« يعني فرسا نواما وأنثى قواما أو صهولا » ٠

أما الفرس الذكر فيجب أن يكون هادىء الطبع كثير الرقود قليل الاعتلاف٠ كما يستحب في الانثى النفر في الجري واندفاعتها ، حيث كانت العرب تفضل اناث الخيل على ذكورها في الحرب لأن الانثى لها القدرة على التبول أثناء العدو دون توقف وهذا ما لا يستطيع الذكر فعله ٠

الوان الخيل العربية :

أما الوانها فهي :

١ ـ الكميت : وهو الأحمر المائل الى البني ، وهو أحب الألوان الى العرب ويتصف الفرس الكميت بقوة ظهره وصلابة جلده وحوافره ٠

وللكميت درجتان كميت مدمى وكميت أحمر ٠

٢ ـ الصفرة : ولا يسمى كذلك حتى يصفر ذنبه وعرفه ٠

٣ ـ الحوة : وهي الخضرة الضاربة الى السواد ٠

٤ ـ الوردة : تكون في الربيع وردة مائلة للاصفر فاذا اشتد البرد كانت وردة حمراء ، فاذا كان بعد ذلك كانت وردة مغبرة ٠

٥ ـ الابرش : البرش هو لمع البياض ٠

٦ ـ الانمر : أن تكون نسفيه بقعة بيضاء وأخرى من لون أخر ٠

٧ ـ الأشيم : أن تكون فيه شامة أو شأم في جسده ٠

٨ ـ المدثر : الذي به نكت فوق البرش ٠

٩ ـ الأبقع : الذي تكون في جسده بقع تخالف سائر لونه ٠

١٠ ـ الأدغم : قليل الالوان : الذي يكون وجهة وفمه أشد اسودادا من سائر جسده ٠

١١ ـ المغرب : اذا ابيضت أصول فخذيه من الداخل مما يلي الخاصرة والمحاجر والاشفار ٠

١٢ ـ الخضرة : التي تخلطها غبرة ٠

١٣ ـ الشقرة : الحمرة التي تكون منها مغبرة ٠

١٤ ـ الدهمة : وهي شدة السواد ٠

١٥ ـ الكهبة : والأكهب وهو الذي لم يشتد سواده ولم يصف لونه ٠

١٦ ـ الشهبة : لون البياض يصدعه السواد من خلاله ٠

١٧ ـ الأصدأ : شديد الحمرة التي قاربت السواد ٠

وأما الشيه فهي كل لون يخالف سائر لون جميع البدن في الخيل ، وما كان من الخيل خاليا من الشيه سمي اليهيم أو المصلمت ، وقد سمى العرب شيات خيلهم بحسب مواضعها وانتشارها ٠

عيون الخيل الظاهرة :

وتشمل جميع العيون والعلل التي تؤثر في حركة الدابة وتقلل من غرضها في الجري والسرعة وتسبب لها الارهاق والتعب :

١ ـ الانتشار : انتفاخ أعصاب الذراع بعد التعب ٠

٢ ـ الدخس : ورم في أطره الخافر ٠

٣ ـ العرن : نمو عظمي في رسغ الرجل ٠

٤ ـ النفخ : ورم لين في عرقوب وأرساغ الدابة ٠

٥ ـ الشقاق : ورم في أرساغ الدابة وربما ارتفع الى الوظيف ٠

٦ ـ الجرد : نمو عظمي في عرقوب الدابة ٠

٧ ـ السرطان : داء يأخذ الرسغ فيجفف عروقه حتى يقلب حافره ٠

٨ ـ الارقهاش : أن يصك الفرس بحافره عرض عجايته من اليد الاخرى

٩ ـ المشش : شخوص في وظيف الفرس ٠

١٠ ـ النملة : تشقق الحافر ٠

١١ ـ الملح : داء يصيب منطقة الاشعر فوق الحافر ٠

١٢ ـ الفأره : ورم في رسغ الدابة يتنفس اذا مسح ويزول اذا ترك ٠

١٣ ـ الظلاع : داء في القوائم تعمز منه الدابة ٠

١٤ ـ القفاص : داء في القوائم يسبب يبسها ٠

١٥ ـ الأخرق : الفرس اذا كانت احدى وركيه شاخصة والاخرى مطمئنة ٠

١٦ ـ اللوى : التواء ظهر الفرس ٠

١٧ ـ القمع : غلظ احدى الركبتين ٠

١٨ ـ الحلل : استرخاء عصب الدابة ٠

١٩ ـ الحكل : امساح عرق النسا في الفرس ورخاوة الكمب ٠

كيف حافظ العرب على خيلهم :

ان الشكل الظاهري المميز ان استمر توالده خلال عدة أجيال وعلى امتداد عدة قرون فهو يدل على مكنون وراثي ثمين خال من الهجنة في هذا النوع مما يؤدي الى صفـاء عرقي لا مثيل له وهذا ما توصل اليه العرب باختيارهم لفحولهم وحجورهم المعدة للنتاج والاستيلاد فحثوا على اختيار الكريم الاصيل وتخوفوا من الهجين ٠ كما كان للخيل العربية الأصيلة مكانة أسمى وأفضل من مكانة الخيول الاخرى في الغزوات والحروب وذلك لما تبديه الاولى من خفة وسرعة ونشاط ويمن وبركة للمجاهد الذي يعتلي ظهرها ٠

فعن مكحول رضي الله عنه أن الرسول (ص) هجن الهجن يوم خبر وعرب العرب وجعل الأسهم في توزيع الغنائم للرحل سهم والفرس سهمان اذا كانت عربية وسهم واحد اذا كانت هجنة ٠

وعن أبي موسى الاشعري أنه كتب الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: « انا وجدنا بالعراق خيـلا عراضا دكا(٢٨) مما يرى أمير المؤمنين في سهامه » فكتب اليه : « تلك البراذين فما قارب العتاق منها فاجعل له سهما واحدا وألغ ما سوى ذلك » ٠

---

(٢٨) جمع أدك وهو عريف الظهر القصير ٠

ومن المعروف أن العرب لم تكن تستخدم خيلها في أعمال الجر والفلاحة نظرا لطبيعة اراضيهم في شبه الجزيرة العربية ، بل اشتهروا بالاغارة والكمائن في الجاهلية ، أما في شمال شبه الجزيرة العربية فالخيل التي كانت تستخدم للاعمال الزراعية هي خيل غليظة الشكل بطيئة الحركة في الجري والسبق ، سماها العرب أسماء مختلفة كالبراذين والارمنيات والروميات ٠٠٠٠ الخ ، أما النوع المولد بين الاثنين فقد سموه هجينا اذا كانت أمه عربية ومقرفا اذا كان أبوه عربيا ٠ حتى شاع استخدام لفظ الفرس لعتيق على أنه الفرس العربي الكريم الاصيل المعروف النسب ٠

وخشي العرب من أن يدخل الى الخيل العربية أية هجنة أو صفة سيئة بتزاوجها مع فحول واناث غير معروفة النسب ، يقول علي بن رسول العساني في كتاب التذكرة في معرفة البيطرة(٢٩) : « كما يختار الفحول منها فان الفرس ربما دس فيها عرق لئيم كان قديما في الاجهات من الفحل والانثى » ٠

وفي هذا خشية واضحة من صفات سيئة مرتدة هجينة ، لا تظهر في كل جيل ظاهرة لكنها ظاهرة في أنسابهما من الأمهات أو الآباء ٠

ويقول الدميري في كتاب حياة الحيوان الكبرى (٣٠) :

« ان الحصان انما سمي حصانا لأنه يحصن ماءه فلا منذا الا على كريمة ٠ وقيل أيضا لأنه يحصن ماءه فلا نزا أو على أخته أو أمه » ٠

ومن هنا نرى أن العرب ابتعدوا عن تزويج الاقارب وذوي الصفات السيئة فوصلوا الى صفاء عرقي يندر وجوده في عروق الخيل الاخرى ٠

ومما يذكر عنهم أيضا أنه اذا كان لدى أحدهم فرس انثي كريمة النسب وخشي أن ينزو عليها فحل غير كريم النسب وبدون أن يشعر مما سيؤدي الى حملها فقد كان صاحبها يخيط فرجها بخيوط من الفضة حتى يمنع أي فحل من تلقيحها والاضرار بنسلها وتسمى هذه العملية التخريص ٠

كما ذكر في كتب البيطرة العربية طرقا لاجهاض الحجور اذا ثبت حملها من فحل سيء ، وكان الرحم بعد ذلك يعالج وتعطى المسهلات لتنقية أجوافها والتخلص من آثار الحمل السيء من جسمها ٠

---

(٢٩) مخطوطة التذكرة في معرفة البيطرة ورقة ٣١ ب مكتبة كوبرلي رقم ٠

(٣٠) كتاب حياة الحيوان الكبرى لكمال الدين الدميري ج١ ص ٢٤٨ ٠

كما قسموا أنسابها بحسب مواصفاتها فكانت كما ذكرها ابن البدر البيطار في كتاب كامل الصناعتين(٣١) عشرة أنساب هي :

« أولها الحجازي وهو أشرفها ، والنجدي وهو أيمنها ، واليمني وهو أصبرها والشامي وهو ألونها ، والجزيري وهو أحسنها ، والبرقي وهو أخشنها، والمصري وهو أفرهها(٣٢) والخفاجي وهو أصلها والمغربي وهو أنسلها والافرنجي وهو أفشلها » .

وبعد أن انتقلت الحضارة العربية الى أوربا عبر بوابات كبيرة أهمها الحروب الصليبية والتجارة بدأ الايطاليون الاهتمام بجمال ورشاقة الخيل ففي عام ١٥٩٨ م ألف كارلو رويني كتابا عن تشريح الخيل يضم بعض المقاطع عن أمراضها ، وكان هذا أهم أثر بيطري في أوربا بعد حوالي ألف عام باعتراف المصادر الغربية ذاتها ، ثم صور الفنان ليوناردو دافينشي أطلسا لتشريح الخيل والانسان .

وما النتيجة التي وصلت اليها الخيل العربية من تقدير وثناء على صفاتها من قبل الغربين المنصفين لتاريخنا وحضارتنا الا حصيلة جهود متواصلة قام بها أجدادنا العرب في اختيار الصفات المثلى لخيلهم وحسن تزويجها ورعاية تناسلها بما يتناسب مع طبيعة هذه الخيول في السرعة والمناورة والسبق عبر قرون طويلة ، وأجيال متلاحقة وعلى امتداد الارض العربية من مشرقها الى مغربها .

---

(٣١) مخطوطة كامل الصناعتين البيطرة والزردقة ورقة ٥ ـ ٦ مكتبة الحرم المكي رقم

(٣٢) افرهها : أنشطها واخفها .

مراجع البحث :

١ ـ المطبوعات العربية :

ـ ابن سيده ، أبو الحسن علي بن اسماعيل النحوي اللغوي الاندلسي المتوفي سنة ٤٥٨ هـ (المخصص) الجزء السادس ـ طبعة أولى ـ القاهرة ١٣١٨ هـ ٠

ـ ارضروملي ، قدري

(الخيل العراب وفضلها على الانساب العالمية) بغداد ١٩٧١م ٠

ـ النجشي الحلبي ، محمد المتوفي سنة ١٠٩٨ هـ ٠

(رشمات المداد فيما يتعلق بالصافنات الجياد) ٠

صححه وطبعه محمد راغب طباخ ـ حلب ١٩٣٠ م ٠

ـ حمارنة ، سامي خلف ٠

(فهرس مخطوطات دار الكتب العربية) جزءان ـ القاهرة ١٩٦٧ م ٠

ـ الدمياطي ٠ الامام الحافظ شرف الدين بن خلف المتوفي سنة ٧٠٥ هـ (فضل الخيل) طبعه وصححه محمد راغب طباخ ـ حلب ١٩٣٠ م ٠

ـ الدميري ٠ كمال الدين ٠

(حياة الحيوان الكبرى) القاهرة ١٢٧٤ هـ

ـ شبوح ٠ ابراهيم

(فهرس المخطوطات المصورة في معهد المخطوطات العربية) ج٣ ـ القاهرة ١٩٥٩ م ٠

ـ النويري ٠ شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب

(نهاية الارب في فنون الادب) ـ القاهرة ١٩٣٣ م ٠

٢ ـ المخطوطات العربية :

ـ ابن أبي حزام الخيلي : ناصر الدين بن محمد بن أبي يوسف يعقوب بن اسحق المتوفي سنة ٢٢٦ هـ (كتاب الخيول والفروسية) ـ ١٣٥ ورقة ـ مكتبة الفاتح استانبول رقم ٣٥١٠ ٠

ـ ابن أبي حزام الخيلي • ناصر الدين علي بن أبي يوسف يعقوب بن اسحق (كتاب الفروسية والبيطرة) ـ ١٢٤ ورقة المكتبة الظاهرية بدمشق رقم ٥ •

ـ ابن البدر البيطار المصري • أبو بكر محمد المتوفى سنة ٧٤١ هـ •

(كامل الصناعتين البيطرة والزردقة) ١٩٥ ورقة ـ مكتبة الحرم المكي رقم ف١٤)

ـ ابن الرسول الغساني • علي المؤيد بن داود المظفر يوسف بن المنصور عمر المتوفي سنة ٦٤٤ هـ •

(كتاب التذكرة في معرفة البيطرة) ٩٧ ورقة ـ مكتبة كوبرلي رقم ١٢٢٥/١ ف ٧٧٣

ـ ابن قريب الاصمعي الباهلي • عبد الملك المتوفي سنة ٢١٦ هـ

(كتاب الخيل) ١٩ ورقة المكتبة الظاهرية رقم ٦٤١ •

٣ ـ المطبوعات الاجنبية :

— **Jager. August**

(Das Orientalische pferd und das Privatgestute Seiner Majestat des Konigs Von Wurttemberg).

Olms presse 1973.

— **Leclainche. Emanuel.**

(Histoire Illustree de la Medicine Veterinaire).

office du Livre Toulouse 1936.


أبحاث
العلوم التطبيقية

نهاية الأرب في علم الابار عند العرب

دكتور محمد وليد كامل

احتلت الآبار مكانة قدسية خاصة من قبل شعوب المناطق الجافة اصحاب الحضارات فعبدها الوثنيون ، وكرسها اليونانيون للالهة ، وبنى الهنود بجوارها معابدهم ، وأقام المسلمون عليها جوامعهم ·

كانت الآبار وما تزال المصدر الرئيسي لمياه الري والشرب في أغلب بلدان الشرق الاقصى والاوسط وشمال أفريقيا وجنوب أوربا وأمريكا اللاتينية ·

تنوعت أشكالها ، واختلفت أسماؤها ، وتعددت أغراضها ، فبعضها لاستخراج المياه الجوفية في حين أن بعضها الآخر استخدم لتخزين مياه الامطار ، نميز في الاولى شكلين الاول عامودي كجب النبي يوسف عليه السلام الذي شيد في القاهرة عام ٣٧٠٠ ق·م والثاني أفقي كالكهريز في ايران وافغانستان والعراق ، والقناة في سورية والاردن والفلج في شبه الجزيرة العربية · ولقد اتضح تفوق الابار الافقية على غيرها من الاساليب القديمة والحديثة في المناطق الجافة وذلك بسبب ارتفاع التبخر وزحف الكثبان الرملية وتعتبر المدن التي تمتد على حافة الجبال الجنوبية من طهران الى قزوين أبكر مواقع استقرار استخدمت هذه التقنية الهيدروليكية كوسيلة للامداد بالماء في أواخر الالف الثاني قبل الميلاد ·

في هذا الشكل من الابار يجري الماء من أعالي المنحدرات الى قواعدها بتأثير الجاذبية ويخرج الماء عند التقائه مع سطح الاراضي دون حاجة الى وسيلة رفع لري الحقول أو الشرب · أما في الثانية فقد برع مهندسو المياه الانباط العرب عام ٤٠٠ ــ ٣٠٠ ق·م في ترشيد مياه الامطار وتخزينها في ابار صخرية تدعى بالصهاريج أو آبار التجميع ·

لقد استفاد الرومان والاغريق والبيزنطيون (٥٠٠) م من خبرة الانباط والكنعانيين وأضافوا اليها الشيء الكثير · وأحدث العرب بعد الفتوحات في تلك المناطق تطورا ملحوظا في هندسة الابار فشرح أبو بكر محمد بن الحاسب الكرخي عام ١٥١٦ م في كتابه أنباط المياه الخفية كيفية حفر الانفاق وصيانتها ومباشرة الامور المختصة بعلم خصائص المياه (الهيدرولوجيا) ، وصنف ابن سينا عام ١٠٣٧ في موسوعته الشفاء حركة وأنواع المياه الجوفية وأضاف أبو عمر بن

الحجاج عام ١٠٧٣ في كتابه المقنع الاستدلال على المياه الجوفية ونوعيتها من النباتات الطبيعية ولقد أورد زكريا بن محمود القزويني عام ١٢٨٣ في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ما يتعلق بالمياه الجوفية وما عاينه مشاهدة أو سمعه من الرواة والرحالة عن الابار في مختلف أنحاء الدولة العربية الاسلامية ·

ويتفق محمد ابراهيم أبو سليم صاحب الساقية (١٩٨٠) مع غيره على عدم القدرة على تحديد مكان وزمان وأول من حفر أو اكتشف البئر العمودي وكما يرفض امين ورفاقه (١٩٨٣) فكرة صاحب الغمة الجامع لأخبار الامة فيتشييد الآبار الافقية بواسطة الجن في عهد النبي سليمان بن داود عليه السلام·

أخيرا تحول استخراج المياه من الحفر اليدوي الى استخدام احدث طرق الحفر الالي التي بدأت عام ١٨٠٠ م من قبل الافرنسيين ، فكشفت صناعة التنقيب عن الابار الى وجود سبع طبقات حاضنة للماء في المنطقة الشرقية للجزيرة العربية على عمق الف متر تقريبا كما دلت الابحاث الهيدرولوجية على وجود سبعة أحواض تخزينية رئيسية للمياه الجوفية في الصحراء الكبرى ·

١ ـ المقدمة :

يقول أبو بكر بن محمد الحاسب الكرخي ١٠١٦ م في موسوعته « أنباط المياه الخفية » · وبعد فلست أعرف صناعة عظم فائدة وأكثر منفعة من أنباط المياه الخفية التي بها عمارة الارض وحياة أهلها ·

ان خطر نقص المياه الجوفية عائد الى التخزين الطبيعي المحدود اضافة الى سعة التخزين القليلة ، ولذلك فان فرط الاستعمال يحث الجهد لاعادة تحميل مستودعات المياه الجوفية بالمياه السطحية · ان الماء الفائض الذي سيفقد بطريقة أو بأخرى قد يتحول ويدخل الى الارض كما هو الحال في الماء المتسرب نحو المستودعات الجوفية · ان تدفق السيول في فصل الشتاء ومياه المصارف والماء الصناعي ممكن أن يستعمل أيضا بشكل جدي لاعادة تحميل الماء في هذه المستودعات المائية · ان الحفاظ الكامل واستعمال هذا الماء الممكن الافادة منه يتطلب استعمالا للمياه السطحية والجوفية وسهولة في التخزين بآن واحد ·

فالمنطقة العربية ترزح تحت جفاف متزايد وتحت ضغط سكاني متزايد أيضا وان الاستفادة المثلى من المياه الجوفية مع الحفاظ على استمراريتها يتطلب رفع كفاءة ترشيد المياه السطحية باستخدام السدود وباستعمال المخلفات العضوية والاعشاب التي تكيف سطح التربة بحيث تطيل من مدة غمرها بالماء ورفع نسبة الماء الراشح ·

وأحاول في هذه الدراسة القاء الضوء على دور العرب في أنماط المياه الجوفية قديما وتطور تقنية التحري عن الماء الجوفي حديثا ٠

٢ ـ أشكال الآبار وأنواعها :

اختلفت شكل البئر في المنطقة العربية حسب نوعية المناخ وحركية الرمال وذلك حفاظا على الثروة المائية المطرية أو الجوفية من الضياع فقدا بالتبخر ، أو ردما بالرمال الزاحفة ، وهنا يمكن أن نميز شكلين رئيسيين :

أ ـ أفقي ٠

ب ـ عامودي ٠

ففي الشكل الاول : يتم نقل الماء الجوفي من أعالي المنحدرات الى قواعدها لاستخدامه في الري ، ولقد انتشر استخدام هذه التقنية في الري بعد معرفة العرب بها معرفة جيدة منذ بواكير الاسلام تحت مترادفات مختلفة :

قناة ، غيل ، فلج ، كظامة ، كهريز ، (كاريز ، غانه) ٠

في عدة مناطق : من ايران وافغانستان والصين شرقا الى تشيلي والمكسيك غربا ، كما وعرفتها بقاعا عديدة من المنطقة العربية أهمها : العراق ، الحجاز ، اليمن ، البحرين ، وعمان ٠ ولا تزال قيد الاستعمال في عمان ، بينما تستخدم على نحو أقل في اليمن حاليا ، وانعدام استخدامها في البحرين لأن مائها جف وان بقيت القنوات ج قناة فيها قائمة ٠

ونعني بهذه القنوات الانفاق الافقية التي حفرت قديما أي قبل الاسلام ولقد زاد الاهتمام بها ابان عهد معاوية بن أبي سفيان ، ولكن يبدو أن هذا الاهتمام قد تضاءل في نهاية الخلافة الاموية وبعد فترة اهتم بأمر حفرها وصيانتها العباسيون ثم ذوي الاهتمام الى أن سيطر الاتراك على الحجاز فاهتموا بشأن تلك القنوات لتخدم الري وسقيا الحجاج في أن واحد ثم أهملوها وتقاس كفاءة القنوات بمدى قدرتها على الاستمرار في توفير المياه حتى أيام المحل أو ندرة المياه ، ويضاف لذلك القياس طول حياة هذه القنوات ، اذ تعود بعض القنوات الى عهد الاخمينين الفرس قبل الاسلام ٠

ان غانات ghnat (كاريز) بلاد فارس القديمة كانت على شكل عواميد تبدأ من سطح الارض شكل رقم (١) وتحفر بشكل هندسي الى اعلى درجة باتجاه مخزن الماء الجوفي ٠ والنفق الذي هو أساسا أفقي يستخدم كقناة تفريغ ويمتد أحيانا لـ ٢٠ أو ٣٠ ميل حتى منبع المياه الجوفية وتحفر بئر عامودية كل ١٠٠ أو ١٠٠٠ قدم ويتوقف ذلك على العمق ، حتى تصل الى النفق ، حيث يزال منه التراب ، ويؤمن منه الهواء والغذاء ، ويشكل كمدخل عام للحفارين ٠

ان المهارة التي أظهرها حفاروا الفانات قد انتقلت من الابار الى الانباد وان الدقة التي وصل اليها هؤلاء هي بالحقيقة خارقة ، ولقد اتضح تفوقها على الاساليب الحديثة في نقل المياه في المناطق الحارة حيث التبخر العالي والتعرض لكثبان الرمال الزاحفة ، وأن دراسة هندسة الانفاق ستساعد في ازالة الاعتقاد السائد في رؤوس بعض العاملين في الانفاق حاليا بان تشييدها قد تم بواسطة الجن في عهد النبي سليمان عليه السلام (أمين ، ١٩٨٣) حيث أشار صاحب الغمة في كشف أخبار الامة أن سليمان بن داود عليه السلام هو الذي أقام بعمان عشرة الآف فلجا في عشرة أيام ٠

ولقد حاول كل من ويلكنسون ١٩٧٧ ، بترسون ١٩٧٨ أن ينزعا عن العرب وسكان البلاد أية نزعة انشائية ، وقدرة معمارية في ما خص الأفلاج ، وأن أصلها فارسي يرجع لأواخر الالف الثاني ق٠م اذ يعتقد أن المدن التي امتدت على طول حافة الجبال الممتدة من طهران الى بحر قزوين تمثل أبكر مواقع استقرار استخدمت هذه التقنية كوسيلة للامداد بالماء ٠

ولقد ورد في الحديث ما يؤكد انتشار هذه التقنية في أرض الحجاز ، ففي قول الرسول عليه السلام : يا عائشة اغتسلي من ثلاث أبؤريمد بعضها بعضا ٠

وانه أتى كظامة (قناة) قوم فتوضأ منها ومسح على خفيه ٠ قال أبو عبيدة : سألت الاصمعي عنها (كظامة) وأهل العلم من أهل الحجاز فقالوا : هي ابار متناسقة تحفر ويباعد ما بينها ثم يخرق ما بين كل بئرين بقناة تؤدي الماء من الاولى الى التي تليها تحت الارض فتجتمع مياهها جارية ثم يخرج عند منتاها فتسيح على وجه الارض ٠

أما في الشكل الثاني : يمكن أن نميز فيها نوعين :

الاول : يستخدم في تخزين المياه السطحية (الامطار) بعد ترشيدها نحوه بدلا من ضياعها ، لقد طور المهندسون العرب قبل وبعد الاسلام أروع الطرق لتخزين مياه الامطار وفي آبار تجميع وذلك في المناطق الجافة ونصف الجافة الخالية من الانهار الطبيعية الجارية وبشكل خاص في الاردن وفلسطين حيث عرفت الجماعات ذات الاصول العربية (الانباط) في ٦٠٠ ق٠م ، وفي نهاية القرن الثاني ق٠م ، تحولت هذه الجماعات الى مجتمع متحضر مبدع واتخذوا من البتراء عاصمة لهم ٠

وكانوا من أشهر مشيدي الخزانات والبرك ، وبرعوا في استنباط المياه الجوفية ، ومما تجدر ملاحظته ان كافة الصهاريج النبطية اتخذت شكلا مستطيلا،

وزودت بالماء من قبل قنوات يبلغ طولها بضع مئات من الامتار وحتى كيلو مترين ، وهنا اختار الانباط المواضع ذات التركيب الصخري الكتيم فلا يتسرب من المخزون المائي شيئا ·

ولئن كان لهم باع طويل في فن العمارة وصناعة الفخار فان تقنيتهم في جمع الماء وايصاله وتوزيعه دليل على خيال خلاق لم يسبقهم فيه أحد حتى الرومان ، ولقد استفاد الرومان كثيرا من خبرة الانباط ، فاذا كان العوامر (أمارة أبو ظبي) من ورثة الانباط في المشرق العربي فان سكان منطقة المزاب في صحراء الجزائر من ورثة العوامر في المغرب العربي ·

الثاني : يتم نقل الماء الجوفي من الاسفل الى الاعلى بطرق رفع للماء مختلفة ·

ان الآبار المحفورة كانت قليلة العمق أقل من ٥٠ قدم وبقطر أقدام قليلة ، يستخرج الماء منها بدلاء مفردة أو مقرونة أزواجا أو ثلاث ، وبجانب البئر حوض يفرغ فيه الماء من الدلو ، ولقد ساعد تطور الصناعات على الاستعانة بالبكرة الخشبية لرفع الماء بواسطة الدلاء وانتشر هذا النوع في سورية ولبنان ومصر وتونس ، ويعتبر جب النبي يوسف عليه السلام الذي شيد عام ٣٧٠٠ ق·م في القاهرة من أقدم ما عرف عن تاريخ الابار العمودية ، ولا يزال جب يوسف عليه السلام قيد الاستعمال يعتبر البئر العمودي من أكثر الانواع انتشارا في المنطقة العربية كبئر كنود في ليبيا ، وبئر بدر بين مكة والمدينة ، وبئر زمزم في مكة وبئر الكلب في حلب (قرية)· وتختلف آبار هذا النوع في الحجم من بئر قليل العمق صغير القطر بحيث تكفي مياهه لتأمين الحاجات المنزلية الى بئر واسع العمق (١٠٠٠ ــ ٢٠٠٠) قدم كبير القطر بحيث يخدم المرافق العامة والزراعة والحاجات الصناعية في الماضي كانوا يحفرونها عادة باليد وحتى اليوم وفي كثير من أمصار المنطقة العربية لا تزال هذه الطريقة هي المتبعة وترفع المواد من قلب البئر باليد والزنبيل وعندما تتوافر الامكانيات المفيدة ترفع المواد بالدلاء أو القواديس المعلقة وان الطي تبطين الجدران لجدران البئر يجري في حالة الابار المحفورة في التوضعات الرسوبية ضعيفة التماسك ، ويمكن أن يعبر عن البئر العامودي بمترادفات مختلفة حسب طي الجدران وغزارة الماء ومقدار العمق ، وطعم المذاق ·

ويمكن أن نذكر بعضها وفق ذلك :

أ ـ طي الجدران :

الجب ·· بئر لم تطو

القليب ·· بئر قبل أن تطوى بالحجارة ، وهي بئر قديمة

الرس ·· بئر مطوية بالحجارة ، وكل بئر عند العرب

رس ، ومنه قول النابغة :

« تنابلة يحفرون الرساسا »

الحسيف ‥ بئر تحفر في حجارة فلا ينقطع ماؤها كثرة

ب ـ غزارة الماء :

الظنون ‥ بئر لا يدري أفيها ماء أم لا

النزح ‥ بئر نزح أكثر مائها

مكول ‥ بئر قل ماؤها واجتمع في وسطها

الجموم ‥ بئر كثيرة الماء

ج ـ العمـــق :

النزوع ‥ بئر قريبة القعر ينزع باليد

المستوح ‥ بئر يستقى فيها مدا باليدين على البكرة

الطوال ‥ بئر عميقة القصر

د ـ المـــذاق :

القراح ‥ بئر ذات مياه عذبة

الملاح ‥ بئر ذات مياه مالحة

المجة ‥ بئر ذات مياه مرة المذاق

٣ ـ طرق التحري عن المياه الجوفية وتصنيفها :

لقد اهتم العلماء العرب بالتفكير العلمي بأصل المياه ومجاريها من جداول وأنهار واستعمالاتها الزراعية بحفر الآبار وشق القنوات لتوفير المياه اللازمة ·

يبين ابن سينا في الجزء الثاني من موسوعة الشفاء (١٠٣٧ م) أنواع المياه الجوفية « فتقول ان المياه المنبعثة من الارض منها مياه العيون السيالة ومنها مياه لعيون الراكدة ومنها مياه الآبار ، ومنها مياه القنى ، ومنها مياه النز » ·

ويوضح ابن سينا كل نوع من أنواع المياه الجوفية فيقول :

« فأما مياه العيون السيالة فانها تنبعث من أبخرة كثيرة (الماء المحقون داخل الارض) قوية الاندفاع ، كثيرة المادة ، تفجر الارض بقوة انفجارها ، ثم لا تزال تفيض مستبقة موادها على ما نعلمه » .

« وأما مياه العيون الراكدة فانها مياه حديث من أبخرة بلغ من قوتها أن اندفعت الى وجه الارض ، لكن لم يبلغ من قوتها وكثرة مادتها أن يطرد تاليها سابقها طردا ويدفعه ويسحبه » .

« وأما مياه الآبار والقنى ، فانها معانة في ظهورها وبروزها بالصناعة وذلك لانها لما كانت ناقصة القوة عن أن تشق الارض وتبرز ، قصرت لها المسافة فأزيل عن وجهها ثقل التراب المتراكم حتى يخلص الحفر الى مستقر البخارات ، فحينئذ تصادف منفذا تندفع اليه بأدنى حركة فما لم يجعل له منها مسيل ولم يضيفوا الامر في الصيف ضد ذلك ، فان كانت موضعها كبريتية بقيت الحرارة منها دائمة بسبب المادة الكبريتية ٢ وهي مادة رطبة دهنية فان أصابها نسيم الهواء برد الجو جمدت فصارت زئبقا أو قيرا أو نفطا أو شبا أو ملحا أو ما شابه ذلك بسبباختلاف تراب بقاعها ، تغير مكانها ... الخ » .

ويذكر ابن حجاج في كتابه المقنع ١٠٣٧ كيفية الاستدلال على الماء فيقول:

« فمما يستدل به على بعد الماء وقربه وقلته وكثرته أن ينظر الى الموضوع فان كان يثبت فيه : العليق والسعد والحماض والعوسج الصغير ولسان الثور وكزبرة البئر والبابونج واكليل الملوك فانه حيث كان هذا الحشيش كله أو بعضه دائما نباته ، قويا غضا كثيرا ، وورقة خصبا ملتفا فهو دليل على كثرة الماء في باطن الارض ، وعلى قدر غضارته وتنعمه يكون قرب الماء في ذلك الموضع » .

في حين أن أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري أورد في الباب الاول من كتابه عين الحياة في استنباط المياه ، تعريف الامكنة التي في أرضها ماء والتي لا ماء فيها وقد ميز بين التي ماؤها قريب من السطح الارضي والتي ماؤها بعيدة ، فاستدل على وجود الماء في الجبال بوجود نبات لا يظهر الا بالقرب من الماء ، وبظهور الندى على ظاهرها خصوصا في أول النهار وآخره وكثرة الندى وقلته على حسب الماء وقلته وقربه وبعده ، اليه من حسنه ما يمده فهو بئر . وما جعل له ذلك فهو قنا .

« وأما النز فهو أردأ المياه ، وانما يتولد من بخارات لها مادة كثيرة وليس لها من قوة الاندفاع ما يخرق الارض بقوة ، بل اندفاعها متيسر ، وأرضها

رخوة يتحلل عنها أكثر ما يتبخر والذي يبقى ويحتبس تطول مخالطته للارض الى ان يبرز ، لأن حركته الى البروز بطيئة فيعفن ويتغير في طريقه عند مخالطته للارضية ٠

ويضيف أبو عمر بن حجاج في كتابه المقنع ١٠٧٣ م الى ماء العيون والابار ماء المطر وماء الانهار ، ويعتمد على الطعم أو الاثر على البدن في التمييز بينها فمنها : عذب أو مالح زعاف أو مرقابض أو عفص ٠

وحاول القزويني في كتابه عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ١٢٨٣ م أن يفسر حرارة وبرودة الماء في باطن الارض فيقول :

« ذهبوا الى أن جوف الارض فيه منافذ ومسام ، وفيها أما هواء أو ماء ، فان كان هواء يصير ماء بسبب برودة تلحقه ، فان كل اصابه مدد من جهة اخرى لا يسع ذلك الموضع تنشق الارض ان كانت رخوة ويظهر وجهها ، ان لم يكن لها قوة الخروج فيحتاج الى أن ينحى عنه التراب حتى يظهر كماء القنوات والابار ٠٠٠

هذا اذا لم يكن لها مادة من البحار والانهار والاعشاب ، فان كان لها مدد فسببها ظاهر ، واما سبب العيون ان منها الحارة والباردة ، والمفصية والشبيه وامثال ذلك أن المياه تسخن تحت الارض في الشتاء وتبرد في الصيف بسبب أن الحرارة والبرودة ضدان في باطن الارض لا يجتمعان في مكان واحد وزمان واحد فاذا جاء الشتاء برد الجو وفرت الحرارة الى باطن الارض واستدل على عدم وجود الماء كون الارض قشفه لا نبات فيها فان اتفق ان وجد فيها الماء كان بعيدا جدا فيــه ملوحة وتغير طعمه لا يصلح للنبات ، واستدل على قرب الماء من سطح الارض وبعده عنها أن يأخذ الانسان بيده من طين الارض ويعجنه فان رآه أسود ريان وفيه صمغية وطعمه حلو لا مر ولا مالح ولا متغير فليعلم أن الماء قريب وان رآه بخلاف ذلك فانه يكون بعيدا ٠

ان المعرفة المفصلة والشاملة لمستودعات الماء الجوفي تسمح بامكانية تطويرها والتقدم بها واستعمالها ٠ ان المعالم الطبيعية لأحواض المياه صعبة التحقق والتأكد منها حتى في ظروف مثالية ٠

لهذا فالاساليب المفيدة لجميع المعطيات الحقيقية يجب استعمالها وذلك أربع طرق للاستطلاع عادة :

١ ـ البحث الجيولوجي والملاحظات ٠

٢ ـ الاوجه الطبيعية لتواجد المياه الجوفية : الضغط ، الحـــرارة ، الارتفاع ، التحركات ٠

٣ ـ الاساليب الجغرافية والطبيعية للتنقيب ٠

٤ ـ بيانات بتواجد الابار ٠

تتكامل كل هذه العناصر وتساعد كلها في الحصول على صورة كاملة لمستودع المياه الجوفية ٠

ان الملاحظات والبحث الجيولوجي يمكنها أن تبرز المعالم الطبيعية للسطح وبذلك تكون دليل للاوضاع الجوفية : فمعالم السطح الطبيعية والنماذج الجيولوجية غالبا ما تشير الى ما يمكن أن نتوقعه منطقيا تحت الارض ، خاصة بالمقارنة مع ما يتواجد مع طبقة صخرية مناسبة يمكن سحب الماء منها ، فالبنية المتخلخلة للمادة وعلو درجة نفاذيتها أو تشقق الترسبات ذي جوهرية في الطبقة الصخرية المائية اذا أردنا أن نستخرج الماء المفيد لأعمال الري بصورة اقتصادية ٠

يجب أن لا نغفل معرفة اخاديد الابار المحلية ، لأن أخاديد الآبار تجمع وفرة من المعلومات من خلال نشاطات الاخاديد كثيرا ما تكون الابار الموجودة مفيدة بمستوى المياه التي فيها ٠ كما ان الحرارة والانحدارات في المياه الجوفية يمكن أن تثبت اذن يمكن أن تحوي سجلات الابار على معلومات بالغة الافادة في تحديد ما يخص امكنة جديدة على ضوء الاستنتاج من رسم هذه المعلومات سطحيا وجانبيا ٠

ان الطريقة الجيوفيزيائية مؤسسة على استكشاف الاختلافات في الخصائص الطبيعية للمواد السطحية وتحت السطحية ٠

ان المقاومة الكهربائية (الناقلية الكهربائية) والانكسار الزلزالي (المسح الاهتزازي) هما الطريقتان الاكثر شيوعا واستعمالا ٠ وان كلتاهما تتطلب أجهزة خاصة ، وان الخبرة هي جوهرية لتفسير النتائج المعقدة بشكل عام ٠

تعتمد المقاومة الكهربائية على قياس التبدلات في المقاومة ان مقاومـــة التكوينات الصخرية للتيار الكهربائي تختلف جدا باختلاف محتواها من الماء لأن أكثر التكوينات الصخرية النفوذة تغيرا وتأثيرا على تدني قيم المقاومة ٠

وتعتمد على وضع قطبين ضمن الارض وقياس المقاومة بينهما وان عمق الاختراق يتعلق بتباعد القطبين وعليه يمكن أن نضع القطبين بتباعد يناسب الاعماق التي يجب أن يصل اليها التحري ·

ان الابار الموسومة على أساس نتائج تقرير المقاومة والتي يقوم بها جهاز كفء وذو خبرة يمكن أن تحصل بجدارة على ٧٥ الى ٩٠٪ من النجاح ·

تعتمد طريقة الانكسار الزلزالي على خلق الموجات في سطح الارض عن طريق الصدمات أو الانفجار وعلى قياس الوقت اللازم للموجة أن تنتقل على مسافة معينة ، فالموجات تنعكس وتنكسر حسب تبدلات خصائص الوسط الناقل مثل الموجات الضوئية ، ان الوقت اللازم للصدمة الاولى كي تصل الى مسافات مختلفة عن نقطة المنشا تحلل لتحدد خصائص الجوف الارضي ·

تتطلب هذه الطريقة تجهيزات خاصة وتدريب عالي المستوى للاخصائيين العاملين ، وهذه الطريقة أكثر تعقيدا عند التفسير ، وقد طبقوها في استكشافات المياه الجوفية فقط وبشكل محدود نسبيا ·

٤ ـ ملكية الابار وكيفية حفرها :

تعتبر الابار المصدر الاولي والرئيسي للماء في المناطق التي تفتقر الى الانهار السطحية والى أمطار السماء كما هو في أغلب بلدان المنطقة العربية ، ونظرا لأهميتها الكبرى لسكان تلك البلدان ، نرى أن الرسول عليه السلام أولى عناية كبيرة بتحديد مساحتها وكيفية الاستفادة منها واستملاكها ·

فلقد ورد عن الرسول (ص) انه قال :

« اذا احتفر رجل بئر في غير حق مسلم ولا معاهد ، كان له حولها أربعون ذراعا اذا كانت للماشية فاذا كانت للناضح فلها من الحريم ستون ذراعا وان كانت عينا فلها من الحريم خمسمائة ذراعا » ·

ولقد تعرض ابن الحجاج في كتابه المقنع عند وصفه للتقنيات المستعملة في فتح الابار الى ما قد يطرأ من خصومات في ذلك بين الجيران ، وينص لفضها على الوجه العادل بما يلي :

« حين يحفر أحدهم بئرا فيحفر جاره بئرا ثانية على مقربة من الاولى ويوغل في الحفر الى أن يتجاوز عمق الاولى فيتسرب الماء الى الثانية ويقل في الاولى ويتضرر بذلك الجار » ·

فيفصل الاحكام في ذلك بحسب تجانس المياه في الطعم أو اختلافها ٠

وان طلب المستهلكين للمياه الاضافية استدعى تدخل القضاء في بعض المناطق بهدف التقتير من استعمال الماء بحيث يحافظ على مستوى (أو الضغط) الماء في الطبقة الصخرية المائية وخلاصة القول ان قرارات القضاء لا تتضمن فقط حق المستهلك في الماء ٠ بل أيضا الطاقة الميكانيكية التي يمثلها علو الماء في البئر ٠

ولا يمكن استخدام طاقات المياه الجوفية فعليا اذا لم يحافظ على مستوى المياه الطبيعية والضغط في هذا التقنين عادة لا يمكن استرداد الا جزء بسيط من الماء الممكن الافادة منه ومن أجل الاستعمال الكامل الطاقات المياه السطحية والجوفية يجب أن يكون مستوى المياه الجوفية والضغط متدني أثناء فترات الجفاف أو فترات الاشباع المحدود للسطح وعليه أن يكون مرتفعا لاعادة تعبئة الخزانات أثناء فترات افاضة المياه ٠

في بعض المناطق حيث امكانيات التخزين تبقى محدودة فان مفهوم مناجم المياه أصبح مقبولا وكأنه وسيلة ضرورية ومرغوب فيها ولهذا فالماء أصبح معتبرا في نفس الفئة وكأنه ثروة طبيعية أخرى ٠

ولقد خص الدمنهوري الباب الثاني من كتابه « عين الحياة في استنباط المياه » في حفر الابار وما يتعلق بذلك ، فذكر انه ينبغي اذا كانت الارض صلبة ان توسع استدارة البئر أكثر من القدر المعروف ان كان يمكن حفرها ، فان لم يكن لشدة صلابتها يوقد عليها النار لتفتتها بحرارتها ويسهل حفرها من غير كلفة ، وان كانت رخوة فينبغي أن تضيق وتحفر على التراخي بأن يسلك الحفارون عن الحفر ساعة ثم يعودون اليها ويستمرون على هذا الى ظهور الماء ، فان ظهر وسعوا الينابيع وسطحوها على الارض تسطيحا ، ثم يكفون عن العمل ويذوقون الماء النابع فان كان حلوا أو مالحا أتموا عملهم ٠ واذا كان فيهـــا مرارة بعد ذوقه ، اذا انفصلوا عنها تركوها مغطاة بحصير ونحوه الى الغد ، ثم يكشفونها فان وجدوا فيها دهانا رديئـــــا فيشعل سراج بدهن البقر أو الضأن ويدلى في البئر فان انطفأ ولم يثبت للبخار شيء من هذه الشحوم علم أن البخار في البئر رديء فقال لكل من يدنو منه ، ولا يعمل فيها حفار فانـــه يخاطر بحياته ٠

ان طرق الحفر التي طورها الفرنسيين حوالي عام ١٨٠٠ م لا زالت تستعمل بشكل مكثف ، ان أهمية الابار والماء الجوفي وتتطورهما لها مؤشر في حجم صناعة التنقيب عن الابار ٠ ويقدر أنه يوجد أكثر من ٩٠٠٠ متعهد لحفر

الابار في الولايات المتحدة ، وحوالي ٢٢٠٠٠ آلة تنقيب عاملة ، ويقدر عدد الآبار التي ينقب عنها هؤلاء المتعهدون ٥٠٠٠٠٠ بئر/ السنة تقريبا منها ٢٠٠٠٠٠ بئر جديدة و ٣٠٠٠٠٠ بئر معدلة ، ان عدد الابار العاملة في سنة ١٩٥٧ يقدر ١٣٥٠٠٠٠٠ وهذا يمثل ١٥٪ من مجمل احتياج الولايات المتحدة من الماء ٠

وهناك تقنيات عديدة منها :

الدوار الهيدروليكي (ماء ، غضار) وطريقة الكابل ولقد استخدمت طريقة الكابل حيث تعلق آلة فض بكابل وان اهتزاز الالة خاصة تكون أحيانا تعديل لأداة القص لازالة المواد من الحفرة عامة نحتاج للماء في عملية الحفر وتكون غالبا بقطر أقل من ١٤ ــ ١٦ بوصة ٠

يمكننا أن نحدد المواد المتواجدة على أعماق مختلفة في الحفر بالسرعة الانية ، وان تسجيل الملاحظات على المواد المستخرجة والعمق الذي صدرت منه تصبح مرجعا بصفتها سجلات البئر ، وان مثل هذه المعلومات تطلبها غالبا الوكالة الحكومية المسؤولة عن تطور المياه الجوفية ،كما أن هذه المعلومات تساعد جدا لتفسير امكانيات البئر وتستبق ما يمكن توقعه في مناطق أخرى في الجوار ولقد تعرض المنقبون بآلة الكابل صعوبة لدى الحفر في طبقة رملية مفتتة وخاصة طبقة الرمل اللين ، وبسبب المواد التي تنهار حول النصلة ، وان تنوع الآلات المستعملة عن طريقة آلات الكابل يمكن أن تتجمع ضمن خمس فئات ٠

ان آلة الفص أو النصلة القاطعة تطري وتطحن المواد مثلما النموذج الثاني من الآلات (بيلر) يمكنه أن يقتلع هذه المواد ويخرجها من الحفر ٠ وان ثلاث من الآلات المساعدة تستعمل لتسهيل عمل آلة الفص والبيلر : الروب سوكت تربط الكابل الى الآلات الاخرى ، الـ « حارس » الذي يسمح بالحركة العمودية بغية تمكن الالة المفككة من ولوجها في الحفرة ثم الـ (دريل ستم) التي تضيف وزنا وطولا للتنقيب بغية تمكينه من القطع بسرعة وعمودية ٠

فكشفت صناعة التنقيب عن الابار الى وجود سبع طبقات حاضنة للماء في المنطقة الشرقية للجزيرة العربية على عمق الف متر تقريبا كما دلت الابحاث الهيدرولوجية على وجود سبعة أحواض تخزينية رئيسية للمياه الجوفية في الصحراء الكبرى ، وهذا ما دفع القطر الليبي الى جر نهر صناعي من جنوب البلاد الى شماله ٠

٥ ـ حركة المياه الجوفية :

بقي علم طبقات الارض مهملا من قبل علماء العرب مما حرم ابحاث المياه الجوفية من التقدم والتطور ، لأننا لا نجد أثر يذكر في تاريخ جولوجيا المياه ٠

ويلحظ ابن سينا حركة الماء الباطني دون التعمق في اجراء دراسة رياضية يخرج منها بمعرفة الغزارة والتدفق واتجاه الحركة وطبيعتها فيقول :

« والعيون الراكدة والابار الراكدة اذا نزحت ، يجلب اليها بدل ما ينزح منها ، وذلك لأنه انما كان للبخار الذي هو مادة تلك العين أن يندفع الى أن يبلغ الذي كان استقر قديما عليه فقط ، فاذا بلغ ذلك المبلغ صار في الثقل بحيث لا يتمكن ما تحته أن يقله ويزيحه ، بل يكون ما وقف من ذلك سدا ، كما كانت الارض قبل أن تحفر فاذا نقص من ذلك الثقل ، قدر البخار (الماء) المندفع الى جهته ان يتصعد ويحرك ما يعمره من فوق الى الحد المحدود ٠

ويعتبر البيروني أول من علل علميا سبب تدفق المياه طبيعيا من الابار الارتوازية ، وقد توجد المياه الجوفية فوق طبقة من المواد غير المنفذة فتسمى طبقة الماء المعلقة في حين ان الطبقة المائية الموجودة تحت طبقة غير منفذة بحيث يكون الماء مضغوطا تدعى الطبقة الارتوازية ٠

المراجـــــــع :

- الأعظمي ، عواد مجيد (١٩٨٢) تاريخ الري في سهول الرافدين • الكويت
- الرفاعي ، محمود فيصل (١٩٨٢) ، الهيدرولوجيا الهندسية ، منشورات جامعة حلب
- الرفاعي ، محمود فيصل (١٩٨٣) ، دور العرب المسلمين في تقدم علوم المياه والري • الكويت
- الراوي ، منعم مفلح (١٩٨٣) ، مفهوم دورة المياه في الطبيعة والمياه الجوفية عند العرب وأثره في التنمية الزراعية • الكويت
- القاضي ، مصطفى محمود (١٩٨٣) ، نظم ووسائل الري في مصر في العصر العربي • الكويت
- بحيري ، صلاح الدين (١٩٨٣) ، الموارد المائية القديمة بحوض الاردن ، الكويت
- بليمان ديتر ، (١٩٨٣) ، ملاحظات حول نشوء بعض العناصر الاولية لعلم الحضارة/ الثقافة عند العرب ـ الكويت •
- رشيد ، فوزي (١٩٨٣) ، الاثار المرتبطة تنظم الارواء القديمة في العراق ـ الكويت
- سويسي ، محمد (١٩٨٣) مسائل الري والفلاحة في المغرب العربي عبر العصور ـ الكويت
- صالح ، عابدين محمد علي ، طه عثمان القرا (١٩٨٣) ، نظم الري القديمة في المملكة العربية السعودية ، الكويت
- عبيدلي ، احمد (١٩٨٣) ، الافلاج نظام للري بالقنوات الباطنية بجزيرة العرب ـ الكويت
- كامل ، محمد وليد (١٩٨٣) ، وسائل الري عند العرب ، الكويت
- كامل ، محمد وليد (١٩٨٣) ـ تخزين الماء قدر الانسان في الشرق الاوسط ـ الكويت
- الصحاح في اللغة والعلوم (حجم وسيط) طبعة أولى ، دار الحضارة العربية بيروت ١٩٧٥ •

— Isralsen. Orson W, and Vaughn E. Hansen. (1962) , Irrigation Principles and practices, 3 th . John Wiley & Sons, Inc. New York.

التناظر وعمارة التراث

الدكتور محي الدين خطيب سلقيني
كلية العمارة ــ جامعة حلب

مقدمة :

اكتسبت العمارة قيما فلسفية أعطتها جذورا ذات أصالة بعيدة عن مفهوم غربة الانسان على مدى الحضارة العربية والاسلامية فالعمارة تعكس أفكارا ومثلا عليا تعطيها معنى يتوحد معها الانسان • فالايمان بمنبع للوجود يقابله معماريا مركز التناظر • والايمان بالغاية والهدف أوجد محور التناظر • وهكذا نرى دوما صدى روحيا أو نفسيا يطبع الحيز المعماري والعمراني بطابعه الحي •

ويتجلى مفهوم الغنى ، غنى النفس في بساطة المظهر المعماري يقابله غنى الداخل حيث الحوش الداخلي جزء من الطبيعة المكثفة بصوتها وضوئها • النور وقدسية يستخدم طبيعيا واصطناعيا كأغنى من التنوع وعبر تباين الفراغات والقبب ليؤلف مهرجان النور • الماء الذي يجعل من كل شيء حيا يغني بأساليب فاتنة في برك سلسبيل يعكسان القبب المقرنصة الغنية بالضوء أو يعكس السماء ليوحدها مع الارض •

الزخرفة بأشكالها الهندسية والنباتية التي تغمر الحجر والخشب والكتب تعبر عن معنى الايقاع الذي يمتزج بالايقاع الداخلي لصلوات مستمرة ومظهر جلال • نظرة لمدننا تمكننا من رؤية النسيج المعبر عن الهارموني والانسجام والبيئية واللانهائية وروح الجماعة • بينما نسمع في عمارة الغرب صدى التحدي والفردية ، والاستغلال الاعمى لخيرات الارض •

لننظر معا الى عصر معماري بسيط ، نافذة صغيرة في جامع مثلا ، نراها تدعو الى التأمل والاستغراق عبر ثقوب الضوء المنبثة في أشكال نباتات ، والآيات تذوب فيها هنا وهناك والضوء يتبدل خلال اليوم والفصول ، فاللوحة الرائعة تتبدل بتبدلات الضوء أيضا لتصبح مرآة سحرية أو نافذة للاشعور يجري باطمئنان وسلام ليتوحد مع الوجود •

يتبادر الى الذهن بالمقابل سؤال ، هل نشعر بأي صدى ونحن ننظر عبر اطار من الالمنيوم القاسي ؟ اللهم الا وظيفته الجافة .

وقفنا عند عنصر بسيط فرأينا هذا التوهج ، فكيف ونحن ندخل قصر الحمراء لنرى ملحمة كونية من التأثيرات الفنية يشترك فيها الضوء والماء والزخرف في سمفونية متوحدة شاملة الابعاد .

اننا لا ندعو الى تشبث بالتراث كما هو ، بل نهفو لعمارة تجسد نفسية وآمال شعبنا العريق الاصيل ، وهذا يدعونا لفهم تاريخنا مستوعبين التطور في مظاهره الايجابية فقط ، دون نسيان الاساليب الطبيعية التي مارسها أجدادنا . ان الحضارة الحديثة ــ وفيها العمار ــ تشارك في عملية نضوب وتلوث سريع .

ان عمارة تسعى لسعادة الاكثرية سنرى معظم أجوبتها المادية والنفسية في دراسة متحررة لحضارتنا . ونحن لا نذكر بالخطوط الرئيسية المميزة للعمارة العربية والاسلامية الا لنؤكد تضافر هذه المؤثرات والخصائص التي تعطي المعنى العميق لمظاهر حضارتنا . وسنبدأ بأكثر هذه النقاط مجالا للنقاش :

مبدأ التناظر الذي أعتمدته غالبا عمارة التراث .

التناظر : كشكل من أشكال التفكير المعماري

كان للتناظر دوما نصيب كبير من الانتشار والرواج ، رغم وجود تكوينات وتشكيلات أخرى يناقش هذا المبدأ كثيرا عبر التاريخ ، لانه حقق أثرا وانطباعا خاصا به ، فمن مظاهره أنه قدم عمارة ذات جسد مميز قائم بذاته زاخر بالغنى الداخلي والخارجي ، واذا كان التناظر الآن يعد ظاهرة غير مرغوب فيها في العمارة الحديثة ، الا أن لتاريخ الابداع المعماري رأيا آخر ، ومفهوما عميقا يخالف ما يسود الآن من معارضة . حتى أنه ورغم أن التناظر لا يلقي هذا القبول الجماعي المربح الا أن الآراء المتروية لا زالت الى الآن تقدر الى حد ما مضمونه وامكانياته ، وعلى الاقل تبرز ثباته عبر التاريخ .

من هذا المنطق الشامل والمتعمق يجدر بنا النظر من جديد وبروح منفتحة نحو هذا المفهوم الاصيل للتكوين المعماري الذي ساد طويلا وأغنى تراثنا العربي الاسلامي ، وسنحاول أن نوضح ميزات عمارة التناظر في هذا البحث عبر تجربة التراث في آسيا الوسطى . ففي نظرة فاحصة للابنية الهامة التي

تزخر بها هذه المنطقة خلال القرن الخامس عشر وحتى السابع عشر ، من مدارس ومزارات وأسواق تجارية وغيرها · نراها تتوحد مجتمعة في تكوين عالم زخرفي مدهش ، ورغم أن هذا الحور النسيجي الزخرفي هو العنصر السائد فانه لم يمح الانطباع العام المميز للحجوم ، ويبرز في النسيج مميزا الشكل الدائري والمربع ليكون حلقة هامة في التكوين العام ·

ان اختيار الحجوم المحدد والمناسب الذي يعتمد المكعب والاسطوانة ونصف الكرة يوازي بساطة اختيار الطفل الانشائي لحجومه الواضحة المميزة ·

وتدخل هذه العناصر المعمارية في ثقة لتشكل مجموعات مؤلفة لمضمون هذا التكوين العام السائد · وتحقق بعض التجمعات تعبيرا عن وظائف خاصة ، ومع ذلك تبقى ذائبة في هذا الانسجام الهارموني العام وهذا ما سنشعر به ونحن ننظر من المآذن الى ما حولنا لنميز القبب والاقواس ونرى كيف أنها تتجمع في تكوينات متلاصقة جنبا ، تحتضن فراغات الاحواش ، أو اننا نراها تتشكل وتتبلور على هيئة الطوق وعلى طول الحارات الضيقة · وسترينا الاسواق التجارية خاصة هذه العلاقات القائمة على محاور التناظر · وسندرس ذلك بعد قليل · واذا أمعنا النظر أيضا من الاعلى نرى الاشكال العامة المستعملة بسيطة ومعروفة ، حتى أنه يمكننا أحيانا وبسهولة ، قراءة وظائف واستعمال المباني ، رغم أن هذه القراءة تتم بصعوبة أكبر حين ننزل من المئذنة ، وتتابع سيرنا في الحارات ، فالنسيج العمراني ذو الطابع الهارموني يضيع علينـــا التمييز من الحارات والذي كان أكثر وضوحا من الاعلى ·

وهذه الصورة العامة نراها في هيئة أية مدينة في تراثنا الاسلامي · واذا ما توغلنا في التفاصيل وتتبعنا أي مسقط معماري في أمثلة البحث نراه يؤيد ويؤكد بقوة واصرار تعاليم التكوين التناظري ومما يثبت ويدعم الاحساس بالتناظر عناصر معمارية مميزة كالقبب مثلا ، التي تتوزع هنا وهناك مؤكدة التناظر ولكن في غنى مدهش من طرائق التكوين ضمن هذا المبدأ أو اعتماد القبة كشكل معماري استخدم طويلا عبر التاريخ وأخذ مصممو القرون الوسطى بشكله الجاهز ، وكل ما أضافوه هو تغيير قطر القبة أو ارتفاعها وربما لم يخطر على بالهم اعتماد طرق أخرى في التغطية بعيدة عن التسقيف بالقبب ·

فروح التقاليد العميقة تؤمن بخبرة الاجيال المتوارثة بشكل متين ·

ونظرة متعمقة للامثلة الواردة التي تستخدم القبب وتوزعها ضمن مبدأ التناظر تمكننا من رؤية هذا لتنويع والغنى في الحلول · ففي المثال رقم (٧) فنرى توزع القبب يتم حول محور مركزي رأسي تنتشر حولـــه القبب على

مسافات ثابتة من المركز ، بينما المثال رقم (٩) يوضح اختلافا في توضع القبب رغم أن بناءها يبقى عموما ضمن مبدأ التناظر ، فالقبب هنا تتوزع على خط محيطي ، ومراكز القبب فيه ليست على بعد ثابت من مركز التكوين ، حيث المحور الرأسي المركزي ويتتابع الغنى في مفهوم التناظر ويتسع في المثـــال رقم (٨) اذ نشاهد فيه ظاهرة ممتعة في تجمع القبب حين يتزايد عددها وتزداد غزارتها حول المركز وتتوضع على محاور منبثة من المركز وهذا الحل عكس المثال رقم (٩) اذ تزداد غزارة القبب ليس حول المركز بل كلما ابتعدنا عنه وهذه الاختلافات ليست شكلية بل ربما للتأكيد أو لاثارة الاهتمام نحو وظيفة أو عنصر دون غيره توجيه طبيعة البناء ككل أو كأجزاء • وضمن هذا التفكير يمكننا أن نرى ميزة لكل حل الى حد ما يتوضح فيه رأي المصمم في تجمع ما للقبب يخدم فيه فكرته وخاصة عدد ما يحتاج للتركيز أو لاظهار أهمية خاصة يريد تجسيدها •

ومع ذلك لا يصعب علينا ملاحظة أن المصممين بشكل عام يختارون التكوين المتمركز كأساس لفكرتهم وهذا ما توضحه مجمل الامثلة الواردة في المقال •

ويبقى الاختلاف ضمن طريقة تجميع القبب لاغناء مفهوم التناظر اذ تتلاقى المحاور التي تتوضح عليها القبب ضمن المركز الاساسي ، ولكن في زوايا وأبعاد مختلفة أحيانا ، وتكون هذه المحاور وسيلة لبث القبب فيهـا بطريقة أو بأخرى تتوضح عليها القبب أو حولها • ونرى في الشكل (٩) أن المحور الذي يولد القبب أصبح مضلعا له نفس مركز التكوين الاساسي • أما في الشكل (١٠) فالمحور المولد للقبب هو مربع •

وبشيء من التعمق نرى أن طريقة ومقدار بث القبب حول المحور ومختلف هذه الخطوط المتشكلة ترتبط بعدد محدد تقليدي متغير أريد التأكيد عليـه لغاية فلسفية • وبذلك فالعدد المقرر يؤثر على التكوين العام فاختيار المربع يؤمن أربعة محاور • وتختار أشكال غير المربع لتامين امكانيات أكبر من المحاور على محيطها والذي يجزأ لاقسام متساوية لايجاد مراكز القبب ، كل ذلك حسب رغبة المصمم المرتكزة أحيانا على مبادىء فنية أو فلسفية لمفهوم العدد والشكل ، وكلها يربطها خيط واحد هو مفهوم التناظر الذي يؤمن في رأيهم فكرة الوحدة العامة والنمطية في التكوين وهذا الانبعاث الفراغي ينتشر تابعا من المركز يشده بخطوط وشبكات تعتمد روح التناظر •

لنعد النظر في الامثلة لتعميق الفكرة نرى أن المحاور الاربعة الاساسية واضحة في المثال رقم (١٠) وفيها أراد المصمم أن يركز الغنى والمنى في المركز ليخلق الفراغ العام المركزي الذي يحدده ويقويه اغلاقه بواسطة القبب المحيطة

المنتشرة حول المركز وضمن محور محيطي مربع وفي المثال رقم (٩) كان لاختيار الحل طريقة أخرى من التفكير ، فتوضع القبب الاساسي هنا يسير على محور محيطي ينثني مشكلا ضمن الاضلاع تميز عليه مفاصل واضحة فيها أراد المصمم أن يميز وظائف خاصة عدد هذه المفاصل ، لذلك أعطاها أمكنة عقد هامة في مجمل التكوين ٠

الحل يؤكد أيضا على المحاور المتعامدة على مثمن الاضلاع والنابعة من المركز وبذلك يتشكل لدينا تداخل غني في المحاور ، هذا التداخل يشكل بمجمله مناطق مميزة الاشكال تؤكد على معان أخرى للتصميم فنرى المربعات المختلفة والمثلثات ، الى غيرها من الاستنتاجات الاخرى أوجدها هذا التنوع وهذا التداخل في تأليف المحاور المحيطية والمركزية ٠

ميزة أخرى تخفف من ملل التشابه هي اشتراك معظم الاشكال والحجوم في محاولة بث القبب في أحجام مختلفة وبهذه الطريقة تميز وظائف رئيسية وتساهم أخيرا في زيادة الغنى في التكوين العام عندما نلاحظ اختلافا في حجوم القبب ٠ وتتجلى هذه الفكرة واضحة عند التمعن في الشكل رقم (١١) ، والمقاطع الموضحة في لوحة ٢ ٠

ونعود في هذا المجال الى الشكل رقم (٧) لنرى كبرى القبب وكما هي العادة تحتل المركز وتغطي فسحة سداسية وهذه القبة الاكبر تحاكي القبب الاصغر والمتوضعة حولها ضمن محور تناظري شكله دائري فيه مراكز القبب المنتشرة حول القبة المركزية ، هذا ما نراه في المثال رقم (٨) ولكن في غنى متطور لان المحاور في هذا الحل تمتد مسافات مختلفة لتشكل سوقا مغطى قابلا للتوسع في اتجاهات لمحاور نابعة من المركز وفي المثال القبة المركزية أكبر أيضا من القبب الاخرى ٠

الاشكال الموضحة من ٧ ـ ١٠ تظهر محاور التناظر المختلفة تتقاطع فيما بينها مؤلفة نسيجا شبكيا قوامه ألمميز القبب التي توضح بشكل أكبر فكرة التناظر التي تغنيها الوضعيات المختلفة لشبكة المحاور ٠ اذن فمجمل مخططات الابنية ذات القبب تمتلك كل أنواع وتشكيلات التناظر ، ونحس وكأن الاجراء بين كل محورين تتكرر كانعكاس المرآة تماما ٠

من مظاهر الغنى الذي تتصف به هذه الحلول أذن تتجلى في هذه الشبكة وبمحاور التناظر بالقبب ، بالنظام التوسعي باتجاه بعض المحاور بمختلف أنواع التركيز الوظيفي حيث كبرى القبب أو عدد مفصل ما تتقاطع فيه المحاور ، هذه المعاني الفلسفية التي تقود الحل ، وغيرها تميز الطابع الهندسي لعمارة التراث ٠ ونرى في النهاية :

روعة واضحة في التشكل ، رغم أن هذا الجو المفعم بالحجوم المجزأة ما هو الا نتيجة تركيب أشكال هندسية بسيطة تجمعت لتشكل هذا النسيج العام المتوازن • وقد يؤكد البعض أن هذه الشكلية التي كونت اطار الفكرة الرئيسية المعمارية لسوق أو مدينة العصور الوسطى في الشرق الاوسط خاصة لم تكن دوما تعبر بشكل واضح عن المضمون ، ولكننا هنا نميز أمرين :

ان المضمون في هذه العمارة يتوضح وينكشف رويدا رويداً بمقدار تغلغلنا نحو الداخل ولربما كان هذا الاجراء نابعا عن مبدأ فلسفي ، ولكن من المؤكد أكثر هو أن المؤمن آنذاك كان يسعى لغنى النفس (الداخل) ولم يهتم بالمظاهر • هكذا نرى بساطة في الاشكال المعمارية الخارجية وبالمقابل غنى واضح في الداخل (المضمون) ، فالاهتمام بالتصميم الداخلي يتجلى في طريقة انارته ، في تغطيته ، في زخرفته ، بهذا الجزء الحي من الطبيعة في الداخل (السماوي) وهذه الفلسفة ربما تدعمها حاجة مناخية تقلص فيها الانسان عن الجو المحيط القاسي لينفتح نحو الداخل ، نحو بؤر يتكثف فيها غنى النفس والراحة • رغم ذلك فاقتناعنا الحالي هو أن الشكل لا بد من أن يتبع من الداخل ويعبر عنه • أما في عمارة التراث فالتضاد يبقى واضحا وسائدا بين الداخل والخارج ، تشدد عليه فكرة اعطاء الجو الداخلي للبناء عالمه الخاص ذا القوانين المميزة النابعة من الارض والعقيدة والفزيرية •

كان المصمم في ذلك الوقت من التاريخ يعرف وبشكل واضح ماذا يبني ولم يكن يهتم كثيرا حتى بكيفية البناء أو بمظاهره الخارجية • كانت تقوم أمامه معادلة ثمينة : البيت هو العالم ويريد أن يعبر من خلال بنائه عن العالم بكل معانيه • انه بذلك لا يسعى كالآن لبناء بشكل فردي تجريدي القسمات ، مميز ، بل ليبني عالما مصغرا يكشف ما أمكن أو ليشابه هذا العالم الكبير مادة وروحا •

ان هذا المنحى وجد منذ القدم عندما اتجهت التقاليد والفلسفة لتوجيه الانتاج الحضاري ليشابه هذا العالم ولا يكون حربا عليه بل يريد أن يكون صورة له•ويتبع هذا الاعتقاد انعكاسه على كل مجالات الحضارة ومنها العمارة• ولتوضيح أعمق ، لهذا المفهوم فان العقيدة كانت تتعرف على الكون بأنه مركزي وبأنه نبع من نقطة مركزية وحيدة ، وبأن له محورا ومعنى ، خلال هذه المعتقدات كان الاختيار محدد أمام المعمار فالمحور الفراغي ذو المعنى ، أضحى في الواقع المادي المعماري ، وكذلك النقطة المركزية وهكذا • هناك مفهوم آخر كان يسود الاعتقاد القائم على وجود ايقاع منظم ، فقد تصور الايقاع كشكل من أشكال الوجود الزمني له أهميته الروحية وبذلك انعكس مفهوم الايقاع يتابع صداه على الموسيقى والشعر والرسم والزخرفة • والعمارة

وكان للايقاع حساب خاص يمتلك عناصره الخاصة وتنعكس في تكرار الشكل ويعمقها عن طريق العمارة التأمل في هذا الجلال الذي يبثه ٠

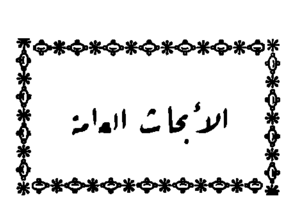
اذن كان لكل لمسة معمارية معناها آنذاك ابتداء من المركزية والتناظر والمحاور والايقاع وبساطة المظهر وغنى الداخل والنسيج الجماعي العمراني ٠ ومن الصعب الآن احصاء كل ما عبرت عنه العمارة من أصداء ذاتية محلية فلسفية أعطتها معنى يبعد الانسان عن الاغتراب ، وتقدم له هذا الحيز النابع من أعمق الجذور ٠ ويبقى التساؤل : هل قـــاد تبني مثل هذه العمارة الى الشكلية ، وسيادة التماثل ، ووضع الحدود مما يبعـد عن دائرة الابـداع الفرديــة ؟

وربما يفيد تأكيدنا هنا من جديد على أن الهدف الاسمى والديمقراطي في عمارة أجدادنا يبتعد عن الشكلية والمظاهر والفردية ، وكان مقابل ذلك يسعى للهارموني في غنى داخلي سواء على مستوى أحواش المدينة مثال ١ و ٢ أو الاحواش في الابنية العامة أو السكن وفيه نرى مفهوم الواجهات الداخلية تقود نحو رئات فنيــة على المستويين المعماري والتخطيطي في الداخل نقوش ورسومات ونوافير تملأ الحياة الداخلية بالحركة والحياة تجسد الكون الكبير في هذا الكون الصغير عالم البيت أو المسجد ٠٠٠ وبذلك تمثل العمارة حياة الانسان الحقيقية وهو جزء من هذا الكون الكريم ٠ ولقد ساهم ثبات الافكار المعمارية عن الزمن والفراغ والفلسفة في تحديد هذه الشكلية في العمـارة الاسلامية من خلال المخططات القائمة على مبدأ التناظر خاصة ، كما تبعه عدم الاهتمام بأشكال حجمية منفردة ومميزة تسعى نحو عمارة خارجية ، بل كان الاتجاه في طريق آخر تماما له استقلاله القائم على مثل تخص عالمنا العربي الاسلامي والامثلة التي تجسد الحياة الروحيــة وفلسفتها كثيرة في العصور الوسطى، وحملت فيها الابنية مضامين ومعاني تعبر عن النقطة العليا كمركز وتهتم بالمحور والغاية وتدعو للايقاع مجسدة كل المعاني الروحية في مساقط وأشكال أدت أولا الى التناظر ، وبنت عالما خاصا مميزا يعد أحد عوالم الفن المعماري الخالد المنسجم شكلا ومضمونا ٠ هذه الثقافة المعمارية الواسعة التي قدمها أجدادنا شملت معظم العالم في فترة حضارة بناءه واستوعبت كل ايجابيات الحضارات بفضل موقعها وعالمية رسالتها وهي تشهد الآن تشويها أعمى من قبل الغرب يقابله تقليد أعمى يعيشه معمارنا العربي ٠ ومع ذلك فنحن لا ندعو الى جمود والتعصب عند حدود ما وصلت اليه حضارتنا من قبل فالمرونة في استيعاب الايجابي في نظرة شاملة للتاريخ تقودنا الى حل مشكلة الحلقــة المفقودة ما بين التراث والمعاصرة ، مع الاصرار على بقاء الهوية الذاتية في عمارتنا ولا سيما أن جذورنا العميقة لا زالت علمية الجذور وارتباطنا بها

يبقى الاقوى من أن نكون زبائن طيمين للغرب الذي أخلت حضارته بالتوازن الطبيعي للانسان وكوكبنا عامة .

للانسان بعد كوني وهو كون مصغر ، وعليه يقع وعلى عاتقه تقع مسؤولية تعميق دور كل ما يقوم به ، يفكر بالمغزى وحفظ التوازن البيئي ، وأن تكون علاقاتنا بالكون في أسمى الصلات ، وليكون الانسان فيه أخا للانسان . عند ذلك يصبح لعمارتنا معنى كما كانت في عمارة أجدادنا ، نضيف اليها واقعنا الحالي . ونعود الى الموضوع الذي انطلقنا منه وهو التناظر ونتساءل بعدها هل يقوم المعمار الحديث عندما يتبنى التناظر في تصميماته عن وعي مسبق كما كان هذا متبعا في حضارتنا ؟ وهل يمكن للتناظر ضمن نظريتـه الماضية للعالم أن يدخل حياتنا المعمارية وعلى مشارف نهاية القرن العشرين ؟

هذا التساؤل يستحق التعمق والدراسة المستمرة ...


الأبحاث العامة

العوامل التي أدت الى ازدهار العلوم عند العرب
ومدى تأثير التقدم العلمي العربي في النهضة الاوروبية الحديثة

الدكتور محمد الديـك
أخصائي برامج العلوم الاساسية
اليونسكو/روستاس

لقد احتل موضوع تأثير الحضارة والثقافة العربية على الحضارة والثقافة الاوروبية مركزا بارزا في الدراسات الشرقية منذ نهاية القرن التاسع عشر • وهذا الموضوع الهام والمتعدد الجوانب تناولته كثير من الاعمال الفردي منها والجماعي المخطط بهدف تتبع مدى تأثير التراث العربي والاسلامي على الحضارة الاوروبية وكذلك دراسة الطرق والدروب المختلفة التي سارت فيهـا هـذه الحضارة حتى وصلت للاوروبيين مع بداية عصر نهضتهم • لقد قام العالم أجمع بالمساهمة في مثل هذه الدراسات فعقدت لذلك الندوات والمؤتمرات • ويعتبر هذا في حد ذاته اعترافا من العالم بأهمية الدور الكبير الذي لعبه التقدم الحضاري والعلمي عند العرب وأثر ذلك في بعث الحضارة والتقدم العلمي المعاصر • وقد وصل هذا الاهتمام درجة كبيرة عندما انعكس ذلك في قرار اليونسكو في المؤتمر العام الثاني عشر في نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٢ بدعم وتطوير المعاهد المتخصصة في العالم ومدها بالخبرة والخبراء ، هـذه المعاهد والتي أنشئت بهدف احياء والحفاظ على التراث والثقافة في العالم حيث تعاونت مع اليونسكو ثلاث مراكز من الوطن العربي بدمشق وبيروت والقاهرة• وتبع ذلك برنامج اخر عام ١٩٧٦ يهدف الى دراسة تاثير الثقافات وفروع المعرفه المختلفة وتفاعلها بعضها مع بعض • وتقوم اليونسكو بتشجيع عمل الدراسات الخاصة بجمع التراث وعلى سبيل المثال وخلال عام ١٩٨١ قـام الدكتور أحمد يوسف الحسن وبناء على تكليف من اليونسكو باعداد كتاب عن « التكنولوجيا الاسلامية » وهو تحت الطبع الان باللغة الانجليزية وقد امده معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بكثير من المعلومات الهامة • وتجدر الاشارة هنا الى ذلك القرار الحكيم المتسم ببعد النظر والذي انشىء بناء عليه معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب بسوريا : كما اتوجه بالشكر لجميع العاملين فيه وكذلك السادة أعضاء الجمعية السورية لتاريخ العلوم على المجهود الضخم الذي يقومون به في الحفاظ على تراثنا العلمي وعلى نشره والنهوض بالابحاث المتعلقة بابراز الدور الهام الذي لعبه العرب في التقدم العلمي • ولعل هذا الدور الكبير الذي لعبه أجدادنا يكون لنا نحن أبناء هذا الجيل قوة دافعة لاستعادة المكانة المرموقة التي كان يتبوأها الاجداد • ولذلك أناشـد

العاملين في مجال الاعلام بالوطن العربي بالاستفادة من مقتنيات هذا المعهد وذلك بالتركيز على هذه الامجاد وتبسيطها للعامة وغير المتخصصين لتكون لنا جميعا قوة دافعة لمزيد من الجهد نحو الانماء العلمي والتكنولوجي • فلقد تتابعت الاحقاب التي ازدهرت فيها العـلوم وتبدلت أماكن ومراكز البحوث العلمية عبر الزمان • وانعكس ذلك على رقي وتقدم الانسان المعاصر لهذه الحقبة من الزمان • وحفظ التاريخ بين طياته تراث الاجداد • ومن المؤكد أن الحضارة العربية كانت من الدعامـات الرئيسية التي بنى عليهـا الغرب حضارته الحالية • ولولا هذه الركائز العلمية العربية لتأخر بنـاء النهضة الاوروبية لقرون طويلة • ولعلنا نتساءل عما كان سيؤول اليه اليوم حال الامة العربية لو أنها حافظت وطورت وسارت في نفس الدرب الذي سار فيه الاجداد ولم تنتقل لاوروبا حضارتنا •

وبالرغم من ذلك ورغم أن الغرب اليوم يعيش في قمة التطور العلمي الذي انعكس على كل سبل حياته السهلة والمريحة الا أنه ما زالت هناك الخبرات العربية الموجودة في هذه البلاد المتقدمة تساهم بفكرها وتفيد بعلمها الانسانية كلها وتثبت بالدليل القاطع أنه عندما تتوفر الامكانات والبيئة الملائمة فان الانسان العربي يمكنه أن يقدم في هذه المجالات مثل ما يقدم غيره من الدول الغربية وعلى سبيل المثال لا الحصر أستاذنا الدكتور عبد الرزاق قدورة الذي يترأس قطاع العلوم بالمنظمة الدولية للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) ويقود مسيرة هذا القطاع باقتدار فائق وعلم غزير وشخصية مهابة ، والدكتور دبيكي بتكساس ، والدكتور مجدي يعقوب بانجلترا وهم من أقـــدر جراحي القلب في العالم ، والدكتور فاروق الباز الجيولوجي الذي يعمل ببرامج الفضاء الامريكية والذي ساهم بعلمه في اختيار أماكن هبوط مركبات أبوللو على سطح القمر • كل هؤلاء وغيرهم كثيرون من الوطن العربي الكبير وصلت شهرتهم آفاق العالم ويحملون اليوم مشاعل العلم والمعرفة وهم محل فخر لامتهم العربية في كل مكان •

لقد بدأت الحضارة العربية ازدهارها بحركة ترجمة قوية نقلت فيها الى اللغة العربية العلوم عن اليونان والفرس والروم والقبط والهنود وغيرهم • وأنشئت المكتبات وقبل الخليفة هارون أن تسدد الضرائب في صورة كتب ، وكان ابنه المأمون يدفع للمترجمين أجورهم بما قيمته وزن الكتاب المترجم ذهبا • وفي الفترة الممتدة بين القرنين التاسع والثالث عشر الميلادي كان ثراء الانسان العربي يقاس بقدر ما يقتني من كتب نفيسة ومخطوطات قيمة ، ولذلك كان التنافس بين المعاصرين في تلك الفترة في عقد الندوات وحضور جلسات العـلم والمناظرات والتعرف على المدارس العلمية المختلفـة والمنتشرة أرجاء الوطن العربي الكبير وفي اقتناء الكتب النفيسة النادرة • ولقد ضمت

مكتبة الخليفة الفاطمي العزيز بالله بالقاهرة ما يزيد على مليونين من المجلدات النفيسة ، كما ضمت مكتبة قرطبة حوالي نصف مليون كتاب وبلغ عدد دور الكتب العامة في بغداد وحدها أكثر من مائة مكتبة وبهذه المناسبة أود أن أشير الى أنه ونتيجة لانتشار الكتب والمكتبات عرف العرب علم المكتبات وتصنيف الكتب • فمنذ حوالي ألف عام أصدر محمد بن اسحق تاجر الكتب البغدادي الشهير بابن النديم أكبر وأهم مصنف للمطبوعات ظهر في عصره وحتى القرن العاشر الميلادي الا وهو الفهرست الذي احتوى كل قسم من أقسامه العشرة أسماء الكتب التي تتحدث في جانب واحد من جوانب الثقافة والمعرفة • وفي هذا الجو العطر ، الذي استخدمت فيه اللغة العربية في كل أنحاء الوطن العربي والتي كان لمرونتها الكبيرة أكبر الاثر لنقل كل المصطلحات العلمية ، بدأت اضافات العلماء العرب تتضح لتشمل مختلف فروع العلم والثقافة والمعرفة أذكر منها الطب والصيدلة والعمارة والفن والموسيقى والفلسفة والادب والجغرافيا وفروع العلوم الاساسية من حساب وجبر وهندسة وكيمياء طبيعية ••• الخ •

لقد فتح الخلفاء والامراء والحكام مثل المأمون ونظام الملك ، ونور الدين زانجي والحكيم وصلاح الدين وغيرهم فتحوا قصورهم للعلماء وخصوهم بعطفهم وشملوهم برعايتهم كما فتحت المكتبات والجوامع ومنازل المعلمين للدارسين والراغبين في تحصيل العلم • وكانت مثل هذه البيئة الصالحة هي الارض الطيبة التي ازدهرت فيها الحضارة العربية وكانت سببا مباشرا في جذب الدارسين من كل مكان • ويحدثنا تاريخ تلك الفترة النضرة من حياة العرب أنه كان لكل طالب علم مكان بالمعهد الملائم لدراسته ومعلم خاص بل ودعم مادي يعينه في معيشته •

وما زالت للآن تتردد بكل فخر بيننا أسماء مراكز الاشعاع العلمي المنتشرة في ذلك الوقت في أرجاء الوطن العربي مثل :

جامع الامويين	بدمشق
جامع المنصور	ببغداد
الجامع الازهر	بالقاهرة
جامع القيروان	بتونس
جامع القرويين	بفاس
جامع قرطبة	بالاندلس
الجامع الكبير	بصنعاء
دار الحكمة	ببغداد والقاهرة
دار العلم	بالموصل

وكل هذه المراكز وغيرها من المكتبات المنتشرة في سورية والعراق ومصر تعتبر بمقاييس الزمن المعاصر معاهد نامية على أعلى مستوى من الرقي .

ولا غرو أن يبرز العلماء العرب في مثل هذه المناخ الملائم ، فناقش الخازن وتلاميذه قبل نيوتن موضوع الجاذبية والعلاقة بين الوزن والسرعة والمسافة ، ودرس ابن خلدون علاقة الاحياء بالبيئة المحيطة قبل لامارك ، ووصف ابن النفيس الدورة الدموية قبل هارفس وناقش ابن الهيثم طبيعة الضوء وسرعته وظاهرة الانكسار كما ناقش اخوان الصفا وابن خلدون نظرية النشوء والارتقاء قبل داروين بقرون . وغيرهم هؤلاء من الافذاذ كثيرون وسوف أذكر بعضهم فيما يلي بشيء من التفصيل . وعندما ندرس الظروف التي أدت الى بعث الحضارة الاوروبية في عصر النهضة نجد أنها تتشابه مع ما أوردناه بالنسبة لاحياء العلم العربي . فقد بدأ الاوروبيون بترجمة كل ما وقع تحت بصرهم من كتب عربية الى اللاتينية وقد كان ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي بعطف وتشجيع من ملوكهم وحكامهم حيث أظهر ملوك نورماندي شغفهم بتعلم اللغة العربية وترجمة كتبها . وفي الاندلس كانت هناك حركة قوية وواسعة لنقل كل المخطوطات وخصوصا مؤلفات الرازي المجوسي وابن سينا وابن البيطار وداود الانطاكي . ووصلت هذه الحركة ذروتها في منتصف القرن الثالث عشر في طوليدو وظلت بعض هذه المراجع تستخدم في أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشر كما سنذكر بعد قليل . ثم أنشئت الجامعات أولا في باريس ثم اكسفورد وكامبريدج ثم ايطاليا وبقية الدول الاوروبية حيث كان لنقل هذا الكم الهائل من المعرفة والعلم العربي الى اللاتينية أكبر الاثر في دعم وتأسيس وبناء الجامعات الاوروبية . فقد بدأ أساتذة الجامعات بدراسة العلم العربي المنقول لهم ثم بتطويره بعد أن ظلوا لقرون يستخدمونه كما هو . ثم حمل أساتذة الجامعات من الاجيال اللاحقة مشاعل العلم والمعرفـة ، وكان منهم فرانسيس باكـون ، ديكارت ، نيوتـن ، كوبر نيكوس ، كبلر ، جاليليو ، لافوازيه ، مولر ، باستير ، كوخ ، داروين لامارك ، كوفيير ودالتون .

وتفرعت العلـوم وتشعبت مجالات المعرفـة وأنشئت المدارس العلمية المتخصصة وتعددت الجامعات وعرف العلم مجالات جديدة من البحوث وأصبح من الصعب على العالم أن يتخصص في أكثر من مجال علمي كما كان مألوفا عند العرب . ثم بدأت الرحلات العلمية الاستكشافية الكبيرة تتوالى في القرنين الرابع عشر والخامس عشر مثل رحلة فاسكوديجاما لجزر الهنـد الشرقية (وكان المرشد البحري في هذه الرحلة بحارا عربيا يدعى ابن ماجـد) ثم رحلة كولمبوس لجزر الهند الغربية .

وتوالت الاكتشافات والاختراعات وساعدت الاجهزة العلمية الحديثة على تقدم العلم بخطى واسعة وفي وقت قليل نسبيا فعلم البيولوجي مدين بالكثير

لاختراع المجهر الذي فتح آفاقا واسعة لدراسة الاحياء ، ثم كان لاختراع الطباعة في القرن الخامس عشر أثر كبير في نشر علوم العرب واليونان واعطاء الجامعات الاوروبية الدفعة القوية من المعلومات اللازمة لدراستها لتصبح نقطة الارتكاز نحو آفاق العلم الحديث ٠

وفي الجزء التالي من المقال سوف أذكر بايجاز بعض الاعمال الهامة للعلماء العرب في مجال العلوم الاساسية لنلمس بأنفسنا العلامات المضيئة التي تركوها والاضافات العلمية الكثيرة التي قدموها للانسانية بجهدهم ٠ وفي الحقيقة من الممكن أن نفرد لكل فرع من فروع العلم مقالا خاصا به لايضاح هذه الاعمال الجليلة ٠

في عام ٨٣٠ م أنشئت أول أكاديمية علمية ببغداد أطلق عليها اسم دار الحكمة وكان ذلك في عصر الخليفة المأمون الذي أبدى اهتمامه الشديد بالعلم والعلماء ٠ وبدأت أولى أعمال هذه الاكاديمية بعملية الترجمة حيث ظهر في هذا العصر اتجاهان فكريان الاول نحو الشرق حيث نقل عن الفرس والهند التاريخ والرياضة والفلك والاتجاه الثاني كان بتوجيه من الخليفة هارون الرشيد حيث ترجمت الاعمال الطبيـــة لهيبوقراط وجاليني وأعمال الفلك للبطلمي ٠ ثم تبع هذه البداية النشطة لعصر الترجمة عصر المنجزات العلمية الخلاقة والابداع الفكري والازدهار العلمي وسوف أذكر منها بايجاز الانجازات في فروع العلم الآتية :

١ ـ العلوم الرياضيـة :

أ ـ الحســاب :

لم يكن العد بالارقام الحسابية متطورا حتى أيام العرب ٠ وكانت حروف الهجاء هي المستخدمة حتى ذلك الوقت ٠ وكان لدى الهنود أشكال مختلفة من الرموز تستخدم في المعاملات الحسابية اختار منها العلامـــة محمد بن موسى الخوارزمي احداها (وهي المتداولة حاليا في أوروبا وبلاد المغرب العربي وتعرف خطأ لدى العامـــة بالارقام الانجليزية أو اللاتينية) وعمم ونشـــر استخدامها ٠ وقد ألف الخوارزمي كتاب عن علم الحساب يعتبر من أوائل الكتب في هذا الفرع من العلوم وقد ترجم كتابه الى اللاتينية وظل لقرون يستخدم كمرجع للرياضيين ٠ وقد خلد اسم الخوارزمي حيث تعرف طريقته في الحساب باسم Algorithm وكان البابا سلفستر قد أصدر قانونا في بداية الالف سنة الميلادية الثانية لكي يبدأ استخدام هذه الارقام الحسابية العربية بأوروبـا ٠

ولعلنا جميعا ندرك الآن مدى السهولة التي نتداول بها الارقام الحسابية العربية اذا ما قارناها بحروف الهجاء • وقد تبع استخدام هذه الارقام استخدام الصفر والعلامة العشرية حيث يرجع الفضل في استخدامهما للعالم العربي الكاشي • ففي مقالته « الرسالة المواتية » تتجلى العلاقة بين محيط الدائرة ونصف قطرها وحسب قيمة « ط » الى ستة عشر علامة عشرية • كما استخدم العرب علامة الجذر وعلامة النسبة وغيرها من الاشارات •

ب ـ الجبـــر :

يعتبر الخوارزمي مؤسس هذا الفرع من العلوم الرياضية وكتابـــه « الجبر والمقابلة » شاهد على ذلك • وقد ظلت كتبه في الحساب والجبر تستخدم كمراجع في اوروبا لقرون طويلة • ومن المعروف أن العرب قد قدموا حلولا للمعادلات الجبرية من الدرجتين الثانية والثالثة وكذلك المعادلات من الدرجة الثانية ذات المجهولين ومعادلات الاس العالي كما قدم الخوارزمي حلولا للمسائل الهندسية باستخدام المعادلات الجبرية • كما استخدم العرب علم الهندسة في حل المعادلات الجبرية وبذلك وضعوا أسس علم الهندسة التحليلية كما مهدت أعمالهم لعلوم التفاضل والتكامل • وقد أدت عمال ابن يونس وابن حمزة الى اكتشافاللوغاريتم حيث شاع استخدامه في اوروبا على أيدي نابير وبرجس ولعل كل هذه الاعمال الهامة تعكس مدى مساهمة الرياضيين العرب في وضع أسس العلوم الحديثة للرياضيات ونذكر منهم الخوارزمي ، أبو كامل ، قسطا بن لوقا ، سنان بن أبي الفتح ، بهاء الدين الاميلي ، غياث الدين جامشيد ، الخشان ، الكوهي ، الخيام ، وثابت ابن قرة وغيرهم •

جـ ـ حساب المثلثات :

كان للعرب الفضل في بدء الدراسة العلمية المنظمة لهذا الفرع الهام من العلوم الرياضية حيث وضعوا أسسه العلمية • وأدخـل الرياضيون العرب مصطلح الجيب والظل وأوجدوا العلاقـة بينهما وحسبوا قيمتها العدديـة واستنبطوا العلاقات الرياضية التي تربطهما وعملوا البرامج الرياضية لحساب الجدوال المثلثية • ويعكس كتاب البيروني مدى حنكته وتمكنه من هذا الفرع حيث أن له عديداً من الابحاث كتعيين قيمة الوتر والقوس والمقاطع الدائرية والعلاقة بين جيوبهم • ومن العلماء العرب الذين خلد التاريخ اسمهم في هذا العلم جابر ابن الافلح والتبريزي والتوسي والبوزجاني والبيروني والخازن •

٢ ـ العلوم الفلكيـة :

ليس من السـهل حصر أعمال الفلكيين العرب • فقد حققوا كثـيراً من الانجازات الرائعة من الممكن أن تفرد لها جلسات مؤتمر كامل • وللاهمية

أستطيع القول أن الفلكيين العرب تعاملوا مع علم الفلك كأنه فرع من فروع العلوم الرياضية يعتمد على المشاهدات الفلكية والحسابات الرياضية • وقد استخدم الفلكيون العرب الاجهزة العلمية من تصميمهم لرصد الظواهر الفلكية حيث ساعدتهم على حساب الجداول الرياضية الفلكية • وهنا يجدر بنا أن نذكر بعض الاسماء اللامعة للفلكيين العرب :

١ ــ ثابت بن قرة ، ٢ ــ سهل بن بشار ، ٣ ــ الفرجاني ، ٤ ــ البلقاني ، ٥ ــ اللندي ، ٦ ــ الكوهي ، ٧ ــ حنين بن اسحق ، ٨ ــ البوزاني ، ٩ ــ الخازن، ١٠ ــ العبادي ، ١١ ــ البعلبكي ، ١٢ ــ البيروني ، ١٣ ــ البطاني ، ١٤ ــ التونسي ، ١٥ ــ الخيشي ، ١٦ ــ ابن الهيثم ، ١٧ ــ الصوفي ، ١٨ ــ ابن طفيل •

لقد بنى العرب المراصد في بغداد وعلى جبل المقطم بالقاهرة وفي عصر المأمون تم حساب محيط الكرة الارضية ب ٢٤ ألف ميل وتعتبر هذه احدى الانجازات الرائعة لابن موسى • وترجم ثابت بن قرة كتاب المجسطي في الفلك لبطليموس كما لخصه ليسهل درسه وتدريسه • وسجل أيضا حركة الشمس وحسب السنة الشمسية وكانت حساباته دقيقة للغاية حتى أن الفرق بينهما وبين القياسات الحديثة هي نصف ثانية فقط •

ويعتبر الصوفي من أعظم الفلكيين العرب حيث ألف عدة كتب في هذا المضمار « كالكواكب ، التذكرة ، مطارح الاشعاع » • كما سجل ظواهر فلكية كثيرة لآلاف النجوم ورسم صورة المجرات حتى أن أعماله تعتبر الفترة الانتقالية بين العصر البطلمي وعصر النهضة ، وحساباته أكثر دقة من حسابات العصر البطلمي وجداوله الفلكية وكتبه تعتبر حجة في علم الفلك •

وألف أبو سهل رستم الكوهي (القرن العاشر الميلادي) كثيرا من الكتب كما اخترع الاجهزة العلمية وسجل بها من مرصد بغداد كثيرا من القياسات الفلكية وحركة النجوم • وترجمت جميع أعماله الى اللاتينية • كما كتب الكندي عدة مؤلفات في علم الفلك من الناحية العلمية ولذلك يعتبر أحد ثمانية علماء في الفلك في العصور الوسطى ، والفرجاني رائد أيضا من رواد الفلك • وفي المغرب الاسلامي جاء ابن الافلح الاندلسي ليضع كتابه « الحياة » الذي انتقد فيه أعمال بطليموس الذي سطع نجمه في الاسكندرية عام (١٢٧ ــ ١٥١ م) • وأبو اسحق البطروجي تلميذ ابن الافلح ألف كتابه في الفلك الذي هز نظرية بطليموس • وترجم كتاب البطروجي للاتينية بواسطة ميخائيل سكوت في توليدو عام ١٢١٧ لينشر بعدها في كل مكان •

أما ابن يونس فقد كتب « زيج الحكيم » الذي حل محل الكتب التي قبله حيث يشمل كتابه ٨١ جزءا بجانب مقدمة طويلة • وترجم للفرنسية بواسطة كوسين ورصد خسوف القمر وكسوف الشمس في القاهرة عام ٩٧٨ م •

سجل ابن الخازن قياساته الفلكية الدقيقة في كتابه « ميزان الحكمة » الذي ترجم لعدة لغات وفي رأي سارتون يعتبر أحد أهم المؤلفات في الفلك في العصور الوسطى • وأيد ملاحظاته عن الجاذبية كقوة تجذب كل الاجسام التي تتجه للارض عند سقوطها • ولا ننسى أن نسجل أعمال البطاني الكثيرة حيث عمل جداول فلكية جديدة وصحح تقديرات مسار حركة القمر والنجوم الاخرى وناقش حركة النجوم في مساراتها وقارن بين التقويم العربي وكل من الاغريقي والفارسي والقبطي • كما شرح كيفية استعمال الاجهزة الفلكية المستعملة في عصره • وترجمت كتبه للاتينية ولغات أخرى ونشر كتابه « زيج الصبي » عام ١٨٩٩ م بواسطة فيللينو •

٣ ــ الفيزياء والميكانيكا :

يعتبر ابن سينا وابن الهيثم والبيروني والخازن من رواد علم الفيزياء وما زالت أعمالهم حتى الآن تحظى باعتراف علماء الفيزياء بالعالم • فقد سجل ابن سينا الاختلاف بين سرعة الصوت وسرعة الضوء وكتب ابن الهيثم ٢٤ كتابا في الطبيعة ويعتبر من أكبر الباحثين في علم البصريات وتتصف أعماله بارتباطها بالاستنتاجات المعملية وبذلك سبق بيكون في هذا المضمار • واشتملت دراساتــه على انكســار وانعكاس الضوء والبصريات وغيرهـا من الظواهر • وكانت أبحاث البيروني مركزة على علم الحركة وتوازن السوائل وقد ناقش الضغط واتزان السوائل وارتفاع الماء في الينابيع • وكتب ابن موسى أول كتاب من نوعه في علم الميكانيكا وعين مركز الجاذبية كما كتب الرازي وصفا تفصيليا لمشرات الاجهزة المعدنية والزجاجية المتداولة في عصره • وقد سبق الخازن تورشيللي في تسجيل الهواء كمادة لها وزن ، وأن له القدرة على رفع الاشياء مثل السوائل • كما لاحظ امكانية تطبيق قاعدة ارشميدس على الغازات كما هي مطبقة على السوائل وبذلك سبق تورشيللي وباسكال وبويل وغيرهم في هذه الابحاث • وأجرى الخازن أبحاثه على تعيين كثافة المواد واستخدم الكثافة كطريقة للتفريق بين الاحجار الكريمة من غيرها وأجرى بحوثا على مركز الجاذبية كما وصف بعض الاجهزة العلمية وشرح طريقة استخدامها • وقد قام البيروني بتعيين كثافة ثمانية عشر معدنا وكانت نتائجه مدونة لرابع رقم عشري ولا تفترق كثيرا في دقتها عن النتائج الحالية • وظلت كتب هؤلاء العظماء متداولة كمراجع علمية في أوروبا حتى نهاية القرن السابع عشـر •

٤ ـ الكيميـــاء :

لقد سيطر الفكر اليوناني على رواد الكيمياء الاوائل لفترة من الزمن حيث ظل البحث في بدايته ممركزا حول تحويل المعادن الرخيصة كالرصاص والنحاس الى ذهب وكذلك تحضير حجر الفلاسفة وأكسير الحياة الذي يشفي من كل الامراض ويطيل عمر الانسان ٠ وهنـا يجب أن نذكر بالفخر بأن الكندي وابن سينا لم يؤمنا بامكانية تحويل المعادن لبعضها وذكر الكندي أنها مضيعة للوقت أن نكرس دراسة الكيمياء للحصول على ذهب ٠ ورغم أن جابر بن حيان يعتبر أبو الكيميائيين العرب الا أنه يعتبر رائدا من رواد الكيمياء الحديثة حيث أظهر أهميـة اجراء التجارب العمليـة في الكيميـاء كما بنى استنتاجاته على المشاهدة العملية الدقيقة ٠ فمثلا وصف بدقة طريقة تحضير السنبار من الزئبق والكبريت كما عرف كثيرا من عمليات الكيمياء الحديثة مثل التبخير والتقطير والترشيح والاذابة والتبلور والتكلس كما حضر بعض المعادن باختزال أكاسيدها ٠ وظلت كتبه المترجمة للاتينية متداولة في أوروبا لعدة قرون واستعان بها برنلوت وكب وكراوس وسارتون ٠ ويعتبر العلامة أبو بكر الرازي رائدا من رواد الطب والكيمياء ويعتبر مؤسسا لعلم الكيمياء الحديث ، فقد صمم الاجهزة ووصف بالتفصيل أكثر من عشرين جهازا زجاجيا ومعدنيا ٠ وانعكست معلوماته في الكيمياء على أعماله الطبية حتى أنه علل سبب شفاء الانسان باستخدام الدواء هو كنتيجة لحدوث تفاعل كيميائي بجسم الانسان ٠ وقد حضر الرازي حمض الكبريت وأسماه (زيت الزاج) كما حضر الكحول بتقطير محلول السكر المتخمر واستخدامه بعد ذلك في تحضير بعض الادوية كما قام بتعيين كثافة بعض السوائل على ميزان خاص ٠

وكتب المجريتي كتابه في الكيمياء (القرن العاشر الميلادي) حيث ترجم للاتينية ويعتبر الآن أهم مصدر لتاريخ الكيمياء ٠ وهنا يجدر بنا أن نذكر أيضا أسماء العلماء العرب ، مثل ابن البيطار والبغدادي وابن ميمون وابن النفيس والزهراوي الذي خلد التاريخ أسماءهم في علم الكيمياء ٠

٥ ـ علم النبات :

حرص العلماء العرب على دراسة النباتات وكان الدافع لذلك استخدم النباتات والاعشاب أو مستخلصاتها في العقاقير الطبية ٠ وبدأ العرب بدراسة النباتات وبيئتها والظروف المناخية التي تساعد على اكثارها ثم تبع ذلك من دراسة طرق تحضير الدواء والجرعة المناسبة وطريقة الاستخدام وهو ما يعرف حاليا بعلم الادوية ٠

وقد كرس ابن سينا مجلده الثاني من كتابه « قانون الطب » لدراسة كثير من النباتات المعروفة في عصره من أشجار وأعشاب ونباتات زهرية وطحالب

كما وصف بيئة النباتات وأحسن الظروف التي تنمو فيها وفرق بين النباتات البرية والمستزرعة كما دون ظاهرة اعطاء بعض النباتات لمحصول جيد في عام ومحصول ضعيف في العام الذي يليه ووصف أشكال النباتات بدقة كما هو معروف حاليا بعلم الشكل الظاهري للنبات (المورفولوجي) • خصص أيضا في كتابه « الشفاء » جزءا لدراسة النباتات حيث دون كثيرا من النظريات والافكار الخاصة بالتكاثر في النباتات كما شرح طريقة حصول النباتات على غذائه •

ويعتبر ابن البيطار من أشهر علماء الاعشاب وحاز على قلادة أحسن طبيب في سورية وكتب كتابين في هذا الموضوع الاول واسمه « الجامع في مفردات الادوية والاغذية » والثاني « المغني في الادوية » • وفي الكتاب الاول ذكر طبيعة الادوية ، طريقة تركيبها ، استخدامها وضررها ومضاداتها وطرق تحضير الدواء من النباتات والادوية الاخرى التي يمكن استخدامها كبديل في حالة عدم وجوده وذكر أسماء النباتات بأكثر من لغة ومئات من الاعشاب ورتبهم أبجديا •

وقد قام داود الانطاكي بعمل تقييم لاعمال من سبقوه في علم النبات وكتب كتابه « تذكرة أولي الالباب والجامع للعجب العجاب » ، ودون أسماء النباتات بأكثر من لغة ومواطنها وأحسن وقت لجمعها مع التأكيد على النباتات الطبيـة •

٦ ـ علم الحيوان :

تركزت دراسات علم الحيوان حول وصف الحيوانات باسهاب وتقسيمها الى أنواع مثل تلك التي تمشي أو تزحف أو تطير أو تعوم • ودرس العلماء العرب بالتفصيل سلوك الحيوانات وتأثير البيئة عليها وقاموا بتشريحها وسجلوا مقارنات بين أجهزتها المختلفة • فوصف ابن سينا في كتابه « الشفاء » أنواع العضلات التي تتحكم في حركة الامعاء ودور كل من العضلات الطولية والعرضية والمائلة مما يؤكد ممارسته لعلم التشريح حيث أن هذه النتائج الهامة والمدونة في كتابه يمكن ملاحظتها فقط بالعدسة المكبرة أو بالميكروسكوب • كما وصف تفصيليا أنواعا كثيرة من الحيوانات والطيور • وشرح أيضا أنواع العظام والغضاريف والشعيرات الدموية من أوردة وشرايين وكذلك الانسجة والاربطة والحركة الارادية وغير الارادية • وذكر التشريح الوصفي والمقارن بين الطيور والاسماك والحيوانات وأجهزتها التنفسية والتناسلية ودورتها الدموية وكيفية هضم الغذاء •

ووصف القزويني في كتابه « عجيب المخلوقات » مئات الحيوانات كما

صنفها لاقسام مختلفة ووصف أشكالها وكيف تجمع غذاءها وتخزنه للشتاء وكيف تبني بيوتها في أشكال هندسية رائعة كما هو معروف الآن عن النحل ·
وابن صيدا أعطى معلومات تفصيلية عن الخيل في ستة مجلدات · وفي مجلدين آخرين وصف الجمال والخراف والماعز والاسود والكلاب والطيور والنحل والنمل والعناكب مع الاشارة الى أعضائها وسلوكها ·

أما الجاحظ فقد قسم الحيوانات الى أربعة أقسام ثم صنف الحيوانات بكل قسم وخصص مقالا خاصا عن أسنان الحيوانات وقد سجل الجاحظ أعماله في سبعة مجلدات ضخمة ويعتبر الجاحظ باحثا علميا معمليا من الطراز الاول حيث قام بتشريح كثير من الحيوانات وسجل تأثير الكحول على سلوك بعض الحيوانات وكذلك تصرفها بعد حجزها داخل ناقوس زجاجي ولذلك يعتبر من أحسن الباحثين في علم وصف الحيوان وسلوكه وتشريحه المقارن · وقد اشتملت مؤلفات الدميري في علم الحيوان على فهرس أبجدي لاسماء الحيوانات · ووصف مئات الطيور والحشرات والزواحف كما شرح البيئة الملائمة لمعيشة كل منهم ·

والآن وبعد استعراضي الموجز لاعمال علماء العرب في بعض ميادين العلم والمعرفة لعله يكون قد اتضح لنا جميعا مدى ما قدمت حضارتنا ومدى مساهمة علماء العرب الافذاذ في بعث الحضارة الاوروبية الحديثة · ولذلك يجب علينا نحن الاحفاد أن نصل ماضي الامة بحاضرها · واجبنا الآن أن نحصر تراثنا فهناك ما يقرب من نصف مليون مخطوطا عربيا مدونا في مكاتب العالم ناهيك عن الاعداد غير المدونة · يجب علينا أن نرصد هذا التراث ونسهل سبل نشره لكي يكون في متناول العامة والخاصة ليكون لنا هذا التراث نبراسا نهتدي به وقوة دافعة تحثنا على السير في نفس الطريق لنستعيد هذا المجد وحتى نستفيد من معاهد التراث الفائدة المرجوة من انشائها حتى لا تتحول الى مجرد مخازن لحفظ المخطوطات ودورا لحفظ الكتب ·

المصادر والمراجع

١ ـ مساهمة العرب في الثقافة الغربية ـ ا. س. عطية ـ مجلة الفن العالمي ، العدد العاشر ، صفحة ٦ ـ ١٩ (١٩٧٧) ٠

٢ ـ نظرة على الثقافة العربية ـ مجلة معالم اليونسكو ، صفحة ١ ـ ٢٨ (١٩٨٠) ٠

٣ ـ مساهمة العرب والمسلمين في عصر النهضة الاوربية ـ الشعبة القومية المصرية لليونسكو ، صدر عن الهيئة القومية للكتاب المصري (١٩٧٧) ٠

٤ ـ التكنولوجيا الاسلامية ـ د. أحمد يوسف الحسن و د. دونالد هيل ـ تحت الطبع بالاشتراك بين مطبعتي اليونسكو وجامعة كمبردج ٠

1 — Contribution of the Arabs to Western Culture. A. S. Atiya. Mundus Artium (A Journal of International literature and the Arts) Vol. X, No. 1, 1977 pp. 6 - 19.

2 — Arab Cultur in Perspective. Unesco Features. pp. 1 - 28 (1980).

3 — Islamic and Arab Contribution to the European Renaissance. Egyptian National Commission for Unesco. Issued by : Associated Institution for the Study and presentation of Arab Cultural Valmes.

General Egyption Book Organisation.

4 — " Islamic Technology " A short History .

Ahmed Y. al-Hassan and D. R. Hill in press (Unesco press in collaboration with Cambridge University press).

مشروع موسوعة المصطلحات العلمية العربية القديمة

الدكتور فايز الداية
كلية الآداب والعلوم الانسانية

ـ ١ ـ ان الباحثين في العلوم الحديثة يشتركون في تساؤلاتهم عن المصطلحات مع أولئك الذين يبذلون جهودهم في تاريخ العلوم عند العرب ، ذلك أن الواقع العلمي يطرح **مشكلة استيعاب اللغة العربية للالفاظ الاصطلاحية الدقيقة وترجمتها عن اللغات المختلفة مما يدون بـه العلم الحديث** . ويطلق بعض العلماء والمفكرين صيحات التحذير بأن الهوة تتسع مع مرور الزمن ـ رغم ما يقدم من مترجمات ومصطلحات ـ بين التقدم الفائق للامم في نهضتها المعاصرة وما عليه المؤلفات بالعربية ، ويرى هؤلاء أن الحل يتجلى في تدريس باللغات الاجنبية وقراءة للمصادر والمراجع بلغاتها ـ خاصة وأن عددا من القائمين على تحقيق ترجمات حديثة يستغلون الجهل باللغات الاخرى فلا يحسنون النقل ، أو ينسبون الى أنفسهم انجازات علمية أجنبية ـ .

ينهض في هذا الاطار الاهتمام **بالتراث العلمي العربي** ليكون جزءا من حل الاشكال المعاصر ، ولكنه محتاج بدوره الى ايضاح **قضية المصطلح** ، فالعاملون على نشر المخطوطات العلمية ينحتون في صخر لا يقدر عليه الا كل شديد قوي ، ولا نستطيع مطالبة الاجيال الجديدة من المهتمين بالتراث بانفاق الازمان الطويلة كل على حدة في ضبط ألفاظ العلوم وتدقيقها ، وانما يمكن أن يصنع معجم في كل باب من أبواب المعرفة ليخدم هذا المحقق في تاريخ العلم العربي ، وليترك مجالا أكبر للبحث في طبيعة هذا الجانب من جوانب العلم أو فروعه ، ومن ثم لاستخراج ما يمكن أن نفيد منه ـ وهو كثير في النبات والحيوان والتفاعل مع البيئة الطبيعية والاجتماعية ، وكذلك في ميادين الطب والصيدلة والعمارة والصحة العامة ـ في الحياة العملية المعاصرة ، ومن جهة أخرى نبني على معرفتنا هذه دراية بمؤثرات حضارية للنهضة العلمية ، وخبرة بكيفية صوغ المصطلح العلمي الدقيق في بابه والمفهم للعالم والمتعلم بيسر وسهولة . واذا ما وعينا الوعي العلمي بأسس لغوية وأخرى في جزئيات كل علم أمكننا أن ننطلق على نحو فيه السرعة والاستيعاب للمعارف العصرية ، فالمسألة تبدأ من تحصيل مرونة التعامل اللغوي ـ وهذا ينشط باتقان عدد من اللغويين

لمسائل في العلم وكذلك بلوغ عدد من الباحثين مرتبة من التحصيل اللغوي في باب **الدلالة** ــ وما وراء ذلك انما هو كم لا تضير كثرته الباحثين ولا تعوقهم ٠ ونسأل في هذا السياق كم من المصطلحات دخل اللغة الانكليزية أو اللغة الفرنسية أو الروسية في الثلاثين سنة الماضية ؟ ستكون الاجابة : مئات من تلك الالفاظ العلمية استحدثت في كل فرع من الفروع بل في كل طرف من الفروع ٠ اذن لم تكن تلك اللغات متضمنة المصطلحات وانما غنيت بها بفعل حسن الاستفادة **من قدراتها الاشتقاقية أو النحتية وكذا القياسية** ، والاوربيون يلجؤون الى الاصول اليونانية واللاتينية ــ ونحن لا ننسى أنهم انما يعودون في هذا الى أصولهم اللغوية عندما تعوزهم لغاتهم الحديثة ــ لخلق مركبات وصيغ للالفاظ العلمية ٠

وتستطيع **موسوعة المصطلحات العلمية العربية القديمة** أن تقدم ــ كما نرى ــ عونا في المجال العلمي المعاصر من خلال الربط بأصول البحوث العلمية القديمة ، وبمصطلحاتها ان كانت صالحة للتعبير عن مستحدثات جديدة ــ خاصة اذا ما حورنا فيها صرفيا أو كونا منها مركبات دالة على الجزئيات الحديثة باضافة صرفية ، وبالتدرب على حيوية اللغة العربية في خدمة البحث العلمي ، وهي التي وصلت الى أعماقه قديما والى أغوار التأمل الفلسفي ، وغطت الآفاق التي رآها الفلاسفة والمفكرون ببصائرهم وبصيرتهم ٠

ــ ٢ ــ اننا اذا نظرنا الى ما بين أيدينا من كتب اصطلاحية علمية فسنجد أنها(١) اما أن **تكون مترجمة** عن الكتب المعجمية والاصطلاحية الاجنبية ، أو (٢) **تركب من أصول عربية قديمة تمزج بمصطلحات حديثة وأخرى مترجمة** ٠ هذان ضربان : الاول منهما ينهجه مكتب تنسيق التعريب بالرباط ، خاصة في تجاربه التي يبدأ بها مشروعاته التعريبية ، والآخر قدم فيه مجمعا اللغة العربية بدمشق والقاهرة كتبا من مثل : معجم المصطلحات الزراعية للامير مصطفى الشهابي ، **ومعجم المصطلحات الاثرية** ليحيى الشهابي (بدمشق) **والمعجم الفلسفي** (بالقاهرة) ٠ وهناك الجهود التي قدمت **المعجم الطبي العربي ، والمعجم الجغرافي** ٠ لكننا نقف أمام هذه الاعمال ــ وكلها يحمد العمل الطيب فيها لانه في كل المقاييس ، يعد خطوة تؤدي الى ما بعدها من تجويد واحكام ــ فتواجهنا مشكلتان : الاولى منهما هي **الاستيعاب أو الشمول** المفترض في كل باب علمي وههنا تتفاوت الاعمال من غير أن تبلغ المستوى المنشود في الدائرة الواسعة للعلوم ، ولئن استوفي عظم باب من الابواب لقد يظل سائرها بحاجة الى التكملة ، والمشكلة الاخرى هي **افتقاد الترتيب التاريخي مع كل مصطلح من تلك المصطلحات** ، لذلك لا يعين الباحثين في حقبة تاريخية معينة دليل واضح لفك مضطرب الكلمات العلمية أو تأويلاتها في الزوايا الدقيقة الهامة ٠

وأود أن أذكر أننا نعنى في هذا البحث بمسائل العلوم الطبيعية والطبية والرياضية والفلكية وما يتصل بها ، لكننا نعرج على ذكر الفكر والفلسفة وأطراف من العلوم الانسانية لاشتمال المصادر القديمة عليها في بعض الحالات ٠

وسعينا انما يستفيد من اكتشاف المشاكل العلمية في عالم الاصطلاح ليصل الى الموقع الافضل ، لذا (١) **فالهدف الاول** للموسوعة هو خلق أرضية ـ تنمو باطراد بفضل نشر المزيد من كتب العلم العربي ورفد الاصل الموسوعي مما يوسع دائرة اللغة العلمية العربية ـ من المصطلحات العربية القديمة (٢) **والهدف الآخر** هو توزيع شروح المصطلح الواحد على الحقب التاريخية تبدأ بالاقدم وتتجه نحو الازمنة الحديثة والمعاصرة ، وتميز الفروق على نحو واضح طباعيا ٠

ـ ٣ ـ ثمة محاور خمسة ينبغي على العاملين على انشاء موسوعة المصطلحات أن يتابعوها لتتكامل فيما بينها كلما دعت الحاجة الى توضيح وتدقيق :

١ ـ المحور الاول مجموعة كتب الاصطلاحات العلمية العربية :

١ ـ **احصاء العلوم** للفيلسوف الفارابي أبي نصر محمد بن محمد بن طرخان ٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ٠

٢ ـ **مفاتيح العلوم** لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب ت ٣٨٦ هـ ٠

٣ ـ **معيار العلم** للغزالي محمد بن محمد بن محمد ٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ٠

٤ ـ **التعريفات** للسيد الشريف الجرجاني ٧٤٠ ـ ٨١٦ هـ ٠

٥ ـ **الكليات** لابي البقاء الكفوي ١٠٢٨ ـ ١٠٤٩ هـ ٠
(معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ٠

٦ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون** لمحمد بن أعلى التهانوي ١٨٦٢ م ٠

٧ ـ **أبجد العلوم** لصديق حسن خان ١٨٦٦ م ٠

وهذه الكتب تصنف ألفاظ العلوم اما في أبواب « مفاتيح العلوم ، احصاء العلوم » مثلا أو على شكل « ألفبائي » كالتعريفات والكليات ، وتتنوع اهتماماتها في وجوه العلم النظري والتطبيقي ، وفي آفاقه المادية والانسانية والفكرية ، وهي تصلح أرضية للموسوعة ويمكن الاقتصار على بعض ما في هذه الكتب ، واجراء التنظيم التاريخي على مواده ٠

٢ ـ المجموعة الثانية من الكتب في المحور الثاني الذي يحمل عنوان : الكتب العلمية الاختصاصية المفردة والمركبة :

فمن الكتب العلمية المركبة :

١ ـ الشفـاء

للشيخ الرئيس ابن سينا فهي تتضمن علوما عدة فيها الطبيعة والفلك والنفس والرياضة ، والمنطق وأبواب فلسفية (الالهيات ··) اضافة الى أمور تتصل بنظام خاص للمنطق كما وصل الى الفلاسفة المسلمين (فن الشعر والخطابة) ·

٢ ـ رسائل اخوان الصفاء

٣ ـ القانون

لابن سينا فهو يتناول الامور الطبية والتشريحية والدوائية ·

٤ ـ الحاوي في الطب للرازي ·

ومن الكتب المفردة :

٥ ـ كتب الحيل « الميكانيك » : الحيل لاولاد موسى بن شاكر ، وللجزري·

٦ ـ كتب الجغرافية والملاحة : كتب ابن ماجد ، وسليمان المهري ، والمقدسي والادريسي ·

٧ ـ كتب الحساب والهندسة : منها مراسم الانتساب في علم الحساب : ليعيش بن ابراهيم الاموي · ·

٨ ـ كتب الفلك والهيئة ، وكتب النبات والحيوان والفلاحة ···

ونحن بذكرنا المصنفات انما نضرب أمثلة وليس قصدنا الى احصائها وتبويبها ، وان العمل فيها يوصل الى مجموعات من المصطلحات تؤكد ما جاء في قوائم الكتب المذكورة في المحور الاول ، وتعطي الفرصة لتحديد زمن المصطلح والموضع الذي استعمل فيه ، والملحوظ أن قدرا طيبا قد طبع من التراث العلمي ، وتنبه العرب الى ما كان في أوربة من مصنفات علمية ، ويبقى أمام الدارسين غربلتها وبلورة ألفاظ العلم مع شرحها الموجز ·

٣ ــ ثمة محور ثالث يساعد في اضاءة جوانب من العمل في الموسوعة وهو الكتب المتضمنة أسماء المؤلفين وأسماء المؤلفات التي قدموها في حقبة معينة أو في أزمنة عدة ، أو تقسيمات العلوم وفروعها :

١ ــ **الفهرست** لابن النديم (ألف الكتاب ٣٧٧ هـ) ٠

٢ ــ **احصاء العلوم** للفارابي (وهو مشترك بين تقسيم العلوم ومصطلحاتها) ٠

٣ ــ **رسالة في أقسام العلوم العقلية** لابن سينا ٤٢٧ هـ ٠

٤ ــ **ارشاد القاصد الى أسنى المقاصد** لشمس الدين محمد بن ابراهيم ابن ساعد السنجاري ٧٤٩ هـ ٠

٥ ــ **مقدمة ابن خلدون** (عبد الرحمن بن محمد) ٨٠٨ هـ ٠

٦ ــ **مفتاح السعادة ومصباح السيادة** لاحمد بن مصطفى طاش كبري زاده ٩٦٨ هـ ٠

٧ ــ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** لمصطفى عبد الله كاتب جلبي حاجي خليفة ١٠٦٨ هـ ٠

وهذه المجموعة تهدي الى صحة أسماء المؤلفين وما قدموه ، وقد تقدم ترجيحا في موقف يكتنفه لبس أو اشكال يحتاج الى توثيق ، أو ترشد الى علاقات بين فروع للعلم ٠

٤ ــ المحور الرابع يتمثل في عدد من المعاجم اللغوية يصطلح عليها باسم : معاجم المعاني لانها ترتب وفق أبواب في كل منها تسرد الالفاظ المتداولة فيه من مثل : خلق الانسان ، وصفة الامراض والادواء ، تفصيل أسماء الحيَّات وأوصافها ٠٠٠ ومن أهم الكتب في هذا المحور :

١ ــ **التلخيص في معرفة الاشياء** لابي هلال العسكري (٣٩٥ هـ) ٠

٢ ــ **فقه اللغة** للثعالبي (٣٥٠ ــ ٤٣٠ هـ) ٠

٣ ــ **المخصص** لابن سيدة (٤٥٨ هـ) وهو أوسعها وأكثرها شمولا ٠

وميزة هذه الكتب أنها تشرح أو تؤكد مصطلحات وجوانب في العلوم ، أو أنها تعطي أرضية تبنى عليها جزئيات كل علم من صفات المواد وتحديدها وتعريفها ٠

٥ ـ المحور الخامس وفيه صنوف من الكتب تعد معينا في أثنـاء تصنيف الموسوعة تلك هي مصنفات « أدب الكاتب » اذ تصنف فيها أساسيات النشاط الاقتصادي والاداري والثقافي لان الكتاب تمر بهم شؤون الدولة والامارة ولا بد من استعمال الكلمات في دلالتها الصحيحة ، وفي قسماتها الاصطلاحية لفهم الاخبار ومعرفة التوجيهات ومن أهم تلك المصنفات « **أدب الكاتب** » **لابن قتيبة الدينوري** ٢٧٦ هـ وكذلك نجد بعض المؤلفات التي قد تورد ما يساعد على التدقيق في الدلالة وبيان المساحة التي تغطيها تحت عنوان « **كتب الفروق اللغوية** » ومنها مؤلف لابي هلال العسكري ٣٩٥هـ « **الفروق اللغوية** » ، ولابي الطيب اللغوي (القرن ٤ هـ) ٠

وتعين في هذا المجال أيضا كتب المعرب والدخيل لانها تشتمل على الالفاظ الاجنبية أو المحورة في وجوه الحياة والعلم من مثل : « **المعرب** » للجواليقي ابي منصور (موهوب بن أحمد) ٤٦٥ ـ ٥٤٠ هـ ، و « **شفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدخيل** » لشهاب الدين أحمد الخفاجي ٩٧٧ ـ ١٠٦٩ هـ ٠

ـ ٤ ـ أما خطة العمل في الموسوعة فانها تنقسم الى مرحلتين : في الاولى جمع ركيزة من الكتب التي توفرت على تصنيف المصطلحات العلمية ، وكذلك تركز بعض الالفاظ العلمية وشروحها من الكتب الاختصاصية القديمة وهذا يرتب في أبواب تخضع لاقسام العلم عند القدماء أساسا ثم لتقسيمات لنا تستدرك ما لم يكتمل عند العلماء القدماء ٠

وينتظم هذا العمل التتبع التاريخي فيذكر المصطلح الاقدم ثم تتابع مفهوماته بحسب العصور متصلة بأصحابها ومؤلفاتهم ، وههنا تكمل عمل بعض الباحثين التراثيين الذين صنعوا كتبا فيها اصطلاحات العلوم « الخوارزمي الكاتب » في : مفاتيح العلوم ، « والقوصوني » في : قاموس الاطباء وناموس الالبـاء ٠

وأريد أن ألفت الانتباه الى مسالة ذات أهمية وهي تتعلق بدراسة أعمال موجزة قدمها علماء في الطب والصيدلة والطبيعة والميكانيك وتصلح مادة لتعريفات مركزة أي : مصطلحات ، والمثال القريب ما أعطاه ابن سينا في كتابه الموجز « النجاة » فهو مرحلة بين الكتاب العلمي وكتاب المصطلحات ٠

أما المرحلة الاخرى : فهي تكوين معجم يرتب ألفبائيا بحسب الاصول اللغوية الثلاثية والرباعية أو بحسب أوائل الكلمات الاصطلاحية وهذا النهج عملت به بعض المؤلفات القديمة في هذا الباب من مثل «التعريفات» للجرجاني٠

ونحافظ في الموسوعة ههنا على التتابع التاريخي والشرح الوافي بتركيز ،

اضافة الى استحضار أصل الدلالة العامة في أول الكلام على كل مصطلح ، ثم تأتي الدلالة العلمية الخاصة في سياقها العلمي ٠

وقد يكون مجديا الجمـــع بين هذين النوعين من التصنيف الموسوعي للاصطلاحات العلمية العربية مثلما كان الشأن في المعاجم اللغوية ذاتها فثمة معجمات صنفت بحسب أصول الكلمات : اللسان ، القاموس ، أساس البلاغة تاج العروس ، الصحاح ، مقاييس اللغة ، ثم في العصر الحديث ، متن اللغة للعاملي والوسيط من نتاج مجمع اللغـــة العربية بالقاهرة وهناك معجمات المعاني التي ذكرنا منها : المخصص لابن سيده ، وفقه اللغة للثعالبي، والتلخيص في معرفة الاشياء للعسكري ، ومبادىء اللغة للاسكافي ٠

فالدارس في العلوم القديمة ، أو في تاريخها تستوقفه كلمات بأعيانها متطلبة شرحا وتوضيحا ، أو ضبطا وتوثيقا في حروفها وصوغها لتمتاز مما سواها وههنا تسعفه الموسوعة المرتبة بحسب الالفاظ (الاصول ، أو المصطلح مع زياداته الصرفية في أوله ووسطه وأخره) ليراجعها ٠

وهنالك حالات يبحث فيها الدارس عن قضايا ومشكلات ويخطر في ذهنه صور أو تواجهه جزئيات يسعى ليجد أسماءها ، أو مصطلحات تلائمهـا ، فيهرع الى هذا الباب من أبواب العلوم العربية أو ذاك يتفحصه الى أن يجد بغيته أو ما يقرب منها ٠

ويظهر لنا في هذا الموقع من دراستنا أن فهرسة الكتب العلمية العربية سواء ما صدر بعناية المستشرقين أو ما يعنى به الباحثون العرب هي التي ستعين على استكمال المصطلحات العلمية شيئا فشيئا ، وهذه المهمة تحتاج الى دربة وخبرة عند المحققين وعند مجموعات من المهتمين بتنمية الموسوعة العلمية العربيـــة القديمة ٠ ذلك أن الواحد من هؤلاء يفرد المصطلح وما يشرحه سواء كان في موضع واحد من الكتاب أو في مواضـع عـــدة منه ما دامت المعارف الموضحة لابعاده متكاملة غير متضاربة (بحسب اختلاف السياق المستخدمة فيه) ٠

ـ ٥ ـ أقدم في هذه الفقرة صورة عن تجربة تطمح الى أن تشكل أرضية تلك الموسوعة العلمية العربية التي تغنى فيما بعد بحسب المنهج الذي رسمناه في الفقرات السابقة ٠

لقد اعتمدت أصلين من كتب تصنيف العلوم ومصطلحاتها هما : « احصاء العلوم » للفارابي ٣٣٩ هـ محمد بن محمد بن طرخان أبي نصر ، وكتاب « مفاتيح العلوم » لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب ٣٨٧ هـ ، ثم استعنت بمواد من عملين آخرين هما : « النجاة » لابن سينا ٤٢٧ هـ ،

و « معيار العلم » للغزالي ٥٠٥ هـ ٠ وقسمت كذلك مادة اصطلاحية موجزة ذات أهمية تاريخية وهي « رسالة الحدود » للكندي الفيلسوف يعقوب بن اسحاق المتوفي ٢٦٠ هـ ٠

واتخذت ما قدمه الخوارزمي الكاتب محورا أساسيا في هذه الموسوعة ، ثم اتجهت لأرتب ما ذكره الفارابي حول كل علم ، وأضعه سابقا وذلك لامرين : **الاول** : لان الفارابي صاحب الكتاب الاول تاريخيا ، **والآخر** : لاننا نستطيع أن نرى بسطا مجملا لبعض العلوم مع مصطلحات لها ومن ثم تورد الكلمات الاصلاحية على نحو موسع نسبيا (وتقدم كتاب الكندي في قسم الفلسفة لسبقه)٠

وخصصت الاستفادة من ابن سينا في القسم المتعلق بـ « النفس » وقسم مما في « القانون » ، وجئت بالجزء الذي أفرده الغزالي للمصطلحات العلمية الضرورية في « معيار العلم » في الالهيات والطبيعيات ، والرياضيات (وهي قليلـــة) ٠

وفي عملي كنت أدقق وأحقق ما ورد من ألفاظ في كتب العلوم المذكورة اضافة الى المعاجم « اللسان ، المخصص ، فقه اللغة » ٠

ويشتمل « احصاء العلوم » على مجموعة يذكرها الفارابي فيقول : « قصدنا في هذا الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علما علما ، ونعرف جمل ما يشتمل عليه كل واحد منها ، وأجزاء كل ما له منها أجزاء ، وجمل ما في كل واحد من أجزائه ٠ ونجعله في خمسة فصول : الاول : علم اللسان وأجزائه ، والثاني في علم المنطق وأجزائه ، والثالث في علوم التعاليم وهي : العدد والهندسة ، وعلم المناظر وعلم النجوم التعليمي وعلم الموسيقى وعلم الاثقال وعلم الحيل ، والرابع : في العلم الطبيعي وأجزائه ، وفي العلم الالهي وأجزائه ، والخامس : في العلم المدني وأجزائه ، وفي علم الفقه ، وعلم الكلام » ٠

أما كتاب مفاتيح العلوم فقد تضمن قسمين وكل منهما يستوعب عددا من العلوم :

القسم الاول : وفيه علم الفقه ، والكلام ، والنحو ، الكتابة ، والشعر ، والعروض ، والاخبار ٠ وكل علم يتفرع الحديث عن مصطلحاته الى فروع جزئيـــة ٠

القسم الثاني : وفيه الفلسفـــة . والمنطق ، والطب ، وعلم العـــدد ، والهندسة ، وعلم النجوم ، والموسيقى ، والحيل ، والكيمياء ٠

ولئن كان لعملي في هذه الموسوعة والمركزة من قيمة لقد تتمثل في وضع لبنات التوثيق الدقيق لمصادر المصطلحات في مصنفات معروفة يمكن الرجوع اليها لمزيد من التمحيص والربط التاريخي (وهي اما معجمات قديمة وكتب تصنيف أو كتب العلوم الاختصاصية ذاتها) بدلا من النظر في مصطلحات يقال انها قديمة وتراثية ولا يعرف لها نسب صحيح ودقيق ٠

ويتطلع هذا الجهد الى متابعة الدارسين واضافاتهم بمساعدة المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم ، ومعهد التراث العلمي العربي بحلب ٠

ولقد آثرت الاختصار ولم أورد ثبتا بالكتب في آخر البحث لان طبعاتها متعددة في غالب الاحيان ، وقد رصدتها بالتفصيل في الموسوعة التي أقوم بطبعها بدمشق ٠

الدكتور فايز الداية
كلية الآداب والعلوم الانسانية
بجامعة حلب




al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

محتويات الكتاب

كلمات حفل الافتتاح

أبحاث الندوة الخاصة بابن أبي أصيبعة

أبحاث تاريخ الطب

أبحاث العلوم الاساسية

أبحاث العلوم التطبيقية

الابحاث العامـــة